

محدل لأفرر لأعدر للناجي



المُحَلِّق الكامِل. والرحمة المهداة قبسياك نورانية .. ومعجزاك حسِية

الن اشر مكن بتروهيب ١٤ شايع الجهودية . عابدين العامرة - تليفون ٢٩١٧٤٧

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع الحقوق محفوظة

مطبع: المميرة ۱۳ شاع شنن- عابري ت ۳۹۱۰۸۱۷

بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾. الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾. « صدق الله العظيم »

مِنَ البُردَةِ المباركة

 أعْيا الورَى فَهُمْ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى كَالشَّمْسِ تَطْهَبُرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدِ وَكُيْفَ يُسِدُرِكَ فِسَى الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ وَكُيْفَ يُسِدُرِكَ فِسَى الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ فَمَبُلَسِعُ العِلْسِمُ فِيهِ أَنَّهُ بَشَسِرٌ وَكُسلُ آي أَتَى الرُّسُلُ الكرامُ بِهَا فَإِنِّسِهُ أَنَّى الرُّسُلُ الكرامُ بِهَا فَإِنِّسِهُ مَصَّلُ هُمْ كُواكِبُها فَإِنِّسِهُ فَضَلْ هُمْ كُواكِبُها فَإِنِّسِهُ فَاللَّهُ فَاللَّهُ فَاللَّهُ فَلَقُ لَا اللَّهُ فَلَقُ بَسِسَى ذَا نَسَهُ خَلُقُ كَالزَّهُ مِن مَنْ جَلالتِهِ كَالزَّهُ مِن جَلالتِهِ كَالنَّهُ مَ وَهُمو فَرْدُ ، مِنْ جَلالتِهِ كَانَّهُ مَا اللَّوْلُولُ المَكْنُسُونُ فِي صَدَفَ كَانَّهُما اللَّوْلُولُ المَكْنُسُونُ فِي صَدَفَ كَانَّهُما اللَّوْلُولُ المَكْنُسُونُ فِي صَدَفَ كَانَّهُما اللَّوْلُولُ المَكْنُسُونُ فِي صَدَفَ كَانَا مَا اللَّوْلُولُ المَكْنُسُونُ فِي صَدَفَ كَانَا عَلَيْهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ المَّا اللَّوْلُولُ المَكُنُسُونُ أَوْلُ اللَّهُ الْمُعُولُولُهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُ اللَّهُ الْمُعْلَمُ اللَّهُ ا

« الإمام البوصيرى »

* * *



مقدمة

إنَّ الحمد للَّه .. نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره .

ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. مَن يهد الله فلا مضل له ، ومَن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وحبيبه ، وخيرته من خلقه .. بعثه الله على حين فترة من الرسل . فبلغ الرسالة وأدُّى الأمانة .. ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده .. وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فاللُّهم صَلٌّ عليه وعلى آله وصحبه ، ومَن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسلمُونَ ﴾ (١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اِتَّقُوا ۚ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَفْسِ وَاحِدَةً وَخَلَقَ مِنْ نَفْسِ وَاحِدَةً وَخَلَقَ مِنْهُمَا زَوْجَهَا وَبَثُ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثيراً وَنَساءً ، وَاتَّقُوا ْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهَ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (٢) .

⁽۱) آل عبران : ۱.۲

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزا ً عَظيماً ﴾ (١)

وبعد ..

من الناس من ينكر وجوب العمل بالسنّة ، ويرى الاكتفاء بالقرآن الكريم .. ونسى هؤلاء - أو تناسوا - قول الرسول ﷺ : « لا ألفين أحدكم متكناً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، فيقول : لا ندرى ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » (٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: « أيحسب أحدكم متكناً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرَّم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ، ألا وإنى - والله - قد أمرت ووعظتُ ، ونهيتُ عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر » (٣)

أى فى العدد أو التفصيل والوضوح كأحكام الصلاة والزكاة بالنسبة للأمر المجمل بوجوبهما ..

ومن الناس من ينكر المعجزات الحسية التي جاءت بها كتب السيرة – إن لم يكن ينكر أغلبها – بحُجِّة تحكيم العقل ، وأن الناس قد درجوا – من وحي العاطفة – على إضفاء الكثير من المبالغات على عظمائهم ، وأفاضوا في اختراع المواقف والأحداث لهم !!

حتى لقد طالعنا في بعض الصحف (٤) إنكاراً للمعجزات الثابتة في حادثة الهجرة .. ورأينا من يقول : إن الرسول الله لم يخرج على المتربصين بد من باب

⁽١) الأحزاب : ٧٠ – ٧١ (٢) رواه أبو داود . (٣) رواه الترمذي .

 ⁽٤) انظر جريدة الجمهورية - العدد ١١٥٩٥ - في ٢٨من سبتمبر سنة ١٩٨٥ م (١٣ من المحرّم سنة ٢٠٨٦ م (١٨ من شعبان سنة ١٩٨٦ م (١٨ من شعبان سنة ١٤٨٦ هـ) . وراجع مجلة « التوحيد » - السنة الرابعة عشرة - العدد ١٢ - في ذي الحجة سنة ١٤.٦ هـ (أغسطس سنة ١٩٨٦ م) .

الدار ، ولم ينثر التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) . .

« وإنما خرج صلى الله عليه وسلم - على زعمهم - من خلف البيت وتسور جدار فنائه الخلفى ، وكان لديه جارية جعلها تقف بجانب الجدار ، فوضع قدمه الشريفة على كتفها ونزل من الجانب الخلفى ، ثم ألقى على رأسه رداءً وأخذ طريقه » !!

ورأينا الكاتب نفسه .. ينسب نجاته - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه فى الغار إلى الحيلة وأعمال التمويه ، وليس إلى نصر الله تعالى له وتأييده إياه ، فيقول : « ولكن الرسول - على - وصاحبه وجدا فى طريقهما إلى الغار شجرة ثمام - وهو شجر ضئيل قصير - فقال الرسول لصاحبه : خذها يا أبا بكر فاقتلعها ، فلما دخلا الغار وضعها على فوهته ، فكان من يراها يظن أنها شجرة قديمة ، وأن من يدخل الغار لا يستطيع دخوله إلا إذا ثنى فروعها »!!

نى حين أن الله تعالى يقول : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اللَّذِينَ كَفَرُوا ْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهُ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بَجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) .

وأخيراً - وليس آخراً - رأيناه ينسب حديث سراقة وغوص قوائم جواده ثلاث مرات ، إلى المبالغات التى اخترعها الناس فيقول : « أما سراقة .. فإن جواده حقاً كبا به وسقط هو من فوقه ، لأنه لطمعه فى الجائزة الثمينة من قريش كان يجهد الجواد ، فلما كبا به تطير .. أما أن يغوص فى الرمال إلى بطنه فإن هذا يقتضى ألا ينهض الجواد إلا بعد مشقة وطول زمن حتى يخلصه من الرمال ، وبهذا يبعد النبى وأبو بكر عنه » !!

بينما نجد قصة غوص قوائم جواد سراقة - وهي إحدى المعجزات التي أيَّد

⁽٢) التربة : . ٤

الله بها نبيه محمداً على حمداً على درجات الصحيح ، حيث اتفق عليها البخارى ومسلم ، وما اتفق عليه الشيخان يكون في أعلى درجات الصحيح كما اتفق على ذلك علماء مصطلح الحديث ..

* * *

يروّجون لهذه المزاعم وأمثالها .. في حين أن ظهور المعجزات الخارقة للعادة على أيدى الأنبياء – كما هو معلوم – ليس بمستنكر عند الفلاسفة .. لأن علاقة النفس بالبدن – عندهم – إنما هي بالتدبير والتصرف لا بالحلول والانطباع .. وقد ثبت تأثيرها في المواد البدنية ، كما نشاهد أن الإنسان يحمر عند الخجل ، ويصفر عند الوجل ، ويتسخن عند الغضب ، وأنه يسقط من الموضع العالى إذا كان كثير العرض ، ولا يسقط من الموضع السافل إذا كان الممشى فيه أقل عرضاً من الموضع العالى ..

فإذا كانت إرادات النفس وتصوراتها مؤثرة فى بدنها - مع عدم الحلول والانطباع فيه - فكيف يُستبعد أن تكون بعض النفوس القدسية قوية ، تتصرف بمجرد الإرادة والتصور ، بلا استعمال آلة فى أجسام أخرى غير بدنها ، بل فى كلية العناصر ، سيما العنصر الذى يكون أشد مناسبة لمزاجه ، ويكون هذا العالم بمنزلة بدن منقاد له فى حركاته وسكناته .. فتحدث بإرادته فى الأرض رياح وزلازل وحرق وغرق وهلاك أشخاص ظالمة ، وخراب مدن فاسدة ، وانفجار المياه من الأحجار ، وغيرها من الخوارق .. فكيف يُستنكر مثلها من النبى عليه ؟

فإذا ما ظهرت المعجزة على يد مدّعى النبوة ، خلق الله العلم الضرورى بصدقه قطعاً – على ما جرت به العادة – ولا تنافيه الاحتمالات الصرفة ، والتجويزات العقلية المحضة ، لأنها تنافى العلوم العادية الضرورية القطعية ..

ونسوق مثالاً: إذا ادَّعى رجلٌ فى مجلس ملك بمشهد الجم الغفير: أنى رسول هذا الملك إليكم ، وطالبوه بالحُجَّة فقال: حُجَّتى أن الملك يخالف عادته – لتصديقى – إذا طلبتُ ذلك منه .

ثم طلب من الملك : أنْ خَالف عادتك وقم عن سريرك ثم اقعد ، وافعل هكذا مرات ثلاثة ، ليذعن الحاضرون بأنى رسولك .

فَإِذَا قَبِلَ الملك ، وفعل كما طلب هذا المدَّعى ، كان ذلك الفعل - من الملك - نازلاً منزلة تصديقه ، ويحصل للحاضرين العلم الضروري بصدقه بلا ارتياب .

أما إذا كان الملك ظلوماً كذوباً ، فإنه لا يبالى بإغواء رعيته والاستهزاء برسله ، ولا يلتفت إلى الاحتمالات العقلية الصرفة .

والتواتر - فى خبر المعجزة - إذا كان جامعاً للشروط المفصّلة فى علم الأصول ، فلا شك أنه يفيد العلم الضرورى بما تواتر الإخبار عنه ، إذ لا سبيل إلى العلم بالبلاد البعيدة والأشخاص الماضية ، سوى التواتر .

فمَن شاهد معجزة نبى يحصل له العلم بصدق ذلك النبى بالمشاهدة ، ومَن لم يشاهدها ووصل إليه خبر تلك المعجزة بالتواتر الجامع لشروطه ، يحصل له العلم أيضاً .. فحصول العلم لمن لم يشاهد المعجزة ممكن البتة .

ومع هذا .. وجدنا من الناس من ينكر المعجزات الحسية التى جاءت بها كتب السيرة وتواتر الأخبار عنها ، بحُجِّة تحكيم العقل ، مع أن العقل كثيراً ما يقصر عن إدراك الكثير من الأمور المحسوسة والملموسة !!

* * *

نحن نؤمن بالمعجزات الحسية وإمكان وقوعها .. وأن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلاً على صدق دعوته ، وبرهاناً على حقيقة رسالته .

ومن شرط المعجزة: أن تكون مبنية على الظهور والإعلان ، لأنها حُجُة الأنبياء على دعوى النبوة ، فلا بد من إظهارها وإعلانها صريحة جلية أمام المكذّبين الجاحدين حتى يُسلّموا لأنبيائهم ويدخلوا في دينهم .. كما أنها يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

ولقد جرت سُنّة الله - سبحانه - أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الإيمان بهم ، والإذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وإرشاد .

كان النبى يُبعث فى قومه ، فيصدع بالدعوة إلى الله ، فيستجيب له مَن شرح الله صدره لدعوته ، ويكذّب به مَن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم .

ويتمادى المكذّبون فى المكابرة والعناد .. فإذا بهم يرمون أنبيائهم بالكذب ، ومن بعده يرمونهم بالسحر تارة وبالجنون أخرى .. قالوا كل ذلك وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم .. فما كان من الأنبياء إلا أن لجأوا إلى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد لهم بصدق دعوتهم ..

وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز . . وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبئاً بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء .

وتشاء حكمة الله تعالى ، أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ على التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء .

كان السحر منتشراً في عصر موسى عليه السلام ، فكانت معجزته في عصاه :

يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَة فَأَت بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَنَزَعَ بَدَهُ فَإِذَا هِي الصَّادِقِينَ * (١) .

⁽١) الأعراف : ١.٦ - ١.٨

ويقول جل شأنه : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاً ، إِنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأُوحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ الْمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلاً ، إِنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِينٍ * فَأُوحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ الصَّرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرْقَ كَالطُّودُ العَظيم ﴾ (١) .

ويَقول جَلُّ وعلا : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقُوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرَب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانَفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةً عَيْناً ، قَدْ عَلَمَ كُلُّ أُنَّاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقَ اللَّه ، وَلا تَعْشُواْ فِي الأَرْضَ مُفْسَدِينَ ﴾ (٢) .

وكانت العلوم زاهرة في عصر سليمان عليه السلام ، فكانت معجزته في تسخير الرياح والجن له ، ومعرفته للغة الوحش والطير :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرَّبِعَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ النَّبِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْء عَالَمِينَ * وَمِنَ السَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلكَ ، وكُنَّا لَهُمْ حَافظينَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلَمْنَا مَن طَقَ الطَّيْرِ وَالُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْء ، إِنَّ هَذَا لَهُو الفَضْلُ المبينُ * وَحُشِرَ لَسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجَنِّ وَالإنسِ وَالطَّيْرِ فَهُم يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوَا عَلَى وَادِ النَّمَلِ قَالَت نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطَمَنَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مَّن قَوْلِها وَقَالَ رَبِ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مَّن قَوْلِها وَقَالَ رَبِ اللَّيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مَّن قَوْلِها وَقَالَ رَبِ أُوزِعْنِي أَنْ أُشَكُر نَعْمَتَكَ التِي أَنعْمَتَ عَلَى وَعَلَى وَالدَى وَأَنْ أَعْمَلَ صَالَحا تَرْضَاهُ وَأَدْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عَبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَيْرَ صَالَحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عَبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَيْرَ وَالدَى اللَّيْرَ مَن اللَّيْرَ فَي السَّاكِينَ * وَتَفَقَّدُ الطَيْرَ فَقَالَ أَحْطَتُ أَوْ لَيَاتَيَنِي بِهُ لَمُ كَانَ مِن سَبَا بِنَبًا مِنْ عَنْ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَتُ إِللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُ يُعَمِّلُونَ عَنْ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَتُ إِلَى اللَّهُ الْوَاللَّهُ اللَّهُ اللَّه

⁽٢) البقرة: . ٦

⁽١) الشعراء: ٦١ - ٦٣

⁽٤) النمل : ١٦ - ٢٢

⁽٣) الأنبياء: ٨١ - ٨٨

وكان الطب مزدهراً في عصر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، فكانت معجزته هي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .. بل ويصنع طيراً من الطين فينفخ الله فيه الروح ..

يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أُنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَة مِّن رُبِّكُمْ ، أنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَة الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهَ فَيَكُونَ طَيْراً بإذْن اللَّه ، وَأُبُّرِئُ الأَكْمَة وَالأَبْرَصَ وَأُخْى المَوْتَىٰ بِإِذْنَ اللَّه ، وَأُنَّبُّكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدُّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمنينَ ﴾ (١) .

وكانت البلاغة سائدة في عصر النبي على ، فكانت معجزته الكبرى هي القرآن الكريم ، الذي تحدى به الجن والإنس في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِن اجْتَمَعَت الإنسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا ْ بِمثْل هَذَا القُرْآن لا يَأْتُونَ بِمثْلُه وَلَو ْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضِ ظَهِيراً ﴾ (٢).

ولا يمنع كون القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ من وقوع الكثير من المعجزات الحسية .. ومع هذا نسمع من ينادون بتحكيم العقل في شأن هذه المعجزات دون سواها .. فلماذا لم يحتكموا إلى عقولهم إزاء معجزات الأنبياء السابقين ما دام تحكيم العقل هو ديدنهم ١١

لماذا يؤمنون ويصدِّقون بوقوع المعجزات الحسية للأنبياء السابقين ويجحدون وقوعها لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ؟!

من أجل هذا كان هذا الكتاب ..

وقد جعلنا عنوان الفصل الأول من فصوله الستة : ما قبل البعثة .

والفصل الثاني: النبوة الخاتمة.

(١) آل عمران : ٤٩ (٢) الإسراء: ٨٨

والفصل الثالث: الرسول في المدينة.

والفصل الرابع: صاحب المعجزات الباهرة.

والفصل الخامس: صاحب الأخلاق العظيمة.

والفصل السادس: خاتمة المطاف.

وتحدثنا في هذا الكتاب عن بعض الجوانب المشرقة التي حفلت بها سيرة الرسول على المعجزات الحسية التي ينكر وقوعها المنكرون.

ولا يفوتنا أن نذكر : أننا في سردنا للحوادث التاريخية التي حفلت بها السيرة العطرة للرسول على أم الكتب الكتب الصحيحة كالبداية والنهاية لابن كثير ، والسيرة النبوية لابن هشام ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وأسد الغابة لابن الأثير .

كما اعتمدنا فى الشواهد - التى استشهدنا بها من الأحاديث النبوية الشريفة - على الجامع الصحيح للإمام البخارى ، وصحيح مسلم ، إلى جانب الكتب الصحاح الأخرى ، وكلها - والحمد لله - من المراجع الهامة التى تحظى بثقة المؤرخين واحترام الدارسين .

والله من وراء القصد .. وهو الموفق والمستعان .

القاهرة في الثلاثاء ٢٨ من صفر سنة ١٤١١ هـ

المرافِق ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٩٠ م ،

محمد الأنور أحمد البلتاجي

* * *

الفصل الأول

ما قبل البعثة

محمد رسول الله على .. هو: « محمد ، وأحمد ، ومحمود ، والماحى ، والحاشر ، والعاقب ، والمقنى ، ونبى الرحمة ، ونبى الملاحم ، والشاهد ، والمبشر ، والندير ، والضحوك ، والمتوكل ، والفاتح ، والأمين ، والمصطفى ، والخاتم ، والرسول ، والنبى ، والأُمى ، والقيم ، ونبى التوبة ، والقاسم ، والعبد ، وعبد الله ، والمزمل ، والمدثر ، والشفيع ، والشافع ، والمشفع ، والحبيب ، والخطيب ، والحيى ، والخليل ، والداعى ، والسراج المنير ، وحريص عليكم ، ورؤوف رحيم ، والطيب ، وذو العزم ، والصاحب ، والصالح ، والسيد ، والقائد ، والإمام ، والحرز ، والنور ، والأزهر ، والأجود ، والشكور ، والحق المبين ، والكريم ، والعظيم ، والجبار ، والخبير ، والولى ، والمقدس ، وطه ، وياسين » (١).

هذا ما ذكره الشيخ شرف الدين الطيبى فى « الكاشف » ، والقاضى عياض فى « الشفا » .. ويقول الشيخ النووى : قال الإمام الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى المالكى فى كتابه « عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى : « قال بعض الصوفية : إن لله تعالى ألف اسم ، وللنبى الله الله تعالى ألف اسم ، وللنبى الله على فهذا العدد حقير فيها ، وأما أسماء النبى الله ، فلم أحصها إلا من

⁽١) الرصف ، لما روى عن النبي تلئم من الفعل والوصف ، لمحمد بن محمد بن عبد الله العاتولي - نشر مكتبة التوعية الإسلامية - ص ١٠ - ١١

جهة الورود الظاهر بصيغة الأسماء البيِّنة ، فوعيتُ منها أربعة وستين اسماً » (١)

وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبى » (٢).

* * *

• نسبه - صلى الله عليه وسلم:

محمد رسول الله على الإطلاق ..

فَمَبْلَغُ العِلْمُ فِيدِ أَنَّه بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرٌ خَلْقِ اللَّهِ كُلُّهِم (٣)

فلنسبه - صلى الله عليه وسلم - من الشرف أعلى ذروة ، وأعداؤه كانوا يشهدون بذلك ، وبهذا شهد له عدوه - إذ ذاك - أبو سفيان بن حرب بين يدى ملك الروم .

فأشرف القوم قومه . . وأشرف القبائل قبيلته . . وأشرف الأفخاذ فخذه .

مُحَمَّدُ سَيَّدُ الكُونَيْنِ وَالثَّقَلِيْدِ فَي وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ (٤)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « بُعِثتُ من خير بني آدم قرناً فقرناً .. حتى كنتُ من القرن الذي كنتُ منه » (٥) .

 ⁽١) المرجع السابق .

⁽٣) ، (٤) من البودة للبوصيري .. والثقلين : هما الإنس والجن . (٥) رواه البخاري .

⁽٦) رواه مسلم والترمذي .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى ، عن المطلب بن أبى وداعة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الخلق ، فجعلنى من خيرهم ، ثم جعلهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلنى من خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلنى من خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » (١) .

ولابن هشام: « محمد - صلى الله عليه وسلم - ابن عبد الله ، ابن عبد الله ، ابن عبد الطلب (٢) ، بن هاشم (٣) ، بن عبد مناف (٤) ، بن قُصَى (٥) ، ابن كلاب ، بن مُرة ، بن كعب ، بن لُوّى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، ابن النّضر ، بن كنّانة ، بن خُزيَهة ، بن مُدْركة (٢) ، بن إليّاس ، بن مُضر ، ابن نزار ، بن مَعد ، بن عدنان ، بن أد (ويقال أدد) ، بن مُقرم ، بن ناحور ، ابن تَيْرَح ، بن يَعْرُب ، بن يَشْجُب ، بن نابت (ويقال نبايوت) ، بن إسماعيل ، ابن إبراهيم (خليل الرحمن) بن تارح (٧) ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن راعو ، ابن فالخ ، بن عبير ، بن شالخ ، بن إرفّخشد ، بن سام ، بن نوح ، بن لمك ، ابن مَدْرشَكَخ ، بن أخنوخ (٨) ، بن يَرد ، بن مَهليل ، بن قينتن ، بن يَانِش ، ابن شيث ، بن آدم صلى الله عليه وسلم » (١) .

يقول ابن هشام: «حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلبي بهذا الذي ذكرت من نسب محمد رسول الله الله الله آدم عليه السلام، وما فيه من حديث إدريس وغيره » (١٠).

ويصل ابن القيم - في زاد المعاد - بالنسب الشريف إلى عدنان ، ثم يقول : « إلى هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ، ولا خلاف فيه البتة ، وما فوق

⁽١) رواه الترمذي . (٢) واسم عبد المطلب : شَبْبة . (٣) واسمه عمرو .

⁽٤) واسمه المغيرة . (٥) واسمه زيد . (٦) واسمه عامر .

⁽٧) وهو آزر الذي ورد اسمه في القرآن الكريم .

⁽٨) وهو إدريس النبي ، وكان أول بني آدم أعطى النبوة وخط بالقلم ، والله أعلم .

⁽٩) السيرة النبوية ، لابن هشام ، نشر دار التحرير سنة ١٣٨٣ هـ : ١/١ ٢ ، ٢

 ⁽١.) المرجع السابق.

عدقان مختلف قيه ، ولا خلاف عندهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلا وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة ومَن بعدهم »

ويقول الزهرى: « إن عبد الله - والد الرسول الله - كان أجمل قريش فذكر لآمنة بنت وهب جماله وصفته ، وقيل لها: هل لك أن تزوجيه ، فأجابه فضى به أبوه فزوجه إياها » .

وقال بعضهم : إن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام في عير لقر فنزل بالمدينة ، وهو مريض ، فتوفى ودفن بها ، وآمنة حامل بالنبي الله على المناها .

وأما عبد المطلب - جده الأول - فاسمه « شيبة » لأنه كان في رأسه شيب ويقال له « شيبة الحمد » تفاؤلاً بحمد الناس له . كان مفزعاً لقريش في النوا وملجأهم في الأمور وشريفهم وسيدهم غير مدافع ، وكان يقال له « الفياض لكثرة جوده ، و « المطعم لطير السماء » لأنه كان يلقي الطعام للطير والوحوش وكان حليماً حكيماً ، حرّم على نفسه الخمر ورفض في آخر عمره عبادة الأص فوحد الله تعالى ، وتؤثر عنه سنن جاء الشرع بها .. منها الوفاء بالنذر وا من نكاح المحارم والنهى عن قتل الموؤدة وتحريم الزنا .. وغير ذلك . و وقوراً مهيباً ، روى أن رسول أبرهة لما دخل مكة ورآه خضع له وخر مغش عليه ، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه . ولما رآه أبرهة أكرمه وأجل الى جنبه وتقدم إلى الترجمان بسؤاله عن حاجته ، فسأله الإبل ولم يسأله البيت فقال له أبرهة : أتكلمني في الإبل وتدع بيتاً هو دينك ودين آبائك ، فقا عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وللبيت رب سيمنعه . قال أبرهة : ما كان لين مني .. ورد الإبل فجعلها عبد المطلب هَدْياً للبيت .

وأما هاشم - جده الثانى - فاسمه « عمرو العلاء » لعلو مرتبته ، وهو أ عبد شمس ، قيل : كانا توأمين ، وأن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصبع ملتصقة بجهة صاحبه فنحيت عنها فسال من ذلك دم ، فتُطيِّر من ذلك فقيل تكون بينهما دماء ، ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس لأن هاشماً ساد قومه بعد أبيه عبد مناف ، فتكلف أمية أن يصنع صنعه ويذهب مذهبه ليشاركه في المجد ويساهمه في المكرمات فأعجزه أمره فعيرته قريش وقالوا له : مالك والتشبه بهاشم ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المتافرة قال : فإنى أنافرك على خمسين ناقة تُنحر ببطن مكة والجلاء عنها عشر سنين ، فرضى وتحاكما إلى الكاهن الخزاعي بعسفان فقال : لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر ، فنصر هاشماً على أمية ، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل وأطعم الناس ، وخرج أمية إلى الشام فلبث فيها عشر سنين ، وكان يقال لهاشم وإخوته « أقداح النضار » أى الذهب ، وإنما قيل له « هاشم » لأنه أول من هشم الثريد من العرب – أى ثرده وأطعمه المساكن .

قال الشاعر:

عمرو العلا ذو النداء لا يسابقه مسر السحاب ولا ربح تجاريه وقال آخر:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجمال مكة مسنتون عجاف وقيل: إن أول من هشم الثريد وأطعمه الناس إنما هو قُصَيً .

وكان هاشم بعد أبيه « عبد منان » على السقاية - وهى سقاء الحجيج كله الماء العذب - والرفادة - وهى إطعام الطعام لمن لا سعة له من الحجاج ، فكان عد لهم الأسمطة في أيام الموسم - واتفق وهو بالشام أن أصاب أهل مكة قحط شديد ، فاشترى دقيقاً وكعكاً وقدم به مكة فهشم الخبز والكعك ونحر الجُزُر وجعل الثريد وأطعم الناس حتى أشبعهم ، وكان يقال له « سيد البطحاء » ، قال بعضهم : لم تزل مائدته منصوبة لا تُرفع في السراء والضراء .

وأما عبد مناف - جده الثالث - فاسمه « المغيرة » ، وكان يقال له « القمر » لحسنه وبهائه ، وكان يقول في كتاب له : أوصى قريشاً بتقوى الله جَلُّ وعلا ، وصلة الرحم . وكان الجد الرابع لعثمان بن عفان والتاسع للإمام الشافعي رضى الله عنهما .

وأما قُصَى ً - الجد الرابع - فاسمه « زيد » ، وأمه فاطمة بنت معد بن سبل ، وقيل له « قُصَى ً » لأنه قصى - أى بَعُد - إلى قضاعة مع أمه . أخبرته أمه بأن كاهنة رأته صغيراً فقالت لها : إن ولدك هذا يلى أمراً جليلاً ، فلما انتهى إلى مكة مع حجاج قضاعة أكرمه قومه وقد مو عليهم لموضع نسبه ، وما رأوا فيه من آيات النبل فساد فيهم وكان أمر مكة بيد حُليل الخزاعي - وهو آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة من الخزاعيين - فلما مات تولى « قُصَى ً » أمر البيت واستلم مقادة الحكم بعد إخراج خزاعة من مكة لأن قريشاً أدنى إلى إسماعيل عليه السلام من خزاعة .

وقيل : إن خُليلاً هو الذي ولى قُصَيّاً الأمر لأنه زوج ابنته « حُبيُّ » .

وقيل : إن حُليلاً جعل ذلك لابنته فقالت له : لا قبّل لى بفتح البيت وإغلاقه ، فأوصى به لأبى غُبَشان الخزاعي واسمه سليم بن عمرو .

فلما صار إليه أمر البيت وسدانة الكعبة ، اجتمع مع قُصَى بالطائف على شراب ، فأسكره قُصَى واشترى منه مفاتيح البيت بزق خمر ، فعيرته العرب فأنكر البيع وقال : إنما رهنتها له ، فتنازعوا ووقعت الحرب بين قُصَى وخزاعة فظهرت قُصَى على خزاعة وأجلوهم عن مكة وصارت الأولئك مفاتيح الكعبة لا ينازعهم فيها منازع . قال الشاعر في هذا المعنى :

أبو غُبَشان أظلم من قُصَى وأظلم من بنى فِهر خزاعه فلا تلحمو قريشاً في شراه ولوموا شيخكم إذ كان باعد

وذهب المثل بتلك الصفقة فيقال : « أخسر من صفقة أبي غُبُشان » .

ولما أفضى أمر البيت إلى تُصَى وولى الحكم جمع القبائل فأنزلهم أبطح مكة ، وكان بعضهم فى الشعاب ورؤوس جبال مكة ، فتقسموا منازل خزاعة فسمى قُصَى لذلك مجمّعاً . قال الشاعر :

أبوكم قُصَى كان يدعى مجمّعاً به جمسع الله القبائسل من فهر

فكان قُصَى أول ولد لكعب بن لُؤى أصاب مُلكا أطاعه به قومه ، فكانت إليه « سدانة » البيت فهو الذى يفتح الكعبة ويقفلها ، وكانت إليه « السقاية » فلا ينال أحد بمكة الماء إلا من سقاته ، وكانت إليه « الرفادة » فلا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامه ، وكانت في داره « الندوة » فلا تمضى قريش في أمر من أمورها إلا قامت على تدبيره في داره ، وكان لا يعقد لقريش « لواء » حربهم إلا هو . فهو صاحب الحجابة والسقاية والندوة واللواء والرفادة .

وكانت قريش تجعل من أموالها في كل موسم خَرَجاً لقُصَى كان قد ضربه عليهم فيصنع به طعاماً للحجاج ينال منه من لا سعة له ولا زاد ، فأداؤهم الخراج واصطناعه الطعام للعافين من الحجاج هو « الرفادة » ، وقد صار ذلك عادة على قومه في الجاهلية حتى قام الإسلام فكان بعض السلاطين يصنع كل عام الطعام بس « منّى » لفقراء الحجاج .

وأما جده الخامس .. فاسمه «حكيم » – وقيل « عروة » – ولقب بـ « كِلاَب » لأنه كان يحب الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب ، وهو الجد الثالث \bar{V} منه بنت وهب – أمه صلى الله عليه وسلم – فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه .

وأما مُرَّة - جده السادس - فهو الجد السادس أيضاً لأبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وفي « مُرَّة » أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول ﷺ .

وأما كَعْب - جده السابع - فهو الجد الثامن لعمر رضى الله عنه . كان يجمع قومه يوم العروبة أى يوم الرحمة - وهو يوم الجمعة فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبى على وينبئهم بأنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ويقول : سيأتى لحرمكم نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم . وقيل إنه كان يقول :

على غفلة يأتى النبي محمد فيخبر أخباراً صدوق خبيرها

قيل : إنه أول من قال : « أما بعد » ، فكان يقول : أما بعد ، فاسمعوا وافهموا واعلموا وتعلموا . وقيل له « كَعْب » لارتفاع شأنه في قومه لأن

الكعب هو العالى المرتفع . وكان من شرف الموضع وعلو المحل بحيث كان القوم يُؤرِّخون بموتد حتى ظهر الإسلام وأرَّخ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بالهجرة .

وأما جده الثامن - فهو لُؤَى - والهمز فيه أكثر من تركه - وفي سبب تصغيره خلاف ، وأمه عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنّانة .

وأما جده التاسع فغالب ، وأمه ليلى بنت الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مُدْركة .

وأما فهر - جده العاشر - فهو جمّاع قريش ، وأمه جندلة بنت عامر . أسماه أبوه « فهراً » وقيل : هو لقب واسمه « قريش » ، وسمى بذلك لأنه كان يقرش - أى يلتمس خلة المحتاج فيسدها بماله ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم فسموا لذلك « قريشاً » ، وهو الذى أسر حسّان بن كلال حين أقبل من حمير وغيرهم من اليمن يبغون نقل حجارة الكعبة من مكة إلى اليمن حتى يتحول الحاج إليهم ، فخرج « فيهر » هذا في قبائل كنانة وخزية وأسد وغيرهم ، وكان رئيسهم ، فهزموا حُميراً بعد القتال الشديد وردوهم وأسروا ملكهم .

و « فهر » هذا . . هو الجد السادس لأبي عبيدة بن الجراح . .

وأما مالك - جده الحادي عشر - فأمه عاتكة بنت عدوان ، وهو الحارث بن عمرو بن قيس ، ولقب بمالك لأنه ملك العرب وساد عليهم .

وأما النَّضْر - جده الثانى عشر - فاسمه قيس ، وأُمه بَرَّة بنت مُرَّ بن أُدَّ بن طابخة . قيل : إنه جمَّاع قريش - وقد تقدم أن جمَّاعهم فهر ، وعليه يكون الذين فوق فهر ليسوا من قريش .

وأما كنّانة - جده الثالث عشر - فأمه عُوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ، ودعى بكنّانة لأنه كان « يكنّ » أمور قومه وكان جماع سرهم .

وأما خُزَيمة - جده الرابع عشر - فأمه سلمى بنت أسلم القضاعبة ، وكان هذيل أخاه لأبيه وأمه ، وتغلب أخاه لأمه .

وأما مُدْرِكة - جده الخامس عشر - فاسمه عمرو ، وأمه ليلى بنت خُلوان ، وقيل له « مُدْرِكة » لأنه أدرك كل عز وفخر اتسق لآبائه ، وكان يظهر فيه نور رسول الله على .

وأما إلياس - جده السادس عشر - فأمه الربّاب بنت حَيْدة بن مَعَدّ ، وكان عند العرب عظيم القدر فكانوا يدعونه كبير القوم وسيدهم ، وكانوا لا يمضون أمراً بدونه وهو أول من أهدى البّدن إلى البيت . وكان للعرب مثل لقمان الحكيم في قومه . وجاء في الأثر : « لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً » .

وأما مُضَر - جده السابع عشر - فأمه سَوْدة بنت عك ، وأخوه لأبيه وأمه إياد ، ويقال له « مُضَر الحمراء » لأنه أخذ من ميراث أبيه وترك الخيل لأخيه ربيعة ، وجاء : « لا تسبوا مُضَر وربيعة فإنهما كانا مؤمنين » ، ومن قوله : « مَن يزرع شرأ يحصد ندامة » .

وأما نزار - جده الثامن عشر - فأمه معانة بنت جَوْشَم ، وكنيته « أبو ربيعة » وكان يُرَى نور النبى على العربى على الصحيح ، وفي نزار يجتمع نسب الإمام أحمد بنسبه صلى الله عليه وسلم .

وأما مَعَدُّ – جده التاسع عشر – فقد قيل له « مَعَدُّ » لأنه كان صاحب حروب وغارات ، ما حارب أحداً إلا وكان النصر معقوداً بلوائه .

وأما عدنان - جده العشرون - فهو آخر النسب المتفق عليه ، لا يختلف فيه النسابون ، فلا نخوض فيمن يليه لعدم الوثوق بصحته » . .

وصدق الشاعر (١) حيث يقول:

سنساؤهُ وسنساهُ الشَّمسسُ طالعةً قَددُ أخطساً النَّجسمَ ما نالت أَبُّوتُه نُمُوا إليه ، فزادوا في الورى شرَفاً حَسواهُ فسي سُبُحات الطُّهر قبلهم

فالجِرمُ في فلك ، والضُّوءُ في عَلَم (٢) مسن سؤدد باذخ في مظهر سنيم (٣) ورُبُّ أصل لفرع في الفخار نمى (٤) نوران قاما مقام الصلُّب الرُّحسم (٥)

« فلئن كانت الحقيقة المحمدية قد سمت على جميع العوالم ، وعلت على كل الكائنات ، فإن نوره صلى الله عليه وسلم عم البرايا جمعاء ، وشاع فى الأرض والسماء ، كما يتصل نور الشمس بآفاق هذا العالم السفلى ، وجرمها جار في مذهبها الرفيع سابح فى فلكها العلوى ، بل إن حقيقته – صلى الله عليه وسلم أسمى وأرفع ، ونوره أعم وأنفع » .

يقول الشيخ سليم البشرى رحمه الله: « ... قد اجتمع لبيته - صلى الله عليه وسلم - من أسباب السيادة والمجد وكرم المنبت وشرف المحل ، ما لم يجتمع لبيت غيره ، واتسق لجدوده من المكرمات ما لم يسهم بمثله لعامة العرب - على كثرة قبائلهم وتعدد فروعهم - وحسبك أن يجتمع لقصي - جده الرابع - كل وجوه الرياسات التي تقسمتها العرب وتنازعتها القبائل ، لأنها كانت ملاك شرفهم وجماع سيادتهم وفخرهم ، في الظفر بالخلة الواحدة منها أكرم الموضع وأعلا المنزلة ، حتى إن القبائل لتظل على طول الأدهار والأزمان تنتسب في مجدها إليها وتصل بها حبلها ، وترتبط بها أصلها ، فما ظنك بها مجتمعة

⁽١) أحمد شوتى في نهج البردة .

⁽٢) سناؤه : رفعته ، وسناه : نوره ، والعلم – هنا : العالم .

 ⁽٣) السؤدد : السيادة ، والباذخ : العالى ، والسنم : المرتفع ، وأبوته : أى ذوو أبوته ،
 والأبوة : المعنى المأخوذ من الأب كالأخوة والبنوة .

⁽٥) السُّبُحات - بضمتين : مواضع السجود ، وسُبُحات وجد الله : أنواره .

كلها في بيت واحد ، في رجل واحد ، هو قُصَيَّ جده الرابع - صلى الله عليه وسلم - يملكها عن الناس أجمعين غير مدافع .

ومع ما لآبائه - صلى الله عليه وسلم - من خطر القدر ونباهة الذكر ، وقد مر بنا بعض ما وصلهم الله به من الشرف الرفيع ، والجاه العريض ، ونصيبهم في المكرمات وما كان لهم من الحسب الحسيب والعرق العريق والهمة القعساء والعزمة الماضية التي قصر عنها النجم الثاقب ، ولم تبلغها سابحات الكواكب ، ومع هذا كله فقد ازدادوا بنسبتهم إليه - صلى الله عليه وسلم - شرفاً على شرف ومجداً على مجد .

وإذا كانت الحال قد جرت بأن تشرف الفروع باشتعابها أصولها ، وتنبه الأبناء بانتسابها إلى آبائها ، فالأمر هنا جاء على غير هذا الحكم ، وكان رسول الله كالله كاله

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسمول الله عدنان »

يقول القاضى عياض : « أما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه ، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ولا خفى منه ، لأنه نخبة بنى هاشم ، وسلالة قريش وصميمها ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبَل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده » (١) .

يقول الرسول ﷺ: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى هاشم » .. صدق رسول الله ﷺ .

* * *

⁽١) انظر: « وضح النهج » للمرحوم الشيخ سليم البشرى ، على نهج البُردة نظم أمير الشعراء أحمد شوتى - نشر مكتبة الملك فيصل الإسلامية ص ٣٨ وما قبلها بتصرف .

• ابن الذبيحين :

عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما أنه قال : « سمعتُ رجلاً يقول للنبي ﷺ : يابن الذبيحين . . فضحك النبي ﷺ » . .

ثم قال معاوية : « إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم ، نذر لله إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده لله ، فسهل الله عليه أمرها .. فوقع السهم على عبد الله فمنعه أخواله بنو مخزوم وقالوا : افد ابنك . ففداه بمائة من الإبل ، وهو الذبيح الثاني .. وإسماعيل هو الذبيح الأول » .

ويروى لنا ابن هشام قصة نذر عبد المطلب ذبح ابنه فيقول :

« إن عبد المطلب بن هاشم كان قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم: لئن وُلِدُ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة..

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء معد بذلك فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى . ففعلوا ، ثم أتوه ، فدخل بهم على « هُبَل » الذى فى جوف الكعبة – وكان هُبَل على بئر فى جوف الكعبة ، وكان عند هُبَل قداح سبعة ، كل قدح منها فيه : العقل – أى الدية – إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله .. وقدح فيه « نعم » للأمر إذا أرادوه يُضرب به فى القداح ، فإن خرج قدح « نعم » عملوا به .. وقدح فيه « لا » إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح ، فإن خرج قدح « نعم » عملوا به .. وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « منكم » ، وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « المياه » ، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج عملوا به .

وكانوا إذا أرادو أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكّوا في نسب أحدهم .. ذهبوا به إلى « هُبَل » وبمائة درهم وجزور ،

فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه .. ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب . فإن خرج عليه « منكم » كان منهم وسيطاً – أي خالص النّسب ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم : لا نسب له ولا حلف ، وإن خرج فيه شئ نما سوى هذا نما يعملون به « نعم » عملوا به ، وإن خرج « لا » أخّروه عامه ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى .. ينتهون في أمورهم إلى ذلك نما خرجت به القداح .

يقول ابن هشام: « فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذى نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه .

وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيد .. كان هو والزبير وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ .

وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب إليه ، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى – أى أبقى – وهو أبو رسول الله على ، فلما أخذ « صاحب القداح » القداح ليضرب بها ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة . . ثم أقبل به إلى « أساف » و « نائلة » ليذبحه .. فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه .. فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقال له المغيرة بن عبد الله - وكان عبد الله ابن أخت القوم - : والله لا تذبحه أبدأ حتى تُعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وقالت له قريش وينوه: لا تفعل ، وانطلق به إلى الحجاز فإن بها عرَّافة لها تابع ، فسلها .. ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أرادوا به ونذره فيه .. فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها .. فلما خرجوا عنها ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر .. كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل - وكانت كذلك - قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقدح .. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجى صاحبكم ..

فخرجوا حتى قدموا مكة .. فلما اجتمعوا على ذلك من الأمر ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل - وعبد المطلب قائم عند اللكعبة يدعو الله عَزُّ وجَلُّ .. ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ..

فرّادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عَزّ وحَلّ ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ..

.... وما زالوا يزيدون من الإبل عشراً عشراً ، ويضربون القداح ، كل ذلك وعبد المطلب قائم عند الكعبة يدعو ربه فيخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مئة .

ثم ضربوا ، فخرج القدح على الإبل .. فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا وبك يا عبد المطلب .. فقال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .. فضربوا على عبد الله وعلى الإبل .. وقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله ، فخرج القدح على الإبل .. ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو فخرج القدح على الإبل .. ثم عادوا الثالثة فخرج على الإبل ..

عندئذ رضى عبد المطلب واطمأن قلبه .. فنُحِرَت الإبل ، ثم تُرِكت لا يُصدَ عنها إنسان ولا سبع » (١) .

فكانت دية عبد الله بن عبد المطلب مئة من الإبل ، في حين أن دية الرجل عندهم كانت عشرا ، وما ذلك إلا لمكان رسول الله على مند .

*

هذا ما كان من أمر الذبيح الثانى – عبد الله والد الرسول على ، وأما الذبيح الأول فقد كان جده إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ..

ويقص الله تعالى علينا خبره في سورة الصافات .. فبعد أن أخبرنا بما كان من أمر إبراهيم عليه السلام مع قومه قال : ﴿ فَأْرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبُ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدينِ * رَبَّ هَبْ لي مِنَ الصَّالَحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلام حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْي قَالَ يَا بُنَي الصَّالَحِينَ * فَبَشَرْنَاهُ بِغُلام حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْي قَالَ يَا بُنَي أَرَى في المَنَام أَنِّي أَدْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَت افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجدُني إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَهُ اللهَ بَنْ هَنَا لَهُو البَلاَءُ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَهُ اللهُ مَن الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَهُ اللهُ مَن الصَّابِينَ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ * وَتَركُنَا المَّالِحِينَ * وَتَركُنَا المَالِحِينَ * وَتَركُنَا المَالِحِينَ * وَبَاركُنَا مَنْ الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا مَنْ الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَيْ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَن الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَيْ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَن الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَن الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَن الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَنْ الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَنْ الصَّالِحِينَ * وَبَاركُنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ نَبِيًا مَنْ وَظَالُمُ لِنَفْسِهُ مَبْيَنُ * (٢) .

قال إبراهيم عليه السلام - بعد أن نجًاه ربه وأنقذه بما أراد به قومه من الكيد - : « إنى مهاجر من بلد قومى إلى الأرض المقدسة ، ومعتزلهم لعبادة الله تعالى ، ليثبتنى على الهدى ويعيننى عليه » ..

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام - نشر دار التراث العربي : ٩٤/١ - ٩٧ بتصرف .

⁽۲) الصافات : ۹۸ - ۱۱۳

ثم تذكر حنينه إلى الولد فنادى ربه : يارب ، هَب لى منك ولدا صالحا م الذين يطيعونك ولا يعصونك .

فبشره الله تعالى بفلام يكون حليماً فى كبره .. فكان إسماعيل عليه السلام فلما بلغ الغلام الوقت الذى يطيق فيه معونة أبيه على عمله ، رأى إبراهيم عليه السلام - الرؤيا فقال لابنه : يا بُنَى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ما الذى تراه ، وما رأيك فيه ؟

وإغا أخبره بذلك ، ليختبر صبره على امتثال أمر ربه ، ويوطن نفسه علم الصبر على قضاء الله وحكمه .

أجاب إسماعيل أباه قائلاً: يا أبت ، افعل ما يأمرك به ربك من ذبحي وستجدني إن شاء الله صابراً لأمر الله .

أسلم الأب أمره لله ، وأسلم الابن أمره لله .. امتثالاً لأمره تعالى ، وصير على بلائه .

فلما أسلما أمرهما لله تعالى ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه وألقى إبراهيم عليه السلام وحيده على وجهه استعداداً للذبح . . ناداه الله تعالى : يا إبراهيم ، إنك قد صدَّقْتَ الرؤيا التي أريناكها في منامك ، وأمرناك فيها بذبح إبنك .

وجزاه الله تعالى بأن جعل مكان ذبح ابنه ذبح كبش عظيم ، وأنقذ بذلك الغلام - عليه السلام - من الذبح ، وأبقى على إبراهيم عليه السلام - فيمرز بعده إلى يوم القيامة - الثناء الجميل ، فلا يُذكر من بعده إلا بالذكر الجميل .

وكذلك يجزى الله تعالى الذين يحسنون فيطيعون أمره ويعملون في رضاه .

ثم بشر - تعالى - إبراهيم عليه السلام بإسحاق نبياً صالحاً ، وبارك على إبراهيم وعلى إسحاق ، وجعل من ذريتهما المؤمن المطيع لله ، والكافر به الذي قد بان ظلمه ونفسه واتضح .

ويقال: إنه لما ادعى إبراهيم عليه السلام محبة الله تعالى .. ثم نظر إلى ولده بالمحبة ، لم يرض حبيبه - تعالى - بمحبة مشتركة ، فرأى إبراهيم عليه السلام في ليلة التروية كأن قائلاً يقول: « إن الله يأمرك بذبح ابنك » .. فلما أصبح تروى في نفسه - أى تفكر - أهذا الحلم من الله تعالى أم من الشيطان؟ .. ولذلك سمى « يوم التروية » .

فلما كانت الليلة التالية ، رأى ذلك أيضاً ، وقيل له : الوعد .. فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى - فسمى « يوم عرفة » .

ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فعزم على نحره - فسمى « يوم النحر » .

فلما تحقق – عليه السلام – أن ذلك الأمر من الله تعالى قال لابنه : يا بُنَى ، خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا .. وقبل الغلام وتبع أباه .

قالت: كلا .. هو أرأف به من ذلك !!

فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك !!

قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك ، فقد أحسن أن يطيع أمر ربه .

... فلم ينجح معها الشيطان.

ثم أتى الغلام فقال: أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ . قال: لا !!

فقال : إنه يذهب بك ليذبحك . قال : ولم ؟!

قال: زعم أن ربه أمره بذلك !!

فقال إسماعيل عليه السلام: فليفعل ما أمره الله به ، سمعاً وطاعة لأمر الله .

.... ولم ينجح معه الشيطان.

ثم جاء إبراهيم عليه السلام فقال: أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك !!

فعرفه إبراهيم عليه السلام وقال : إليك عنى يا عدو الله ، فوالله لأمضين لأمر ربى .

وإنما عرف إبراهيم عليه السلام أنه الشيطان لأنه لم يخبر أحداً برؤياه ، فمن أين لهذا الغريب معرفة ما رآه في منامه ، أو ما عقد - عليه السلام - العزم على فعله ؟!

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما: « لما أمر إبراهيم بذبح ابنه .. عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب .. ثم مضى لأمر الله تعالى » .

ولم ينل الشيطان من إبراهيم عليه السلام شيئاً ..

ثم إن إبراهيم عليه السلام أفضى إلى ابنه برؤياه فقال : ﴿ يَا بُنَيُّ إِنِّي أُرَىٰ فَيَ الْمَنَامِ أَنَّى أَذَبُكُ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؟

فقال إسماعيل عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وفى الخبر: أن إسماعيل قال لأبيه - عليهما السلام -: « يا أبت ، اشدد رباطى حتى لا أصطرب ، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيئاً من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون الموت أهون على ، واقذفنى للوجه لئلا تنظر إلى وجهى فترحمنى ، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع .. وإذا أتيت أمى فأقرئها منى السلام »!!

فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون يا بُنَّيَّ أنت على أمر الله ..

ثم إنه شمر ، وأخذ السكين ، وأضجع ولده وقال : اللَّهم تقبله منى فى مرضاتك ..

فأرحى الله تعالى إليه : « يا إبراهيم ، لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا . . فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك » .

وفداه الله تعالى بكبش عظيم ، وجده إبراهيم - عليه السلام - على مقربة منه فذيحه » (١) .

*

ويقول ابن القيم : « الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. أما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – قدّس الله روحه – : « هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم .. فإن فيه : « أن الله أمر إبراهيم – عليه السلام – أن يذبح ابنه بكره » – وفى لفظ : « وحيده » – ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل – عليه السلام – هو بكُرُ أبيه .

والذى غر أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم: « اذبح ابنك إسحاق » .. قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « اذبح بكرك ، ووحيدك » .

ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب .

ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله .. وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بَشُر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبُشْرَى : ﴿ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوط * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمَن وَرَا ، إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٢) .

⁽١) من وصايا القرآن الكريم ، للمؤلف ، ص ١٢٢ - ١٢٤ ، وانظر القرطبي في تفسيره لسورة الصافات . (٢) هد : ٧٠ - ٧١

فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة ، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد . . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . .

فإن قيل : لو كان الأمر كما ذكرتموه ، لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق فكانت القراءة : « وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبِ » : أى ويعقوب من وراء إسحاق .

قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً بد ، لأن البشارة قول مخصوص ، وهي أول خبر سار صادق .. وقوله تعالى : ﴿ وَمِن وَراء إسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود .. فتكون البشارة ، بل حقيقة البشارة .. وهي الجملة الخبرية .

ولما كانت البشارة قولاً .. كان موضع هذه الجملة نصاً على الحكاية بالقول .. كأن المعنى : وقلنا لها من وراء إسحاق يعقوب ، والقائل إذا قال : بشرتُ فلاناً بقدوم أخيه وثقله في أثره ، لم يُعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً .. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة .

ثم يُضعف الجر أمر آخر .. وهو ضعف قولك : مررتُ بزيد ومن بعده عمرو ، لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر ، فلا يفصل بينه وبين المجرور - كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور .

ويدل عليه أيضاً: أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَهُ لَلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ، إِنَّا كَذَلكَ نَجْزِي الْمَحْسَنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاَءُ المبينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحِ عَظيمٍ * وَتَركَنْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرِينَ * سَلامٌ عَلَىٰ إِبْراهِيمَ * كَذَلكَ نَجْزِي المُحْسَنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عَبَادَنَا المُؤْمَنِينَ * . . ثم قال تعالى : ﴿ وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالَحِينَ ﴾ (١) .

⁽١) الصافات : ١١٣ - ١١٢

فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أمر به .. وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه .

فإن قيل : فالبشارة الثانية وقف على نبوته .. أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة .

قيل: البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبياً .. ولهذا نصب « نبياً » على الحال المقدر – أى مقدراً نبوته – فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضلة .. هذا محال من الكلام .. بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ..

وأيضاً .. فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جُعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جُعل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار تذكيراً بشأن إسماعيل وأمد ، وإقامة لذكر الله .

ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه .. ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وكان النحر بمكة من قام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً .. ولو كان الذبح بالشام – كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم – لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة .

وأيضاً .. فإن الله سبحانه سمى الذبيح « حليماً » .. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه « عليماً » فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدَيثُ ضَيف إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً ، قَالُ سَلاماً قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ (١) .. إلى أن قال : ﴿ قَالُوا لاَ تَخَفُ ، وَبَشْرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ (٢) ، وهذا إسحاق بلا ريب ، لأنه من امرأته وهي المُبشرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية ..

⁽٢) الداريات : ٢٨

⁽١) الذاريات : ٢٤ - ٢٥

وأيضاً .. فإنهما بُشًرا به على الكبر واليأس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل فإنه وُلدَ قبل ذلك .

وأيضاً .. فإن الله سبحانه أجرى العادة البَشرية أن يكون بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده .. وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووُهبَ له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلاً ، والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها .

فلما أخذ الولد شُعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه ، فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر من المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضى الأمر بذبحه ، وهذا في غاية الظهور .

وأيضاً .. فإن سارة امرأة الخليل عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة ، فإنها كانت جارية ، فلما وُلد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة ، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ، ويسكنها في أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته ورأفته .. فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها ؟!

فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟!

بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر

ولطفه بعد الشدة ، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البُعد والوحدة والغُربة ، والتسليم إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطئ أفدامهما مناسك لعبادة المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة .. وهذه سئته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره .. قال تعالى : ﴿ ونَرُيدُ أَن نّمُنّ عَلَى الّذينَ استُضعفُوا في الأرض وَنَجْعلَهُم أَلُونَ وَنَجْعلَهُم الوارثينَ ﴾ (١) .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (١) ..

فالذبيح الأول هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. والذبيح الثانى هو عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول على .. ولهذا ابتسم – عليه الصلاة والسلام – حين قال له الرجل : « يابن الذبيحين » .فكان تبسمه – صلى الله عليه والسلام – إقراراً للرجل على قوله .

سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إن الذبيح هُديتَ إسماعيل نطق الكتاب بذاك والتنزيل شرف به خص الإله نبينا وأتى به التفسير والتأويل إن كنت من أُمته فلا تنكر له شرف به قد خصه التفضيل

* *

ويبدو أن التاريخ يأبي إلا أن يكرر نفسه اا

فكما تكررت قصة الذبح والفداء مع إسماعيل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطلب جد الرسول عليه .

كذلك كان لعبد المطلب وجده الأكبر إسماعيل دور في حفر زمزم .

⁽١) القصص: ٥

 ⁽۲) زاد المعاد في هدى خير العباد - لابن القيم - نشر المطبعة المصرية ومكتبتها : ١٥/١ ،
 وما بعدها .

وقد مرَّ بنا : أن عبد المطلب أعاد حفر بنر زمزم ، فلما غلبته قريش عليها ، نذر لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، وكانت قصة الفداء العظيم لعبد الله – والد الرسول ﷺ – على ما قدَّمنا .

بقى أن نذكر قصة إسماعيل - عليه السلام - مع بئر زمزم ، ليظهر الترابط بين الواقعتين .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء .

ثم قفّی إبراهیم منطلقاً فتبعته أم إسماعیل ، فقالت : یا إبراهیم ، أین تذهب وتتركنا بهذا الوادی الذی لیس به أنبس ولا شئ ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبُّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُريَّتِي بُواد غَيْرِ ذِي زَرْع عندَ بَيْتكَ الْمُحَرِّم رَبُّنَا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئدَةً مِنَ النَّاسَ تَهُوى إِلَيْهُمْ وَارْزُقُهُم مِّنَ الثَّمَرَاتَ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال : يتلبط – فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان

⁽١) إبراهيم: ٣٧

المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً .. فعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً » .

قال : فشريت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً – أي يبحث عن الماء – فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً – أي رسولاً – أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبي على : « فألفى ذاك أم إسماعيل وهي تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم .

وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ... » (١) .



⁽١) من حديث رواه البخاري ، وانظر البداية والنهاية ، لابن كثير : ١٥٤/١ وما يعدها .

فلما مات إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ولى البيت بعده ابتر نبايرت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليه ، ثم ولى بعده « مضاض بن عمر الجرهمي » ربنو إسماعيل وينو نبايوت من جدهم مضاض بن عمرو وأخوالهم مو جرهم - وهو قحطان بن عامر بن شالخ - وجرهم وقطوراء يومئذ أهل مكة وهما ابنا عم ، وكانا ظعنا من اليمن ، فأقبلا سيارة ، وعلى جرهم : مضاض يم عمرو ، وعلى قطوراء السميدع - رجل منهم .

وكانوا إذا خرجوا من اليمن لم يخرجوا إلا ولهم ملك يقيم أمرهم. فلما نزلا مكة رأيا بلداً ذا ماء وشجر ، فأعجبهما فنزلا به ، فنزل مضاض بن عمرو بمو معهم من جرهم بأعلى مكة بقيقعان فما حاز ، ونزل السميدع بقطوراء أسفا مكة بأجياد (١) فما حاز . فكان مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها وكان السميدع يعشر من دخل مكة من أسفلها ، وكُلُّ في قومه لا يدخل واحه منهما على صاحبه .

ثم إن جرهم وقطورا ، بغى بعضهم على بعض ، تنافسوا الملك بها ، ومم مضاص يومئذ بنو إسماعيل وبنو نبايوت ، وإليه ولاية البيت دون السميدع فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مضاض بن عمرو مع قيقعان في كتيبته سائر إلى السميدع ، ومع كتيبته عُدُتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب ، يقعق بذلك معه ، فيقال : ما سمى قيقعان (٢) بقيقعان إلا لذلك .

وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال ، فيقال ما سمى أجياد أجياد إلا لخروج الجياد من الخيل مع السميدع منه . فالتقوا بفاضح (٣) ، واقتتلم قتالاً شديداً ، فقتل السميدع ، وفُضحت قطوراء .

ويقال : ما سمى فاضح فاضحاً إلا لذلك .

⁽١) موضع بحكة . (٢) جبل بحكة .

⁽٣) موضع قرب مكة عند جبل أبي قبيس.

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخ (١) واصطلحوا بد ، وأسلموا الأمر إلى مضاض ، فلما جمع إليه أمر مكة فصار ملكها لد ، نحر للناس فأطعمهم ، فأطبخ الناس وأكلوا .

فيقال: ما سميت المطابخ بالمطابخ إلا لذلك ، وبعض أهل العلم يزعم أنها سميت المطابخ ، لما كان « تبع » نحر بها وأطعم ، وكانت منزله ، فكان الذى بين مضاض والسميدع أول بغى كان بمكة فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ، ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لخنولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن يكون لها بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا في البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم .

ثم إن جرهماً بغوا بمكة ، واستحلوا خلالاً من الحُرمة ، فظلموا مَن دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدَى لها ، فرّق أمرهم .

فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغبشان من خزاعة ذلك ، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا ، فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة . وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً ، ولا يبقى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمى الناسة (٢) ولا يريدها ملك يستحل حُرمتها إلا هلك مكانه . فيقال : إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك – أي تكسر – أعنان الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً .

ويقال: إن بكة اسم لبطن مكة ، لأنهم كانوا يتباكون فيها ، أي يزدحمون .

فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة وبحجر الركن ، فدفنها في زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً .

⁽١) شعب بأعلى مكة . (٢) النس : الجدب ، والبس : التنتيت .

ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناف ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى ، وقريش إذ ذاك حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حُليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى .

ثم إن قُصَى بن كلاب خطب إلى حُليل بن حبشية ابنته حُبى ، فرغب فيه حُليل فزوجه ، فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العُزَّى ، وعبداً . فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حُليل فرأى قُصَى أنه أولى بالكعبة وبأمر الكعبة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً قرعة (١) إسماعيل بن إبراهيم وصربح ولده ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه .

وتزعم خزاعة : أن حُليل بن حبشية أوصى بذلك قُصَيّاً وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر ، وقال : أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها ، وبأمر مكة من خزاعة . فعند ذلك طلب قُصَىّ ما طلب .

ومن بعد قُصَى صار الأمر إلى ابنه عبد مناف ، ومن بعده إلى ابنه هاشم ، ومن بعد هاشم إلى أخيه المطلب بن عبد مناف ، ومن بعده إلى ابن أخيه عبد المطلب - جد الرسول على .

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر إذ أتى فأمر بحفر زمزم .

عن عبد الله بن زرير الغافقى ، أنه سمع عليّاً بن أبى طالب - كرِّم الله وجهه - يحدَّث حديث زمزم حين أمرَ عبد المطلب بحفرها ، قال :

قال عبد المطلب: إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال: احفر طيبة قال قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال: احفر برة . قال قلت: وما برة ؟ قال: ثم ذهب

⁽١) أي النخبة .

عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيد ، فجاءنى فقال : احفر المضنونة ؟ قال فقلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيد فجاءنى فقال : احفر زمزم ؟ قال قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل (١) .

وروى أنه قيل لعبد المطلب حين أمر بحفر زمزم :

ثسم أدع بالماء الروى غيسر الكدر يسقسى حجيسج الله في كل مبر ليس يخاف منه شئ ما عَمَر (٢)

فخرج عبد المطلب ، حين قيل له ذلك ، إلى قريش فقال : تعلموا أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم ، فقالوا : هل بُيِّن لك أين هى ؟ قال : لا ، قالوا : فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فإن يك حقاً من الله يبيِّن لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه ، فأتى فقيل له : « احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام حافل – أى كثير – لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفرث والدم » .

فرعموا أنه حين قيل له ذلك ، قال : وأين هي ؟ قيل له : عند قرية النمل ، حيث ينقر الغراب غداً .. والله أعلم أي ذلك كان .

⁽١) طيبة : لأنها للطيبين من نسل إبراهيم عليه السلام ، وقيل : برة لأنها فاضت على الأبرار، والمضنونة : ضُنُّ بها على غير المؤمنين ، ولا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا تذم : لا توجد قليلة الماء ، والأعصم من الغربان : الذى في جناحيه بياض ، والمراد بقرية النمل : أى الأرض التي لا تحرث ولا تزرع .

⁽٢) الروى : الكثير ، والحجيج : جمع حاج ، والمبر : مناسك الحج ومواضع الطاعة ، وعمر : يتى .

فلما بُيِّن لعبد المطلب شأنها ، وذلَّ على موضعها ، وعرف أنه صدى ، غدا ومعه ابنه الحارث - وليس له يومئذ ولد غيره - فوجد قرية النمل ، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين « أساف » و « نائلة » ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها . فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذُدُّ عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا أنه غير نازع (١) ، خلوا بينه وبين الحفر ، وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً ، حتى بدأ له الطي (٢) فكبّر وعرفوا أنه قد صدق ، فلما عادى في الحفر وجد فيها غزالين من ذهب - وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة - ووجد فيها أسيافاً قلعية (٣) وأدراعاً ، فقالت له قريش: يا عبد المطلب ، لنا معك في هذا شركٌ وحق ، قال : لا ، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم: نضرب عليها بالقداح (٤) ، قالوا: وكيف تصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين ، فمَن خرج له قدحاه على شئ كان له ، ومَن تخلف قدحاه فلا شئ له ، قالوا : أنصفت . فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا صاحب القداح الذي يضرب بها عند هُبَل ، وقام عبد المطلب يدعو اللَّهَ عَزُّ وجَلُّ ، فضرب صاحب القداح ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش ، فضرب عبد المطلب الأسياف والأدراع باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من ذهب . فكان أول ذهب حليته الكعبة - فيما يروون - ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج .

⁽١) غير نازع: أي غير كاف.

⁽٢) الطي : الحجارة التي طويت عليها البئر .

⁽٣) قلعية - نسبة إلى القلعة : جبل بالشام .

⁽٤) القداح: السهم الذي كانوا يستقسمون به .

ويروى أنه حين بدا لعبد المطلب طى البئر كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم ، فقالوا له : فأنصفنا فإنًا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد « هذيم » ، قال : نعم ، قال : وكانت بأشراف (١) الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر . قال : والأرض إذ ذاك مفاوز . قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم ، وقالوا : إنًا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه ، قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت ، قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة رئب جميعاً ، قالوا : نعْمَ ما أمرتَ به .

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا : لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتحلوا ، فارتحلوا . حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه .

ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل

⁽١) أي ما ارتفع من أرضه .

من قريش ، فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبينها » (١) .

ومن هنا نلمس التشابه التام بين البدايات والنهايات ..

فإسماعيل عليه السلام - جد العرب - كان سبباً في ظهور زمزم ، وعبد المطلب - جد الرسول علله - أعاد زمزم بعد أن طمرتها جرهم .

وإسماعيل - جد الرسول - هو الذبيح الأول ، وعبد الله - والد الرسول - هو الذبيح الثاني .. الأول فداه الله بكبش عظيم ، والثاني فداه بمائة من الإبل .

* * *

• الزواج المبارك (عبد الله وآمنة) :

مرّ بنا - فيما تقدّم - كيف نذر عبد المطلب حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم: لثن وُلِدَ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ..

ورأينا كيف جمع عبد المطلب بنيه حين توافوا عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وأخبرهم بنذره ، ثم كيف خرج القدح على عبد الله - والد الرسول - كما رأينا كيف فداه الله تعالى بمائة من الإبل . وكيف وفي عبد المطلب بنذره ونحر الإبل وتُركت ، لا يُصد عنها إنسان ولا سبع ...

ثم إن عبد المطلب انصرف - بعد نحر الإبل - آخذاً بيد ابنه عبد الله يبغى له زوجاً من بنى زهرة ... وفي طريقه مر به على امرأة من بنى أسد بن عبد العُزى

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - الصفحات من ٧ - ٩٢ بتصرف كبير .

وهى أم قتال رقيقة بنت نوفل ، أخت ورقة بن نوفل بن أسد - وهى عند ،
 الكعبة .. فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال: مع أبي.

قالت : لك مثل الإبل التي نُحرت عنك وقَعْ على الآن (!!) .

قال: أنا مع أبي ، لا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً ..

فرووا أنه دخل عليها حين أملكها - أى تزوجها - مكانه ... فوقع عليها ، فحملت برسول الله عليه ، ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟

قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة .

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب -أنه سيكون في هذه الأمة نبي .

« وعن أبى إسحاق بن يسار أنه حدّث: أن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وعمل في طين له ، وبه آثار من الطين .. فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين .. فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما به من ذلك الطين ، ثم خرج - عامداً إلى آمنة - فمر بها ، فدعته إلى نفسها فأبى عليها وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد على ، ثم مر بتلك المرأة فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مررت بى وبين عينيك غُرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها .

وكانت تلك المرأة تحدَّث: أنه مر بها وبين عينيه غُرَّة مثل غُرُّة الفرس، قالت: فدعوته رجاء أن تكون تلك بى ، فأبى على ودخل على آمنة فأصابها .. فحملت برسول الله ﷺ .

وفي هذا يقول أمير الشعراء أحمد شوقى في الهمزية النبوية :

بيت النبيِّيسن الذي لا يلتقسى إلا الحنائف فيه والحنفاءُ (٢) خيسرُ الأبوةِ حازَهم لَكَ (آدمٌ) دونَ الأنام ، وأحرزت حَواءُ هم أدركوا عِزُ النبوَّةِ وانتهت فيها إليكَ العِزَّةُ القعساءُ (٣) خُلقَتْ لبيتك ، وهو مخلوقٌ لها إنَّ العظائِمَ كَفُوها العظماءُ

ويروى أن آمنة بنت وهب - أم رسول الله ﷺ - كانت تحدَّث: أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: « أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » . . ثم سميه محمداً .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصْرَى من أرض الشام . ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب – والد الرسول على – أن مات ، وأم رسول الله على حامل به .

فعن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال : « خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير في عيران قريش يحملون تجارات .. ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومنذ مريض ، فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدى بن النجار .

فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة .. فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار ، وهو مريض .

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام – مرجع سابق – : ١٧/١ – ٩٨

⁽٢) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام ، والجمع : حنفاء ، والمؤنث : حنيفة ، وجمعها : حنائف . (٣) أى المنبعة الثابتة .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده « الحارث » ، فوجده قد توفى ودُفن فى دار النابغة ، فرجع إلى أبيه فأخبره . . فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً .

ورسول الله ﷺ يومئذ حمل ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة (٢) .

وورث رسول الله ﷺ من أبيه : أم أيمن ، وخمسة أجمال ، وقطيع غنم ، وسيفاً مأثوراً ، وورقاً ، وكانت أم أيمن تحضنه .

* * *

• مولد الهادى:

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى : وُلدَ الهُدَى ، فالكائنساتُ ضياءُ الرُّوحُ والمسلا الملائسكُ حَولَهُ والعرشُ يزهو ، والحظيرةُ تَزْدَهى وحديقة الفرقسان ضاحكة الربا والوحسى يقطرُ سَلْسَلاً من سلسل

وَفَسمُ الزُّمسانِ تبسُّسمُ وثناءُ للدَّيسن والدنيا بد بُشَسراءُ (٣) والمنتهَى ، والسَّدْرَةُ العصماءُ (٤) بالتسرجمانِ ، شَذيَّـةُ ، غنًاءُ (٥) واللسوحُ والقلمُ البديُّعُ رُواءُ (٦)

⁽١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ١/٥.٢

⁽٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير : ١/. ٢

 ⁽٣) الروح الأمين : لقب جبريل عليه السلام ، والملأ : الأشراف ، والملاتك : الملاتكة ، ويشراء :
 جمع بشير .

⁽٤) يزهو : يشرق ، وسدرة المنتهى : يقال إنها شجرة نبق على يمين العرش .

⁽٥) الرُّبا : جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض .

⁽٦) الرواء : ماء الوجه وحسن المنظر .

ثم يقول :

بِسك بَشُسر اللّه السّمساء فزيّنت وبسدا مُعَيِّساك الذي قسماتُه وعليسه مسسن نور النّبوة روْنق أثنى (المسيح) عليه خلف سمائه يسوم يتيه علسى الزمان صبّاحُه الحسق عالسى الركن فيه ، مُظَفّر في مُظفّر فيه ، مُظفّر فيه ، مُظفّر فيه ، مُظفّر والنار خساوية الجسوانب حولَهُم والنار خساوية الجسوانب حولَهُم نعسم اليتيم بَسدت مَخايل فضله ويقول في قصيدته « نهج البُردة » : ويقول في قصيدته « نهج البُردة » : تخطفت مُهَج (١٨) الطاغين من عرب تخطفت مُهَج (١٨) الطاغين من عرب

وتضوعت مسكا بيك الغبراء (۱) حسق ، وغُرِّتُ هدي وحَياء (۲) ومسن الخليسل وهديد سيماء (۳) وتهللت واهتزَّت (العذراء) (٤) ومساؤه (بمحمسد) وَضَاء فسي الملك ، لا يعلو عليه لواء وَعَسلت علسي تيجانهم أصداء خَمدَت ذَواثبُها ، وغاض الماء (٥) (جبريسل) رَوَّاح بها غَداء (٢)

نسم الشرق والغرب مَسْرَى النور في الظلم وطيُّسرت أنفُسَ الباغينَ من عجم

⁽١) تضوع المسك : انتشرت رائحته ، والغيراء : الأرض .

⁽٢) القسمة : بين الوجنتين والأنف ، وجمعها : قسمات .

⁽٣) الخليل: إبراهيم عليه السلام. (٤) العدراء: السيدة مريم.

⁽٥) خمدت النار: سكن لهيبها ، والذوانب: جمع ذؤابة ، وهي أعلى كل شئ .. والمراد بالذوائب هنا: ألسنة اللهب.

⁽٦) تترى : تتوالى ، ورواح غداء : أي يروح ويغدو . (٧) المخيلة : المظنة .

⁽٨) اللهج : جمع مهجة ، وهي : القلب .

- عن جابر وابن عباس رضى الله عنهما قالا : « وُلد رسول الله ﷺ عام الفيل ، يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بُعِث ، وفيه عُرِج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات » (٢).
- وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله الله الله ولد يوم الاثنين ، واستنبئ يوم الاثنين ، وخرج من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين ، ورفع الحجر يوم الاثنين » (٣).
- وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال: يا رسول الله، ما تقول فى صوم يوم الاثنين ؟ فقال: « ذاك يوم وُلدتُ فيه ، وأنزل على فيه » (٤) .
- وذكر السهيلى: أن مولده صلى الله عليه وسلم كان فى العشرين من إبريل وهذا أعدل الزمان والفصول وذلك لسنة ٨٨٢ لذى القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج.

ويقال: إن الطالع كان لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشترى وزحل مقترنين ثلاث درج من العقرب - وهى درجة وسط السماء - وكان موافقاً من البروج « الحمل » .. وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل .. والله أعلم .

⁽١) ربعت : ذعرت وخانت ، وشرف : جمع شُرفة وهي ما يوضع على القصور ونحوها ، والقدم : جمع قدوم ..

روى أن شُرف الإيوان - وهو مأوى سلطان الأكاسرة - ارتجت وهوت ليلة مولده صلى الله عليه وسلم - لم تعمل فيها المعاول ، ولم تهدمها القُدُم ، بل تداعت من صدمة الحق ، وكانت هذه الحادثة إرهاصاً بأن مُلك الأكاسرة قد أوشك على الزوال ، وأنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ملكاً ، فملك عشرة في أربع سنين ، وأربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه ، وبهذا انتهى ملكهم .

⁽٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وهو المشهور عند الجمهور .

⁽٣) رواه أحمد . (٤) رواه مسلم .

والشائع: أنه - صلى الله عليه رسلم - ولد نى الثالث والعشرين من شهر إبريل عام واحد وسبعين وخمسمائة المبلادية (٢٣ إبريل سنة ٥٧١ م) - عام الفيل - إذ كان قدوم الفيل - كما يذكر أبو جعفر الباقر رضى الله عنه - للنصف من المحرم، ومولده صلى الله عليه وسلم بعده بخمس وخمسين ليلة.

* * *

• قصة أصحاب الفيل:

يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ طَيْراً أَبابِيلَ * تَرْمِيهِم يَجْعَلُ كَيْدُهُمْ طَيْراً أَبابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْف مِأْكُولٍ ﴾ (١).

وكان من أمر الفيل: أن أبرهة الأشرم ، لما استقر له الأمر بأرض اليمن بنى القليس - وهى كنيسة لم يُر مثلها فى زمانها بشئ من الأرض .. ثم كتب إلى النجاشى: إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

وقد استذل في بناء هذه الكنيسة أهل اليمن ، وسخّرهم فيها أنواع من السُخر .. فكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة .. وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة .. وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة .. وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس .. وجعل ارتفاعها عظيماً جداً ، واتساعها باهراً .

فلما تحدُّثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى ، غضب رجل من كنانة حتى أتى « القليس » فأحدث فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه . فأخبر أبرهة بذلك فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا .

⁽١) سورة الفيل كاملة .

فغضب أبرهه عند ذلك ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . . ثم سار وخرج معه بالفيل .

وسمعت العرب بذلك فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له « ذو نفر » فدعا قومه ومَن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وخرابه .. فأجابه مَن أجابه إلى ذلك .

ثم عرض لأبرهة فقاتله فهُزِم « ذو نفر » وأصحابه ، وأخذ له « ذو نفر » فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له « ذو نفر » : أيها الملك ، لا تقتلنى ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل . فتركه وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له .. حتى إذا كان بأرض « خثعم » عرض له « نفيل بن حبيب الخثعمى » - من قبيلتى خثعم وهما شهران وناهس - ومن تبعه من قبائل العرب .. فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له « نفيل » أسيراً ، فأتى به فلما هُمُّ بقتله قال له : أيها الملك ، لا تقتلنى ، فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم - شهران وناهس - بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله وخرج به معه يدله .

حتى إذا مر بالطائف ، خرج إليه « مسعود بن معتب » فى رجال من ثقيف فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد – يعنون اللات – إنما تريد البيت الذى بحكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم .

وكان « اللات » بيت لهم بالطائف يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ..

ثم إنهم بعثوا معه « أبا رغال » يدله على الطريق إلى مكة .. فخرج أبرهة

ومعه « أبو رغال » حتى أنزله بالمغمس ، فلما أنزله به مات « أبو رغال » هنالك ، فرجمت العرب قبره ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له « الأسود بن مقصود » على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة «حناطة الحميرى » إلى مكة ، وقال له : سَلُ عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قُلُ له : إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئتُ لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم .. فإن هو لم يرد حربى فائتنى به .

فلما دخل « حناطة » مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة .

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة .. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن كان يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال له حناطة : فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن « ذى نفر » - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : يا ذا نفر ، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيد ملك ينتظر أن يقتلد غدواً أو عشياً ! ما عندى غناء في شئ مما نزل بك ، إلا أن « أنيساً » سائس الفيل صديق لى ، فأرسل إليه وأوصيه بك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك .. فقال : حسبى .

فبعث « ذو نفر » إلى « أنيس » فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل .

فكلم أنيس « أبرهة » فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فائذن له عليك فيكلمك في حاجته . . فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أجَلّه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه .

ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟!

فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربأ سيمنعه .

فقال : ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك .

فرد على عبد المطلب إبله.

ويقال : إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة « يعمر بن نفاثة » سيد بنى بكر ، و « خويلد بن وائلة » سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم ذلك ..

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُــــم إن العبـد يــ نع رحله ، فامنع رحالك لا يغلبــن صليبهــم وقبـ ملتنا فأمــر ما بــدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومَن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل .

فلما أصبح أبرهة ، تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبأ جيشه - وكان اسم الفيل محمود - فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل « نفيل بن حبيب » حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت ، فإنك في بلد الله الحرام . وأرسل أذنه ، فبرك الفيل - أى سقط إلى الأرض - وليس من شأن الفيلة أن تبرك !!

ثم إن نفيلاً بن حبيب خرج يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين (٢) ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن (٣) لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ثم وجهوه إلى مكة فبرك !!

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر - أمثال الخطاطيف والبلسان (٤) - مع كل

⁽١) أي قوتهم ويأسهم . (٢) آلة معقوفة من حديد .

⁽٣) المحاجن : عصى معرجة قد يجعل فيها حديدة . وتبزغوه : أي ضربوه حتى أدموه .

⁽٤) هي الزرازير .

طائر منها ثلاثة أحجار يحملها .. حجر في منقاره ، وحجران في رجليد أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت (١) .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن .. وأخذوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل .. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أغلة أغلة ، كلما سقطت أغلة اتبعتها منه مدة (٢) ترشح قيحاً ودماً ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر .. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه .

وعن عبيد بن عامر قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار: حجرين في رجليه وحجراً في منقاره . قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها .. فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شئ من جسده إلا خرج من الجانب الآخر ، وبعث الله ربحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

ويقال: إن السيل احتمل جثههم فألقاها في البحر (٣).

كانت واقعة الفيل - كما يقول السهيلى - أول المحرَّم سنة ٨٨٢ من تاريخ ذي القرنين .. وفي ذلك العام ولد رسول على المشهور ..

فكأنما كانت هذه الحادثة العظيمة إرهاصاً بأن تطهير البيت من الأوثان وإخلاصه لله تعالى وحده ، سوف يكون على يدى ذلك الوليد العظيم عندما يأذن الله عبعثه ..



⁽١) يعنى : بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال .

⁽٢) أي الصديد .

⁽٣) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - : ١/ . ٣ - ٣٨ بتصرف .

• إرهاصات .. وبشريات :

أوشكت شمس التوحيد أن تشرق ويعم نورها الآفاق ، وبدت طلاتع الفجر السابق لميلاد نبى الهدى تنتشر في الأرجاء .

وتوالت الآيات والنبوءات تبشر باقتراب مبعث نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، حتى ترتفع راية التوحيد عالية خفاقة قملاً أركان المعمورة الأربعة ، وتتهاوى رموز الشرك وعبادة الأوثان والأنداد من حول الكعبة : أول بيت وضعه الله للناس في الأرض .

فتنبأ ببعثه - صلى الله عليه وسلم - العرافون والكهان ، كما تنبأ به علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى .. وتوالت البشارات في الكتب السابقة حتى تكون حُبِّة على أصحابها يوم القيامة ..

● كان ربيعة بن نصر ملك اليمن ، بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى ، وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كل الملك يريد هذا فليبعث إلى « سطيح » و « شق » (١) ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث الملك إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ، فقال له : إنى رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . قال :

⁽۱) اسم سطیح : ربیع بن ربیعة بن مسعود بن مازن بن ذنب بن عدی بن مازن غسان ، وشق : ابن صعب بن یشکر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أغار بن نزار ، وأغار أبو بجيلة وخثعم .

وقالت اليمن ويجيلة : أغار : ابن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبايوت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ . ويقال : أراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث . ودار بجيلة وخثعم يمانية .

أفعل ، رأيت حممه ، خرجت من ظلمه ، فوقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمة (١) .

فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فلتملكن ما بين أبين إلى جرش (٢) .

فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، قمتى هو كائن ؟ أفى زمانى هذا ، أم بعده ؟

قال: لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال: لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتَلون ويُخرَجون منها هاربين .

قال : ومَن يلي من ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال: أفيدوم ذلك من سلطانه ، أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع . قال : ومَن يقطعه ؟

قال : « نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبّل العلى » .

قال : وممن هذا النبي ؟

قال: « رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر » .

⁽١) الحممة : الفحمة . من ظلمة : من ظلام ، يعنى من جهة البحر ، أى خروج عسكر الحبشة . من أرض السودان ، التهمة : الأرض ناحبة البحر ، ذات جمجمة : أى صاحبة نفس .

⁽٢) الحرتين : الحرة أرض فيها حجارة سود . وأبين : موضع في جبل عدن . جرش : قيل إنها مدينة بالبمن .

قال: وهل للدهر من آخر؟

قال : « نعم ، يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون » .

قال : أحق ما تخبرنى ؟ . قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك بد لحق .

ثم قدم عليه « شق » ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال : نعم ، رأيت حممه ، خرجت من ظلمه ، فوقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات نسمه .

فلما قال له ذلك ، وعرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سطيحاً قال : « وقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمه » ، وقال شق : « وقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات نسمه » .

قال له الملك : ما أخطأتَ يا شق منها شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟

قال: أحلف بها بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال له الملك : وأبيك يا شق ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفي زماني ، أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان .

قال: ومَن هذا العظيم الشان؟

قال : غلام ليس بدني ، ولا مدن ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن .

قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : « بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل » .

قال: وما يوم الفصل؟

قال: « يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات » .

قال: أحق ما تقول؟ قال: إى ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (١١).

فوقع فى نفس ربيعه بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له « سابور بن خرزاذ » فأسكنهم الحيرة .. فمن بقية ولد ربيعة بن نصر « النعمان بن المنذر » ، فهو فى نسب اليمن وعلمهم : النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ابن ربيعة بن نصر ، ذلك الملك – ويقال : النعمان بن المنذر بن المنذر ألى الملك ألى الملك بين المنذر بن المنذر بن المنذر ألى الملك ألى الملك الملك ألى المندر بن المنذر بن المنذر بن المنذر ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى المنذر بن المنذر بن المنذر ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى الملك ألى المنذر بن ا

*

• وعن أبى بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ، عن أبيه ، عن جده قال : سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال : بينما أنا نائم فى الحبر ، إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديدا ، فأتيت كاهنة قريش وعلى مطرف خز ، وجمتى تضرب منكبى ، فلما نظرت إلى عرفت فى وجهى التغير ، وأنا يومئذ سيد قومى ، فقالت : ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شئ ؟ فقلت لها : بلى ا

وكان لا يكملها أحد من الناس حتى يُقبَّل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ، ثم يذكر حاجته . . ولم أفعل لأنى كنت كبير قومى .

فجلستُ فقلت : إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر ، كأن شجرة نبتت ، قد

⁽١) أمض : أي شك بلغة حمير ، وقال أبو عمرو : أمض : أي باطل .

⁽٢) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - ص . ١ - ١٢ بتصرف .

نال برأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيتُ نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ، ورأيتُ العرب والعجم ساجدين لها وهى تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ، ساعة تخفى ، وساعة تزهر .

ورأيتُ قوماً من قريش قد تعلقوا بأغصانها .

ورأيتُ قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخَّرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجها ، ولا أطيب منه ربحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم .

فرفعتُ يدى لأتناول منها نصيباً فمنعنى الشاب .. فقلت : لمن النصيب ؟ فقال : النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها .. فانتبهتُ فزعاً .

يقول عبد المطلب : فرأيتُ وجه الكاهنة قد تغيّر ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل علك المشرق والمغرب ، ويدين له الناس .

ثم قال - يعنى عبد المطلب - الأبي طالب : لعلك تكون هذا المولود .

قال: فكان أبو طالب يحدِّث بهذا الحديث بعد ما وُلِد رسول الله ﷺ وبعد ما بُعث .. فيقال لأبى طالب: ما بُعث .. فيقال لأبى طالب: ألا تؤمن ؟ فيقول: السُبة والعار! (١١) .

*

• وروى الخرائطى أنه « لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى ، وسفطت منه أربع عشرة شُرفة ، وخُمدت نار فارس - ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة . ورأى المربذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم .

فلما أصبح كسرى أفزعه ذنك فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مراذبته ، فجمعهم ولبس تأبيه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم ، فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك .

⁽١) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة .

فبينما هم كذلك ، إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازدادوا غماً إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله .

فقال المربذان : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيتُ في هذه الليلة رؤيا .. ثم قص عليه رؤياه في الإبل . فقال : أي شئ يكون هذا يا مربذان ؟ . قال : حدث يكون في ناحية العرب .. وكان أعلمهم من أنفسهم .

فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر .. أما بعد : فوجِّه إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه .

فوجّه إليه بـ « عبد المسيح بن عمرو بن حيان » الغسانى .. فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال : لتخبرنى ، أو ليسلنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم .. فأخبره بالذى وجّه به إليه فيه . قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له « سطيح » . قال : فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح .. فسلم عين وكلمه ، فلم يرد إليه سطيح جواباً .

فأنشده شعراً ، فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، قد أوفى على الضريح .. بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المربذان .. رأى إبلاً صعابا ، تقود خيلاً عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها !!

يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نيران فارس : فليس الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت !!

ثم قضى سطيح مكانه ، فنهض عن المسيح إلى راحلته .

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قاله له سطيح .. فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً ، كانت أمور وأمور !! فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه .. وكان آخر ملوكهم – الذى سُلِب منه الملك « يزدجرد بن شهريار بن أبرويز ابن هرمز بن أنوشروان » – وهو الذى انشق الإيوان فى زمانه – وكان لأسلافه فى الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة (١) .

*

• وعن وهب بن منبه أن « بختنصر » بعد أن خرب بيت المقدس ، واستذل بنى إسرائيل بسبع سنين ، رأى فى المنام رؤيا عظيمة هالته ، فجمع الكهنة والحراز ، وسألهم عن رؤياه تلك فقالوا : ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها . فقال : إنى نسيتها ، وإن لم تخبرونى بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم .

فذهبوا خائفين وجلين من وعيده ، فسمع بذلك دانيال - عليه السلام - وهو في سجند فقال للسجان : اذهب إليه فقل له : إن ههنا رجلاً عنده علم رؤياك وتأويلها .

فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له ، فقال له : مامنعك من السجود لى ؟ فقال : إن الله آتانى علماً وعلمنى وأمرنى أن لا أسجد لغيره . فقال له بختنصر : إنى أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود ، فأخبرنى عن رؤياى .

قال دانيال للملك : « أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثال العظيم البهى جداً وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد . صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس . ساقاه من حديد . قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف . كنت تنظر إلى أن قُطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر في

⁽١) رواه محمد بن إسحاق .

الصيف ، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها . هذا هو الحلم » (١١) .

ويفسر دانيال الرؤيا بقوله: « أنت أيها الملك ملك ملوك ، لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً . وحيثما يسكن بنو البَشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعاً ، فأنت هذا الرأس من ذهب . وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض . وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شئ ، وكالحديد الذى يُكَسَّر تَسحق وتكسر كل هؤلاء . وبما رأيت القدمين والأصابع كلها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ، ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين . وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف ، فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصماً . وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفي أيام هؤلاء ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفي أيام هؤلاء وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قُطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين » (٢) .

وعلى هذا فإن تعبير ذلك الحلم:

- ١ الرأس من ذهب: المملكة البابلية (٥٨٦ ٣٣٥ ق . م) .
- ٢ الصدر والذراعان من فضة : المملكة الفارسية (٥٣١ ٣٣٠ ق . م) .
- ٣ البطن والفخذان من نحاس : المملكة المقدونية (٣٣٠ ٣٢٣ ق . م) .
- ٤ الساقان من حديد : الإمبراطورية الرومانية (البطالسة) (٣٢٣ ٢.٣ ق. م) .

⁽۱) سفر دانیال ۲ : ۲۱ – ۲۲ ٪ ٪) سفر دانیال ۲ : ۲۷ – ۵۵

0 – القدمان بعضهما من حديد والبعض من خزف : الدولة البيزنطية فى الشرق (1.7 – 1.7 ق . م) ، والمكابيون اليهود (1.7 – 1.7 ق . م) والدولة الرومانية فى الغرب (1.3 ق . م – 1.00 م) .

٦ - الحجر الذي قُطع بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما : الأمة الإسلامية (٦٣٣ م - تاريخ فتح القدس على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه) (١) .

* * *

• وعن هذه الخوارق يقول الإمام البوصيري - رحمه الله - في بردة المديح :

يَا طِيبَ مُبْقَبِ مَا مِنْهُ وَمُخْتَمَمِ
قَدْ أُنْهِ ذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ (٤) وَالنَّقَمِ
كَشَمْ لِ أَصْحَابَ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ (٧)
عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِى العَيْنِ مِنْ سَدَم (٨)
وَرُدُّ وَارِدُهَا (١١) بِالغَيْظِ حِينَ ظميى (١٢)
حُزْناً ، وَبِالمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَم (١٣)

أبَانَ مَولِدُه عَنسَ طيبِ عَنْصُرِهِ (٢) يَسومٌ تَفَرَّسَ أَنَّهُمُ يَسَرِهُ تَفَرَّسَ أَنَّهُمُ وَهُوَ مُنْصَدِعٌ (٦) وَهُو مُنْصَدِعٌ (٦) وَهُو مُنْصَدِعٌ (٦) وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِن أَسَف وَسَاءَ سَاوَةَ (١) أَنْ غَاضَتُ بُعَيْرَتُهَا (١١) وَسَاءَ سَاوَةً (١) أَنْ غَاضَتُ بُعَيْرَتُهَا (١١) كَانُ بِالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِن بَلَسلِ

 ⁽۱) محاضرات في مقارنة الأديان ، للأستاذ إبراهيم خليل أحمد ، نشر دار المنار سنة ١٩٨٩
 ص ٧٤ بتصرف .

⁽٢) عنصره : أصله ، يعنى ما أطيب بدايته ونهايته .

 ⁽٣) تفرس: ترسم وتعرف بالظن الصائب.
 (٤) البؤس: العذاب والخوف.

⁽٥) الإيوان : بيت مستطيل ، وكسرى ملك الفُرس .

⁽٦) منصدع : متشقق . (٧)

 ⁽٨) سدم : هم أو غيظ مع حزن .
 (٩) ساوة : بلد من بلاد الفُرس بين الري وهمذان .

٩) ساوة : بلد من بلاد الفرس بين الرى وهمذان . (١٠) غاضت بحيرتها : جف ماؤها .

⁽۱۱) واردها : الآتي بها لبستقي .

⁽١٣) تخيل البوصيرى - رحمه الله - أن النار والماء لفرط حزنهما على ملك كسرى انعكست طبيعتاهما ، فانقلب توهج النار بللأ ، وبلل الماء ضرماً .

وَالجِسِنُ تَهِتِفُ وَالأَنْسِوَارُ سَاطِعَةً عَمُسُوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ عَمُسُوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ مَسِنْ بَعْسِدِ مَا أُخْبَرَ الأَقُوامَ كَاهِنُهُمْ وَبَعْسِدَ مَا عَايَنُوا فِي الأَفْقِ مِنْ شُهُبِ حَتَّسَى غَدا عَنْ طَرِيقِ الوَحْي مُنْهَزِمٌ حَتَّسَى غَدا عَنْ طَرِيقِ الوَحْي مُنْهَزِمٌ كَانَّهُسَمُ هَسِرِباً أَبْطَالُ أَبْرَهَسَةً (٣) كَانَّهُسَمُ هَسِرِباً أَبْطَالُ أَبْرَهَسَةً (٣) نَبْسِدًا بِهِ لَا لَهُ عَلَى المَالُ أَبْرَهَسِةً بِبَطْنِهِمِا نَبْسِدًا بِهِ بِنَطْنِهِمِا

تُسْمَعُ وَبَارِقَتُ الإنْ ذَارِ لَمْ تُسَمَّمِ (١) بِأَنَّ دِينَهُ سَمُ الْمُعْسَوَعُ لَمْ يَقُسَمِ مِنْ صَنَمِ مُنْقَضَّةً وَفْقَ (٢) مَا في الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ مِنْ الشَّيَاطِيسِنِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزَمِ مِنْ الشَّيَاطِيسِنِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزَمِ أُو عَسْكُسرُ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهُ رُمِي أَوْ عَسْكُسرُ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهُ رُمِي نَبْسَدَ المُسَبِّحِ (٥) مِنْ أَحْشَاء مُلْتَقَمِ نَبْسَدَ المُسَبِّحِ (٥) مِنْ أَحْشَاء مُلْتَقَمِ

وَالْحَقُّ يَظْهُــرُ مِـن مَعْنَـى وَمَن كَلم

€ ويقول أمير الشعراء أحمد شوتى في نهج البردة :

سَسَرَّت بشائِسَسُ بالهادى ومسولِده تخطَّفتُ مُهَسَجَ (٦) الطَّاغين من عرب ربعتُ لها شُرَفُ الإيوان ، فانصدعت

نَى الشرقِ والغربِ مَسْرَى النور فى الظّلمِ وَطَيِّسرت أَنفُسَ الباغيسنَ مسن عَجَم من صدمة القُدُم (٧)

⁽۱) لم تشم ؛ لم تر .

⁽٢) وفق : أي موافقة في سقوطها لسقوط الأصنام في الأوض .

⁽٣) أبرهة : كان ملكاً للبمن من قبل نجاشي الحبشة قبل البعثة ، أراد هدم الكعبة فأهلكه الله وجيشه بطير ألقت عليهم حجارة ، وقصته مذكورة في القرآن .

⁽٤) نبذاً به: أي رمياً به - أي بالحصى .

⁽٥) المسبح : المراد به : يونس عليه السلام ، إذ قال : ﴿ لاَ إِلّٰهَ إِلاَ أَنتَ سُبْحَانُكَ إِنِّي كُنتُ مِنّ الظّالِمِينَ ﴾ فنبذه الحوت الذي كان قد التقمه من أحشائه . والمعنى أن آية نجاة محمد ﷺ من قومه – إذ بيتوا قتله ، وذلك برميهم بالحصى بعد تسبيحها في راحتيه ، وحجب الله عنه أبصارهم –كآية نجاة يونس عليه السلام بنبذ الحوت إياه عند تسبيحه في بطنه .

⁽٦) المهج : جمع مهجة وهي دم القلب .

⁽Y) ربعت : أي ذعرت وخانت ، وشُرَك : جمع شرفة وهي ما يوضع على أعالي القصور ونحوها ، والقُدُم : جمع قدوم .

أتيت والناس فوضي لا تمسر بهم والأرض مملسؤة جسورا ، مُسخرة مُسخرة مُسينطسر الفرس يبغى (٢) في رعيته مُسيطسر الفرس يبغى الله فسي شبه مُسه والخلسق يَفتسك أقواهم بأضعفهم

إلاَّ على صَنَم ، قد هام (١) في صَنَم لك الكَّلِي صَنَم لك الكَلِي مُحْتَكِم وقيص الخَلْق مُحْتَكِم وقيص وقيص ألروم مسن كبسر أصم عَم ويذبح ان كم اضحيت بالغنسم كالليث بالبَه ، أو كالحوت بالبَلم (٣)

ورُوى فى غير موطن أن البُشرى بمولده صلى الله عليه وسلم شاعت فى الأرض والسماء ، واتصلت بجميع الكائنات .

كما أن العلامات التى دلّت على مولده صلى الله عليه وسلم قد روّعت أهل السطوة والظلم من عرب وعجم ، واعتصرت قلوبهم وأطارت نفوسهم فَرَقاً . وذلك لما علموا من اقتراب الساعة التى يُملكون فيها عن الناس وتُغَل فيها أيديهم عن ظلم العباد ويُحاسبون على ما أسرفوا ، ويؤخذون بما اقترفوا ، وأن على الباغى تدور الدوائر .

فشُرَف الإيوان - وهى مثوى سلطان الأكاسرة ومظهر سطوتهم وبأسهم - قد ارتجت وهوت ليلة مولده صلى الله عليه وسلم لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القُدُم ، بل تداعت وخرَّت من صدمة الحق المبعوث به صلى الله عليه وسلم للباطل الذى فيه أهلها : ﴿ بَلْ نَقْذُفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُو زَاهِقٌ ﴾ (٤) .

روى البيهقى وأبو نعيم والخرائطى وابن عساكر خبر ارتجاج الإيوان وسقوط أربع عشرة شُرْفة منه . وقال ابن حجر في شرح الهمزية : ومن عجائب ولادته

⁽١) هام : يهيم هياماً ، والهيام : شدة الوجد . (٢) البغي : هو التعدي .

⁽٣) البَّهُم : جمع بهيمة وهي ولد الضأن والمعز ، والبلم : صفار السمك .

⁽٤) الأنبياء: ١٨

صلى الله عليه وسلم انهدام إيوان كسرى - أى انشقاقه بيناً آل به إلى خرابه - ولولاه ما تداعى البناء - مع ما هو عليه من العظم والإحكام الذى يظن به أن لا تهدمه إلا نفخة الصور ، فإذا هو قد تحرك وسقط منه أربع عشرة شُرُفة للدلالة على نبوته ، وأنه لا عز يبقى لأمر مع عزه .

وسر كونها أربع عشرة : أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ، فعلك عشرة في أربع سنين ، وأربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه ، وبذلك انتهى مُلكهم .

بُعث - صلى الله عليه وسلم - والناس فى جاهليتهم الجهلاء لا يؤخذون بنظام ، ولا يجرون فى أمورهم على حكم معقول ، بل قد فسدت فطرهم وافتتنت عقولهم إلى حد العكون على الأصنام واتخاذها للعبادة واستكفائها الضر والأذى . ومن كان هذا شأنه فى ضعف العقل وجمود الفكر وعدم التمييز بين النافع والضار ، كان هو والحجر الذى يعبد بمنزلة سواء ، فذلك قوله : « إلا على صنّم قَدْ هام فى صنّم » .

ولقد كان الناس فى كل أرض كأنهم فى دار حرب يستعر لهيبها من القتل والفتك والسلب والنهب. دع وأد البنات وهتك الحرمات. وكان كل ملك طاغية فى قومه ، ظلاماً فى حكمه ، يأمر ولا راد لأمره ، ويقضى بالجور ولا دافع لقضائه ، اللهم إلا أفراداً قلائل يسنحون فى عرض التاريخ سنوحاً فيخطر عدلهم فى خلال الظلمات المتكافئة ، خطرة البرق بدا ثم اضمحل.

وكذلك كانت الحال فى دولة الفُرْس عند مبعثه صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت الفوضى فى بيت الملك والظلم فى الرعية بيد القائم المتسلط عليه . كما كانت الحال فى دولة الروم أدهى وأمر ، فقد كانت قياصرتهم أهل غطرسة وجبروت ، قد أبطرتهم النعمة وأعماهم الاختيال وأصمتهم الكبرياء ، فلا يرون لمخلوق حقاً عليهم ، بل يعتقدون أن الخلق مسخر لأمرهم ، وأن الناس ما كانوا الالبحرى عليهم عسفهم وظلمهم .

وإغا اختص الشاعر بالذكر دولتى فارس والروم لأنهما كانتا أعرف دول

الأرض وأقواها في ذلك الحين ، ولأنهما كانتا أشد من غيرهما علامة وأقرب جواراً لجزيرة العرب التي بُعِث فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وقد فصّل الشاعر وجوه الظلم الذى كان منتشراً فى ذلك الزمان ، وأن تعذيب الناس كان يجرى على الشُبّه والأوهام ، وأن أرواح العباد كانت تُزهق بالوشايات والسعايات ، وينطلق سيف الظالم بالقتل فى الناس لأوهن الأسباب كما تنطلق سكين القصاب بالذبح فى الغنم يوم التضحية .

وشأن الناس أنه متى أطلقوا ولم يكفهم وازع من دين أو سلطان ، غلبت عليهم فطرتهم الحيوانية فسطا كبيرهم بصغيرهم ، وفتك قويهم بضعيفهم ، كما يفترس الليث ضعاف الحيوان ، وكما تأكل كبار السمك صغارها (١).

هكذا كان شأن الناس حين بعث الله رسوله ﷺ .

* *

● وروى الخرائطى فى « هواتف الجان » : أن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، يذكران أنهما أتبا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة . قالا : فلما دخلنا عليه قال لنا : أصدقانى أيها القرشيان ، هل وُلِد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونُحرت عنه إبل كثيرة ؟ . قلنا : نعم .

قال : فهل لكما علم به وما فعل ؟

قلنا : تزوج امرأة يقال لها « آمنة بنت وهب » تركها حاملاً وخرج .

قال : فهل تعلمان وُلد أم لا ؟

قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك ، إنى ليلة قربت عند وثن لنا كنا نطيف به ونعبده ، إذ سمعت في جوفه هاتفا يقول :

⁽١) وضح النهج ، للشيخ سليم البشرى ، مرجع سابق ص ٥٥ - ٥٩ بتصرف .

ولد النبسى فذلت الأمسلاك ونأى الضلال وأدبر الإشراك ثم انتكس الصنم على وجهه .

فقال عمرو بن نفيل : عندى كخبره أيها الملك . قال : هات .

قال: أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه ، خرجتُ من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة ، حتى أتيتُ جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابنى ، إذ رأيت رجلاً نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبى قبيس ثم أشرف على مكة فقال: ذلا الشيطان ، وبطلت الأوثان ، ولد الأمين ..

ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب ، فرأيته قد جلل ما تحت السماء ، وسطع نور كاد أن يختطف بصرى ، وهالنى ما رأيت ، وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة ، فسطع له نور أشرقت له تهامة . وقال : ذكت الأرض وأدّت ربيعها .. وأومأ إلى الأصنام التى كانت على الكعبة فسقطت كلها ...

قال النجاشى : ويحكما !! أخبرانى عما أصابنى ، إنى لنائم فى الليلة التى ذكرتما فى قبة وقت خلوتى ، إذ خرج على من الأرض عنق ورأس يقول : حُلُّ الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم ، المعتدى المجرم ، ووُلِّد النبى الأمى ، المكى الحرمى .. مَن أجابه سعد ، ومَن أباه عتد .

ثم دخل الأرض فغاب ، فذهبتُ أصيح فلم أطق الكلام ، ورُمْتُ القيام فلم أطق القيام ، ورُمْتُ القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدى ، فسمع بذلك أهلى فجاءونى فقلت : احجبوا عنى الحبشة . فحجبوهم عنى ثم أطلق عن لشانى ورجلى .

*

• وعن عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن - واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله عليه

يسنتين .. أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من حم بلائه .

وأتاه فيمن أتاه وفود قريش ، فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وخويلد بن أسد .. في أناس من و قريش ، فقدموا عليه صنعاء فإذا به في رأس غمدان الذي ذكره أصية أبي الصلت :

واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس غمدان داراً منك محلالاً فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذته الكلام ، فقال له : إن كنت بمن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك . فقال عبد المطلب : إن الله قد أحلك – أيها الملك – محلاً رفيعاً ، صعباً متيع شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصل وبسق فرعه ، في أكرم موطن وأطيب معدن ..

فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد ، ورأ العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي يلجأ إلى العباد ، وسلفك خير سكف ، وأنت منهم خير خلف ، فلن يخمل من هم سكف ولن يهلك من أنت خَلفه .. ونحن - أيها الملك - أهل حرم الله وسدنة بيت أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا ، فنحن والتهنئة ، لا وقد المرزئة .

قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم ، قال: ابن أختنا ؟ قال: نعم . قال: إ

ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال : مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستنتا

سهلاً ، وملكاً ربحلاً - أى كثير العطاء - يعطى عطاءً جزلاً .. قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم .. فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا أشهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف .. ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ، ثم قال : يا عبد المطلب ، إنى مفض إليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره .

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا واحتجبتاه دون غيرنا خبراً عظيماً ، وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ..

فقال عبد المطلب : أيها الملك ، مثلك سر وبر ، فما هو - فداؤك أهل الوير زمراً بعد زمر ؟

قال : « إذا وُلدَ بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، ألى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب : أبيتَ اللعن ، لقد أبتُ بخير ما آب به وافد ، ولولا هيية الملك وإجلاله وإعظامه ، لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سروراً .

قال ابن ذى يزن: « هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد ، واسمه محمد ، يوت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ، ويخمد النيران ، يعيد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله » .

فقال عبد المطلب: أيها الملك، عزّ جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهذا نجارى - أى أصلى - فهل الملك سار لى بإفصاح، فقد أوضح لى بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذى يزن: « والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النصب ، إنك - يا عبد المطلب - لجده غير كذب » .

فخرَّ عبد المطلب ساجداً ، فقال : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك .. فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك ؟

فقال : أيها الملك ، كان لى ابن وكنتُ به معجباً ، وعليه رفيقاً ، فزوجته كريمة من كرائم قومه ، آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه .

فقال ابن ذى يزن: « إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق : أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره .. ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنة أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك ، عن غير تقصير بمن معك » .

قال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء ، وبمائة من الإبل ، وحلّتين من البرود ، وبخمسة أرطال من الذهب ، وعشرة أرطال فضة ، وكرش مملوء عنبراً .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحَوَّل فائتنى .. فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحَوَّل . فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك، وإن كثر، فإنه إلى نفاد .. ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه.

فإذا قيل له: متى ذلك ؟ قال: سيعلم ولو بعد حين (١).

*

• وعن حسان بن ثابت رضى الله عنه قال: والله إنى لغلام يفعة (٢)، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود - حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك، ما لك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به (٣).

قال محمد بن إسحاق: فسألتُ سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فقلت: ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله الله المدينة ؟ فقال: ابن ستين ، وقدمها رسول الله الله الله وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين .

*

● وعن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة – رضى الله عنهم – قالت : كان يهودى قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التى وُلد فيها رسول الله تشخ قال فى مجلس قريش : يا معشر قريش ، هل وُلد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه . فقال : الله أكبر ، أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : وُلد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عُرف فرس .

⁽١) رواه الخرائطي ، وأبو نعيم .

⁽٢) غلام يفعة : غلام قوى قد طال قده ، والأطمة : الحصن .

⁽٣) قال اليهود ذلك اعتماداً على ما جاء في الإصحاح التاسع من سفر دانيال (١: ٢٤ - ٢٧).

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد والله وُلِدَ لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً .

فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودى ، وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ . فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى فأخبروه الخبر . قال : فاذهبوا معى حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا : أخرجى إلينا ابنك . فأخرجته وكشفوا عن ظهره ، ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودى مغشياً عليه ، فلما أفاق قالوا له : مالك ، ويلك ؟ قال : قد ذهبت – والله – النبوة من بنى إسرائيل ، فرُحْتم بها يا معشر قريش ؟ والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب (١) .



- وعن عثمان بن أبى العاص ، قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته .. قالت : فما شئ أنظره فى البيت إلا النور ، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : لتقعن على .
- ويروى أن الشُفاء أم عبد الرحمن بن عوف كانت قابلته ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلاً يقول : يرحمك الله .

وأنه سطع منه نور رئيت منه قصور الروم . ووقع - صلى الله عليه وسلم - إلى الأرض جاثياً على ركبتيه ، معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عند قال: ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً - أى مقطوع الختان ، مقطوع السرُّة - من بطن أمد .

⁽١) رواه ابن إسحاق .

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من كرامتي على الله أنى وُلدتُ مختوناً ولم ير سوأتي أحد » (١) .
- وعن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، دعانى إلى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك: رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بأصبعك، فحيث أشرت إليه مال. قال: « إنى كنت أحدثه ويحدثنى ويلهينى عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش » (٢).
- وكان المولود إذا ولد في قريش ، دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما ولد صلى الله عليه وسلم دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ، ووجدنه مفتوع العينين شاخصاً ببصره إلى السماء .. فأتاهن عبد المطلب فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله ، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه ، شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال : احفظنه ، فإني أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً (٣) .
- ويقال : إن عبد المطلب حمل الرسول الله وأدخله إلى جوف الكعبة ، وقام يدعو الله عَزُّ وجَلُّ ويقول :

الحمد لله الذي أعطانيي قد ساد في المهد على الغلمان حتى يكون بُلغة الفتيان أعيده مدن كل ذي شنآن ذي همة ليس لد عينان

هـــذا الغــلام الطيب الأردانِ أعيـــذه بالبيت ذى الأركــان حتـــى أراه بالـــغ البنيــان مــن حاسـد مضطرب العنان حتـــى أراه رائــع اللسـان

فلما كان اليوم السابع ، ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا :

⁽١) رواه ابن عساكر . (٢) رواه البيقهي . (٣) رواه البيهقي .

يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سميته ؟ قال : سميته محمداً . قالوا : أردتُ أَنْ يحمده الله في السماء ، وخلقه في الأرض .

ويقول بعض العلماء: ألهمهم الله عزُّ وجَلُّ أن سموه محمداً ، لما فيه من الصفات الحميدة .. ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى .. كما قال عمه أبو طالب .

* * *

• استرضاعه - صلى الله عليه وسلم - في بني سعد :

والتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع ، فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها « حليمة ابنة أبي ذويب » .

وتحدثنا حليمة السعدية - رضى الله عنها - قالت: « إنها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت: وذاك فى سنة شهباء (١) لم تُبْق لنا شيئاً . . فخرجتُ على أتان لى قمراء (٢) ، معنا شارف (٣) لنا . . والله ما تبض بقطرة (١) ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع . . ما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنًا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجتُ على أتانى تلك ، فلقد أدمت بالركب (٥) حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً (٦) . . حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فما منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله علله فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أنًا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟! فكنا نزهد فيه لذلك !!

(١) أي مجدبة . (١) أي تميل إلى الخضرة .

(٣) أى ناقة مُسنة . (٤) أى ترشع بشئ .

أى أطالت عليهم المساقة لتمهلهم عليها .
 أى هزالاً .

فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى .. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : واللّه إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، واللّه لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت: فذهبتُ إليه فأخذته .. وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لحافل .. فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمين والله با حليمة ، لقد أخذت نسمة مباركة . قالت : والله إنى لأرجو ذلك .

قالت: ثم خرجنا وركبت أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب، ما يقدر عليها شئ من حمرهم .. حتى إن صواحبى ليقلن لى : يابنة أبى ذؤيب، ويحك !! أربعى علينا (٢) ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : يلى والله ، إنها لهى هى ، فيقلن : والله إنَّ لها لشَأناً !!

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها .. فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلته .. وكان

⁽١) وهو عبد الله بن الحارث . (٢) أي أتبعي وانتظري .

یشب شباباً لا یشبه الغلمان ، فلم یبلغ سنتیه حتی کان غلاماً جفراً (۱) . قالت: فقدمنا به علی أمه ونحن أحرص شئ علی مکثه فینا لما کنا نری من برکته ، فکلمت أمه وقلت لها : لو ترکت بنی عندی حتی یغلظ ، فإنی أخشی علیه وبأ مکة .. قالت : فلم نزل بها حتی ردته معنا (۲) .

*

وتعود حليمة بنت أبى ذؤيب - رضى الله عنها - إلى مضارب قومها ببادية بنى سعد ، قريرة العين بحملها الثمين .. وهى أحرص ما تكون على اصطحابه معها لما كانت ترى من بركته .. ولكن تشاء إرادة الله أن يعود اليتيم العظيم إلى حضن أمه ، كى تنعم بقُربه قبل أن تلحق بالرفيق الأعلى .

تقول حليمة رضى الله عنها: « فرجعنا به ، فوالله إنه بعد مقامنا بأشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى ، قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه!!

قالت: فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهد ، فالتزمته والتزمد أبوه ، وقلنا له: ما لك يا بنى ؟ قال: « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو »

قالت : فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد حشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ..

فاحتملناه ، فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظنر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

فقلت : قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى على ، وتخوُّفتُ الأحداث عليه ، فأديته إليك كما تحبين .

⁽١) أي غليظاً شديداً . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ، مرجع سابق : ١.١، ١.١،

قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك !!

فلم تدعنى حتى أخبرتها . قالت : أفتخوفت على الشيطان ؟ قلت : نعم . قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، رإن لبني لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؛ قلت : بلى .

قالت: « رأيتُ حين حملتُ به ، أنه خرح منى نور أضاء ئى قصور بُصْرَى من أرض الشام ، ثم حملتُ به ، فوالله ما رأيتُ من حَمْل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء .. دعيه عنك وانطلقى راشدة » (١) .

* *

ویروی أن نفراً من أصحاب رسول الله علق قالوا له: یا رسول الله الخبرنا عن نفسك . قال : « نعم .. أنا دعوة أبی إبراهیم ، وبُشرّی عیسی ، ورأت أمی حین حملت بی أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فی بنی سعد بن بكر ، فبینا أنا مع أخ لی خلف بیوتنا نرعی بَهْما لنا ، إذ أتانی رجلان علیهما ثباب بیض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ، ثم أخذانی فشقا بطنی ، واستخرجا قلبی فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبی وبطنی بذلك الثلج حتی أنقیاه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننی بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزننی بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنتهم ، ثم قال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » (۲) .

قوله صلى الله عليه وسلم (٣): « أنا دعوة أبى إبراهيم » عليه السلام، هي في القرآن الكريم: ﴿ رَبُّنَا وَابْعَتْ فيهمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ

⁽٣) انظر تعليق الدكتور أحمد حجازي السقا ، في السيرة النبوية لابن هشام ، هامش : ١.٣/١

عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وفى التوراة ، فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فقال الله ، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة » (٢) .

و « كثيراً جداً - بحساب الجُمَّل - في اللغة العبرانية : « بماد ماد » ، وهي تعنى « محمد » ، و « أمة كبيرة » - في اللغة العبرانية : « لجوى جدول » ، وهي تعنى « محمد » .

أما بُشرَى عيسى عليه السلام ، فهى قوله لأتباعه فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا : « إن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب (الله) فيعطيكم مُعَزِّياً (٣) آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يواه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه » ... إلخ (٤) .

وكلمة « المعزَّى » : ترجمة الكلمة العبرانية « باراكليت » - أى النائب عن المسيح عليه السلام ليعزى بنى إسرائيل فى فقدهم الملك والنبوة .. وعيسى عليه السلام لم ينطق « باراكليت » ، وإغا نطق « بيركليت » ، وهى تترجم « أحمد » - صلى الله عليه وسلم - والنصارى حرَّفوا نطقها إلى « باراكليت » الصفة ، لا الاسم .

* *

ويروى أن مما هاج حليمة السعدية رضى الله عنها على رده - صلى الله عليه وسلم - إلى أمه ، مع ذكرت الأمه مما أخبرتها عنه : أن نفراً من الحبشة -

⁽۱) البقرة : ۱۲۹ (۲) سفر التكوين ۱۷ ، ۱۸ ، ۲

⁽٣) بضم الميم وكسر الزاى المشددة . (٤) يوحنا ١٤ : ١٥ – ١٧

نصاری - رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا ، فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره (١١) .

يقول ابن إسحاق : فقال الذي حدثني : إنها لم تكد تنفلت به منهم (١) .

كما يروى أن حليمة لما قدمت به مكة ، أضلها الناس وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب فقالت له : إنى قد قَدمتُ بحده هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى ، فوالله ما أدرى أين هو ؟ فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، ويقال : إنه وجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة .. فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة ويعوده ويدعو له .. ثم أرسل به إلى أمه آمنة ..

* * *

• اليتيم العظيم:

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى في « الهمزية »:

نِعْمَ اليتيمُ بَدَت مَخايلُ (٢) فضله واليُتـــمُ رزقُ بعضُـــه وذكاءُ فــ البَاساءُ (٣) فــ البَاساءُ (٣)

• أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمتُ مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادى وأجدب العبال ، فهلم فاستسقى ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجى ، تجلت عن سحابة قتما ، ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ،

⁽١) السيرة النبوية - لابن هشام - مرجع سابق : ١٠٤/١ (٢) المخيلة : المظنة .

⁽٣) استسقى الرجل : طلب السقى ، والحيا : المطر .

وما في السماء قزغة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق واغدود ق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيضُ يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامي عصمة للأرامل (١)

كما يقول « شوقى » في نهج البردة :

ذُكِرْتَ باليُتُم في القرآنِ تَكْرِمة وقيمة اللؤلؤ المكنونِ في اليُتم

واليُتم فى الناس: فقدان الأب، وهو فى الأشياء التفرد وعدم وجود تظائر لها، واللؤلؤة اليتيمة: التى لا نظير لها فى العقد.. ويشير بقوله: « ذكرت باليُتُم فى القرآن » إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتَيماً فَآوَىٰ ﴾ (١).

- كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه ، يُنبته الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين ، توفيت أُمه آمنة بنت وهب .
- وذكر الواقدى بأسانيده : أن النبى ﷺ ، خرجت به أمه إلى المدينة وصعها « أم أين » ، وله ست سنين فزارت أخواله ...

تقول أم أيمن : فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى : أخرجى الينا أحمد ننظر إليه ، فنظرا إليه وقلباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبى هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم ..

فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالأبواء وهي راجعه ، فدفنت بها .

⁽١) الرحيق المختوم ، للشيخ صفى الرحمن المباركفوري ، ص ٦٦

⁽٢) الضحى: ٦

أخواله من بنى عدى بن النجار ، تزيره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

ورواه مسلم عن أبى هريرة فقال : « زار النبى ﷺ قبر أمه ، فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : « استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى .. فزوروا القبور تذكركم الموت » (٢) .

* * *

مات أبوه ، وكان - صلى الله عليه وسلم - جنيناً في بطن أمه لم ير النور . ثم ماتت أمه وهو في السادسة من عمره . . فكفله جده عبد المطلب .

وكان رسول الله على مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله على يأتى وهو غلام جقر ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع ..

⁽۱) رواه البيهقي . (۲) رواه مسلم .

ثم لم يلبث عبد المطلب أن مات ورسول الله علله في الثامنة من عمره ..

يقول ابن هشام: « فلما بلغ رسول الله الله الله الله الله المانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم - وذلك بعد عام الفيل بشمانى سنين - قال ابن إسحاق: حدثنى العباس ابن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله: أن عبد المطلب توفى ورسول الله الله ابن ثمانى سنين ».

ثم ولى زمزم والسقاية عليها من بعده العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده .. فأقرها رسول الله تلك له على ما مضى من ولايته ، فهى إلى آل العباس ، بولاية العباس إياها إلى اليوم .

وكان رسول الله على بعد عبد المطلب مع عمد أبى طالب ، وكان عبد المطلب – فيما يروون – يوسى به عمد أبا طالب ، وذلك لأن عبد الله – والد رسول الله على – وأبا طالب أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم .

يقول ابن إسحاق : وكان أبو طالب هو الذي يلى أمر رسول الله على بعد جده ، فكان إليه ومعه .

* * *

• الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كفالة عمه:

انتقل رسول الله على إلى كفالة عمد أبى طالب ، ويحدثنا ابن هشام عن حادثتين - وقعتا فى هذه الفترة - لهما دلالة عظيمة عما يكون من أمر اليتيم العظيم - كفيل أبى طالب صلى الله عليه وسلم - فيقول :

« قال ابن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير : أن أباه الزبير حدثه : أن رجلاً من لهب - قال ابن هشام : ولهب من أزد شنوءة كان عائفاً ، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، قال : فأتى به أبو طالب وهو غلام ، مع من يأتيه ، فنظر إلى

رسول الله ﷺ ، ثم شغله عنه شئ ، فلما فرغ قال : الغلام .. على به ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ، ردوا على الغلام الذى رأيتُ آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن . قال : فانطلق أبو طالب » (١) .

هذه واحدة .. أما الثانية ، فهي قصته مع بحيري الراهب .

يقول ابن هشام: « ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع المسير صب به رسول الله على - فيما يروون - فرَقُ له وقال: والله الأخرجن به معى ، ولا يفارقنى والا أفارقه أبداً » .

فخرج بد معد ، فلما نزل الركب « بُصْرَى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال لد « بحيرى » فى صومعة لد ، وكان إليد علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليد يصير علمهم عن كتاب ، يتوارثوند فيما يزعمون كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكان كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته ، صنع لهم طعاماً كثيراً – وذلك فيما يروون – عن شئ رآه فى صومعته ، ويقال إنه رأى رسول الله على وهو فى صومعته ، فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم .

قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله على حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فقال: إنى قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق: ١١. /١

ثم لم يلبث عبد المطلب أن مات ورسول الله على في الثامنة من عمره ..

يقول ابن هشام: « فلما بلغ رسول الله الله الله الله الله المانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم - وذلك بعد عام الفيل بشمانى سنين - قال ابن إسحاق: حدثنى العباس ابن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله: أن عبد المطلب توفى ورسول الله الله ابن ثمانى سنين ».

ثم ولى زمزم والسقاية عليها من بعده العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سنا ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده .. فأقرها رسول الله على ما مضى من ولايته ، فهى إلى آل العباس ، بولاية العباس إياها إلى اليوم .

وكان رسول الله تلله بعد عبد المطلب مع عمد أبى طالب ، وكان عبد المطلب - فيما يروون - يوصى به عمد أبا طالب ، وذلك لأن عبد الله - والد رسول الله تلله - وأبا طالب أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم .

يقول ابن إسحاق : وكان أبو طالب هو الذي يلى أمر رسول الله ﷺ بعد جده ، فكان إليه ومعه .

* * *

• الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كفالة عمه :

انتقل رسول الله على إلى كفالة عمد أبى طالب ، ويحدثنا ابن هشام عن حادثتين - وقعتا في هذه الفترة - لهما دلالة عظيمة عما يكون من أمر اليتيم العظيم - كفيل أبى طالب صلى الله عليه وسلم - فيقول:

« قال ابن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير : أن أباه الزبير حدثه : أن رجلاً من لهب – قال ابن هشام : ولهب من أزد شنوءة كان عائفاً ، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، قال : فأتى به أبو طالب وهو غلام ، مع من يأتيه ، فنظر إلى

رسول الله على ، ثم شغله عنه شئ ، فلما فرغ قال : الغلام .. على به ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ، ردوا على الغلام الذى رأيتُ آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن . قال : فانطلق أبو طالب » (١) .

هذه واحدة .. أما الثانية ، فهي قصته مع بحيري الراهب .

يقول ابن هشام : « ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع المسير صب به رسول الله ﷺ – فيما يروون – فرَقُ له وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً » .

فخرج بد معد ، فلما نزل الركب « بُصْرَى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال لد « بحيرى » فى صومعة لد ، وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب ، يتوارثوند فيما يزعمون كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكان كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته ، صنع لهم طعاماً كثيراً - وذلك فيما يروون - عن شئ رآه في صومعته ، ويقال إنه رأى رسول الله على وهو في صومعته ، في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم .

قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله على حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فقال : إنى قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق : ١١. ١١

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ، فما كنتَ تصنع هذا بنا ، وقد كنا غر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببتُ أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا إليه .

وتخلف رسول الله على من بين القوم - لحداثة سنه - فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحبرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنا ، فتخلف فى رحالهم ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللأت والعُزّى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللأت والعُزّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟

وإنما قال له بحيري ذلك لأنه سمع القوم يحلفون بهما .

فرووا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسألني باللأت والعُزّى ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قَط بغضهما » .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عند ؟

فقال له: « سلني عما يدا لك ».

 فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده - بقول ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم .

فلما فرغ ، أقبل على عمد أبى طالب فقال لد : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى . قال لد بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبيد حياً . قال : فإنه ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمد حبلى بد . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمد أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، فرووا فيما يروى الناس: أن زريراً وتماماً ودريساً - وهم نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا من رسول الله على مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمد أبى طالب ، فأرادوه فردهم عند بحيرى ، وذكرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه . ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدتوه عا قال ، فتركوه وانصرفوا عند » (1).

• وفى رواية للترمذى ، عن أبى موسى الأشعرى قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى شخص فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله شخص فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك ؟

⁽١) المرجع السابق: ١١./١ - ١١٢

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خَرُّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة .

ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به فكان هو فى رعية الإبل فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل - صلى الله عليه وسلم - وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فئ الشجرة عليه فقال : انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه .

قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فألتفت فإذا بسبعة من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم ؟ قالوا: جئنا أن هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنًا قد أخبرناهم خبره ، بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا .

قال : أرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده : قالوا : لا . قال : فبايعوه وأقاموا معه .

قال : أنشدكم بالله ، أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب ... » (١)

يقول ابن هشام: « فشب رسول الله على ، والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد منه من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، وأفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش

⁽۱) رواه الترمذي (۳۹۹۹) .

والأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزها وتكرما ، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة » (١).

*

● وحادثة ثالثة يرويها ابن هشام ، تلك هي رحلته مع « ميسرة » غلام خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – في تجارتها إلى الشام قبل زواجه صلى الله عليه وسلم منها .

يقول ابن هشام: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال . تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه ، بشئ تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله علله ما بلغها ، من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله علله منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله على فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى (٢) .

ثم باع رسول الله تله سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة - فيما يروون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء بد ، فأضعف أو قريباً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه .

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام: ١١٢/١

⁽٢) في رواية الروض الأنف: « لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم عليه السلام » .

وذكرت خديجة - رضى الله عنها - لابن عمها ورقة بن نوفل - وقد كان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة : « لئن كان هذا حقاً يا خديجة ، إن محمداً لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنتظر ، هذا زمانه » (١).

وكانت خديجة - رضى الله عنها - امرأة حازمة ، شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله تله فقالت له - فيما يروون - : « يابن عم ، إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك ، وسطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خُلُقك ، وصدق حديثك » .. ثم عرضت عليه نفسها .

وكانت رضى الله عنها يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله الله الله الكافر ذلك الأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها . وأصدقها رسول الله الله عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله الله الله عنها . فولدت له ولده كلهم - إلا إبراهيم - : « القاسم - وبه كان يكنى - والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهم » .

يقول ابن هشام: أكبر بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته: رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة..

فأما القاسم والطيب والطاهر ، فماتوا في الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم .

⁽١) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١١٦/١

وأما إبراهيم ، فأمه مارية القبطية - سرية النبى ﷺ التى أهداها إليه المقوقس .

وكان الرسول على في الخامسة والعشرين من عمره عند زواجه منها ، في حين أنها - رضى الله عنها - كانت في الأربعين من عمرها (١)

* * *

وحدث عندما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره ، أن هُدمت الكعبة واجتمعت قريش لبنيائها ، كل قبيلة على حدة ، ثم بنوها .

فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، اختصموا فيه .. كل تبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحازوا وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدارجفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا .

ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومى - وكان عامئذ أسن قريش كلها - قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان.أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : « هلم إلى ثوباً » ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من

⁽١) قيل : كان سنه - صلى الله عليه وسلم - إحدى وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين ، وقيل سبعاً وثلاثين ، وقيل : كان عمر خليجة سبعاً وثلاثين ، وقيل : كان عمر خليجة رضى الله عنها إذ ذاك أربعين سنة ، وقيل : خساً وأربعين .

الشوب ، ثم ارفعوه جميعاً » ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله تلله ، قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين .

وكانت الكعبة على عهده - صلى الله عليه وسلم - ثمانى عشرة ذراعاً ، وكانت تكسى القباطى ، ثم كسيت البرود ، وأول من كساها الديباج : الحجاج ابن يوسف .

* * *

• بُشريات بالنبوة :

يقول ابن هشام: « وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب .. قد تحدثوا بأمر رسول الله على قبل مبعثه ، لما تقارب زمانه .

أما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهي لا تُحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، لا تُلقى العرب لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها ، فعرفوها .

وأما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه » .

ويعلق الدكتور أحمد حجازي السقا على هذا بقوله :

« إن كتب التوراة المتداولة الآن بين اليهود والنصارى ، وكتب الأناجيل المتداولة الآن بين النصارى هى التى كانت بنصها فى القرن الرابع الميلادى ، ومنها عرفوا خبر نبوة محمد عليه ، ومنها يعرفون اليوم .

ويقول علماء أهل الكتاب بأن التوراة حُرَّفت في السبى البابلي عمداً (عام ٥٨٦ ق . م) ، ولم تُحرَّف بعد السبي البابلي إلى اليوم ، ويأن الأناجيل حُرَّفت

نى مجمع نيقية (عام ٣٢٥م) ولم تُحرَّف من بعد هذا المجمع إلى اليوم، والإصحاح التاسع من سفر دانيال هو الذي يحدد سنة ولادة النبي ﷺ » (١).

يقول دانيال: « سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم ، وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً يعود ويبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة . وبعد اثنتين وستين أسبوعاً يعطم المسيح وليس له ، وشعب رئيس آت يَخْرِب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة وإلى النهاية ، حرب وخرب قضى بها . ويُثبت عهداً مع كثيرين في أسبوع واحد ، وفي وسط الأسبوع يُبطل الذبيحة والتقدمة ، وعلى جناح الأرجاس مُخرَّب حتى يتم ويُصبَ المقضى على المخرّب » (٢) .

« المسيح الرئيس » فى هذا النص - هو لقب الرسول على كما بين برنابا ، وقد بين عيسى عليه السلام أن نبى البر المشار إليه - فى نص دانيال هذا - لم يكن قد أتى من قبله ، بل سيأتى بعده ، وذلك فى قوله لتلاميذه : « لكنى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يبكث العالم على خطية وعلى برً وعلى دينونة » (٣) . يشير بقوله : « وعلى برً » إلى كلام دانيال ، أى أنه نبى البر وسوف يرفضونه وسوف يوبخهم على هذا الرفض .

ومن أين نحسب السبعين أسبوعاً ؟

المتبادر إلى الذهن أن نحسب من هدم هيكل سليمان على يد نبوخذ نصر (عام ٥٨٦ ق . م) لأن الهدم يدل على إعادة البناء عادة ، ولكن العقل يهدينا

⁽١) السيرة النبوية ، لاين هشام – مرجع سابق – الجزء الأول ، هامش ص ١٢٤

⁽۲) سفر دانیال ۹ : ۲۲ – ۲۷ (۳) پوحنا ۱۹ : ۷ – ۸

إلى غير هذا ، يهدينا إلى أن سفر دانيال قد سلّمه اليهود إلى النصارى سنة . ٩ من ميلاد المسيح عليه السلام فى مجمع « يمنيه » - أى بعد رفع عيسى إلى السماء ، فلو كان هذا السفر منشوراً فى العالم قبل ذلك التاريخ لما سلّمه اليهود إلى النصارى فى ذلك الزمان .

يقول القس الدكتور « إلياس مقار » – رئيس الطائفة الإنجيلية بمصر : « وقد استلمت الكنيسة المسيحية من اليهود أسفار العهد القديم التى قرر اليهود فى مجمع « يمنيه » عام . ٩ ميلادية قانونيتها » .

والأسبوع في لغتهم قد يعني سبع سنوات – كما في الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التكوين ، وقد وُلِد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم في عام (. 0 0 أو 0 0 0 0 0 أن اليهود يلبسون الحق بالباطل ، فغير بعيد أن يجعلوا النص ملغزا ، ولو أنك حسبت . 0 (سنة التسليم) + 0 0 (قيمة سبعة أسابيع بالإضافة إلى 0 0 أسبوعا) = 0 0 ، فالزمن قريب من نبى الإسلام ، وقد بقى من السبعين أسبوعا أسبوع واحد وهو المشار إليه بقوله : 0 وفي أسبوع واحد يثبت عهدا مع كثيرين 0 ، أي أن المدة كلها سبعون أسبوعا ، منها أسبوع واحد للعهد وتسيير الجيوش لغزو بلاد الشام .

وقوله: « وبعد اثنين وستين أسبوعاً يُقطع المسيح »: أن عُمر نبى الإسلام مقدر باثنتين وستين سنة ، لأن الأسبوع عندهم يأتى بمعنى السنة أيضاً - كما نص عليه أرمياء في سفره ونقله مفسرو النصارى في تفسير عبارات دانيال عن الأسابيع السبعين .

وقوله: « يُقطع المسيح ، وليس له » ، أى يموت المسيح المنتظر – وهو النبى على - وليس له أولاد من صلبه يملكون على مملكته .

وقوله: « شعب رئيس آت يخرب المدينة » ، يشير إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو خليفة عن رسول الله ﷺ ، ليس من أولاده بل من صحابته وأتباعه ، والمراد بالمدينة « أورشليم القدس » ، وقد كتب عمر العهدة العمرية مع « صفرنيوس » .

وقوله : « يُبطل الذبيحة والتقدمة » إشارة إلى انتهاء العمل بالشريعة اليهودية .

وقوله : « فاعلم وافهم » يدلك على ما ذهبنا إليه .

وقد بين عيسى عليه السلام أن هذه الحادثة تتم فى فتح المسلمين الأورشليم ، فقد حكى ما نصه: «ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ، فتقدم تلاميذه لكى يُروه أبنية الهيكل . فقال لهم يسوع : أما تنظرون جميع هذه ؟ . الحق أقول لكم : إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض . وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدّم إليه التلاميذ على انفراد قائلين : قل لنا : متى يكون هذا » ؟ (١) .

وقد ذكر عيسى عليه السلام علامات ، ثم قال بعد ذكر العلامات وهي :

- ١ ظهور أنبياء كذبة .
- ٢ حروب تقوم بين الأمم لقيام أُمة على أُمة ، وحدوث مجاعات وأوبئة وزلزال .
 - ٣ اضطهاد الأمم لتلاميذه .
 - ٤ ارتداد بعض النصاري عن دينهم .
 - ٥ انتشار الانجيل ..

قال بعد ذكر هذه العلامات: « فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس. ليفهم القارئ » ... إلخ (٢) ، يشير إلى نص دانيال هذا (٣) .



⁽۱) متی ۲۲ : ۱ – ۳ (۲) متی ۱۵ : ۱۸

 ⁽٣) انظر إظهار الحق للشبخ رحمه الله الهندى ، نشر دار التراث العربي - الطبعة الثانية سنة
 ١٩٨٦ هامش ص ١٨٦٦ - ١٨٨ بتصرف .

• الكهان ، والأحبار ، والرهبان - يبشرون بنبوته :

لما تقارب أمر رسول الله على وحضر مبعثه ، حُجِبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله تعالى في العباد .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد على حين بعثه ، وهو يقص عليه خبر الجن إذ حجبوا عن السمع ، فعرنوا ما عرفوا ، وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا : ﴿ قُلْ أُوحِى إِلَى النَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهُدى إِلَى الرُّشْد فَآمَنًا بِهِ ، وَلَن نُشْرِكَ بِرَبَّنَا أَحَدااً * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى الله شَطَطا * وَأَنَّا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفيهُنَا عَلَى الله شَططا * وَأَنَّا فَن لَن تَقُولَ الإنسُ وَالجِنَّ عَلَى الله كَذَبا * وَأَنَّهُ كَانَ رَجَالًا مَن الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالُ مِّنَ الجِنِّ فَوَادُوهُمْ رَهَقا ﴾ (١٠) .. إلى توله : ﴿ وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابا وَصَداً * وَأَنّا لا نَدْرِي أَشَرٌ أُرْبِدَ بَمَن فِي الأَرْضِ أُمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبّهُمْ رَشَدا ﴾ (٢) ..

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك ، لئلا يشكل الوحى بشئ من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحُجَّة وقطع الشبهة ، فآمنوا وصدُّقوا ثم ﴿ وَلُوا ۚ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذرين * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابا أُنزِلَ مِن بَعْد مُوسَىٰ مُصَدَّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَيْه يَهُدى إِلَى الحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيق مُستَقيم ﴾ (٣) .

⁽١) الجن : ١ - ٦

وكان قول الجن: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٌ مِّنَ الجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ (١) ، أنه كان الرجل من العرب من قريش وغيرهم إذا سافر فنزل بطن واد من الأرض ليبيت فيه ، قال : إنى أعوذُ بعزيز هذا الوادى من الجن الليلة من شر ما فيه » .

*

• وعن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس ، أنه حدّث أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم حين رُمي بها هذا الحى من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له « عمرو بن أمية » أحد بنى علاج – وكان أدهى العرب وأنكرها رأياً – فقالوا له : يا عمرو ، ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى ، فانظروا : فإن كانت معالم النجوم التى يُهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء – لما يصلح الناس فى معايشهم – هى التى يُرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد به هذا الخلق ، فما هو ؟

• وذكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن على بن الحسين بن على بن المسين بن على بن أبى طالب ، عن عبد الله بن عباس ، عن نفر من الأنصار : أن رسول الله على قال لهم : « ماذا كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يُرمَى به » ؟ قالوا : يا نبى الله ، كنا نقول حين رأيناها يُرمَى بها : مات ملك ، مُلّك ملك ، ولد مولود ، مات مولود . فقال رسول الله على : « ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى فى خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبّحوا ، فسبّح مَن تحتهم ، فسبّح لتسبيحهم مَن تحت ذلك .. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء

⁽١) الرهق : الطغيان والسفه ، وهو أيضاً : طلبك الشئ حتى تدنو منه قتأخذه أو لا تأخذه ، كما أنه مصدر لقول الرجل للرجل : رهقت الإثم ، أو العُسر ، الذي أرهقني رهقاً شديداً - أي حملت الإثم ، أو العُسر الذي حملتني حملاً شديداً .

الدنيا ، فيسبّحوا ثم يقرل بعضهم لبعض : مم سبّحتم ؟ فيقولون : فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم ، فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبّحوا ؟ مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم : مم سبّحتم ؟ في قضى الله في خلقه كذا وكذا - للأمر الذي كان - فيهبط به الخبر من سسماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين على توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوه فيخطئون ويصيبون فيتحدث به الكهان ، فيصيبون بعضاً ويخطئون بعد إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقذفون بها ، فا الكهانة اليوم ، فلا كهانة ».

×

• ويقول ابن إسحاق: « وحدُّنى بعض أهل العلم: أن امرأة من بن يقال لها « الغيطلة » (١) ، كانت كاهنة في الجاهلية ، جاءها صاحبها الليالي فانقص تحتها ثم قال: أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر .. فقالت قري بلغها ذلك: ما يريد ؟

ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شعوب ما شعوب ، تص كعب لجوب .. فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا : ماذا يريد ؟ ، إن هذا لأمر ه فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة « بدر » و « أحد » بال فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبته » .

*

• وعن على بن نافع الجرشى: أن « جنباً » (٢) كان لهم كاهن فى فلما ذكر أمر رسول الله على وانتشر في العرب ، قالت له جنب: انظر

⁽۱) الغيطلة : من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة ، إخوة مدلج بن مرة ، وهى أم الغيا من بنى سهم بن عمرو بن هصبص .

أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل عليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائماً متكناً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل ينزو (١) ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم أسند إلى جبله راجعاً من حيث جاء .

*

• وعن عبد الله بن كعب - مولى عثمان بن عفان - أنه حدّث: أن عمر بن الخطاب بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله على ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد ، يريد عمر بن الخطاب ، فلما نظر إليه عمر رضى الله عنه قال: إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية .

فسلم عليه الوجل ثم جلس ، فقال له عمر رضى الله عنه : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال له: فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟

فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، لقد خلت في واستقبلتني يأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت !!

فقال عمر : اللهم غفراً ، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا ، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام ، قال : نعم - والله يا أمير المؤمنين - لقد كنتُ كاهناً في الجاهلية .

قال : فأخبرني ما جاءك به صاحبك .

قال : جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها في دينها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها .

⁽١) أي يثب .

فقال عمر بن الخطاب عند ذلك يحدَّث الناس: « والله إنى لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه ، إذ سمعتُ في جوف العجل صوتاً ما سمعتُ صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه يقول: يا ذريح ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول: لا إله إلا الله » - ويقال: « رجل يصيح ، بلسان فصيح يقول: لا إله إلا الله » .

يقول ابن هشام : وأنشذني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجـــن وإبـــلاسها وشـدها العيس بأحــلاسها تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنــو الجــن كأنجاسها *

• وكما بَشَر كهان العرب بقرب بعث النبى الله ، بَشَر به أيضا الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى .

فعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - لما كنا نسمع من رجال يهود .

كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزالَ بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يُبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله على أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به .. ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَتَابٌ مِّنْ عند الله مصدّق للما مَعَهُمْ وكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتحُونَ عَلَى الذينَ كَفَرُوا به . فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرينَ ﴾ (١) .

*

⁽١) البقرة: ٨٩

● وعن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد أخى عبد الأشهل ، عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان سلمة من أصحاب بدر . قال : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل - قال سلمة : وأنا يومئذ من أحدث من فيه سناً ، على بردة لى ، مضطجع فيها بفناء أهلى - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار .

قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له: ويحك يا فلان !! أو ترى هذا كائناً: أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يُحلف به ، ولود أن له بحظه من تلك أعظم تنور في الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غداً .

فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟

قال: نبى مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن - فقالوا: ومتى نراه ؟ . قال: فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنا فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله ﷺ ، وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغياً وحسداً . قال : فقلنا له : ويحك يا فلان ، ألست الذي قلته لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ، ولكن ليس به .

*

وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن شيخ من بنى قريظة قال : إن رجلاً من يهود من أهل الشام ، يقال له « ابن الهيبان » قدم علينا قبيل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلى (١) أفضل منه ، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول :

⁽١) أي من غير السلمين .

لا والله حتى تقدَّموا بين يدى مخرجكم صدقة ، فنقول له : كم ؟! فيقول : صاعاً من تمر ، أو مُدَّين من شعير .

قال: فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرثنا فيستسقى الله لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونُسقَى ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث .

قال : ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : إنك أعلم .

قال: إنما قدمتُ هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه ، فلا تُسبقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه .

فلما بعث رسول الله الله الله وحاصر بنى قريظة ، قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداثاً : يا بنى قريظة ، والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، وأحرزوا دما مهم وأموالهم وأهليهم .

* * *

• وفي نصوص التوراة عن الرسول الله النبوءات التالية :

(أ) في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين قال ملاك الرب لهاجر رضى الله عنها: « ها أنت حُبلى ، فتلدين ابناً ، وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك . وإنه يكون إنساناً وحشياً ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع إخوته يسكن » (١) .

لقد بَشًر ملاك الله هاجر بأن إسماعيل سيكون عين الناس ، وأن يده تكون في الكل ويد الكل فيه . ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في

⁽١) سفر التكوين ١٦ - ١١ - ١٢

معظم الأمم ولا كانوا ممازجين لهم إلا بالإسلام. وملاك الله لا يُبشِّر بالظلم والجور والكذب.

(ب) فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يحيا ابنه إسماعيل عليه السلام وذريته فى طاعة الله . فقال الله تعالى : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة » (١) .

فقد ثبتت بركة لإسماعيل ، والبركة تعنى : أن يكون من النسل أمم وملوك على الشعوب ونبى صاحب شريعة ، لئلا يظلم الملوك الشعوب إذا حكموا من تلقاء أنفسهم ، وفي التوراة أيضاً بركة لإسحاق عليه السلام كبركة إسماعيل ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى بركتيهما فقد قال تعالى : ﴿ وَبَارِكْنَا عَلَيْهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ (٢) .

و « كثير جداً » – فى اللغة العبرانية : « بماد ماد » ، وأمة كبيرة : « لجوى جدول » ، وقد قال علما ، من بنى إسرائيل أن الله رمز بهما لاسم النبى الآتى بعد إسماعيل للبركة – بحساب الجُمُّل – وهما يُنطقان على اسم محمد .. فالبا ء فى « بماد ماد » = Υ ، والميم = Υ ، والألف = Υ

ومحمد : الميم = . ٤ ، والحاء = ٨ ، والميم = . ٤ ، والدال = ٤ ، فالمجموع = ٩٢ .

ولجوى جدول : اللام = ٣٠ ، والجيم = ٣ ، والوار = ٦ ، والياء = ١٠ ، والجيم = ٣ ، والدال ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع

(جد) في الإصحاح التاسع والأرجين من سفر التكوين أنه لما حضر يعقوب الموت دعا بنيه : رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويساكر ودان وجاد

⁽۱) سغر التكرين ۲۰: ۱۷

وأشير ونفتالى ويوسف وبنيامين ، وقال لهم : اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . ثم قال لهم فى شخص يهوذا ابنه ما نصه : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون $\binom{(1)}{(1)}$ ، وله يكون خضوع شعوب » $\binom{(1)}{(1)}$.

أى يظل الملك فى اليهود وتظل شريعة التوراة يعمل بها الناس فى ظل اليهود حتى يأتى من غير اليهود من يتسلم الملك منهم والشريعة وهو المعبّر عنه بشيلون . ولما كان لإسماعيل بركة فإذن شيلون منه . ولم يزل الملك من اليهود ولم تزل الشريعة إلا على يد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فالنبى الذى كان قبله مباشرة من بنى إسرائيل – وهو عيسى عليه السلام – قال لقومه : ﴿ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَى من التَّهُ وَاللهِ اللهِ إلَيْكُم مُصَدِّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَى من التَّهُ وَاللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ إلى رَسُولُ اللهِ اللهِ اللهُ ال

أى أنه إلى زمن ظهوره كانت التوراة هدى للناس ، وأنه قال بصريح العبارة : « لا تظنوا أنى جثت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جثت لأنقض بل لأكمل » (٤) وكان أتباعه – عليه السلام – طائفة من بنى إسرائيل .

(د) تقول التوراة: إن الله تعالى طلب من موسى عليه السلام فى طور سيناء أن يجمع له بنى إسرائيل ناحية جبل الطور «حوريب» ليسمعوا صوت الله وهو يتكلم مع موسى فيتأكدوا من وجوده ويهابوه كل الأيام، فجمعهم موسى وأثناء الكلام حدث ظلام وسحاب وضباب، واضطرم الجبل بالنار فخاف بنو إسرائيل، وبعد الكلام قالوا لموسى: إن أراد الله أن يُسمعنا صوته فليُسمعنا عن طريق نبى، ونحن نسمع لذلك النبى ونطيع، فقال الله لموسى: قد أحسنوا فى ما تكلموا، ولسوف أرسل لهم نبياً فى المستقبل له يسمعون ويطيعون.

⁽١) شيلون : أي الناطق بالحق . (٢) سفر التكوين ٤٩ : . ١

⁽٣) الصف : ٦

وفى الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية بيَّن اللَّه فيه لليهود أنه سوف يرسل لهم نبياً بقوله : « يقيم لك الرب إلهك نبياً ، من وسطك ، من إخوتك ، مثلى له تسمعون » (١) .

ثم يقول: « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ، فلا تخف منه » (٢) .

والمتأمل لهذا النص يجد أن أوصاف هذا النبي الموعود هي :

- ١ يكون عبدأ رسولاً : « نبياً » . .
- ٢ أنه من بنى إسماعيل ، لأن لإسماعيل بركة ، وإسماعيل أخ لإسحاق :
 « من وسط إخوتهم » .
- ۳ أنه مثل موسى عليه السلام عبد الله ورسوله ، وكونه ذا والدين ، وكونه ذا نكاح وأولاد ، وكونه يموت موتاً طبيعياً ، وكونه مدفوناً كموسى ، وعدم كونه ملعوناً : « مثلك » .
 - ٤ أنه سوف ينسخ شريعة موسى : « له تسمعون » .
 - ٥ أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب: « أجعل كلامي في فمه » .
 - ٦ أنه أمين على الوحى الإلهى: « فيكلمهم بكل ما أوصيه به ».
- ٧ أنه يقضى على مُلك اليهود في العالم وخاصة في فلسطين :
 « ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمى أنا أطالبه » .

⁽١) سفر التثنية ١٥ : ١٨ - ٢٢ (٢) سفر التثنية ١٨ : ١٨ - ٢٢

۸ - وكونه مثل موسى يقتضى أن تكون له شريعة مشتملة على : السياسات المدنية - كونه مأموراً بالجهاد - اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته - وجوب الغُسل للجُنُب والحائض والنفساء فى شريعته - اشتراط طهارة الثوب من البول والغائط - حُرَّمة غير المذبوح وقرابين الأوثان - كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية - أمره بحد الزنا - تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص - كونه قادراً على إجرائها - تحريم الربا - أمره بإنكار من يدعو غير الله - أمره بالتوحيد الخالص - أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله » ، لا ابن الله ، أو الله - والعياذ بالله .

٩ - أنه يموت على الفراش فلا يُقتل أو يُصلب : « وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى » .

. ۱ – أنه يتحدث عن أشياء تحدث فى مستقبل الأيام : « فما تكلم به النبى باسم الرب ، ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب » ... إلخ .

وقد أخبر الرسول علله عن أشياء تحدث من بعده ، ووقعت تماماً كما أخبر ، ومنها :

- (١) فتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق ومصر وفارس.
 - (٢) هزيمة الفُرس واقتسام المسلمين لكنوز مُلْكهم .
 - (٣) افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة .
 - (٤) موت أبى لهب وأبى جهل وأبي بن خلف على الكفر .
- (٥) إخباره عمن يُقتل من كفار قريش ببدر ، وموضع قتل كل واحد منهم قبل بدء المعركة .
 - (٦) نعيه لزيد وجعفر وابن رواحة في غزوة مؤتة قبل أن يأتي خبرهم .

- (٧) ظهور نار عظيمة بأرض الحجاز .
- (٨) إخباره عن عبر قريش ليلة الإسراء ووصفه للمسجد الأقصى .
 - (٩) سراقة بن جعشم يلبس سواري كسري .
 - (١٠) استشهاد عمر وعثمان وعلى .
 - (١٩) الحسن بن على يُصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين -
- (١٢) وقوع الفتنة بين على ومعاوية ومقتل عمار على يد الفئة الباغية .
 - (١٣) مقتل الحسين بن على بالطف .
 - (١٤) مدة الخلافة ثلاثون ثم تصير مُلكاً عضوضاً .
 - (١٥) هلاك الأمة على يد أغيلمة من قريش (يزيد وبنو مروان) .
 - (١٦) ظهور كذَّاب ومبير (١) في ثقيف (المختار والحجاج) .
 - (١٧) فاطمة رضى الله عنها أول أهله لحوقاً به .
 - (۱۸) زینب بنت جحش أول أزواجه لحوقاً به .
 - (١٩) أبو ذر يعيش وحيداً ويموت وحيداً .
 - (٢.) ركوب أم حرام بنت ملحان البحر للغزو في سبيل الله .
 - (۲۱) مكان المرأة التي تحمل كتاب حاطب لكفار قريش .

وقد وقعت هذه الأمور كلها - وغيرها كثير سنتحدث عنه في موضعه - مما يؤكد لناأن آية التثنية كانت البشارة برسول الله على .

وأن النبى الموعود به هو نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم .. فقد نصت التوراة على أنه لن يظهر في بنى إسرائيل مثل موسى في الحروب والمعجزات والانتصار على الأعداء : « ولم يقم بعد نبى في إسرائيل مثل موسى الذي

⁽١) أي مهلك .

عرفه الرب وجهاً لوجه . فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون ويجميع عبيده وكل أرضه . وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل » (١) .

ولأن لإسماعيل بركة وأولاده إخوة لبنى إسرائيل « وهذه سنو حياة إسماعيل: مئة وسبع وثلاثون سنة ، وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه . وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجئ نحو آشور ، أمام جميع إخوته نزل » (Y) .

وقد ظن علماء المسيحية أن هذه الآيات من سفر التثنية قد جاءت في حق المسيح عليه السلام ، غير أن بطرس قد أبطل هذا الادعاء حين قال في سفر الأعمال :

« فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب . ويُرسل يسوع المسيح المبشّر به لكم قبل ، الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شئ التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به ، ويكون أن لكل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » (٣) .

لقد نصت الآية . ٢ من هذا النص على أنه : « يُرسِل - بضم الياء وكسر السين - يسوعُ المسيح - بفتح العين - المبشر به - بفتح الراء - لكم قبل .

ولو أن كلمة « المبشر » جاءت بضم الراء لكان النص صريحاً في مجئ محمد للله بعد المسيح عليه السلام . وسياق الكلام بدل على أن بطرس يتحدث عن نبى بعد المسيح لأنه يقول لليهود : « توبوا وارجعوا » ، وهو نفس المعنى الذي قاله المسيح عن نبى الإسلام ، لقد قال : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأزمنة الراحة تبدأ من زمان مجئ النبى المبشر به ، ولو كانت في

⁽٢) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ - ١٨

⁽١) سفر التثنية ٣٤ : ١٠ - ١٢

⁽٣) أعمال الرسل ٣: ١٩ - ٢٣

زمن عيسى نفسه ما كان يعبر بقوله : «حتى إذا تأتى » . ثم يقول : «إن عيسى ستظل دعوته إلى الزمان الذى يسترد فيه كل شئ » – أى الزمان الذى تنتقل فيه الشريعة إلى بنى إسماعيل . كما قال موسى والأنبياء : « يرسل لكم الرب إلهكم نبياً من إخوتكم » ... إلخ .

وقول بطرس: « ويرسل يسوع المسيح المبشّر بد لكم » ، قيل: يشبه قول المسيح لتلاميذه عن نبى الإسلام: « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزّباً » ، ثم يقول عن المعزّى: « ومتى جاء المعزّى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب ، روح الحق » .. إلخ .

ويقول الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم خليل فيلبس سابقاً):
« هذه النبوءة حفظها الله من التحريف وظنها أحبار اليهود ورجال اللاهوت المسيحيون أنها تنطبق على يسوع المسيح رجاء اليهود وأملهم . وارتآها بطرس وظن أنها تنطبق على يسوع المسيح فقال في خطابه في رواق سليمان: « فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سبنيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب . وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام . أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلاً لإبراهيم : وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » (١) .

والمتأمل فى النص يجد أنه يقرر أن النبى المبشر به سيكون من « إخوتهم » وليس منهم ، والمراد بذلك أبناء عمومتهم ، والرسول الله من نسل إسماعيل عليه السلام ، والنص يقرر أن هذا النبى سيكون « مثل » موسى عليه السلام ، والرسول الله صاحب شريعة ، ولد من أبوين ، وتزوج ، وأنجب بنين وبنات ، ومات ميتة طبيعية ، ودُفِن في الأرض مثل موسى تماماً . والنص يقول : « وأجعل كلامى فى فمه » أى التلقين . وسبق أن تنبأ أشعياء عن ذلك النبى

⁽١) أعمال الرسل ٣ : ٢٢ - ٢٥

الأمى بقوله: « وصارت لكم رؤيا الكل مثل كلام السفر المختوم الذى يدفعونه لعارف الكتابة قائلين: اقرأ هذا ، فبقول: لا أستطيع لأنه مختوم ، أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له: اقرأ هذا ، فيقول: لا أعرف الكتابة » (١).

هذا فى حين أن المسيح عليه السلام من نسل هارون - أى أنه منهم وليس من أبناء إخوتهم ، ولم يأت بشريعة جديدة ، وولد من أم ولم يولد من أم وأب ، ولم يتزوج أو ينجب ، ولم يُدفن فى الأرض ، فالنص ينطبق على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ولا ينطبق على المسيح عليه السلام .

*

(هـ) فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية : « فرأى الرب ورذل من الغيظ . بنيه وبناته . وقال : أحجب وجهى عنهم وأنظر ماذا تكون آخرتهم . إنهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم . هم أغارونى بما ليس إلها ، أغاظونى بأباطيلهم ، فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم » (٢) .

والمراد بالأمة الغبية التى سيغيظ الله بها اليهود - وذلك بسلب الملك والنبوة منهم وإعطائهما لتلك الأمة الغبية - هى أمة بنى إسماعيل لأنهم أغبياء أميون لا يكتبون ولا يحسبون فى نظر اليهود ، ولهم بركة فقد قال الله عن إسماعيل : « ها أنا أباركه » .

(و) وفى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته. فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ فى جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فأحب الشعب، جميع قديسيه فى يدك، وهم جالسون عند قدمك، يتقبلون من أقوالك » (٣)

⁽۱) سفر أشعباء ۲۹: ۱۱ - ۱۲ ، وانظر : محاضرات في مقارنة الأديان - مرجع سابق - ص

⁽Y) سفر التثنية (Y) = (Y) - (Y) - (Y) سفر التثنية (Y) = (Y)

والمعنى العام: لقد أنزل الله التوراة على موسى فى طور سينا، وعلما، بنى إسرائيل من ذرية هارون عليه السلام الذين استحفظوا على كتاب الله وكانوا عليه شهدا، كانوا يعيشون حول جبل ساعير فى أرض فلسطين، ومنهم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذى آتاه الله الإنجيل فيه هدى ونور، وأنزل الله القرآن على نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم فى منطقة « فاران » . وفى مجئ نبى الإسلام كان معه جماعات من أصحابه الأطهار يحملون شريعة الله لليهود المخاطبين بهذه العبارات .

ثم يتحدث الله تعالى عن نبى الإسلام خاصة فيقول: جميع الذين رضيت عنهم، وهم علماء أمتك الذين اخترتهم أزلاً لنصرتك، هم معك، فيسمعون ويطيعون، وهم جالسون أمامك، يقتبسون من كلماتك، ليعلّموا الناس فى كل زمان ومكان ما شرعته لهم.

والدليل على أن المراد بـ « فاران » شريعة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم : أن لإسماعيل بركة وقد سكن فاران : ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين : « ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : مالك يا هاجر ؟ لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » (١) .

* * *

• وفى واقعة إسلام سلمان الفارسى رضى الله عنه دلالة قوية على أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقرب مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام.

⁽١) سفر التكوين ٢١ - ٧١ - ٢١

وانظر : السيرة النبوية ، لابن هشام ، مرجع سابق ، هامش : ١٣٠/ - ١٣٣

نعن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن محمود بن لبيد ، عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى سلمان الفارسى وأنا أسمع من فيد ، قال : « كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها « جى » ، وكان أبى دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل حبه إياى حتى حبسنى في بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة .

قال : وكان لأبى ضيعة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يابنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك أن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شئ من أمرى .

قال : فخرجتُ أريد ضيعته التي بعثني إليها ، فمررتُ بكنيسة من كنائس ، النصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، لحبس أبي إياى في بيته ، فلما سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركتُ ضيعة أبي فلم آتها ، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . فرجعتُ إلى أبي ، وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله .

فلما جئته قال : أى بُنى ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت ، مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أى بُنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، قال : قلت له : كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافنى ، فجعل فى رجلى قيدا ، ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم .

قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم . قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيتُ الحديد من رجلى ، ثم خرجتُ معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : مَن أفضل أهل هذا الدين علما ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة .

قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببتُ أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك وأصلى معك . قال : ادخل ، فدخلت معه .

قال: وكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق . قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قال: فقالوا لى: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملؤة ذهبأ وورقاً. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، قال: فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

يقول سلمان : فما رأيتُ رجلاً لا يصلى الخمس (١) ، أرى أنه كان أفضل منه أزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه . قال : فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله ، قال : فأقمتُ معه زماناً طويلاً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إنى قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى مَن توصى بى ؟ ويمَ تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، فقد

⁽١) أي من غير المسلمين .

هلك الناس ، وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .

قال: فلما مات وغُيَّب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنك على أمره، فقال لى: أقم عندى، فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصى به؟ وبم تأمرنى؟ قال: يا بنى، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه، إلا رجلاً بنصيبين، وهو فلان، فالحق به.

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبى ، فقال : أقم عندى ، فأقمتُ عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ ويم تأمرنى ؟ قال : يا بنى ، والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على أمرنا .

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب عمورية ، فأخبرته خبرى فقال : أقم عندى . فأقمتُ عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم .

قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة . قال : ثم نزل به أمر الله تعالى ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : « أى بُنى ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم

عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل من الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » .

قال : « ثم مات وغُين ، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من « كلب » تجار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيماتى هذه ، قالوا : نعم ، فأعطيتموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبدا ، فكنت عنده ، ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولم يحق فى نفسى ، فبينا أنا عنده ، إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى ، فأقمت بها .

وبُعث رسول الله ﷺ ، فأقام بمكة ما أقام ، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قيلة ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبى .

قال: فلما سمعتها أخذتنى العروراء (١) حتى ظننتُ أنى سأسقط على سيدى ، فنزلتُ عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك ، قال : قلت : لا شئ ، إنما أردتُ أن أستثبته عما قال .

قال : وكان عندى شئ قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله على وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ،

⁽١) العروراء: الرعدة من البرد والانتفاض ، وإن كان ذلك مع عَرَق فهي الرحضاء .

ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شئ قد كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال : فقريته إليه فقال رسول الله الله الأصحابه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل . قال : فقلت في نفسى : هذه واحدة .

قال: ثم جئت رسول الله الله الله الله الله الله على أصحابه ، فسلمت عليه ثم أصحابه ، على شملتان لى ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ، فلما رآنى رسول الله الله استدبرته عرف أنى أستثبت فى شئ وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى رسول الله الله عليه وأبكى ، فقال لى رسول الله الله عليه وأبكى ، فتحولت فجلست بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يابن عباس ، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد .

قال سلمان: ثم قال لى رسول الله ﷺ: « كاتب يا سلمان »، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير، وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « أعينوا أخاكم » فأعانونى بالنخل، الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية. فقال لى رسول الله ﷺ: « اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتنى أكن أنا أضعها بيدى. قال: ففقرت وأعاننى أصحابى، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته،

فخرج رسول الله على معى إليها ، فجعلنا نقرب إليه الردى ، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، حتى فرغنا . فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة .

قال: فأديتُ النخل وبقى على المال. فأتى رسول الله على بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، من بعض المعادن ، فقال: « ما فعل الفارسى المكاتب » ؟ قال: فدعيتُ له فقال: « خذ هذه ، فأدها مما عليك يا سلمان » ، قال: قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما على ؟ فقال: « خذها ، فإن الله سيؤدى بها عنك » .

قال: فأخذتها فوزنت لهم منها - والذى نفس سلمان بيده - أربعين أوفية ، فأوفيتهم حقهم منها ، وعتق سلمان . فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخندق حراً ، ثم لم يفتنى معه مشهد » (١١) .

وعن يزيد بن أبى حبيب ، عن رجل من عبد القيس عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : لما قلت : وأين تقع هذه من الذى على يا رسول الله ؟ أخذها رسول الله على لسانه ثم قال : « خذها فأوفهم منها » ، فأخذتها ، فأوفيتهم منها حقهم كله ، أربعين أوقية .

وفى رواية أخرى عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : حدثنى من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال : « حُدِّثت عن سلمان الفارسى ، أنه قال لرسول الله عن أخبره خبره : إن صاحب عمورية قال له : ائت كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غيضتين ، يخرج فى كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى ، فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغى ، فهو يخبرك عنه .

⁽١) انظر السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - : ١٣٣/١ وما بعدها .

قال سلمان: فخرجتُ حتى أتبتُ حيث وصف لى ، فوجدت الناس قد اجتمعوا برضاهم هنالك ، حتى خرج لهم تلك الليلة ، مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس برضاهم ، لا يدعو لمريض إلا شفى ، وغلبونى عليه فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل إلى منكبه . قال : فتناولته فقال : من هذا ؟ والتفت إلى ، فقلت : يرحمك الله ، أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم ، قال : إنك لتسأل عن شئ ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبى يُبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه . قال : ثم دخل .

* *

كما أعلن هرقل عظيم الروم البشارة صريحة بنبى الإسلام صلى الله عليه
 وسلم ، وأن مبعثه كان معلوماً عند أهل الكتاب .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام فى المدة (٢) التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم .

ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً . فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذّبنى فكنّبنى فكنّبنى عنه . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبتُ عنه .

⁽٢) أي مدة الصلح بالحديبية .

⁽١) المرجع السابق ص ١٣٨

ثم كان أول ما سألتى عند أن قال: كيف نسبه فيكم ؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت: لا .

قال : فهل كان من آبائد من ملك ؟ قلت : لا .

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت: بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال: فهل يغدر ؟ قلت: لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

يقول أبو سفيان : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : بماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب مُلك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس وبكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفا عم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

« فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلر أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه » .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليتَ فإن عليك إثم الآريسيين . و ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلُّوا فَقُولُوا اَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلَمُونَ ﴾ (١) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخْرِجنا ، فقلت لأصحابى حين أُخْرِجنا : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلتُ مؤمناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام » (٢) .

• وكان ابن الناظور - صاحب إيلياء (٣) وهرقل - أسقفاً على نصارى الشام، يُحدِّث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس (٤)، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناظور: وكان هرقل حزاء (٥) ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه: إنى رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟

قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود .

فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان ، يخبر من خبر رسول الله على أمرهم أتى هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ ، فنظروا إليه فحد ثوه أنه مختتن .

وسأله عن العرب ، فقال : هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية ، وكان نظيره في العلم ، وسار

⁽١) آل عمران : ٦٤

⁽٢) رواه البخاري ، باب , كيف كان الوحي إلى رسول الله 🌣 : ١/٥

⁽٣) إيلياء : أي بيت المقدس .(٤) خبيث النفس : أي مهموماً .

⁽٥) الحراء: الكاهن.

هرقل إلى حمص ، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى على ، وأنه نبى . فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة (١) له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : « يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى » ؟

فحاصوا (٢) حيصة حُمر الواحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم على ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيتها . فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل (٣) .

ويقول النووى: « قوله حزاً - بالمهملة وتشديد الزاى آخره همزة منونة - أى كاهناً ، يقال : حزا - بالتخفيف يحز ، وحذوا : أى تكهن . وقوله : ينظر في النجوم - إن جعلتها خبراً ثانياً صح لأنه كان ينظر في الأمرين ، وإن جعلتها تفسيراً للأول فالكهانة تارة تستند إلى إلقاء الشياطين ، وتارة تستفاد من أحكام النجوم ، وكان كل من الأمرين في الجاهلية شائعاً ذائعاً ، إلى أن أظهر الله الإسلام فانكسرت شوكتهم وأنكر الشرع الاعتماد عليهم ، وكان ما اطلع عليه هرقل من ذلك بمقتضى حساب المنجمين أنهم زعموا أن المولد النبوى كان بقران العلويين ببرج العقرب ، وهما يقترنان في كل عشرين سنة مرة إلى أن تستوفى المثلثة بروجها في ستين سنة ، فكان ابتداء العشرين الأولى المولد النبوى في القران المذكور ، وعند تمام العشرين الثانية مجئ جبريل بالوحى ، وعند تمام الثالثة فتح خيبر وعمرة القضية التي جرّت فتح مكة وظهور الإسلام ، وفي تلك الأيام رأى هرقل ما رأى .

⁽١) الدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهى يكون للملوك ، والجمع : دساكر .

⁽٣) رواه البخاري عن صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهري : ١/٥

ومن جملة ما ذكروه أيضاً أن برج العقرب مائى ، وهو دليل ملك القوم الذين يختتنون ، فكان ذلك دليلاً على انتقال الملك إلى العرب ، وأما اليهود فليسوا مراداً هنا لأن هذا لم ينقل إليه الملك إلا لمن انقضى ملكه .

فإن قيل : كيف ساغ للبخارى إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية أمر المنجمين والاعتماد على ما تدل عليه أحكامهم ؟

فالجواب: أنه لم يقصد ذلك ، بل قصد أن يبين أن الإشارات بالنبى على جاءت من كل طريق وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم ، محق أو مبطل ، إنسى أو جنى .. وهذا من أبدع ما يشير إليه عالم أو يجنح إليه محتج .

وقد قيل : إن الحزّاء هو الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه فيحكم على صاحبها بطريق الفراسة ، وهذا إن ثبت فلا يلزم منه حصره في ذلك ، بل اللائق في حق هرقل ما تقدم » (١) .

* * *

⁽١) قتع الباري بشرح صحيع البخاري - للنووي: ١٠/١ه

الفصل الثاني

النبوة الخاتمة

حالة العرب وقت الرسالة :

كظلمة الليل البهيم التي تسبق طلوع الفجر ، كانت الجزيرة العربية قبيل مبعث رسول الله على ، فقد كان المجتمع فيها وثنياً يسبع في ظلمات الجاهلية الجهلاء .

وتعتمد أفكارنا عن الوثنية الجاهلية على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ورغم إزراء هذه الأحاديث لكل شئ قبل الإسلام ، فقد جمعها المسلمون في إطار أبحاثهم التاريخية واللغوية ، وإلى هذه الجاهلية تنسب جميع الخطايا التي لعنها القرآن الكريم .

وقد ورد ذكر الجاهلية في قوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهَلِيَّة ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ ۗ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (٢) .

وقولد جل شأند : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّة ﴾ (٣) .

والجاهلية في اللغة : هي زمن الفترة ولا إسلام ، وقالوا : الجاهلية الجهلاء فبالغوا ، وقولهم الجاهلية الجهلاء هو توكيد للأول يشتق من اسمه ما يُؤكّد به .

(١) آل عمران: ١٥٤ (٢) الأحزاب: ٣٣ (٣) الفتح: ٢٦

وفى الحديث الشريف: « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام ، من الجهل بالله سبحانه ، ورسوله ، وشرائع الدين ، والمفاخرة بالأنساب ، والكبر والتكبر .. وغير ذلك (١) .

الجاهلية - إذن - هى الاسم الذى يُطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ، أو بعبارة أخص : الاسم الذى يُطلق على الفترة التى خلت من الرسل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .. وهى بخلاف الجاهلية الأولى التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم والتى تمتد من آدم إلى نوح عليهما السلام ، أو إلى أنبياء آخرين .

فالجاهلي ؛ هو العربي الوثني الذي كان يعيش قبل ظهور الإسلام ، أما المخضرم ؛ فهو الذي عاش في الجاهلية وأدركه الإسلام ، وأكثر ما يُطلق هذا اللفظ على الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

أما من حيث المعنى الدقيق لكلمة « جاهلية » فالرأى الشائع أنها من « الجهل » ، وهو عين ما نعتت به الأزمنة السابقة للإسلام .. أما الإسلام فهو زمن النور والمعرفة . و « جهل » ضد « علم » ، وردت بهذا المعنى كثيراً فى اللغة القديمة ، ووردت أكثر فى الأزمنة الحديثة .

وهناك من يرى أن هذا المعنى ثانوى ، وأن « جهل » معناها الأول ضد « حلم » لا « علم » ، فمعناها - على هذا الرأى - : قسا ، وخشن ، وغلظ .. أى أنها الهمجية .

وهناك من يذهب إلى أنها: العنف والحدة والغلو فى تقدير الأمور كما كان العرب يفعلون .. فقد كانوا يغالون فى الكرم حتى يكون سفها أو سرفا ، ويغالون فى الحفاظ والثأر حتى يكون عدوانا ، ويغالون فى الشجاعة حتى تكون تهورا .. وهكذا .

⁽١) لسان العرب مادة ﴿ ج هـ ل ﴾ .

فى حين أن القصد ، هو السبيل السوى فى كل شئ ، وهو الذى جاء به الإسلام .

ومن مثل ما يؤيد هذا المعنى للكلمة الحديث الشريف: « ومَن استجهل مؤمناً فعليه إثمه » ، قال ابن الأثير: أى مَن حُمَّل شئ ليس من حقه فيغضبه ، فإغا إثمه على مَن أحرجه إلى ذلك .

والمعنى الدقيق - الذى غيل إليه - أنها مصطلح يُستعمل فى كل ما ورد في من مواضع للدلالة على نقيض الإسلام ، وعلى الحالة التى كانت سائدة فى جزيرة العرب قبل بعثة النبى على ، وعلى الوثنية ، وعلى الفترة السابقة للإسلام ، وعلى أهل هذه الفترة ، فهى زمن الجهالة والوثنية .

فالجاهلية ضد الإسلام ، وتُطلق على الفترة التي لم يكن العرب فيها قد عرفوا الإسلام وشريعة الله ، وعلى المعتقدات الجارية في تلك الفترة .

وهناك من يفرَّق تفرقة بيَّنة بين عرب الجنوب وعرب أواسط الجزيرة ، فقد كان الأولون مفطورين على التدين ، أما الآخرون فلم يكونوا في الواقع على دين .

بَيْدَ أن هذا الرأى يجب أن يتعدل ، لأن كثيرين جداً من عرب الجنرب قد نزحوا إلى الشمال - وكان هذا حال يثرب خاصة - على أن عرب أواسط الجزيرة لم يكونوا يحفلون بالأنظار الدينية ، نستبين هذا من أشعارهم وغيرها من آثارهم ، وغاية ما وصلوا إليه هو الإيمان الغامض بإله ، أو الاعتقاد في المنايا والمنون .

أما وصف القرآن الكريم لعبدة الأصنام ، فإنما ينصرف - على الأغلب - إلى زمن متطاول في القدم ، وينصرف أقله إلى من عاصروا النبي الله أن موقف هؤلاء منه يظهرنا على أن تبجيلهم لأصنامهم لم يكن متمكناً في نفوسهم .

أما ما كان يحتفل به العربى الوثنى أكثر من دينه ، فهو صلته بقبيلته ، فالعشيرة هى الوحدة التى ينبنى عليها مجتمعه كله ، وقد بلغ من قوة هذه الصلة أن الإسلام عندما جاءهم لم يكن يستطيع – فى نظرهم – أن يحل فى نفوسهم محل قبائلهم ، ولهذا قاوموه وحاربوه ، حتى أظهره الله عليهم .

لقد أحاط البَشرية قبل بعثة الرسول الله ظلام حالك ، كان ظلاماً مطبقاً ، وكان ليلاً طويلاً نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة ، ودب الجهل وانكمش العلم ، وعم اليأس وقل الأمل ، وأوشكت الإنسانية أن تفقد ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى في هوة سحيقة هي إلى عالم الحيوان أقرب .

كان العرب – قبل الإسلام – يعيشون فى صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبادة الأصنام ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهدأ بين القبائل التى تتحارب وتتشاجر دون قانون يحكمها ، أو نظام يضمها .

ولعل أدق تصوير وأخصره لحالة العرب في جاهليتهم ، هو ذلك الذي قرره جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أمام النجاشي ملك الحبشة حينما سأله عن دين الإسلام وعن الرسول على فقال له: « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، وبأكل القوى منا الضعيف » .

كان العرب في جاهليتهم يرون الشجاعة في عدد من يقتل الواحد منهم من عدوه وذوده عن عشيرته !!

كانوا يتعاطون الخمر ، ويرون أن من دواعى الفخر أن يظل الواحد منهم فى حانوت الخمَّار حتى يعلن صاحبه نفاد الشراب !!

كانوا لا يتعافون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ويبيحون الزنا ، بل ينظمونه ويقننونه .

وكانوا يجيزون نكاح الأختين ونكاح المقت ، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه وهو أبشع أنواع النكاح ، ولذا وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَلا تَنكَحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

⁽١) النساء: ٢٢

لم يكن الحجاب بينهم معروفاً ، ولهذا وصف الله تعالى التبرج بأنه « تبرج الجاهلية » ، وكان للنساء عندهم الحق في تطليق الرجال !!

كانوا يفرضون الضرائب على الفقراء يدفعونها للأغنياء من عَرَقهم وجهدهم ، فإن لم يكف العَرَق والجهد ، سجنوا فيها أو دفعوها من دمائهم .

ولم تكن غلة الأرض تفى بحاجة أهلها - إلا فى بعض المواضع كاليمن والواحات حيث يكثر الطعام - فى حين كان أهل مكة يعيشون على نقل السلع بين اليمن وبلاد الشام ، إلى جانب ما يربحونه من الحجاج الذين يزحمون مدينتهم كل عام .

بَيْد أن عرب الصحراء كانوا دائماً فى مسغبة ، لذا كانون يندون البنات خشية الإملاق وما يجلبه من عار .. ولهذا كانوا يستكملون ما ينقصهم من لحوم الإبل وألبانها بالإغارة على القبائل المجاورة .. غير أن هذه الغارات لم تكن تُكثر من جملة أزوادهم ، ولكنها كانت تساعد على إنقاص الآكلين .

وكانت العرب في جاهليتهم تعبد الأصنام .

والصنم فى اللغة : واحد الأصنام ، يقال : إنه معرّب « شمن » وهو الوثن . قال ابن سيده : وهو ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس .. والجمع : أصنام .

وقد تكرر فى الحديث الشريف ذكر الصنم والأصنام ، وهو ما اتُخِذَ إلها من دون الله تعالى .

وقيل : هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن .

وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي : الصنمة والنصمة : الصورة التي تُعبد . وفي القرآن الكريم : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَيَنِيُّ أَن نُعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ (١) .. قال

⁽١) إبراهيم: ٣٥

ابن عرفة : ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن ، فإذا كان له صورة فهو صنم .

ولعل الفرق بين الوثن والصنم ؛ أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ، يُنحت ويُعبد . والصنم : الصورة بلا جثة .

ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنماً . روى عن الحسن أنه قال : لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولها صنم يعبدونها يسمونها أنثى بنى فلان .. ومنه قول الله عَزُّ وجَلُّ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِه إِلَّا إِنَاثاً ﴾ (١) ، والإناث : كل شئ ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة (٢) .

واتخذ العرب لهم أصناماً يعبدونها من دون الله .. فكان أقدمها « مناة » - صنم من خشب - نصبوه على ساحل البحر من ناحية « المشلل » بقديد ، بين مكة والمدينة ، وعظمته العرب جميعاً .. وكان أشدهم تعظيماً له : الأوس والخزرج .

ثم اتخذوا « اللَّات » بالطائف ، وكان صخرة مربعة عظمتها قريش وثقيف .

كما اتخذوا « العزى » بوادى حراض : من نخلة يقال إنها كانت تأنيها شيطانة !!

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها عندهم « هُبَل » ، اتخذوه من عقيق أحمر على صورة إنسان ، ونصبه خزيمة بن مدركة بن الياس ابن النضر ، ووضع أمامه القداح .

وكان لهم « أساف » و « نائلة » ، رجل وامرأة من « جرهم » يقال إنهما زنيا في جوف الكعبة فمسخهما الله حجرين ، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج من العرب !!

⁽۱) النساء: ۱۱۷ (۲) لسان العرب مادة ﴿ ص نَ م ﴾ .

وكان لهم « ذو الخُلُصة » - مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وتعظمها وتهدى إليها خثعم وبجيلة .

ولدوس صنم يقال له « ذو الكفين ».

ولبنى الحارث بن يشكر « ذى الشرى » .

ولقضاعة ولخم وخذام وعاملة وغطفان « الأقيصر » .

ولمزينة « نهم » ، والأزد السراة « عائم » ، ولعنزة « سعير » ، ولطئ « الفلس » ، والخولان « عم أنس » ، ولبنى ملكان بن كنانة « سعد » .

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في داره ، يعبده ويتمسح بد عند سفره وقدومه !!

واتخذ العرب مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها تعظيمها للكعبة ، ولها سدنة وحُجَّاب ، يطوفون بها ويهدون لها وينحرون عندها كما يفعلون عند الكعبة !!

وكان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فينظر إلى أحسنها ويتخذه رباً ، ويجعل من الثلاثة أثافي (١) لقدره ، فإذا ارتحل تركه ، وإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك !!

وعن أبى رجاء العطاردى قال : « لما بُعِث النبى الله فسمعنا به ، لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار » . قال : « وكنا نعبد الحجارة فى الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » .

وقال أبو عثمان النهدى : « كنا فى الجاهلية نعبد حجراً ، فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرحال ، إن ربكم قد هُلك فالتمسوا رباً .

⁽١) الأثاني : هي الأحجار توضع تحت القدر لترفعها عن النار حتى ينضج ما بها .

قال : فخرجنا على كل صعب وذلول ، فبيّنا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنّا قد وجدنا ربكم - أو شبهه - فإذا حجر ، فنحرنا عليه الجُزر » !!

وعن عمرو بن عبسة قال : « كنت امراً عمن يعبد الحجارة ، فينزل الحي ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلها يعبده .. ثم لعله يجد ما هو أحسن قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره » !!

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً - بعدد أيام السنة - فجعل يطعن في وجوهها وعيونها بسية قوسه ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الباطلُ ، إِنَّ الباطلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (١) .

غير أن العرب فى جاهليتهم - شأنهم شأن أسلافهم من عبدة الأصنام - لم يكونوا يعتقدون أن الألوهية قد توزعت فى هذه الأصنام دون وجود إله قاهر فوقها .

وما جحدوا كوند تعالى خالق العالم أو مدبره ..

بل كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى ، وأنه الخالق والمدبر .. إنما اتخذوا هذه الأصنام أولياء لهم وحماة ، يدعونهم عند الشدائد ، ويستغيثون بهم فى الملمات ، ويزعمون أنها تسمعهم وتقدر على نصرهم ، فاتخذوها وسائط بينهم وبين الله تعالى خالق العالم ومدبره .

كانت عقيدتهم فى شأن هذه الأصنام: أن لها شيئاً من التدخل والنفوذ فى ألوهية ذلك الإلد الأعلى ، وأن كلمتها تُتلقى عنده بالقبول ، فتتحقق أمانيهم بواسطتها ، ويستدرون النفع ويتجنبون المضار بشفاعتها !!

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

⁽١) الإسراء: ٨١ (٢) العنكبوت: ٦١

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فيها إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوْاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَتَقُونَ * قُلْ مَن بِيده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيَء وَهُو يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * (١) .

فهم قد أقروا - بنص القرآن الكريم - بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر.

إنما كانت حُجِّتهم أن هؤلاء الأولياء لمكانتهم عند الله تعالى وقُربهم منه - نظراً لصلاحهم وتقواهم - هم الوسطاء والشفعاء بينهم وبينه .. تعالى الله عما يقول الظالمون عُلواً كبيراً .

ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا للّه الدِّينُ الخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أُولْيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في مَا هُمْ فيه يَخْتَلَفُونَ ﴾ (٢) .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - مبيناً حال العرب فى جاهليتهم: « كانت للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتّى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها ، فقد حطم النبى (على) الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثقفوها ، وتناهى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفوا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدب كل ما يتصل بها .

« على أن ما ورد من ذكرها فى القرآن ، وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجرة عنها ، بعد إذ أمن المسلمون فتنتها ، ينبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانة ، وما كانت عليه من مختلف الصور ، ويدل على أنها كانت تتفاوت فى درجات التقديس .

⁽١) المؤمنون : ٨٤ – ٨٩

« وقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة ، وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم ، والوثن ، والنُصُب .

« فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب .. والوثن ما كان على شكله من حجر .. أما النُصُب فصخرة ليست لها صورة معينة ، تجرى عليها قبيلة من القبائل أوضاع العبادة لما تزعمه من أصلها السماوى أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه . ولعل أدق الأصنام صنعاً ما كان لأهل اليمن ، ولا عجب ، فحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكندة .

« على أن كتب الأصنام لا تشير بالدقة إلى شئ من صور هذه الأصنام ، إلا ما قيل عن « هُبَل » من أنه كان من العقيق على صورة الإنسان ، وأن ذراعه كسرت فأبدله القرشيون منها ذراعاً من ذهب ، و « هُبَل » كان كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة فكان الناس يحجون إليه من كل فج عميق .

« ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم ، بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصباً في بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه في سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر (!!) .

« وهذه الأصنام جميعاً ، سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها ، وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تُعتبر الوسيط بين عُبادها وبين الإله الأكبر . وكان العرب لذلك يعتبرون عبادتهم إياها زلفى يتقربون بها إلى الله (تعالى) وإن كانوا نسوا عبادة الله (سبحانه) لعبادتهم هذه الأصنام .

« ومع أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب خصبها وحُسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها ، لم تكن مع ذلك مطمح النظر لأهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ، ولم يكن إلى معابدها حجهم ، وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابة الحاج ، إليها كانت تُشد الرحال

وتشخص الأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها كانت ترعى الأشهر الحُرُم ، لذلك ولمركزها الممتاز في تجارة العرب كلها كانت تعتبر عاصمة شبة الجزيرة .

« ثم أراد القَدر (١) من بعد ، أن تكون مسقط رأس محمداً الله النبى العربى ، فتكون بذلك متجه نظر العالم على توالى القرون ، ويظل لبيتها العتيق تقديسه ، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية ، وإن ظلت وظلوا جميعاً أدنى إلى خشونة البداوة التي كانوا عليها منذ عشرات القرون » أ هـ (٢).

* * *

• كيف نشأت عبادة الأصنام:

نشأت عبادة الأصنام باتخاذ الوسطاء والشفعاء .. وفي نشأتها يقول هشام ابن محمد ابن السائب الكلبي في كتابه « الأصنام » :

« أول ما عُبِدت الأصنام ، أن آدم عليه السلام لما مات ، جعله بنو شيث ابن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند - وبقال له « نوذ » وهو أخصب جبل في الأرض - فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم في المغارة ، فيعظمونه ويترجمون عليه .

فقال رجل من بنى قابيل بن آدم : يا بنى قابيل ، إن لبنى شيث دواراً (٣) يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شئ .. فنحت لهم صنماً ، فكان أول من عملها » .

فكانت القبور وتعظيمها والعكوف عليها ، أول ما أضل الشيطان به الناس.

ويقول الإمام البخارى في نشأة الأصنام الأولى : « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » - نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما :

⁽١) كان الأولى أن يقول رحمه الله : ﴿ ثِم أُوادِ اللَّهُ تَعَالَى ﴾ ..

 ⁽۲) انظر : حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل - طبع دار المعارف ، سنة ١٩٨١ ،
 ص٩٩ - ١٠٠ .

« هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا .. فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عُبدت » .

وفيهم يقول ابن جرير عن محمد بن قبس: « كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم .. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم لكان أشوق إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم .. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم » .

ويقول ابن الجوزى في كتابه « تلبيس إبليس » : « كان « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » قوماً صالحين ، فماتوا في شهر ، فجزع عليهم أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ؟ غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواجاً . فقالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل منهم يأتى أخاه وعمه وابن عمه ، فيعظمه ويسعى حوله ، حتى إذا ذهب القرن الأول – وعملت على عهد « يزد بن مهلاييل بن قينان بن شيث بن آدم » – ثم جاء قرن آخر ، فعظموهم أشد تعظيم من القرن الأول .. ثم جاء من بعدهم القرن الثالث ، فقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله عز وجَل ، فعيدوهم وعظموا أمرهم .. واشتد كفرهم ، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم « إدريس » عليه السلام فدعاهم فكذبوه ، فرفعه الله مكاناً علياً ..

ولم يزل أمرهم يشتد ، حتى أدرك « نوح » فبعثه الله نبياً - وهو يومئذ ابن أربعة وثمانين سنة - فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل مائة وعشرين سنة .. فعصوه وكذبوه ، فأمر الله تعالى أن يصنع الفلك ، فعملها وفرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة ، وغرق من غرق ، ومكث بعد ذلك ثماغائة وخمسين سنة » .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : « ود ، ويغوث ، ويعوق ، وسواع ، ونسر » أولاد آدم ، وكان « ود » أكبرهم وأبرهم به » .

وذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » : « ذكروا عند أبى جعفر الباقر - وهر قائم يصلى - « يزيد بن المهلب » . قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه تُتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى . قال : ذكر « ودأ » قال : كان رجلاً صالحاً ، وكان محبباً في قومه ، فلما مات مكثوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله .

قال : فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه ، فلما رأى ما يهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ؟

فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله ، أولاد أولادهم ، فكان أول ما عُبِد غير الله « ود » الصنم الذي سموه « وداً » .

ونقول : حين بعث الله نوحاً عليه السلام ، كان القوم يعبدون « وداً » وإخرته « يغوث ويعوق وسواع ونسر » ، فقام نوح عليه السلام يدعو قومه إلى إفراد الله وحده بالعبادة والتعظيم ، وكان مما قاله لهم : ﴿ يَا قَوْمٍ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَه غَيْرُهُ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظيم ﴾ (١) .. فكذبوه ، وعصوه ، وجحدوه .. وأصروا على عبادة آلهتهم المصنوعة .

ولم يكن قوم نوح عليه السلام يجحدون وجود الله تعالى ، إذ جاء ردهم على

⁽١) الأعراف : ٥٩

دعوة نبيهم : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مَّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلَاثِكَةً ﴾ (١) .. فهم لم يكونوا يعتقدون أن الألوهية قد توزعت في تلك الأصنام دون وجود إله قاهر فوقها ، بل كان لديهم تصور واضح لوجود إله ، عبَّروا عند بقولهم : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، فأقروا بوجود الله سبحانه .

كما لم يكونوا يجحدون كون الله تعالى خالق العالم ، فلم يقل واحد منهم إن الله ليس برينا ، أو ليس هو خالق السموات والأرض ، أو خالقنا نحن ، أو ليس هو الذى يقوم بتدبير أمور السموات والأرض .. لم يقل واحد منهم هذا ، إنما كان اعتراضهم على أن يرسل الله تعالى رجلاً منهم وليس ملكاً !!

لقد كان القوم - فى واقع أمرهم - يؤمنون بأن الله وحده هو الخالق ، وأنه تعالى هو المدبر .. إلا أنهم اتخذوا آلهة أخرى إلى جواره ، جعلوا لها بعض التدخل فى تدبير نظام هذا العالم وتتعلق بها حاجاتهم .. فكانوا يفزعون إليها فى النوائب والشدائد ، ويلتمسون عندها الأمن من الخوف والنقص ، ويجدون أمنهم فى الاحتماء بجوارها .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيكُونُواْ لَهُمْ عَزَاً ﴾ (٢) .

كما يقول جَلُّ شأنه : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٣) .

كان القوم يؤمنون بوجود الله تعالى ، وأنه وحده الخالق المدبر .. وإنما اتخذوا هذه الأصنام أولياء لهم وحماة وشفعاء .. ولهذا تمسكوا بعبادتها – أى التوجه إليها بالسؤال – وقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنُ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنُ وَدَا وَلَا سُواعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْرا ﴾ (٤) .

⁽۱) المؤمنون : ۲۶ (۲) مريم : ۸۱

⁽۳) یس : ۷۲ کوح : ۲۳

لقد اتخذ القوم أوليا عمم أرباباً من دون الله عندما اتخذوهم وسطاء وشفعاء بينهم وبينه تعالى .. ولهذا يقول جَلُّ شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسنتَجيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ وَاللَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرُكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (٢) .

لقد عبد القوم أصنامهم التى صنعوها بأيديهم تخليداً لأوليائهم – مع إيمانهم بوجود الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر – وتمثلت عبادتهم تلك فى التوجه إليها بالسؤال والدعاء .. وهيهات أن تستجيب لهم لأنها بحكم تكوينها خاضعة لله تعالى ومسخَّرة لأمره .. ولهذا يتحداهم الله سبحانه بأن يطلبوا منها أمراً ثم ينتظروا تحقيقه لهم ، ولكن هذا لن يكون أبداً ، لأن هذه الأصنام التى يطلبون منها النصر لا تستطيع نصرهم لأنها لا تملك نصر أنفسها ، فكيف – وهذا حالها – تملك النصر لهم !!

فلما أصر القوم على موقفهم ، عاقبهم الله تعالى بالطوفان : ﴿ مُمَّا خَطَيَئاتهِم الله تعالى بالطوفان : ﴿ مُمَّا خَطَيَئاتهِم أَعُرْقُوا ْ فَأَدُّخِلُوا ْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ أَنصَاراً ﴾ (٣) . ولم تنفعهم أصنامهم التي عبدوها من دون الله ، ولم تدفع عنهم قضاء بالرغم من عبادتهم إياها .

أرسل الله تعالى الطوفان على قوم نوح عليه السلام عقاباً لهم على بغيهم وكفرهم وعبادتهم للأصنام ، حتى ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً – وقيل : ثمانين ذراعاً – وعم جميع الأرض وطولها والعرض ، سهلها وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق على وجه الأرض من كان بها من الأحياء عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير .

وحين انتهى أمر الطوفان بعد أن ابتلعت الأرض ما عها ، وأقلعت السماء ،

(١) الأعراف : ١٩٤

(٢) الأعراف : ١٩٧

(٣) نوح : ٢٥

وغيض الماء .. هبطت الأصنام التى كان قوم نوح يعبدونها من جبل « نوذ » ، وحملها الماء في جريانها من أرض إلى أرض .. حتى قذفها إلى أرض جدة من بلاد الحجاز .. فلما نضب الماء وبقيت على الشاطئ سفت الربح عليها حتى وارتها ، إلى أن استخرجها « عمرو بن لحى » – ويكنى أبا ثمامة – وكان كاهنأ له رئى من الجن ، فأتاه يوماً فقال له : « عجل المسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، ائت صفا جدة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب » (١) .. فأتى جده واستخرجها ، ثم حملها إلى تهامة ، ودعا إلى عبادتها في موسم الحج ، فأجابه قومه وحملوها معهم إلى بلادهم .

فكان « ود » بوادى القرى بدومة الجندل تعبده « كلب » .

وكان « سواع » بأرض يقال لها « وهاط » من بطن نخلة يعبده من يليه من مُضَر .

وكان « يغوث » باليمن تعبده « مذحج » .

وكان « يعوق » بقرية يقال لها « خيوان » تعبده « همدان » ومن والاها من اليمن .

وحل « نسر » بأرض سبأ تعبده « حمير » ومن والاها ، حتى هودهم ذو نواس .

وظلت هذه الأصنام تُعبد في تلك الأنحاء ، حتى بعث الله محمداً الله محمداً الله فهدمها وحطمها فيما حطم من أصنام .

ويحدثنا الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - عن تاريخ الأصنام فى بلاد العرب فيقول: « وكان أهل الجاهلية على ذلك فيهم بقايا من دين إبراهيم ، مثل تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ، وإهداء البُدن .

⁽١) انظر: تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ص ٩٣

وكانت نزار تقول فى إهلالها : « لَبَيْكَ اللَّهُم لَبَيْكَ ، لَبَيْكَ لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، قلكه وما ملك » . . فأنزل الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مُقَلاً مَن أُنفُسكُم ، هَل لَّكُم مَّن مًا مَلكَت أَيَانُكُم مِّن شُركاء في مَا رَزَقْنَاكُم فَن أُنفُسكُم ، كَذَلِكَ نَفصًلُ الآيَاتِ فَانتُم فيه سَواء تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أُنفُسكُم ، كَذَلِكَ نَفصًلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْقَلُونَ ﴾ (١) .

ثم يقول: « ومن أقدم أصنامهم « مناة » ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمه قاطبة ، ولم يكن أحد أشد تعظيماً له من الأوس والخزرج ، وبسبب ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ الله ، فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أُو اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطُونَ بِهِمَا ﴾ ... الآية (٢) . فبعث رسول الله على علياً رضى الله عنه فهدمها عام الفتح .

ثم اتخذوا « اللأت » فى الطائف ، قيل : إن أصل ذلك رجل كان يلت السويق للحاج ، فمات ، فعكفوا على قبره ، وكانت صخرة مربعة ، وكان سدنتها ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بيتا ، فكان جميع العرب يعظمونها ، وكانت العرب تسمى « زيد اللأت » ، و « تيم اللأت » .. وهى فى موضع منارة مسجد الطائف .

فلما أسلمت ثقيف ، بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها -بالنار .

ثم اتخذوا « العُزَّى » ، وهي أحدث من اللأت . وكانت بوادى نخلة فوق ذات عرق ، وبنوا عليها بيتاً .. وكانوا يسمعون منها الصوت ، وكانت قريش تعظمها .

(١) الروم : ٢٨

يا عزُّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيتُ اللَّه قد أهانـك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فإذا هي حممة ، ثم قتل السادن .

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها « هُبَل » ، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، وكانوا إذا اختصموا ، أو أرادوا سفراً أتوه ، فاستقسموا بالقداح عنده ، وهو الذي قال فيه أبو سفيان يوم أحد : أعل هُبَل . فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله أعلى وأجل » .

وكان لهم « أساف » و « نائلة » ، قبل : أصلهما أن أسافاً رجل من جرهم ، ونائلة امرأة منهم ، فدخلا البيت ، ففجر بها ، فمسخهما الله حجرين ، فأخرجوهما فوضعوهما ليتعظ بهما الناس ، فلما طال الأمد وعُبِدت الأصنام : عُبدا .

وكان لخثعم وبجيلة صنم يقال له « ذو الخلصة » بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله على الجرير بن عبد الله البجلى : « ألا ترحينى من ذى الخلصة ؟ فسار إليها بأحمس ، فقاتلته همدان ، فظفر بهم وهدمه .

وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارق الشام .

وكان لأهل كل واد بمكة صنم ، إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به .

قال ابن إسحاق : وكان لخولان صنم يقال له « عم أنس » ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ وَجَعُلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأُ مِنَ الحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ

⁽١) أي جنية .

بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُركَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِشُركَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِللهِ فَهُو يَصِلُ إِلَى شُركَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

فلما بعث الله محمداً على بالتوحيد ، قالت قريش : ﴿ أَجِعَلَ الآلِهَةَ إِلْهُ وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٢) .

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظ الكعبة .. ولما فتح رسول الله تله مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنع فجعل يطعن في وجوهها وعبونها ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الباطلُ ، إِ الباطلُ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٣) ، وهي تتساقط على رؤوسها ، ثم أمر بها فأخرج من المسجد وحرقت » (٤) .

* * *

ويصف فضيلة الشيخ محمد الغزالى - أمدُّ الله في عمره وجزاه عن الإسلا خيراً - المجتمع الجاهلي وقت الرسالة ، فيقول في وصفه البليغ : « كان أه مكة ضعاف التفكير أقوياء الشهوات .

إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة ، ولا بين تخلف الجماعات مرالناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .

إن عرام الشهوات الذي نسمع عنه في « باريس » و « هوليود » ، لا يزي كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا في زيادة وسائل الإغراء فحسب .

⁽١) الأنعام: ١٣٦ (٢) سورة ص: ٥ (٣) الإسراء: ٨١

⁽٤) مختصر سيرة الرسول ، لمحمد بن عبد الوهاب ، نشر مكتبة السُنّة المحمدية سنة ١٩٥٦ ص٥١ وما يعدها .

وانظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ، والسير النبوية لابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير .. وغيرها من كتب السيرة .

أما الشهوات نفسها ، فهى هى من قبل الطوفان ومن بعده .. الأثرة والجشع والرياء والتهارش والحقد ، وغير ذلك من ذميم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن تغيرت الأزياء التى تظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان ليرى فى القرية التافهة ، وفى القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه فى أرقى البيئات . وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل ، ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس .

وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه ، ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه .

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتّى لهذا الغباء وهذا العناد .

فعندما دُعِيَ قوم نوح إلى الإيان بالله وحده ، كانت إجابتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعى وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة : ﴿ فَقَالَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمه مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مَّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلَاتًكُما ﴾ (١) .

ما أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت « مكة » على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم وكان الرجال الذين يحبون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلل الأفكار ، أو نمائهما في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده .

كفر بالله واليوم الآخر ، وإقبالٌ على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه .

رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة .. عصبيات طائشة تسالم

⁽١) المؤمنون : ٢٤

وتحارب من أجل ذلك . . تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود .

ومن الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي قسك عليها الرمق .. كلا ، إنما شبعت حتى بطرت ، وتنازعت الكبرياء حتى تطامنت عليها ، وكثر فيها من تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجه منه . فهم بين عم عن الصواب ، أو جاحد له .. وفي هذا المجتمع الذي لم ينل حظاً يُذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطغواه .

قال عمرو بن هشام (١) - معللاً كفره برسالة محمد الله -: « زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يُوحَى إليه ، والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه »!!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله ﷺ : « لو كانت النبوة حقاً ، الكنتُ أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً » !!

وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها ، فما كان كفر عبد الله بن أبى (٢) في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب » .

ثم يقول: « إن ابن أبّى غص بالإسلام ، لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل .. ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هناك ألوفاً غيرهم لا يدركون قيلاً ، ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام .. وحاربوه .

⁽١) هو أبو جهل لعنه اللَّه .

⁽٢) رأس المنافقين في المدينة ، وكانوا قد اجتمعوا على أن يتوجوه ملكاً عليهم ، فلما ظهر أمر الرسول على حقد عليه وناصبه العداء .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعداوات المقصودة أو المضللة ، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته .. فأخرج أمة من الظلام إلى النور، بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضئ ويهدى ، والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ، لبست دواءً موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا التاثت ، وستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة ، تكرم الإنسان وتجددً الحياة » (١)

* * *

• وسطعت شمس الرسالة:

كان لا بد لليل الطويل أن ينجلي أمام تباشير الفجر.

كما كان لا بد للظلمة الحالكة أن تتلاشى أمام طلائع النور .

وجاء مبعث رسول الله ﷺ نهاراً يعقب ذلك الليل الطويل ، ونوراً يبدد تلك الظّلمة الحالكة .

وأذن الله تعالى للنور أن يسطع ، ولشمس الإسلام أن تطلع .. فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وليُخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بإذن ربه ، وليجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

أشرقت شمس الإسلام من جزيرة العرب ليعم نورها الآفاق ، ولينتشر دفئها على العالم كلد ، بمبعث محمد بن عبد الله على الرحمة ، ورسول الانسانية .

وكان أول أمر الرسول ﷺ - بعد زواجه من خديجة رضى الله عنها - أن حُبُّبَ

⁽١) فقد السيرة ، للشيخ محمد الغزالي - طبع دار الكتب الإسلامية ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٢٤ وما بعدها .

الله إليه الخلوة والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد .

وبُغَّضت إليه الأوثان ودين قومه ، فلم يكن شئ أبغض إليه من ذلك .

فلما كمل له أربعون - وهى رأس الكمال ، ولها تُبعث الرسل - أشرقت عليه أنوار النبوة ، وأكرمه الله تعالى برسالته ، وبعثه إلى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده .

وكان مبعثه صلى الله عليه وسلم في مُلك أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان ملك الفُرس .

ولا خلاف أن مبعثه - صلى الله عليه وسلم - كان يوم الاثنين ، واخْتُلُف فى شهر المبعث ، فقيل لثمان مضين من ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل - وهذا قول الأكثرين .

وقيل : بل كان ذلك في رمضان .. واحتج هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فيه القُرْآنُ ﴾ (١) .

قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن ، وإلى هذا ذهب جماعة منهم يحيى الصصرى حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

والأولون قالوا: إنما كان أنزل القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة ، ثم أُنزل منجماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة .

وقالت طائفة : ﴿ أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ : أى فى شأنه وتعظيمه وفرض صومه . وقيل : كان ابتداء المبعث في شهر رجب (٢) .

⁽١) البترة: ١٨٥

⁽٢) زاد المعاد ، لابن القيم - مرجع سابق - : ١٨/١

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وحُبِّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد (١) قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

حتى جاءه الحق - وفي رواية: حتى فجئه الحق - وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال: ﴿ اقْرَأَ ﴾ ، قال: ما أنا بقارئ ، قال: « فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأَ ﴾ ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأَ ﴾ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأَ بالسم فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأَ بالسم ربّك الذي خَلق * خَلق الإنسان من عَلق * اقْرَأُ وَرَبُّك الأَكْرَمُ * الّذي عَلْمَ بالقَلَم * عَلَمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

فرجع بها رسول الله على يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : « زمّلونى .. زمّلونى » ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيتُ على نفسى » ، فقالت له خديجة : كلا ، أبشر .. فوالله ما يخذيك الله أبدأ ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتُقرّى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خدیجة رضی الله عنها حتی أتت به علی ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العُزّی بن قصی ، وهو ابن عم خدیجة أخی أبیها ، وكان امر ا تنصّر

⁽١) قوله : « وهو التعبد ... » مدرج في الخبر ، وهو من تفسير الزهري كما جزم به الطيبي ، وفي رواية البخاري من طريق يونس عنه في التفسير ما يدل على الإدراج .

⁽٢) العلق : ١ - ٥

فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يابن عم ، الله أن يكتب ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى تُزَّل على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً (١) ، ليتنى أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مُخْرِجِي هم » ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قَط عِثل ما جئتَ به إلا عودي ، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً » .

وفى رواية لابن هشام: « أن خديجة رضى الله عنها لما سمعت ما قاله لها الرسول على الرسول الله قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله على ، أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لثن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فلشيت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه ، فقبل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله » (٢) .

⁽١) أى الجَلَد القوى ، والجذع من الرجال : الشاب الحدث .

⁽٢) سيرة ابن هشام - مرجع سابق - : ١٤٨/١

ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى فترة حتى حزن رسول الله على - فيما بلغنا (١) - حزناً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك .

قال ابن شهاب: وحدثنى مثل ذلك سعيد بن المسيب، وكان فيما بلغنا: أول ما رأى أن الله عَزَّ وجَلَّ أراه رؤيا في المنام، فشق ذلك عليه، فذكرها رسول الله عَزَّ وجَلَّ أراه خديجة بنت خويلد بن أسد، فعصمها الله عَزَّ وجَلَّ من التكذيب، وشرح صدرها بالتصديق، فقالت: أَبْشِر فإن الله عَزَّ وجَلَّ لن يصنع بك إلا خيراً..

ثم إنه خرج من عندها ، ثم رجع إليها ، فأخبرها أنه رأى بطنه شُقُ ثم طهر وغسل ، ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا والله خير فأبشر .

ثم استعلن له جبریل علیه السلام ، وهو بأعلى مكة ، فأجلسه على مجلس كريم معجب ، كان النبى على يقول : « أجلسنى على بساط كهیئة الدرنوك (٣) فید الیاقوت واللؤلؤ ، فبشره برسالة الله عَزُّ وجَلَّ حتى اطمأن النبى على فقال له

⁽١) قوله: « حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا ... » هذا وما بعده من زيادات معمر على رواية عقيل ويونس ، وقال الحافظ في الفتح: « ثم إن القائل « فيما بلغنا » : هو الزهرى ، ومعنى الكلام : أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة ، وهو من بلاغات الزهرى وليس موصولاً .

 ⁽٢) رواه البخاري في بدء الرحى وفي الأولياء ، باب : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ ، وفي تفسير سورة اقرأ ، وفي التعبير : ﴿ أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصَّالحة ۚ » ، ورواه مسلم في الإيمان ، باب ﴿ الوحى إلى رسول الله ﷺ » .

 ⁽٣) الدرنوك : هو نحو من الطنفسة والبساط ، وجمعه : درانك ، ويقال إن أصله غير عربى .

جبريل عليه السلام: ﴿ اقْرَأَ ﴾ ، فقال : ﴿ اقْرَأَ بِاسْمِ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأُ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

قال ابن شهاب : وكانت خديجة رضى الله عنها أول مَن آمن بالله وصدَّق رسول الله ﷺ قبل أن تُفرض الصلاة .

قال: فقبل الرسول على رسالة ربه عَزَّ وجَلُّ ، واتبع الذى جاءه به جبريل عليه السلام من عند الله ، فلما قبل الذى جاءه من عند الله وانصرف منقلباً إلى بيته، جعل لا يمر على شجر ولا على حجر إلا وسلم عليه ، فرجع مسروراً إلى أهله موقناً ، قد رأى أمراً عظيماً ، فلما دخل على خديجة قال: « أرأيتك الذى كنت أحدثك أنى رأيته في المنام ، فإنه جبريل عليه السلام استعلن لى ، أرسله إلى ربى » ، فأخبرها بالذى جاءه من الله عز وجَل وما سمع منه ، فقالت: « أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً ، فاقبل الذى جاءك من الله ، فإنه حق وأبشر ، فإنك رسول الله » (١) .

ويقول البيهقى : « والذى ذكر فيه من شق بطنه يحتمل أن يكون حكاية منه لم صنع به فى صباه ، ويحتمل أن يكون شُقَّ مرة أخرى ، ثم مرة أخرى ، ثم مرة ثالثة حين عُرجَ به إلى السماء » (٢) .

*

وكان الوحى يأتي إلى رسول الله ﷺ بصور عديدة ..

أولاها: الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: « أول ما بدئ به رسول الله على من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » (٣) .

⁽١) دلائل النبوة للبيهقي : ١/٣٩٨ ، ٣٩٩

⁽٢) الرصف ، مرجع سابق : ٣١/١ – ٣٦ (٣) رواه البخاري ومسلم .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي علله : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يُنَال إلا بطاعته » .

الثالثة : أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقال له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره » . قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : فأخبرني عن الساعة . قال : « ما المسئول عنها ، بأعلم من السائل » .

قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : « أن تلد الأمّة ربّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

ثم انطلق . فلبثت ملياً ثم قال لى : « يا عمر ، أتدرى من السائل » ! قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل يعلمكم دينكم » (١)

⁽١) رواه مسلم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : و أن تلد الأمّة ربّتها - أى سيدتها - ومعناه : أن تكثر السرارى حتى تلد الأمّة السرية بنتا لسيدها ، وبنت السيد فى معنى السيد ، وقيل غير ذلك ، والعالة : الفقراء . وقول عمر رضى الله عنه : ملياً - أى زمناً طويلاً وكان ذلك ثلاثاً .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت مع أبى عند رسول الله ، وعنده رجل يناجيه ، فكان كالمعرض عن أبى ، فخرجنا من عنده ، فقال لى أبى: أى بنى ، ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عنى ؟ فقلت : يا أبت ، إنه كان عنده رجل يناجيه ، قال : فرجعنا إلى النبى شخ فقال أبى : يا رسول الله ، قلت لعبد الله كذا وكذا ، فأخبرنى أنه كان عندك رجل يناجيك ، فهل كان عندك أحد ؟ فقال رسول الله شخ : « وهل رأيته يا عبد الله » ؟ قلت : نعم . قال : « فإن ذلك جبريل ، وهو الذي شغلنى عنك » (١) .

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

فعن أبى أروى الدوسى قال : رأيت الوحى ينزل على النبى الله وإنه على راحلته ، فترغو وتفتل يديها حتى أظن ذراعها ينقصم ، فربما بركت ، وربما قامت مُوتَدة يديها حتى يُسرَّى عنه من ثقل الوحى ، وإنه لينحدر منه مثل الحمان (٢).

فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على " فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة رضى الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (٣) .

⁽١) رواه أحمد في المسند (٢٦٧٩) . (٢) رواه ابن سعد .

⁽٣) رواه البخاري .

وعن عبد الرحمن بن عبد القارئ قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: كان إذا نزل على رسول الله الله الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل، فمكتنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: « اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا » .. ثم قال: « لقد أنزلت على عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة »، ثم قرأ علينا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمنُونَ ﴾ حتى ختم العشر » (١).

وجاء في الخبر أن النبي على كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها - يعنى صدرها - على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرَّى عنه (٢).

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خُلقَ عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة النجم .

نعن ذر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ
رَبِّه الكُبْرَىٰ ﴾ (٣) قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح (٤) ..

السادسة : ما أوحاه الله تعالى إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة .

السابعة : كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة ملك ، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن ، وثبوتها للنبي عليه هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة ، وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهذا على مذهب من يقول أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه تبارك وتعالى ، وهي مسألة خلاف بين السكف والخلف . وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم -

⁽١) رواه أحمد (٢٢٣) .

⁽٢) رواه القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَئُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً ﴾ (المزمل : ٥) .

⁽٣) النجم : ١٨

مع عائشة رضى الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة (١١) .

ونحن مع الرأى القائل بأن رسول الله الله الله الله تعالى ، لحديث مسروق رضى الله عنه الذى رواه مسلم وقال فيه : « كنتُ متكناً عند عائشة رضى الله عنها فقالت : يا أبا عائشة ، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً الله رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

قال: ركنت متكناً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عَزُّ وجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمَبِينِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمَبِينِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٣) .

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله على فقال: « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض » .

فقالت: أوَ لم تسمع أن الله يقول: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ ؟ (٤).

أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرِ أَن يُكَلِّمُهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٍّ حَكِيمٌ ﴾ ؟ (٥)

قالت: ومَنْ زعم أن رسول الله على الله على الله الله على الله الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّعْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَهُ ﴾ (٦) .

(۱) انظر زاد المعاد : ۱۸/۱ (۲) التكوير : ۲۳ (۳) النجم : ۱۳ (۸) النجم : ۱۳ (۸) النجم : ۱۳ (۸) النجم : ۱۳ (۸)

(£) الأنعام : ١٠٣ (٥) الشورى : ٥١ (٦) المائدة : ٧٧

قالت : ومَن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول : ﴿ قُلُ لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. فقال : عن أى شئ كنتَ تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيتَ ربك ؟ قال أبو ذر قد سألتُ فقال : « رأيت نوراً » .

وفي رواية : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « نور .. أنَّى أراه » (٢) .

* *

قلنا: إن أول ما بدئ بد رسول الله على من أمر النبوة الرؤيا، فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا لقول رسول الله على في الحديث الذي رواه مسلم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله عنه قال: « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

ثم إن الله تعالى أكرم نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، فجاءه الملك وهو بغار حراء وأنزل عليه : ﴿ اقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فكانت أول ما نزل عليه – على نحو ما تقدم .

غير أن هناك رواية للأوزاعي قال فيها: سمعتُ بعيى يقول: سألتُ أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل ؟ قال: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّهُ أَبُّ ﴾ فقلت: أو ﴿ اقْرَأَ ﴾ ؟ . فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل ؟ قال: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّه

⁽١) النمل : ٦٥ (واه مسلم .

فنوديتُ فنظرتُ أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ فنظرتُ فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ وفعتُ رأسى فإذا هو - يعنى جبريل عليه السلام - على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رجفة شديدة فأتيتُ خديجة فقلت : دثرونى ، فدثرونى فصبوا على ماءً ، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ * قُمْ فَانذرْ * وَرَبَّكَ فَكَبَّرْ * وَثيابكَ فَطَهر ﴾ (١) .

وفى رواية عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أن جابر بن عبد الله الأنصارى - وكان من أصحاب رسول الله على كان يحدّث: قال رسول الله على - وهو يحدث عن فترة الوحى - قال فى حديثه: « فبينًا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض ». قال رسول الله على : « فجثثت منه فرقاً فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى فأنزل الله تعالى وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا المُدِّثّرُ ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٢) - وهى الأوثان - قال : ثم تتابع الوحى (٣) ...

فالقول بأن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن هو قول انفرد به جابر رضي الله عنه ، والصحيح قول عائشة رضى الله عنها بأن أول ما أنزل عليه : ﴿ اقْرَأُ بِاسْم رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وذلك لوجوه :

َ أُحدها : أنَّ قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أنا بقارئ » صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً .

الثانى : الأمر بالقراءة فى الترتيب قبل الأمر بالإنذار ، فإنه إذا قرأ فى نفسه أنذر ما قرأه ، فأمره بالقراءة أولاً ثم بإنذار ما قرأه ثانية .

الثالث: أن حديث جابر وقوله: « أول ما أنزل من القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّهُ عَنْهَا فَقَد أُخبرت عن خبره اللّه عنها فقد أُخبرت عن خبره صلى اللّه عليه وسلم عن نفسه بذلك.

⁽١) رواه مسلم - والآيات من سورة المدثر : ١ - ٤

⁽٢) المدثر : ٥ (٣) رواه مسلم .

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه تقدم نزول الملك علبه أولاً قبل نزول: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدُّشُ ﴾ فإنه قال: « فرفعتُ رأسي فإذا الملنا الذي جاءني بحراء ، فرجعت إلى أهلى فقلت: زملوني .. دثروني ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، وقد أخبر أن الملك الذي جاء بحراء أنزل عليه: ﴿ اقْ باسْم رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فدل حدبث جابر على تأخر نزول: ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثُرُ ﴾ وأخجة في روايته لا في رأيه ، والله أعلم (١).

ثم إن جبريل عليه السلام علم رسول الله ﷺ الوضوء ، والصلاة ركعتين ، فأتى خديجة رضى الله عنها فأخبرها فتوضأت وصلت ركعتين معه ، وقيل : كانت الصلاة الضحى والعصر .

وقد مرت دعوة الرسول على بخمس مراحل:

- ١ النبوة .
- ٢ إنذار عشيرته الأقربين .
 - ٣ إنذار قومه .
- ٤ إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة .
- ٥ إنذار جميع من بلغه دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر .

وفى هذه المراحل الخمس للدعوة ، أقام صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يدعو الله تعالى مستخفياً إلى أن نزل عليه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الله تعالى مستخفياً إلى أن نزل عليه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُسْرِكِينَ ﴾ (٢) فأعلن صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن الله لهم بالهجرتين .

دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام ، فكان أول مَن أسلم من الرجال : أبو بكر ، وعلى ، وزيد بن حارثة .. واستجاب له نفر من الناس سرأ حتى كثروا

⁽۱) زاد المعاد : ۱۹/۱ – ۲۰ (بتصرف) . (۲) الحجر : ۹۲

فظهر أمرهم ، والوجوه من كفار قريش غير منكرين لما يقول ، وكان إذا مر بهم يقولون : إن محمد يُكلِّم من السماء . فلم يزالوا كذلك ، حتى أظهر عيب آلهتهم ، وأخبرهم أن آباءهم ماتوا على الكفر والضلال ، وأنهم في النار ، فعادوه ، وأبغضوه ، وآذوه .

وكان أصحابه ، إذا صلوا انطلقوا إلى الأودية وصلوا سراً ، ولما أظهرت قريش عداوته حدب عليه أبو طالب عمه ونصره ومنعه ، ثم إن رسول الله على خاف كفار قريش اختفى هو ومن معه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر رضى الله عنه فخرجوا ، ووثبت قريش على من ظهر فيها من المستضعفين أمثال بلال ، وعمار ، وصهيب وغيرهم فضربوهم . وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

* *

أَنزلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيهُ ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدُّرُ * قُمْ فَانْذَرْ * وَرَبُّكَ فَكُبَّرْ * وَثَيَابَكَ فَطَهَرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (١) .

فكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة ، إيذانا للرسول الله بأن الماضى قد انتهى بمنامه وهدونه وسلامه ، وأنه أمام عمل جليل يستدعى اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة ، وليواجه الناس ، وليأنس بالوحى ، وليقوى على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

وعن جعفر بن عبد الله بن الحكم قال : « لما أنزل على رسول الله ﷺ :
﴿ وَأَنذَرُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته كالمربض ، فأتته عماته يعدنه فقال : « ما اشتكيتُ شيئاً ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي » . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أبا لهب فيهم ، فإنه غير مجيبك .

⁽۱) المدثر: ۱ – ه

فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً ، فبادره أبو لهب وقال : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ا واعلم أنه ليس بقومك بالعرب قاطبة طاقة ا وأنا أحق من أخذك ا فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيد بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال: « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

ثم قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ... وإنها للجنة أبدأ أو النار أبدأ » .

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا من معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت بد ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم . فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا (١) .

* *

واستجاب للرسول الله خاصته المقربين .. فكانت خديجة رضى الله عنها أول من آمن بالله وصدًى رسوله الله . وكان أول ما قالته له عندما أنبأها نبأه :

⁽١) انظر: فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالي - مرجع سابق - ص ١٠٤

« أَبَشْر ، فوالله لقد كنتُ أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً ، وأشهد أنك نبى هذه الأُمة الذي تَنتظره اليهود ، وقد أخبرني به ناصح غلامي ويحيري الراهب ، وأمرني أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة » .

وكان ذلك قبل ذهابها والرسول 👺 إلى ابن عمها ورقة بن نوفل .

*

وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديّق رضى الله عنه . فعن ابن إسحاق : أن أبا بكر الصديّق رضى الله عنه لقى الرسول ﷺ فقال : أحق ما تقول قريش يا محمد ، من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آيا،نا ؟

فقال رسول الله ﷺ: « بلى ، إنى رسول الله ونبيه ، بعثنى لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شربك له ، ولا تعبد غيره والموالاة على طاعته » .

وقرأ – صلى الله عليه وسلم – عليه القرآن فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقرّ بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدَّق .

يقول الرسول ﷺ: « ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عكم (١) عنه حين ذكرته ولا تردد فيه » .

وأول من أسلم من الغلمان : على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور .. يقول ابن إسحاق : إن علياً بن أبى طالب رضى الله عنه جاء إلى النبى على وهو يصلى مع زوجه « خديجة » رضى الله عنها فقال على : يا محمد ، ما هذا ؟ قال : « دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللأت والعُزَّى » .

⁽١) أي تلبث .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحُدَّث به أبا طالب .

فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : « يا على ، إذ لم تسمع فاكتم » . فمكث على تلك الليلة ، ثم إن الله تعالى أوقع فى قلب على الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ماذا عرضت على يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعُزى ، وتبرأ من الأنداد » .

ففعل على كرم الله وجهه وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم على إسلامه ولم يظهره ، ومكث قريباً من شهر يختلف إلى رسول الله ، وكان مما أنعم الله به على « على » أنه كان في حِجْر رسول الله تله قبل الإسلام .

يقول مجاهد: « وكان مما أنعم الله به على « على » أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ، فقال رسول الله الله العباس وكان من أيسر بنى هاشم - : « يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق حتى نخفف عنه من عياله » .. فأخذ رسول الله على علياً فضمه إليه ، فلم يزل مع رسول الله على وآمن به وصدقه » .

وعن يحيى بن عفيف قال : « جئتُ زمن الجاهلية إلى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا فسجدا معه . فقلت : يا عباس ، أمر عظيم ! فقال : أمر عظيم ، أتدرى من هذا ؟ فقلت : لا . فقال : هذا محمد بن عبد الله بن

عبد المطلب ابن أخى ، أتدرى من الغلام ؟ قلت : لا . قال : هذا على بن أبى طالب ، أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا . قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى . . وهذا حدثنى أن ربك رب السماء والأرض أمره بهذا الذى تراهم عليه ، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

*

وأول مَن أسلم من الموالي : زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله على ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد » .

فأما رسول الله على فمنعه الله بعمه ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا ، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد (١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبى الله وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألح أبو بكر على رسول الله الله الله على الظهور ، فقال : « يا أبا بكر ، إنّا قليل » .

فلم يزل أبو بكر رضى الله عنه يلح حتى ظهر رسول الله ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته ، وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ، ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ .

⁽١) رواه الثوري عن مجاهد .

وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضُربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل بضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

فرجعوا إلى أبى بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم .. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شئ عليك منها . قالت : في دار ابن الأرقم .

قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى يرة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله ، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار .

قال: فدعا لها رسول الله على ودعاها إلى الله فأسلمت (١).

* *

قلنا: إن الرسول ﷺ والمؤمنون معه ظلوا يكتمون أمرهم ويؤدون صلاتهم سرأ في الأودية ، وإن الرسول ﷺ اختفى هو ومن معه في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، إلى أن أسلم عمر فخرجوا ..

ولقد كان إسلام عمر رضى الله عنه فتحاً ، فتح الله به على المسلمين ، كما كان إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه - من قبل - فتحاً ونصراً للمسلمين .

ويحدثنا ابن هشام عن إسلام حمزة رضى الله عنه فيقول: « مرّ أبو جهل برسول الله عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله عنه ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك .. ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .

قلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنصه لم من قنص له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة .

⁽١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (بتصرف) .

فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجده ههنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معداً لأب جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضريه بها فشجه شجة منكرة . ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببتُ ابن أخيد سبأ قبيحاً .

وتم حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله هم من قوله . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله هم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » (١١) .

كما يحدثنا عن إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول: «كان إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب - قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله على ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام : ١٧٤/١

رجال ونساء ، ومع رسول الله على عمد حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصدين ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله على بكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذي فرَّق أمر قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبُّ آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركبك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأي أهل بيتي ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغبّب خباب فى مخدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟

قالا له: ما سمعت شيئاً ،

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأُخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنّا نخشاك عليها .

قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يسها إلا الطاهر .

نقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها : ﴿ طَه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذكرَةً لَمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مَّمَّن خَلَقَ الأرْضَ وَالسَّمَوْاتِ العُلَىٰ * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فَى السَّمَوْاتِ وَمَا فَى الاَّرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الشَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرُ بِالقُول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السَّرُ وَأَخْفَىٰ * اللَّهُ لَا إِلْهَ إِلَّا هُو ، لَهُ الأَسْمَاءُ الجُسْنَىٰ ﴾ (١) .

فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه.

⁽١) طه: ١ – ٨

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذَن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، رإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : ائذن له ، فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذه شديدة وقال : « ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة » ، فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله ويرسوله ، وبما جاء من عند الله . قال : فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم .

فتفرق أصحاب رسول الله على من منكانهم ، وقد عَزُوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله على ، وينتصفون بهما من عدوهم (١) .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال: « ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه » .

وعن مسعد بن كدام ، عن سعد بن إبراهيم ، قال : قال عبد الله بن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه » (٢) .

وعن ابن عمر قال: لما أسلم أبى عمر قال: أى قريش أنقل للحديث؟ فقيل لله: جميل بن معمر الجمحى . قال: فغدا عليه . قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره ، وأنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢١١/١

قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداء واتبعه عمر ، واتبعث أبى ، حتى إذا قام على بأب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

قال : يقول عمر من خلفه : كذب ، ولكنى قد أسلمت ، وشهدتُ أنْ لا إله إلاًّ الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله .

وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم .

قال : وطلح (١) ، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم ، أو تركتموها لنا .

قال: فبينما هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش ، عليه حلة حبرة ، وقميص موشى ، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم ؟ قالوا: صبأ عمر ، فقال: فمد ، رجل اختار لنفسه أمرأ فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلوا عن الرجل .

قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه. قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ فقال : ذاك - أى بنى - العاص بن وائل السهمى.

وعن عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر - أو بعض أهله - قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة ، تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله على عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، قال : قلت : أبو جهل - وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبى جهل - قال : فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، قال : فخرج إلى أبو جهل فقال : مرحبا وأهلاً بابن أختى ، فما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصد قت بما جاء به .

⁽١) أي تعب .

قال: فضرب الباب في وجهى وقال: قبحك الله وقبح ما جئتَ به (١). وهكذا ترى أن إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان فتحاً ونصراً للمسلمين.

* * *

ويصف لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى - أمد الله عمره وبارك لنا فيه - رد فعل أهل مكة إزاء الدعوة الجديدة التي جاء بها رسول الله على فيقول: « قرر المشركون ألا يألوا جهدا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام ، ومنذ جهر الرسول على بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم ، انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم وتعملاً للضيم ، وتوقعاً للويل .

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير ، قُصِدَ بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرُمي النبي على بتهم هازلة وشتائم سفيهة . وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتاً لاذعة وصوراً مضحكة ، للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقى الرحى .

فرسولهم يُنادَى بالمجنون : ﴿ وَقَالُوا ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزُّلَ عَلَيْهِ الذِّكُرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونُ ﴾ (٢) .

ويوصم بالسحر والكذب : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ ﴾ (٣) .

⁽١) المرجع السابق : ٢/٤/١ (٢) الحجر : ٦ (٣) سورة ص : ٤

ويُشيِّع ويُستقبل منظرات ملتهمة ناقمة وعواطف منفعلة هائجة : ﴿ وَإِن يَكَادُ النَّدُنِ كَفَرُوا لَيُزُلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذَّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١) .

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم في غدوهم ورواحهم محل التنذر واللمز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا انَقَلَبُوا إِلَى أَهْلَهِمُ انَقَلَبُوا فَكهِينَ * وَإِذَا انَقَلَبُوا إِلَى أَهْلَهِمُ انَقَلَبُوا فَكهِينَ * وَإِذَا رَأُوهُمْ قَالُوا إِنَّ هَوُلاً عِلَيْهَا مُوسَلُونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافظينَ ﴾ (١١).

وانقلبت هذه الحرب إلى تنكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من المؤمنين ، فمن ليست له عصبة تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شئ ، بل نُحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياءً » (٣).

* * *

• قريش تبالغ في أذى رسول الله :

أمر الله تعالى رسوله على بإبلاغ الرسالة إلى الخاص والعام ، وأمره بالصبر والاحتمال ، والإعراض عن الجاهلين المعاندين المكذّبين بعد قيام الحُجّة عليهم ، وارسال الرسول الأعظم إليهم . فقال تعالى : ﴿ وَأَنذَرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لَمَن اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلُ إِنّى بَرِئُ مِّمَا تَعْمَلُونَ * وَتُوكّلُ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الّذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (أ) .

وقال جَلَّ شأنه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذَكْرٌ لُّكَ وَلَقُومُكَ ، وَسَوْفَ تُسْتَلُونَ ﴾ (٥) .

⁽١) القلم : ١٩ - ٣٣ – ٣٣

⁽٣) انظر: فقد السيرة ، للشيخ محمد الغزالي ، مرجع سابق ص ١٠٩ - ١١٠

⁽٤) الشعراء: ٢٢٠ – ٢٢٠) الزخرف: ٤٤

وقال سبحاند: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَى مَعَاد ﴾ (١) . . أي إن الذي فرض عليك وأوجب عليك بتبليغ القرآن ، لرادك إلى دار الآخرة – وهي المعاد – فيسألك عن ذلك . كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أُجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

● عن على بن أبى طالب - كرّم اللّه وجهد - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ : ﴿ وَأَنذُرْ عَشيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال رسول اللّه ﷺ : « عرفتُ أنى إن بادأت بها قومى رأيتُ منهم ما أكره ، فصَمَتُ ، فجاءنى جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك بالنار » .

قال: فدعانى فقال: « يا على ، إن الله قد أمرنى أن أندر عشيرتى الأقربين ، فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس (٣) لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب » . ففعلت .

فاجتمعوا له يومئذ ، وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون ، فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول الله على منها حذية (٤) فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : « كلوا باسم الله » . فأكل القوم حتى نهلوا عنه ، ما نرى إلا آثار أصابعهم ، والله إن كان الرجل ليأكل مثلها .. ثم قال رسول الله على أنه الله على أنه فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وايم الله إن كان الرجل ليشرب مثله (٥) .

⁽١) القصص: ٥٨

⁽٢) الحجر: ٩٣ - ٩٣

⁽٣) العس : القدح الضخم . (٤) الحذية : القطعة .

⁽٥) وهذه إحدى معجزات الرسول ﷺ، فشاة واحدة ، وصاع من طعام ، وعس من لبن قد كفى أربعين رجلاً حتى شبعوا ، وهو بالكاد يكفى رجل واحد أو اثنين أو ثلاثة ، وتأمل قول على كرم الله وجهد : وايم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها ، وقوله : وايم الله إن كان الرجل ليشرب مثلها . لتدرك عظمة المعجزة مع كثرة الآكلين وقلة الطعام .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب لعند الله فقال: لهد ما سحركم صاحبكم ، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ .

فلما كان من الغد ، قال رسول الله ﷺ : « عد لنا بمثل الذي صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا الرجل قد بدر إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم » .

ففعلت ، ثم جمعتهم وصنع رسول الله على كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله على ، اسقهم يا على » فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله على أن يكلمهم ، بدره أبو لهب لعنه الله إلى الكلام ، فقال : لهد ما سحركم صاحبكم . . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله على .

فلما كان من الغد ، قال رسول الله ﷺ : « يا على ً ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » .

ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عند ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا ، وايم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها وليشرب مثلها .

ثم قال رسول الله ﷺ: « يا بنى عبد المطلب ، إنى والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » (١).

وزاد ابن عباس رضى الله عنهما - فى روايته عن رواية على - بعد قوله صلى الله عليه وسلم: « وإنى قد جنتكم بخير الدنيا والآخرة »: « وقد أمرنى

⁽١) رواه البيهقى .

اللَّه أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخى » ؟ ، وكذا وكذا ..

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت - أى على كرم الله وجهه - ولإنى لأحدثهم سناً ، وأرمصهم عيناً ، وأعظمهم بطناً ، وأخمشهم ساقاً : أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه .

فأخذ برقبتي فقال : « إن هذا أخي ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطبعوا » .

قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع » !

• وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنذُرْ عَشْيِرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجئ إليه ، وبين رجل يبعث رسوله .

فقال صلى الله عليه وسلم: « يا بنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجيل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى » ؟ قالوا : نعم ..

قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب لعند الله : تبا لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ فأنزل الله عَزُّ وجَلَّ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبُّ ﴾ (١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذَرُ عَشِيرَ تَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى عبد المطلب : يا معشر بنى عبد المطلب :

⁽١) رواه أحمد ، والآية من سورة المسد : ١

أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذى نفسك من النار .. فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَّحِماً سأبلها ببلالها » (١١) .

• وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « لما نزل : ﴿ وَأَنذُرْ عَشيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » (٢) .

واستمر الرسول على يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صاد . لا يصرفه عن ذلك صاد . ولا يصرفه عن ذلك صاد . يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم ، وفي المواسم ومواقف الحج . يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق في ذلك عنده شرع سواء ، وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوباء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية .

وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب - واسمه عبد العُزِّي بن عبد المطلب - وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان .

● عن ربيعة بن عباد الديلى – وكان جاهلياً فأسلم – قال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، والناس مجتمعون عليه ، ووراء وجل وضئ الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب .. بتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٣) .

• وعن رجل من كنانة قال: رأيتُ رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس ، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا » ، وإذا رجل خلفه يسفى

⁽١). رواه أحمد ، والبلال : جمع بلل . (٢) رواه مسلم وأحمد .

⁽٣) رواه أحمد .

عليه التراب ، وإذا هو أبو لهب ، وإذا هو يقول : يا أيها الناس لا يغرنكم • عن دينكم ، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللَّات والعُزَّىٰ » (١) .

وكان النبى ﷺ إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه - مثل عمار ياسر ، وخباب بن الأرت ، وصهيب الرومى ، وبلال ، وأشباههم - فإذا مر بهم قريش استهزأوا بهم وقالوا : أهؤلاء قد مَنُّ اللَّه عليهم من بيننا ؟ - يعت جلساؤه - فأنزل الله تعالى : ﴿ وكذلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْض لِيَقُولُوا أَهَوَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا خَلَّالُهُ لَنُبُولُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلاَجْرُ الآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

وقال أبو جهل - لعنه الله - : والله لئن رأيتُ محمداً يصلى لأطأت عرقبته ، فبلغه أن رسول الله تلك يصلى ، فأتاه فقال : ألم أنهك عن هذه الصلاة فانتهره رسول الله تلك فقال : أتنهرنى وأنا أعزُ أهل البطحاء ؟ ، فنزل قول العالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَنَى * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ﴾ (٤) .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو جهل : يع محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم . فقال : واللأت والعُزَّى ، لثن رأي لأطأن على رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه وقال : بينى وبينه خندق من نار وهول وأجنحة .

فقال رسول الله ﷺ: « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » فأنزل الله تعالى : ﴿ كُلاً إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٥)

* *

⁽١) رواه البيهتي . (١) الأنعام : ٥٣

⁽٣) النحل: ٤١ (٤) العلق: ٩ - . ١

⁽٥) العلق: ٦ - ٧

وهذه إحدى المعجزات في حماية الله تعالى لرسوله ﷺ .

• وعن عقبل بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذاناً فى نادينا ومسجدنا فانهه عنا . فقال : ياعقيل ، انطلق فائتنى بمحمد .

فانطلقتُ فاستخرجته من كنس - أو قال : خنس - يقول : بيت صغير ، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر .

فلما أتاهم قال : إن بنى عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم .

فحلق رسول الله على ببصره إلى السماء ، فقال : « ترون هذه الشمس » ؟ قالوا : نعم . قال : « فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة »

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخى قط ، فارجعوا » (١١).

• وعن عقبة بن المغيرة بن الأخنس: « أنه حدث أن قريشاً حين قالت لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله تشخف فقال: يابن أخى ، إن قومك قد جاءونى وقالوا كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك.

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه » .

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى . فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ : يابن أخى ، فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ أبدأ » (٢) .

⁽١) رواه البخاري في التاريخ . (٢) رواه البيهتي .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فى قصة طويلة جرت بين مشركى مكة وبين رسول الله على الله عنهما -: « ... فلما قام رسول الله على قال أبو جهل بن هشام : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا .. وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ، فإذا سجد فى صلاته فضختُ به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أبو جهل لعنه الله ، أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله على ينتظره . وغدا رسول الله على كما كان يغدو ، وكان قبلته الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركنين الأسود والبمانى ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ، فلما سجد رسول الله على احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا لونه مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه . وقامت إليه رجال من قريش فقالوا له : ما بك يا أبا الحكم ؟ فقال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته (١) ، ولا أنياب لفحل قط ، فهم أن يأكلنى (٢) .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : « ذلك جبريل ، ولو دنا منه لأخذه » .

وعن عبد الله قال: ما رأيت رسول الله تهددعا على تريش غير يوم واحد،
 فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور (٣) قريب منه. فقالوا:
 مَنْ يأخذ هذا السلا فيرميه على ظهره؟ فقال عقبة بن أبى معيط: أنا.

⁽١) القصرة : أصل العنق .

⁽٢) وهي معجزة أخرى في حماية الله تعالى لرسوله ﷺ وحفظه وكلاءته .

⁽٣) السلا : هو الذي يخرج مع ولد النَّاقة كالمشيمة لولد المرأة .

فأخذه فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره ، فقال رسول الله على اللهم عليك بهذا الملأ من قريش ، اللهم عليك بعقبة بن ربيعة ، اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، اللهم عليك بعقبة بن أبى معيط ، اللهم عليك بأمية بن خلف » .

قال عبد الله: فلقد رأيتهم تُتلوا يوم بدر جميعاً ، ثم سُحِبوا إلى القليب غير أمية ، فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطّع (١١) .

وفى بعض ألفاظ الصحيح: « أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك » .

وفيه: « أن فاطعة رضى الله عنها لما ألقته عنه أقبلت عليهم فسبتهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعو عليهم ، فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، وأنه صلى الله عليه وسلم دعا على الملأ منهم جملة ، وعين في دعائه سبعة - وقع في أكثر الروايات تسمية ستة منهم وهم : عقبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو جهل بن هشام ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف - قال ابن إسحاق : ونسيت السابع .

يقول ابن هشام : قلت : وهو عمارة بن الوليد ، وقع تسميته في صحيح البخاري .

وعن عروة قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته؟

فقال : لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا معه على أمر عظيم .. أو كما قالوا .

⁽١) رواه البخاري ومسلم وأحمد .

فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفأه (١) حتى إنه ليقول : انصرف أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول . فانصرف رسول الله على .

حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه !

ولقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر يبكى دونه ويقول : ويلكم ، ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ (٢) .

ثم انصرفوا عنه .. فإن ذلك لأكبر ما رأيتُ قريش بلغت منه قط (٣) .

وتقول أم كلثوم بنت أبى بكر : رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته ، وكان رجلاً كثير الشعر .

• وفى رواية للبخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى بأشد شئ صنعه المشركون برسول الله على قال : بينما النبى السلام على حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن

⁽١) أي يترضاه . (٢) غافر : ٢٨ (٣) رواه البيقهي .

النبى ﷺ وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولُ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ من رَبِّكُمْ ﴾ .. الآية .

• وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد أوذيتُ في الله وما يُخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد ، إلا ما يوارى إبط بلال » ا (١) .

* *

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ يتزايد أمره ويقوى ، ورأوا ما صنع أبو طالب به ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد ، فقالوا : يا أبا طالب ، هذا أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه وادفع إلينا هذا الذى خالف دينك ودين آبائك فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

فقال : بئس ما تسوموننی ، تعطونی ابنکم أربیه لکم ، وأعطیکم ابنی تقتلونه ؟

فقال المطعم بن عدى بن نوفل : يا أبا طالب ، قد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص منك بكل طريق .

قال: والله ما أنصفتمونى ، ولكنك أجمعت على خذلانى ، فاصنع ما بدأ لك .

وقال أشراف مكة لأبى طالب: إما أن تخلى بيننا وبينه فنكفيكه ، فإنك على على مثل ما نحن عليه ، أو أجمع لحربنا ، فإنّا لسنا بتاركى ابن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكف عنا ، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص .

⁽١) رواه أحمد والترمذي .

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ت فقال له : يابن أخى ، إن قومك جاءونى، وقالوا كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فقال رسول الله ﷺ: « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك في طلبه ».

فقال: امض على أمرك ، فوالله لا أسلمك أبدأ .

ودعا أبر طالب أقاربه إلى نُصرته ، فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب ، غير أبي لهب .

ولما اجتمعوا - مؤمنهم وكافرهم - على منع رسول الله الله المجتمعت قريش ، فأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله الله المقتل . وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق : « أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » .

فأمرهم أبو طالب أن يدخلوا شعبه ، قلبثوا فيه ثلاث سنين .

واشتد عليهم البلاء ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركون طعاماً يدخل مكة ، ولا بيعاً إلا بادروا فاشتروه ، ومنعوه أن يصل شئ منه إلى بنى هاشم ، حتى كان يُسمع أصوات نسائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع .

واشتدوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب ، فأوثقوهم ، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً .

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم ، أمر رسول الله تله أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله .

فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله على وأمره أن يأتى أحد فرشهم .

ثم بعد ذلك مشى هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وكان يصل بنى هاشم فى الشعب خفية بالليل بالطعام - مشى إلى زهير بن أبى أمية المخزومى - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيت أن نأكل الطعام ونشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟

فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمتُ في نقضها . قال : أنا .

قال: ابغنا ثالثاً. قال: أبر البخترى بن هشام.

قال: ابغنا رابعاً . قال: زمعة بن الأسود .

قال : ابغنا خامساً . قال : المطعم بن عدى .

قال : فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، فقال زهير : أنا أبدأ بها .

فجاءوا إلى الكعبة - وقريش محدقة بها - فنادى زهير: يا أهل مكة ، إنًا نأكل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة الظالمة .

فقال أبو جهل : كذبت ، والله لا تُشق .

فقال زمعة : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كُتبت .

وقال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نقار عليه .

فقال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها .

وقال هشام بن عمرو نحو ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد تُضي بليل ، تشرور فيه بغير هذا المكان .

وبعث الله على صحيفتهم الأرضة ، فلم تترك اسماً لله إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك وظلم وقطيعة ، وأطلع الله رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك لعمه . فقال : لا والثواقب ، ما كذبتنى .

فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب ، حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم ظنوا أنهم خرجوا من شدة الحصار ، وأتوا ليعطوهم رسول الله علله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً ، فائتوا بصحيفتكم .

وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها ، فلا يأتون بها .

فأتوا بها معجبين ، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم . قالوا : قد آن لكم أن تفيئوا وترجعوا خطراً لهلكة قومكم .

فقال أبو طالب: « لأعطينكم أمراً فيه نصف ، إن ابن أخى أخبرنى - ولم يكذبنى - أن الله عَزُّ وجَلُّ برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ، وأنه محاكل اسم له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم .

فإن كان ما قال حقاً ، فوالله لا نسلمه إليكم حتى غوت عن آخرنا ، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه ».

قالوا : قد رضينا . ففتحوا الصحيفة فوجودها كما أخبر فقالوا : هذا سحر من صاحبكم . فارتكسوا وعادوا إلى شر ما هم عليه .

فتكلم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا ، وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس . وكان خروجهم في سنة ستة عشر من النبوة .

واشتد البلاء على رسول الله على من قومه وتجرأوا عليه ، وكاشفوه بالأذى ، فأرادوا قتله فمنعهم الله من ذلك .. وتذامرت قريش بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب الرسول على الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم .

واستمرت قريش في عداوتها لرسول الله على ومن أسلم معه منهم ، فأغرت به سفها عمم فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون . ورسول الله على مظهر الله لا يستخفى به ، مباد لهم بما يكرهون بعد عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم .

ثم رأت قريش أن تنتهج نهجاً جديداً ، فاتجهت إلى الترغيب علّه ينجح في فتنة الرسول على عن دعوته بعد أن فشل أسلوب الترهيب الذي جرّبوه من قبل .

• فعن محمد بن كعب القرظى ، قال : حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله على جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ - وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله على يزيدون ويكثرون .

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله على فقال: يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السبطة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال رسول الله ﷺ: « قل يا أبا الوليد ، أسمع » .

قال: يابن أخى ، إن كنت إغا تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال : « أفرغتَ يا أبا الوليد » ؟ قال : نعم . قال : « فاسمع منى » ، قال : أفعل .

فقال : ﴿ بِسُمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَابٌ قُصَّلَتُ آيَا تُهُ قُرْآنا عَرَبِيّا لِّقَوْم يَعْلَمُونَ * بَشيرا وَنَذيرا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ (١) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه .

فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال : وراثى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (٢) .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث (بن كلدة) ، أخو

⁽١) فصلت : ١ - ٥ (٢) السير لابن هشام : ١٧٥/١

بنى عبد الدار ، وأبر البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة ابن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبر جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو مَن اجتمع منهم .

قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فائتهم .

فجاءهم رسول الله على سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .

فقالوا له: يا محمد ، إنّا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شَتمت الآباء ، وعبّت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرتت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنتَ إغا جنت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنتَ إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نُسوِّدك علينا .

وإن كنتَ تريد به مُلكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه .

فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما بى ما تقولون ، ما جنتُ بما جنتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى،

ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منى ما جنتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم \dots أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالوا: يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً بما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليُفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق . فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: « ما بهذا بعثتُ إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بينى وبينكم ».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا ، فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بُعثِتُ إليكم يهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً – أو كما قال – فإن تقبلوا ما جثتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

قالوا: فأستقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنًا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال: فقال رسول الله ﷺ: « ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ».

قالوا: يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عند ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا بد ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذ لم تقبل منك ما جئتنا بد ؟!

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له « الرحمن » ، وإنًا والله لا نتركك والله لا نترمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنًا والله لا نتركك وما بُلغت منا حتى نهلكك ، أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي أبناء الله .

وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملاتكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله الله الله الله الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب - فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك الأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصد قوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم. ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل.

فوالله لا أومن بك أبدأ حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله ، لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدًقك .

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاتد مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ . قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا . وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته فضختُ به رأسه ، فأسلمونى عنه ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا: والله لا نسلمك لشئ أبدأ ، فامض لما تريد .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى فقال :

« يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم .

وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه .

وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه .

يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » (١) .

وأنزل الله تعالى على رسوله على رسوله الله قومه الأنفسهم من تسبير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وبعث من مضى من آبائهم من الموتى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتُ بِهِ الجَبَالُ أُو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أُو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَىٰ ، بَل للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ (٢) أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

⁽١) السيرة لابن هشام : ١٧٦/١ وما بغدها .

وأنزل عليه من قولهم: خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً ، ويبعث مَلكاً بصدقه بما يقول ، ويرد عنه : ﴿ وَقَالُواْ مَالُ هَذَا الرَّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشَى فِي الْأَسُواقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكُ مَالُمُ هَذَا الرَّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشَى فِي الأَسُواقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكُ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً * أوْ يُلْقَى إِلَيْه كَنزٌ أوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مَنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَبِعُونَ إِلا رَجُلاً مُسْحُوراً * انظر كَيْفَ ضَرَيُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُواْ فَلاَ يَسْتَطيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارِكَ الذي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ ﴾ - أي من أن تشي في الأسواق وتلتمس المعاش - ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً ﴾ (١) .

وأنزل عليه فى ذلك من قولهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلُكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَ اللَّهُمْ لَيَا كُلُونَ الطُّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأُسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لَبَعْضِ فَتْنَةً أَتَصْبُرُونَ ، وكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (٢) أى جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا ، ولو شئتُ أن أجعل الدنبا مع رسلى فلا يخافوا لفعلت .

وأنزل الله تعالى عليه فيما قال عبد الله بن أمية : ﴿ وَقَالُوا لَن نُوْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةً مِّن نُخيلٍ وَعنَبِ فَتُقَجَّرَ الأَنْهَارَ خَلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّه وَالمَلائكَة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتُ مِّن زُخْرُف لَسَفاً أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُؤْمِنَ لرُقِيلًا حَتَّى تُنزَّلُ عَلَيْنَا كِتَاباً نُقْرَوُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ﴾ (٣) .

⁽١) الغرقان : ٧ - ١. (٢) الغرقان : ٢. (٣) الإسراء : ٩٠ - ٩٠

والينبوع: ما نبع من الماء من الأرض وغيرها ، والكسف: القطع من العذاب ، والقبيل: يكون مقابلة ومعاينة ، والزخرف: الذهب .

وأنزل عليه من قولهم : إنَّا قد بلغنا أنك يُعلَّمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبدأ : ﴿ كَذَلكَ أَرْسُلْنَاكَ فِي أُمَّة قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلهَا أُمِّمُ لِتَتْلُوا عَلَيْهِمْ الَّذِي أُوحَيْنَا إلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهُ إِلاَ هُوَ عَلَيْهِ تَوكَلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴾ (١) .

وأنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام ، وما هم بد : ﴿ أَرَأَيْتَ اللَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الهُدَىٰ * كَلَّا لَئِن لَمْ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَمْ يَعْلَم بَأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَمْ يَعْلَم لَنَاهُ عَلَيْدُعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزّبَانِيَة * كَلّا لا تُطعَهُ وَاسْجُدُ وَاقْتَرَب ﴾ (٢).

وأنزل عليه فيما عرضوا من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّه ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٣) .

فلما جاءهم رسول الله على عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدّث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين إتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، أى اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرقوه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

وهكذا لم يفلح مع رسول الله على أسلوب الإغراء ، كما لم يفلح معه من قبل أسلوب البطش والتنكيل ، فجن جنون قريش فعدوا على من أسلم واتبع الرسول على من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا

⁽١) الرعد : ٣.

⁽٢) العلق : ٩ - ١٩ ، والنادى : المجلس الذَّى يجتمع قيد القوم ويقضون أمورهم .

⁽٣) سَبِأً : ٤٧

يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم .

وكان أشد الناس عذاباً بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر .

أما بلال فكان لبعض بنى جمع ، مولداً من مولديهم ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللأت والعُزَّى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد .

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يُعذُّ بذلك ، وهو يقول : أحد أحد ، فيقول : أحد أحد والله يا بلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومَن يصنع ذلك به من بنى جمح ، فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً .

حتى مر به أبو بكر الصدين رضى الله عنه يوما ، وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمع ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ . قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت ، فقال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقه .

وأما عمار .. فكانت بنو مخذوم يخرجون به ، وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم يرمضا ، مكة ، فيمر بهم رسول الله تقفيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة .

فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبي إلا الإسلام .

وكان أبو جهل لعنه الله هو الذى يغرى بهم فى رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنَّبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك .

وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . . وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللأت والعُزَّى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء عما يبلغون من جهده .

* *

فلما رأى رسول الله على ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكأ لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله على أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

وكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً وولدوا بها - ثلاثة وثمانون رجلاً ..

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله على قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ، ليفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من دارهم ، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو ابن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم .

ولكن الله تعالى منع عباده المؤمنين ، وحماهم فلم يسلمهم النجاشي إليهما ، فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به .

ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله على ، وردهما النجاشى بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله على وبحمزة حتى عازوا قريشاً حتى صلوا عند الكعبة .

ثم جعلت قريش حين منع الله تعالى رسوله منها ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه . وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم ، ومنهم من سمى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار .

فكان ممن سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن : عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب ، وأمية بن خلف ، والعاص بن واثل السهمى ، وأبو جهل بن هشام ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وعبد الله بن الزبعرى ، والأخنس بن شريق ، وأبّى بن خلف ، وعقبة بن أبى معبط ، والأسود بن المطلب .

وكان رسول الله على إذا جلس في المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش . وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون . أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله دوننا . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَلا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاة وَالْعَشِي يُرِيدُونَ وَجُهَدُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم من شَيْءٍ

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْض لِيَقُولُواْ أَهُولُاء مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ اللَّهُ يَأْعُلُم بَاللَّهُ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَة ، أَنَّهُ مَنْ عَملَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَة ثُمُّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلُحَ فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَحِيم ﴾ (١).

ومر رسول الله على يوماً بالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وبأبى جهل بن هشام ، فهمزوه واستهزأوا به ، فغاظه ذلك . فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من أمرهم : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِاللَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهُزْءُونَ ﴾ (١) .

وأقام رسول الله على أمر الله تعالى صابراً محتسباً ، مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى . وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومهم ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم .

فمن بنى أسد بن عبد العُزى بن قصى بن كلاب : الأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة ، وكان رسول الله على قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : « اللهم أعم بصره ، وأثكله ولده » .

ومن بنى زهرة بن كلاب : الأسود بن عبد يغوث .

ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة .

ومن بني سهم بن عمرو: العاص بن واثل بن هشام .

ومن بني خزاعة : الحارثة بن الطلاطلة بن عمرو .

⁽١) الأنعام: ٥٢ – ٥٤ (٢) الأنعام: ١.

فلما تمادوا فى الشر ، وأكثروا برسول الله الله الله الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه علي عليه على عليه الله على عليه الله عليه الله عن المشركين * إنًا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزْءِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَا آخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

* * *

ثم إن خديجة رضى الله عنها وأبا طالب ماتا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله على المصائب ، وكانت رضى الله عنها وزير صدق على الإسلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يسكن إليها ، ولم يتزرج عليها حتى ماتت .

قال رسول الله ﷺ: « ما زالت قریش کاعة (^{۸)} عنی حتی مات عمی أبو طالب ».

⁽١) الحجر: ٩٤ - ٩٦ (٢) الحبن: انتفاخ البطن من داء.

⁽٣) السيل: فضول الثياب. (٤) انتقض الجرح: إذا تجدد بعد ما برئ .

⁽٥) الأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض -

⁽٦) الشبارقة : شجرة عالية . (٧) امتحض : تحرك القيح في رأسه وانتشر .

⁽٨) كع : هين .

وكانت وفاة أبى طالب عقيب نقض صحيفة قريش بأيام ، فى أول ذى القعدة - وقيل : النصف من شوال - فى السنة العاشرة من المبعث ، وكان عمره بضعاً وثمانين سنة .

ثم توفيت خديجة رضى الله عنها بعده بثلاثة أيام ، وقيل : بشهر ، وقيل كان بينهما شهر وخمسة أيام ، وقيل : خمسون يومأ ، والله أعلم . ودفنها رسول الله على الجنائز يومئذ .

وقيل : إنها ماتت قبل أبى طالب ، وكان عمرها خمساً وستين سنة ، وكان مقامها مع رسول الله على بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وكان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف . وقيل : قبل الهجرة بسنة .

قال عروة : ما ماتت خديجة إلا بعد الإسراء ، وبعد أن صلت الفريضة مع رسول الله على .

وقيل : إنه لما اشتد المرض بأبى طالب دعا أهله وقال لهم : إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره ، فاتّبعوه وصدّقوه تُرشدوا .

*

فلما توفيا - واشتد البلاء من قريش على رسول الله على - خرج إلى ثقيف ، رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه ، ويمنعوه منهم ، حتى يُبلّغ رسالة ربه .، وكان ذلك لشلات بقين من شوال السنة العاشرة من المبعث ، ومعه مولاه زيد بن حارثة . فلما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير . وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله على من نصرته على الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه .

⁽١) جبل بعلاة مكة .

فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدأ ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى .

إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ..

أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

⁽١) يذرهم عليه : يثيرهم ويجرنهم . (٢) الحائط : البستان .

 ⁽٣) حبلة من عنب : شجرة العنب .
 (٤) الأحماء : أقارب الزرج .

فأرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يُطبق على أهل مكة الأخشيين - وهما جبلاها اللذان هي بينهما - فقال : « يل أستأنى بهم ، لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده ، لا يُشرك به شيئاً » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال: « لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مغموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (١) ، فرفعتُ رأسى ، وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شتت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بما شئت ، إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشيين (٢) .

قال رسول الله ﷺ: « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً » (٣) .

ثم عاد رسول الله ﷺ ومولاه زيد بن حارثة إلى مكة ، فلما نزلا بنخلة فى مرجعهما ، قام رسول الله ﷺ يصلى من الليل ما شاء الله ، فصرف الله إليه نفراً من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه :

⁽١) هو ميقات أهل نجد ، ويقال له « قرن المنازل » أيضاً ، وهو على يوم وليلة من مكة ، والقرن : كل جبل صغير منقطع من جبل كبير .

⁽٢) هما جبلا مكة : أبر قبيس والذى يقابله وكأنه قيقعان ، وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما ، والمراد بإطباقهما : أن يلتقيا على من بمكة ، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقاً واحداً .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ الْصَتُواْ فَلَمَّا قَضِيَ وَلُواْ إِلَى قَوْمَهِم مُّنذرِينَ * قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كَتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْد مُوسَىٰ مُصَدَّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَيْه يَهْدى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ كَتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْد مُوسَىٰ مُصَدَّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَيْه يَهْدى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيق مُسْتَقِيم * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللّهِ وَآمَنُواْ بِه يَغْفِرْ لَكُم مِّن طَرِيق مُسْتَقِيم * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللّهِ وَآمَنُواْ بِه يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرِكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيم * وَمَن لَا يُجِبُ دَاعِيَ اللّهَ فَلَيْسَ بِمُعْجِزِ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أُولِيّاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٠) .

وأقام صلى الله عليه وسلم بنخلة أياماً ، فقال زيد بن حارثة رضى الله عنه : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ - يعنى قريشاً - فقال : « يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه » .

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدى : « أدخل فى جوارك » ؟ فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد .

* * *

⁽١) الأحقان : ٢٩ – ٣٢

ذكر الإسراء والمعراج:
 يقول الإمام البوصيري رحمه الله:

سَرِيْتَ مِسن حَسرَم لِيلاً إلى حَسرَم ويرت مَن وَلِية وَيَت مَن وَلِية وَقَدَّمَ مَن وَلَيْ مَن وَلِية وَقَدَّمَ مَن وَلَا السَّب عَ الطَّبَاق بِهِم وَأَنْت تَحْقَى وَ السَّب عَ الطَّبَاق بِهِم وَأَنْت تَحْقَى وَ السَّب عَ الطَّبَاق بِهِم مَن وَاللَّه السَّبَقِ وَاللَّه مَن الطَّبَاق المستَبق حَقَى المَن اللَّه المَن اللَّه الللَّه اللَّه اللَّه الللَّه اللَّه اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّ

كما سرى البدر في داج من الظلم (١) من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم (٢) من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم على خدم والرسل تقديسم مخدوم على خدم فيى موكب كنت فيه صاحب العلم (٣) مين الدنسو ولا مرقس فيسل المفرد العلم عسن العيسون وسير أي مكتسم عسن العيسون وسير أي مكتسم وجسزت كل مقام غير مردحم (٥) وعسر أدراك ما أوليت مسن نعم (١)

* *

⁽١) سريت : سرت ليلاً . الحرم : المكان الذي لا يحل انتهاكه ، والحرمان المذكوران في البيت هما الحرم المكي وحرم المسجد الأقصى .

⁽٢) لم ترم : لم يرمها أحد لعزتها عليه . وقاب قوسين : أى مقدار القوس ، أى مسافة البُعد بين طرفيه .

⁽٣) الطباق: المتطابقة.

⁽٤) شأواً : غاية ، المستبق : المسابق المبارى ، مرتى : مصدر ميمى بمعنى الرقى ، أو مكاناً للرقى ، مستنم : مستعل ،

⁽٥) غير مزدحم : لا يزاحمك فيه أحد . (٦) أوليت : أعطيت ومُنحت .

ويقول أمير الشعراء شوقى :

أسرى بسك الله ليسلا إذ ملاتكه لل خطر من بسيده من التفوا بسيده من من حكل في خطر حكل منه منه من كل في خطر جبت الستسوات أو ما فوقه من بهم مشيئة لك مسن عسز ومن شرف مشيئسة الخالق البارى ، وصَنعته حت حد من عالم لا يُطار لها وقيسل : كُل نبسى عند وتبته

وَالرُّسْلُ فِي المسجدِ الأقصى على قدم (١) كَالشُهْبِ بِالبَدْرِ ، أَوْ كَالجُنْدِ بِالعَلمِ (١) كَالشُهْبِ بِالبَدْرِ ، أَوْ كَالجُنْدِ بِالعَلمِ (١) وَمَـسنُ يَفُسز بِحَبِيبِ اللّهِ يَأْتَمِسم (١) عَلَـسى مُنَسورَة دُريَّسةِ اللّهِ يَأْتَمِسم (١) لا فِي الجياد ، ولا فِي الأيْنُقِ الرُّسُم (١) وَقُسدْرَةُ اللّهِ فَسوقَ الشّكِ والتَّهُسم عَلَى جَنَاحٍ ، ولا بُسعَى على قدم (١) عَلَى جَنَاحٍ ، ولا بُسعَى على قدم (١) ويًا مُحَسِّدُ هَـذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلم (١)

* * *

⁽١) المسجد الأقصى : بيت المقدس . على قدم : قائمون محتشدون .

 ⁽٢) خطر: مشى . بسيدهم: تعظيماً لشأنه وإظهار سيادته عليهم . الشهب: جمع شهاب وهو
 نى الأصل شعلة النار الساطعة والمراد بها النجوم . العلم: راية الحرب .

⁽٣) ذي خطر : ذي قدرة ومنزلة .

⁽٤) بهم : أي بملابسة بعضهم فيها . منورة درية اللجم : البراق .

⁽٥) الأينق الرسم : النوق الشديدة الوطئ لقوتها . الرسم : واحدهم رسوم . الجياد : جمع جواد وهو الفرس الرائع البين الجودة .

⁽٦) كان إسراؤه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى على البراق ، أما عروجه إلى السماء فلم يكن عليه ، والوارد في الحديث أنه كان على المعراج .

 ⁽٧) وقيل - أى بلسان الحال - كل نبى: من الذين في السموات. عند رتبته: منزلته في السماء التي هو فيها. ويا محمد - بلسان الحال أيضاً. هذا العرش فاستلم: كناية عن مزيد القرب من رب العزة، لأن من بلغ عرش الملك فقد دنا منه دنواً عظيماً.

ثم أسرى برسول الله على من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقد اختلفوا فى المكان الذى أسرى به منه ، فقيل : المسجد ، وقيل : كان فى بيته ، وقيل : كان فى بيت أم هانئ . ومن قال هذين قال : المدينة كلها مسجد .

واختلفوا في الوقت الذي أسرى به فيه .

فروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أنه أسرى به ليلة سبع من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

وقال ابن عباس وأنس: أسرى بد قبل الهجرة بسنة .

وقال السدى : قبل الهجرة بستة أشهر .

وقال الواقدى : أسرى بد لسبع عشرة من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً . وقيل : أسرى بد في رجب . والله تعالى أعلم .

وقد كان الإسراء برسول الله الله السيرية من الله تعالى لرسوله بعد ما لقى من قومه فى مكة والطائف ، وتثبيتاً له على الحق ، وإعلاماً من الله تعالى أنه إذا رفعه إلى السموات العلى ، فإنه سبحانه سوف يُعلى كلمته وينصره على أعدائه ويظهر دينه ، لتعم نوره الآفاق ، وتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فحين ذكر رسول الله السيضعفين ، وأن ربه هو ربهم ، رفعه الله تعالى إلى أعلى عليين ، حيث لا يُسعَى على قدم ولا يُطار على جناح .

وكان الإسراء بعد أن فشا الإسلام بمكة في قريش ، وفي القبائل كلها .

كما كان فى الإسراء عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصد ، وكان من أمر الله تعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

يقول الرسول على: « بينا أنا نائم فى الحجر ، إذ جاءنى جبريل ، فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست ، فأخذ بعضدى ، فقمت معه ، فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، يضع يده فى منتهى طرفه ، فحملنى عليه ، ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته » .

ويقول قتادة : حُدِّثتُ أن رسول الله ﷺ قال : « لما دنوتُ منه لأركبه ، شمس فوضع جبريل يده على معرفته ، ثم قال : ألا تستحى يا براق مما تصنع ؟ فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه . قال : فاستحيا حتى ارفض عرقاً ، ثم قر حتى ركبته » .

ثم مضى رسول الله ﷺ ، ومضى جبريل عليه السلام معه ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله ﷺ فصلى بهم ، ثم أتي بإناءين ، فى أحدهما خمر ، وفى الآخر لبن .. فأخذ رسول الله إناء اللبن ، فشرب منه ، وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هُديتَ للفطرة : وهُديتُ أمتك يا محمد ، وحرمت عليكم الخمر » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « لما فرغتُ مما كان فى بيت المقدس ، أتى بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر ، فأصعدنى صاحبى فيه ، حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء بقال له « باب الحفظة » ، عليه ملك من الملائكة يقال له « إسماعيل » ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك - قال : يقول رسول الله تشه حين حدّث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُو ﴾ (١١ – فلما دخل بى قال : من هذا يا جبربل ؟ قال : محمد . قال : أو قد بُعث ؟ قال : نعم . فدعا لى بخير وقاله » .

⁽١) المدثر : ٣١

وقال: « تلقتنى الملائكة حين دخلتُ السماء الدنيا ، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقينى ملك من الملائكة ، فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : يا جبريل ، من هذا الملك الذى قال لى كما قالت الملائكة ولم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيتُ منهم ؟ قال : فقال لى جبريل : أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك ، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك ، لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار .

فقال رسول الله ﷺ: فقلت لجبريل ، وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم: ﴿ مُطَاعٍ ثُمَّ أُمِينٍ ﴾ (١): ألا تأمره أن يرينى النار؟ قال: بلى ، يا مالك أر محمداً النارُ. قال: فكشف عنها غطاءها ، ففارت وارتفعت ، حتى ظننتُ لتأخذن ما أرى .

قال : فقلت لجبريل : يا جبريل ، مره فليردها إلى مكانها . قال : فأمره ، فقال لها : اخبى . فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه ، فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها » .

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه: « إن رسول الله على قال: « لما دخلتُ السماء الدنيا ، رأيتُ بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عُرِضت عليه خيراً ويُسرُ به ، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عُرِضت عليه: أن ، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

قال : قلت : من هذا يا جبريل؟ قال : هذا أبوك آدم ، تُعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرٌ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب . وإذا مرت به روح الكافر منهم أفّف منها وكرهها ، وساءه ذلك وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

⁽١) التكوير : ٢١

قال: ثم أصعدنى إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا .

قال: ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قال: قلت: من هذا يا جبريل ؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب.

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل فسألته : مَن هو ؟ قال : هذا إدريس – قال : يقول رسول الله ﷺ : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلَيّاً ﴾ (١) .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة ، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية ، عظيم العثنون (٢) ، لم أر كهلاً أجمل منه ، قال : قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبب في قومه هارون بن عمران .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى ، كأنه من رجال شنوءة ، فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى ابن عمران .

قال: ثم أصعدنى إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة . لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه ، قال : قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال: ثم دخل بى الجنة ، فرأيتُ فيها جارية لعساء (٣) ، فسألتها : لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله تشخ زيد بن حارثة » .

⁽١) مريم: ٥٧ (١) العثنون: اللحية.

⁽٣) اللعساء: اللعس في الشفاة: حمرة تضرب إلى سواد.

ويقول ابن مسعود رضى الله عنه: إن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها: من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد ، فيقولون : أو قد بُعث ؟ فيقول : نعم ، فيقولون : حياه الله من أخ وصاحب ا حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه ففرض عليه خمسين صلاة فى كل يوم .

قال رسول الله على: « فأقبلتُ راجعاً ، فلما مررتُ بموسى بن عمران - ونعم الصاحب كان لكم - سألنى : كم فُرِض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاة كل يوم ، فقال : إن الصلاة ثقيلة ، وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك ، فرجعتُ فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى ، فوضع عنى عشراً . ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعتُ فسألت ربى ، فوضع عنى عشراً ، ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى ، فوضع عنى عشراً ، ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فرجعتُ فسألته فوضع عنى عشراً .

ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، قال : فارجع فاسأل ، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى ، إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، ثم رجعت إلى موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فقلت : قد راجعت ربى وسألته ، حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل . فمن أداهن منكم إيمانا بهن واحتسابا لهن ، كان له أجر خمسين صلاة » .

×

• وعن سعيد بن المسيب أن رسول الله الله الصحابه إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - حين رآهم في تلك الليلة فقال: « أما إبراهيم ، فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه - يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم - ، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب (١) جعد (٢) أقنى (٣) كأنه

⁽١) الضرب من الرجال: الخفيف اللحم. (٢) الجعد: المتكسر الشعر.

⁽٣) الأقنى : المرتفع قصبة الأنف .

من رجال شنوءة (1) ، وأما عيسى ابن مريم ، فرجل أحمر ، بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خيلان الوجه (1) ، كأنه خرج من دياس (1) ، تخال رأسه يقطر ماءً وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى » .

*

ويقول أبو سعيد الخدرى فى حديثه عن النار وأهلها: إن رسول الله تقال : « ثم رأيت رجالاً لهم مشافر (٤) كمشافر الإيل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار (٥) ، يقذفونها فى أفواههم ، فتخرج من أدبارهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً » .

قال: «ثم رأيتُ رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون ، يمرون على عليهم كالإبل المهيومة (٦) حين يُعرضون على النار ، يطنونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ، قال : قلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا » .

قال: « ثم رأيتُ رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون الشمين الطيب . قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن » .

قال : « ثم رأيتُ نساءً معلقات بثديهن ، فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال مَن ليس من أولادهم » (Y) .



⁽١) شنوءة : قبيلة من الأزد .

⁽٣) الدياس : الحسام .

⁽٥) الفهر: الحجر مل، الكف.

⁽٧) الوجس: الصوت الخفي .

⁽٤) المشفر: شفة الجمل.

⁽٦) المهيومة: العطاش.

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: « ليلة أسرى بنبى الله صلى الله عليه وسلم ودخل الجنة ، فسمع من جانبها وجساً (١) ، قال: يا جبريل ، ما هذا ؟ قال: هذا بلال المؤذن ، فقال نبى الله على حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال ، رأيتُ كذا وكذا .

قال: فلقيد موسى صلى الله عليه وسلم، فرحب به وقال: مرحباً بالنبى الأُمِّى، قال: فقال: وهو رجل آدم طويل سبط شعره، مع أذنيه أو فوقهما، فقال: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى عليه السلام.

قال : فمضى ، فلقيه عيسى ، فرحب به وقال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عيسى .

قال : فمضى ، فلقيه شيخ جليل مهيب ، فرحب به وسلم عليه ، وكلهم يسلم عليه ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : فنظر فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف ، فقال : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس . ورأى رجلاً أحمر أزرق جعداً شعثاً ، إذا رأيته ، قال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ..

قال: فلما دخل النبى الله المسجد الأقصى قام يصلى ، فالتفت ثم التفت ، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جئ بقدحين ، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، في أحدهما لبن ، وفي الآخر عسل ، فأخذ اللبن فشرب منه ، فقال الذي كان معه القدح : أصبت الفطرة » (٢) .

وفى حديث الحسن الذى رواه ابن هشام (٣) قال : « ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخير . فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير تطرد شهراً من مكة

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٨/١ - ٢٥٧ (بتصرف) .

⁽٢) رواه أحمد (٢٣٢٤) . (٣) السيرة ، المرجع السابق : ٢٥./١

إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ! . قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنه قد جا، هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !!

قال : فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هو ذاك في المسجد يُحدُّث به الناس .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : وأنت يا أبا بكر الصدِّيق ، فيومئذ سماه الصدِّيق .

قال الحسن : وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الرُّؤْيَا الرُّؤْيَا الرُّؤْيَا الرُّؤْيَا اللَّهُ وَنَخَوَّفُهُمْ اللّهُ وَيَنْ القُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ (١) .

*

⁽١) الإسراء: ٣٠

وعن أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها - واسمها هند - فى مسرى رسول الله على ، أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله الله الا وهو فى بيتى ، نام عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام فنمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله الله الما صلى الصبح وصلينا معه قال : « يا أم هانئ ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جنت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين » .

ثم قام ليخرج ، فأخذت بطرف ردائد ، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (١) مطوية ، فقلت له : يا نبى الله ، لا تحدُّث بهذا الناس فيكذَّبوك ويؤذوك ، قال : « والله لأحدثنموه » .

قالت: فقلت لجارية لى حبشية: ويحك، اتبعى رسول الله على حتى تسمعى ما يقول للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله على إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط !

قال : « آیة ذلک أنی مررت بعیر بنی فلان بوادی کذا وکذا ، فأنفرهم حس الدابة . فند لهم بعیر ، فدللتهم علیه ، وأنا موجه إلی الشام . ثم أقبلت حتی إذا کنت بضجنان (1) مررت بعیر بنی فلان فوجدت القوم نیاماً ، ولهم إناء فیه ماء قد غطوا علیه بشئ ، فکشفت غطاءه وشربت ما فیه ، ثم غطیت علیه کما کان . وآیة ذلک أن عیرهم الآن یصوب (1) من البیضاء (1) ، ثنیة التنعیم ، یقدمها جمل أورق (1) ، علیه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخری برقاء (1) .

⁽١) القبطبة : ثياب من كتان تنسج بصر ، منسوبة إلى القبط .

⁽٢) ضجنان : جبل بناحية تهامة . (٣) يصوب : ينزل من مكان عال .

⁽٤) البيضاء: عقبة قرب مكة في أسفلها . (٥) الأورق: الذي لونه بين الغبرة والسواد .

⁽٦) البرقاء : التي فيها ألوان مختلفة .

قالت: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماءً . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أنفرنا في الوادى الذي ذكر ، وند لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه » (١) .

* *

و يحدثنا ابن عباس رضى الله عنهما عما كان من أمر أهل مكة مع يسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : قال رسول الله عليه و لما كان ليلة أُسرى بى وأصبحتُ بمكة ، فظعتُ بأمرى (٢) ، وعرفتُ أن الناس مكذبى ، فقعدت معتزلاً حزيناً ، قال : فمر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه فقال كالمستهزئ : هل كان من شئ ؟ فقال رسول الله على : نعم . قال : ما هو ؟ قال : « إنه أسرى بى الليلة » ؟ ، قال : إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » . قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ (٣) . قال : « نعم » .

قال: فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجعده الحديث إذا دعا قومه إليه! قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم ، فقال: هيا معشر بنى كعب بن لؤى ، قال: فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

قال : حدَّث قومك بما حدَّثتنى ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى أسرى بى الليلة » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم .

قال : فمَن بين مصفق ، ومَن بين واضع يده على رأسه ، متعجباً للكذب – زعم !

⁽١) السيرة النبوية ، مرجع سابق : ٢٥١٣/١ (٢) أي اشتد على وهبته .

⁽٣) بين ظهرانينا: أي بين القوم مطلقاً.

قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد، وفي القوم مَن قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله على : فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت، قال: فجئ بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقال – أو عقيل – فنعته وأنا أنظر إليه. قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه. قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب » (١).

* *

يقول الله تعالى في واقعة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أُسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مَّنَ الْسُجِدِ الْحُولُهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارِكْنَا حَوْلُهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢) .

ويقول عن المعراج: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلا وَحْى يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوىٰ * وَمَا يَنطقُ عَنِ الهَوَىٰ * وَهُو بِالأَفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ ذُو مِرَّةَ فَاسْتَوَىٰ * وَهُو بِالأَفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ أُدْنَىٰ * فَأُوحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوحَىٰ * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَد وَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عند سدرة المُنتَهَىٰ * عندها جَنّةُ المَاوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبّهِ الكُبْرَىٰ ﴾ (٣) .

يقول الإمام ابن كثير في تفسير آية الإسراء: « عجد الله تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه . ﴿ اللَّذِي أُسْرَى بِعَبْده ﴾ : يعنى محمداً ﴿ لَيْلاً ﴾ : أي في جنح الليل ﴿ مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بـ « إلياء » ، فقدّمه على الأنبياء من لدن إبراهيم

⁽١) رواه أحمد (٢٨٢) . (٢) الإسراء: ١ (٣) النجم: ١ – ١٨

عليه السلام ، ولهذا جُمعوا له هناك كلهم ، فأمّهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدّم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ الّذِي بَارِكْنَا حَوْلَهُ ﴾ : أي في الزروع والثمار ﴿ لنُريهُ ﴾ : أي محمداً ﷺ ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ : أي العظام - كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبّه الكُبْرَىٰ ﴾ (١) - ﴿ إِنّهُ هُو السّميعُ البَصيرُ ﴾ : أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ؛ مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

هذا وحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة $^{(Y)}$. كما يقول في آيات المعراج :

« قال الشعبى وغيره : « الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق (رواه ابن أبي حاتم) .

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ فقيل: هو الثريا إذا سقطت مع الفجر، أو هي الزهرة ﴿ إِذَا هُوَىٰ ﴾ : إذا رمى به الشيطان، أو هو القرآن إذا نزل – وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَواقعِ النَّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٣) – ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبًكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال – وهو الجاهل الذي يسلك غير طريق الحق بغير علم، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطائفة اليهود، وهي علم الشئ وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو صلاة الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال

⁽١) النجم: ١٨

⁽٢) مختصر تفسير ابن كثير - للشيخ محمد كريم راجح: ١٨٧/١

⁽٣) الراتعة : ٧٥ - ٧٦

والسداد ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ ﴾ : أى ما يقول قولاً عن هوى وغرض ، ﴿ إِنْ هُو َ إِلا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ : أى إغا يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ عَلَمَهُ شَدِيدُ القُوكَىٰ ﴾ : وهو جبريل عليه السلام ، ﴿ ذُو مِرَّة ﴾ : أى ذو قوة ، أو ذو منظر حسن ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ : يعنى جبريل عليه السلام ، ﴿ وَهُو بِالأُفْقِ الأَعْلَىٰ ﴾ : يعنى جبريل المعتوى في الأفق الأعلى ، والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح ، أو هو جبريل استوى في الأفق الأعلى ، والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح ، أو هو مطلع الشمس ، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أُدْنَىٰ ﴾ : أى فاقترب جبريل إلى محمد – عليهما السلام – لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد عليه قاب قوسين – أى بقدرهما إذا مُدا ، أو أدنى – وهذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى : وقده تُشَمَّ قَسَتُ قُلُوبُكُم مِّن بَعْد ذَلِكَ فَهِي كَالْحِجَارَة أَوْ أُشَدُّ خَشْيَةً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَأُرْسَلَنَاهُ إِلَى مَاتُه أَلْف أَوْ يُزيدُونَ ﴾ (٣) ،

﴿ فَأُوحَىٰ إِلَى عَبْده مَا أُوحَىٰ ﴾ فى الحديث: « رأيتُ جبريل له ستمائة جناح » ، ﴿ مَا كَذَبَ الفَوْادُ مَا رَأَىٰ ﴾ : أى رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف ، قد ملاً ما بين السماء والأرض ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةٌ أُخْرَىٰ ﴾ عن ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين ﴿ عندَ سدْرة المُنتَهَىٰ * عندَهَا جَنَّةُ المَاوَىٰ ﴾ .

روى الإمام أحمد أنه أسرى برسول الله تلله فانتهى به إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يُعرج به من الأرض فيُقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيُقبض منها ، ويغشاها فراش من ذهب ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغُفر كمن لا يُشرك بالله شبئاً من أمته .

⁽١) البقرة : ٧٤

﴿ مَا زَاعَ البَصَرُ ﴾ ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ما جاوز ما أُمرِ به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، أنه ما فعل إلا ما أُمرِ به ، ولا سأل فوق ما أعطى ، ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَات رَبِّهِ الكُبْرَىٰ ﴾ - كقوله : ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتُنَا ﴾ (١) - أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين استدل مَن ذَهَب مِن أهل السُنّة على أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك (١) .

ويقول فضيلة الشيخ محمد على الصابوني في « مختصر تفسير الطبرى » تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٣) :

« اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في الذي رآه محمد ، هل هو جبريل ؟ أو هو رب العزة جَلَّ وعلا ؟

فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينى رأسه ، وكان ابن عباس يقول : « إن الله اصطفى إبراهيم بالخِلّة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤية » .

ثم يقول فضيلته : « الآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤية الرسول الله لربه ، لأن الحديث فيها إغا جاء عن جبريل بدليل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَديدُ القُوكَىٰ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فالضمائر كلها تدل

⁽٢) المرجع السابق: ٢/٧٥٥

⁽٤) الأنعام : ١.٣

⁽١) الإسراء: ١(٣) النجم: ١٣

على أن المراد به جبريل ، وقد ختم هذه الآيات بقوله : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبّه الكُبْرَىٰ ﴾ ، فهذه هى دلالة الآيات وهذه فحواها ، ونحن مع أهل السُنّة والجماعة نقول : إن الرسول ﷺ قد رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج - كما هو مذهب الإمام أحمد - والأدلة تؤخذ من السُنّة المطهرة ومن أقوال السكف لا من الآيات الكريمة ، فليس في السورة ما يشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه .. والله أعلم » أهد (١) .

ونحن لا نرى رأى ابن عباس وعكرمة - أو غيرهما - إنما نتفق مع رأى عائشة رضى الله عنها ، ونتمسك بنصوص الآيات الكريمة ، ونذهب مذهب ابن كثير رحمه الله فى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم ير ربه ، وإنما كانت الرؤية لجبريل عليه السلام .

* * *

ومما وقع فى قصة الرسول الله لم النجم بحضرة المشركين ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالثَّةَ اللَّاتَ وَالعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالثَّةَ الأَخْرَىٰ ﴾ (٢) ، ألقى الشيطان فى تلاوته : « تلك الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » . فظن المشركون أن النبى الله قاله ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وتلقاها الصغير والكبير منهم ، وقالوا كلاماً معناه : هذا الذى نريد ، نحن نقر أن الله هو الخالق الرازق المدبر للأمور ، ولكن نريد شفاعتها عنده ، فإذا أقر بذلك فلبس بيننا وبينه أى خلاف .

واستمر رسول الله ﷺ يقرؤها ، فلما بلغ السجدة سجد وسجدوا معه . وشاع الخبر : أنهم صافوه ، حتى إن الخبر وصل إلى الصحابة الذين بالحبشة ، فركبوا البحر راجعين ، لظنهم أن ذلك صدق . فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ : خاف أن يكون قاله . فخاف من الله خوفاً عظيماً ، حتى أنزل الله عليه :

⁽١) مختصر تفسير الطبري ، للشيخ محمد على الصابوني هامش: ١٠.٠/١

⁽٢) النجم: ١٩ - ٢٠

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولِ وَلا نَبِيّ إِلَّا إِذَا تَمَنَىٰ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمُنيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلْيَمٌ حَكَيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبَهُم مَّرَضُ وَالْقَاسِيَة قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شَقَاقَ بَعِيدٍ * وَلَيَعْلَمَ الذَّينَ أُوتُوا الْعَلْمَ أَنَّهُ الْحَقُ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمَنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الْعَلْمَ أَنَّهُ الْحَقُ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمَنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الشَّيْقَ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ النَّيْنَ آمَنُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ اللَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ اللَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (١) .

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب : « فمن عرف هذه القصة ، وعرف ما عليه المشركون اليوم ، وما قاله ويقوله علماؤهم ، ولم يميز بين الإسلام الذي أتى به النبي على ، وبين دين قريش الذي أرسل الله رسوله ينذرهم عنه ، وهو الشرك الأكبر : فأبعده الله ، فإن هذه القصة في غاية الوضوح ، إلا من طبع الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فذلك لا حيلة فيه ، ولو كان من أفهم الناس ، كما قال الله تعالى في أهل الفهم الذين لم يوفقوا : ﴿ وَلَقَدْ مَكْنَاهُمُ فِيه وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعا وَأَبْصَاراً وَأَفْئَدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْعَدَدُونَ بِآيات سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارَهُمْ وَلا أَفْئَدَ تُهُم مِّن شَيْء إذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيات الله وَحَاق بهم مًا كَانُواْ به يَسْتَهُونَ فَنَ الله وَحَاق بهم مًا كَانُواْ به يَسْتَهُونَ فَنَ الله وَحَاق بهم مًا كَانُواْ به يَسْتَهُونَ فَنَ الله وَحَاق بهم مًا كَانُواْ به يَسْتَهُونَونَ ﴾ (٢) .

* * *

• الهجرة المباركة:

استمر المشركون في إيذائهم للمسلمين ، واستمر الرسول ﷺ يدعو إلى ربه ليلاً ونهاراً ، فكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم ، إذا كانت ،

⁽١) الحج: ٥٢ - ٥٥

 ⁽٢) مختصر سيرة الرسول الله - للإمام محمد بن عيد الوهاب - مرجع سابق - ص ٢٢ ، والآية
 من سورة الأحقاف : ٢٦

على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عزُّ وجَلُّ ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين الله ما بعثه بد .

كان صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

فلما أراد الله عَزُّ وجُلُّ إظهار دينه ، وإعزاز نبيه الله ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله الله الله على الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم : « مَن أنتم » ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « أمن موالى يهود » ؟ قالوا : نعم . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم » ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عَزُّ وجَلُّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام ، أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله على أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدُّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزَّ منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدُقوا (١١) وكانوا ستة نفر .

عاد الأنصار - وكلهم من الخزرج - إلى المدينة ، وكان منهم أسعد بن زرارة وجابر بن عبد الله بن رئاب السلمى ، ودعوا قومهم إلى الإسلام ، فنشأ الإسلام في المدينة ، حتى لم تبق دار إلا دخلها .

فلما كان العام المقبل: جاء منهم اثنى عشر رجلاً - الستة الأُول ، خلا جابراً - ومعهم عبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وغيرهم: الجمع اثنى عشر رجلاً ؛ كانوا جميعاً من الخزرج إلا اثنان من الأوس هما : أبو الهيثم وعويم بن ساعدة .

فقال سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأسيد بن حضير : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما . فإن أسعد بن زرارة ابن خالتى ، ولولا ذلك لكفيتك ذلك .

وكان سعد وأسيد سيدى قومهما ، فأخذ أسيد حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما وآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك . فلصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يكلمني أكلمه .

فوقف عليهما فقال: ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا ، إن كان لكما في أنفسكما حاجة .

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام ، مرجع سابق : ١/ . ٢٧

فقال مصعب : أَوَ تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره . فقال : أنصفتَ . ثم ركز حربته وجلس .

فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا في وجمهم الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلله .

ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في حمدًا الدين ؟

قالا له : تغتسل وتطهر ثوبك . ثم تشهد شهادة الحق . ثم تصلى ركعتين -

فقام فاغتسل ، وطهر ثوبه . وتشهد وصلى ركعتين . ثم قال : إن ورائسى رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن - سعد يست عبادة - ثم أخذ حربته ، وانصرف إلى سعد في قومه ، وهم جلوس في ناديهم .

فقال سعد : أحلف بالله ، لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت ؟ فقال : كلمتُ الرجلين ، فوالله ما رأيتُ بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حُدِّثت : إن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنه ابن خالتك --- ليخفروك .

فقام سعد مغضباً ، للذى ذكر له ، فأخذ حربته ، فلما رآهما مطمئنين عرقب أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمماً ، ثم قال لأسعد يسرت زرارة : والله يا أبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائد قومه ، إن يتبعك المم يتخلف عنك منهم أحد .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفتَ . ثم ركز حربته فجلس . فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن . قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلله .

ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالا : تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين .

ففعل ذلك ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادى قومه . فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الرجه الذى ذهب به ، فقال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وأفضلنا رأياً وأيننا نقيبة .

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا أسلموا ، إلا الأصيرم ، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد. فأسلم وقاتل وقُتل ، ولم يسجد لله سجدة. فقال النبى على عمل قليلاً وأجر كثيراً ».

فأقام مصعب فى منزل أسعد يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف .

فلما كان من العام المقبل ، وجاء موسم الحج ، قال مَن أسلم من الأنصار : حتى متى نترك رسول الله على ، يُطرُد في جبال مكة ويُخاف ؟! فخرجوا مع مشركي قومهم حجاجاً .

فلما وصلوا واعدوه العقبة ، من أواسط أيام التشريق للبيعة (١) .

عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : « لبث رسول الله على عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم : مجنة وعكاظ ، ومنازلهم بمنى : « من يؤوينى وبنصرنى حتى أبلغ رسالات ربى ، وله الجنة » ؟ فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ،

⁽١) مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ، مرجع سابق ص ٨٥ وما بعدها (بتصرف) .

حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون : احذر فتى قريش لا يفتنك ، يمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله - عز وجَل - يشيرون إليه بأصابعهم ، حتى بعثنا الله له من يثرب ، فيأتيه الرجل منا ، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام .

ثم بعثنا الله عَزُّ وجَلُّ ، وائتمرنا ، واجتمعنا سبعين رجلاً منا ، فقلنا : حتى متى نَذَر رسول الله عَنْ يُطوَّف في جبال مكة ويُخاف ؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم ، فواعدنا شعب العقبة ، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده ، فقلنا : يا رسول الله ، علام نبايعك ؟ قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في اليسر والعُسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني – إذا قدمت عليكم يشرب – تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

فقمنا نبايعه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا ، فقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنّا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ، وعلى مفارقة العرب كافة ، فخذوه وآجركم الله عليه .. وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله عَزُ وجَلُ .

فقلنا : أمط يدك يا أسعد بين زرارة ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها .

فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً ، يأخذ علينا شرطه ، ويعطينا على ذلك الجنة » (١) .

⁽١) رواه البيهقي .

وكان جميع أهل العقبة : سبعين رجلاً وامرأتين هما نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدى .

فلما بايعوه صرخ الشيطان بأنفذ صوت سبع قط: يا أهل الأخاشب، هل لكم في محمد والصبأة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ، « هذا أزب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأفرغن لك » ، ثم قال لأصحابه : « ارفضوا إلى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة رضى الله عنه: والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مكة غداً بأسيافنا ، فقال: « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .. فرجعوا .

فلما أصبحوا غدت عليهم جلّة قريش فقالوا : إنه بلغنا أنكم جئتم صاحبنا البارحة ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث رجال – ممن لم يعلموا ولم يشهدوا العقبة – يحلفون لهم بالله : ما كان من هذا شئ ، والذين يشهدون ينظر بعضهم إلى بعض ، وجعل عبد الله بن أبَى ابن سلول يقول : هذا باطل ، ما كان هذا ، وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى .

فقام القوم - وفيهم الحارث بن هشام - وعليه نعلان جديدان . فقال كعب بن مالك : كلمة - كأنه يريد أن يشرك بها القوم فيما قالوا - فقال : يا أبا جابر ، ما تستطيع أن تتخذ - وأنت سيد من ساداتنا - مثل نعلى هذا الفتى ؟

فسمعها الحارث ، فخلعها من رجليه ، ثم رمى بهما إليه ، وقال : والله لتنتعلهما . فقال أبو جابر : مه ؟ أحفظت الفتى ، فاردد إليه نعليه ؟ قال : لا أردهما إليه والله ، فأل صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه .

فلما انفصلت الأنصار عن مكة ، صحّ الخبر عند قريش ، فخرجوا في طلبهم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فأعجزهم المنذر ومضى . وأما سعد .. فقالوا له : أنت على دين محمد ؟ قال : نعم . فربطوا يديه إلى عنقه بنسعة رحله ، وجعلوا يسحبونه بشعره ، ويضربونه – وكان ذا جمة – حتى أدخلوه مكة . فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، فخلصاه من أيديهم .

وتشاورت الأنصار أن يَكرُّوا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فرحلوا إلى المدينة ، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك .

وعن كعب بن مالك ، أن العباس بن عبد المطلب كان حاضراً هذه البيعة ، قال : « فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله على ، حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب ، وهو يومنذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : « يا معشر الخزرج – قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار : الخزرج – خزرجها وأوسها – إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبي إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له عاد عوتموه إليه ، ومانعوه من خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » . فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » (١) – ثم سرد بقية القصة .

*

كانت بيعة العقبة الأولى - على بيعة النساء - وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله على أن لا يشركوا أذن لرسوله على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتون ببهتان

⁽١) السبرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق: ٢٧٩/١

يقترونه من بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه في معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عَزُّ رجَلٌ ، إن شاء عذَّ وإن شاء غفر » .

أما البيعة الثانية فكانت بيعة الحرب ، حين أذن الله تعالى لرسوله على القتال ، ولهذا بايعهم عليه السلام على : « السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في اليسر والعسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن يقولوا في الله لا تأخذهم لومة لائم ، وعلى أن ينصروه إذا قدم عليهم يثرب ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم ، ولهم الجنة » .

لذا قال له البراء بن معرور وهوآخذ بيده : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك ما غنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب . وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

فلما اعترضه أبو الهيثم بن التيهان بقوله : يا رسول الله ، إن ببنه وبين الرجال حبالاً ، وإنّا قاطعوها – يعنى اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

لما قال أبو الهيثم مقالته ، تبسم رسول الله ﷺ ثم قال « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

وكانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمى دمك وهدمى هدمك ، أى ما هدمت من الدماء هدمتُه أنا ، يعنون أن ذمتهم هى ذمته ، وحرمتهم هى حرمته .

ثم قال رسول الله على : « أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم عا فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

ثم أذن الله تعالى لرسوله بالحرب ..

فعن محمد بن إسحاق المطلبي قال : كان رسول الله على قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تُحلّل له الدماء . إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تعالى والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل .

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ، وبين معذّب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذّبوا نبيه على ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله على في القتال والانتصار من ظلمهم وبغى عليهم ..

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغي عليهم - عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء - قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَذَنَ للّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا ، وَإِنَّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَديرُ * الّذِينَ أَخْرِجُوا من ديارهم بغير حَقِّ إِلّا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللّه ، ولَولا دَفْعُ اللّه النّاسَ بَعْضَهُم بَبَعْضَ لَهُدُمّت ْ صَوامِعُ وَبِيعٌ وصَلُواتٌ ومَسَاجِدُ يُذكرُ فيها اسْمُ اللّه كَثيراً ، ولَينتصرنَ اللّه مَن يَنصُرهُ ، إنَّ اللّه لَقُوى عَزيز * فيها اسْمُ الله كَثيراً ، ولَينتصرنَ الله مَن يَنصُرهُ ، إنَّ اللّه لَقوى عَزيز * اللّه عَنون إن مَكَنَّاهُم في الأرض أقامُوا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا الحللتُ لهم القتالَ لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس ، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر - يعني النبي عَلَيْ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

⁽١) الحج: ٣٩ - ٤١

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فَتْنَةً ﴾ (١) : أَى حتى يُعبد أَى حتى لا يُفتَن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ للّهِ ﴾ (١) : أَى حتى يُعبد الله ، لا يُعبد معه غيره .

فلما أذن الله تعالى له - صلى الله عليه وسلم - فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنُصرة له ولمن اتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله على أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عز وجَل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

وكان أول من خرج: أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، ولكنها حُبِست عنه سنة، وحيلً بينها وبين ولدها، ثم خرجت بعد هي وولدها إلى المدينة.

ثم خرج المسلمون أرسالاً ، يتبع بعضهم بعضاً ، ولم يبق منهم بمكة أحد إلا رسول الله ﷺ لهما - أقاما بأمر رسول الله ﷺ لهما - والا من احتبسه المشركون كرهاً .

وأعدّ رسول الله ﷺ جهازه ، ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه .

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله على قد تجهزوا وخرجوا بأهليهم إلى المدينة ، عرفوا أن الدار دار منعة ، وأن القوم أهل حلقة وبأس ، فخافوا خروج وسول الله على ، فيشتد أمره عليهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ، وحضرهم إبليس في صورة شيخ من أهل نجد ، فتذاكروا أمر رسول الله على .

فأشار كل منهم برأى ، والشيخ يرده ولا يرضاه ، إلى أن قال أبو جهل - عليه لعنة الله : قد فرق لى فيه برأى ، ما أراكم وقعتم عليه . قالوا : ما هو ؟

⁽١) البقرة : ١٩٣

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً جلداً ، ثم نعطيه سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا تدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ، وتسرق ديته .

فقال الشيخ : لله در هذا الفتى ، هذا والله الرأى . فتفرقوا على ذلك .

فجاء جبريل عليه السلام ، فأخبر النبى ﷺ بذلك ، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة .

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبى بكر نصف النهار - فى ساعة لم يكن يأتيه فيها - متقنعاً ، فقال : « أخرج من عندك » ، فقال : إنما هم أهلك يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أذن لى فى الخروج » .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : « نعم » .

فقال أبو بكر : فخذ - بأبى أنت وأمى - إحدى راحلتى هاتين . فقال : « بالثمن » .

وأمر علياً كرِّم الله وجهد أن يبيت تلك الليلة على فراشد .

واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ، ويرصدونه يريدون بياته ، ويأتمرون : أيهم يكون أشقاها ؟

فخرج رسول الله على عليهم ، فأخذ حفنة من البطحاء فذرها على رؤوسهم وهو يتلو : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَذَا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُغْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

⁽۱) یس: ۹

ومضى رسول الله على إلى بيت أبى بكر ، فخرجا من خوخة فى بيت أبى بكر ليلاً ، فجاء رجل ، فرأى القوم ببابه فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . قال : خبتم وخسرتم ، قد والله مر بكم ، وذر على رؤوسكم التراب ، قالوا : والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم (١) .

فلما أصبحوا ، قام على كرّم الله وجهد عن الفراش ، فسألوه عن الرسول تلفقال : لا علم لي به .

ومضى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى غار ثور ، فنسجت العنكبوت على بابه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: « ولما كان ليلة بات النبى الله ، أمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبى الله على قدر أربعين ذراعا ، معهم قسيهم وعصيهم ، تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار ، فقال لأصحابه : ليس فى الغار شئ ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد . وقال رجل آخر : الغار . فقال أمية بن خلف : ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى قبل أن يولد محمد » (1)

وكان رسول الله تلك وصاحبه قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى ، وكان هادياً ماهراً – وكان على دين قومه – وأمناه على ذلك ، وسلما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

ويروى أن قريشاً عندما جدّت في طلبهما ، أخذوا معهم القافة ، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا .

⁽١) وهذه هي المعجزة الأولى للرسول في واقعة الهجرة .

⁽٢) وهذه معجزة ثانية للرسول 🏖 في واقعة الهجرة .

فقال صلى الله عليه وسلم: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا » .

وكانا يسمعان كلامهم ، إلا أن الله تعالى عمَّى عليهم أمرهما .

وأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اللَّهَ يَقُولُ لَصَاحِبهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَةً بِجُنُود لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلَمَةَ اللّه مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَةً بِجُنُود لّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلَمَةَ اللّه مَن العُلْيَا ، وَاللّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾ (١) .

ويروى أنه لما انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار لبلاً ، دخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، يتلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية ، حتى يقى رسول الله ﷺ بنفسه .

فأقام رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثاً ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة ، لمن يرده عليهم .

وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأقرون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله على وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيرهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لهما عصاماً ، فلما ارتحلت ذهبت لتعلق السفرة ،

⁽١) التوبة : . ٤

فإذا ليس لها عصام ، فحلَّت نطاقها وشقته باثنتين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، ولذا سميت ذات النطاقين ..

وتقول عائشة رضى الله عنها: « فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ، فأوكت به فم الجراب ، وقطعت الأخرى عصاماً للقربة ، فبذلك لقبت « ذات النطاقين » .

وتقول أسماء رضى الله عنها: « لما خرج رسول الله على وأبو بكر رضى الله عنه ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت : قلت : لا أدرى والله أين أبى . قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

قالت: ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجّه رسول الله ﷺ ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهر يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقيسن حلا خيمتى أم معبد هما نسزلا بالبسر نسم تروحا فأفلح من أمسى رفيق محمد ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنيسن بمرصد (١)

قالت أسماء رضى الله عنها: « فلما سمعنا قوله ، عرفنا حيث وَجَّهُ رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديّق رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما » .

 ⁽١) بنو كعب هم قوم أم معيد بنت كعب – امرأة من بنى كعب – من خزاعة ، وستأتى قصتها .
 مع رسول الله ﷺ وصاحبه رضى الله عنه .

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت :

« لما خرج رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ،
ومعه خمسة آلاف درهم – أو ستة آلاف – فانطلق بها معه . قالت : فدخل
علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله
مع نفسه . قالت : قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت :
فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ،
ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال .
قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ،
وفي هذا بلاغ لكم .. لا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ
بذلك » .

*

مكث رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار - كما ذكرنا - حتى خمدت نار الطلب ، فجاءهما ابن أريقط بالراحلتين فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه .

فلما أيس المشركون منهما، جعلوا لمن جاء فيهما دية كل واحد منهما ، لمن يأتى بهما أو بأحدهما ، فجد الناس في الطلب ، والله غالب على أمره .

فلما مروا بحى من مدلج مصعدين من قديد ، بصر بهم رجل فوقف على الحى فقال : لقد رأيتُ آنفاً بالساحل أسودة ، ما أراها إلا محمداً وأصحابه .

ففطن بالأمر سراقة بن مالك ، فأراد أن يكون الظفر له ، وقد سيق له من الظفر ما لم يكن بحسابه ، فقال : بل هما فلان وفلان ، خرجا في طلب حاجة لهما .

ثم مكث قليلاً ، ثم قام فدخل خباء وقال لجاريته : اخرجى بالفرس من وراء الحباء ، وموعدك وراء الأكمة ، ثم أخذ رمحه وخفض عاليه يخط به الأرض حتى ركب فرسه ، فلما دنا منهم ، وسمع قراءة النبى على – وأبو بكر يكثر الالتفات ، ورسول الله على لا يلتفت . قال أبو بكر : يا رسول الله ، هذا سراقة

ابن مالك قد رهقنا ، فدعا عليه رسول الله تشخف نساخت بدا فرسه في الأرض . فقال : قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما ، فادعوا الله لي ، ولكما أن أرد الناس عنكما ، فدعا له رسول الله تشخ ، فخلصت بدا فرسه فانطلق .

وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً ، فكتب له أبو بكر بأمره في أديم ، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة ، فجاء به ، فوفى له رسول الله ﷺ .

ولما رجع سراقة ، وجد الناس في الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأتُ لكم الخبر ، وقد كُفيتم ما ههنا ، فكان أول النهار جاهداً عليهما ، وكان آخره حارساً لهما (١).

ويحدثنا سراقة رضى الله عنه فيقول: « لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مئة ناقة لمن رده عليهم .

قال : فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا ، حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه ، قال : فأومأت إليه بعينى : أن اسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان ، يبتغون ضالة لهم ، قال : لعله ، ثم سكت .

قال : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرس ، فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى استقسمت بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (٢) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : « لا يضره » .

قال: وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ المئة الناقة ، قال: فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى ، فسقطت عنه . قال: فقلت: ما هذا ؟ قال: ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره: « لا يضره » .

⁽١) وهذه هي المعجزة الثالثة في واقعة الهجرة . (٢) اللأمة : الدرع والسلاح .

قال: فأبيتُ إلا أن أتبعه. قال: فركبتُ في أثره، فبينما فرسى يشتد بي، عشر بي ، فسقطتُ عنه. قال: فقلت: ما هذا ؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره: « لا يضره » .

قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره. فلما بدا لى القوم ورأيتهم، عشر بى فرسى، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار (١١).

قال: فعرفتُ حين رأيت ذلك أنه قد مُنع منى ، وأنه ظاهر. قال: فناديتُ القوم ، فقلت: أنا سراقة بن جعشم ، أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شئ تكرهونه. قال: فقال رسول الله الله الله الله الله على منا » ؟ قال: فقال ذلك أبو بكر ، قال: قلت: تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك. قال: « اكتب له يا أبا بكر ».

فكتب لى كتاباً من عظم ، أو فى رقعة ، أو فى خزفة ، ثم ألقاه إلى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله تش ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة .

قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار. قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك ، ماذا تريد؟ قال: فدنوتُ من رسول الله على وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه في غرزه ، كأنها جمارة. قال: فرفعتُ يدى بالكتاب ، ثم قلت: يا رسول الله ، هذا كتابك ، أنا سراقة بن جعشم ، قال: فقال رسول الله على وفاء وبر ، ادنه ». قال: فدنوتُ منه ، فأسلمت .

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله على عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله ، الضالة من الإبل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : « نعم ، فى كل ذات كبد حرى أجر » .

قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله تلط صدقتني » (٢) .

*

⁽١) الإعصار: ربع قبها غبار. (٢) السيرة النبوية - لابن هشام: ٣٠٩/١

ثم مر رسول الله الخيمة في وصحبه بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة ، تحتبى بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مر بها ، فسألاها : هل عندها شئ يشترونه ؟ فقالت : والله لو عندنا شئ ما أعوزكم القرى ، والشاء عازب وكانت سنة شهباء - فنظر رسول الله الله الله الى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : « ما هذه الشاة » ؟ . قالت : خلفها الجهد عن الغنم . فقال : « هل بها مس لبن » ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال : « أتأذنين لى أن أحلبها » ؟ قالت : فعم - بأبى أنت وأمى - إن رأيت بها حليباً فاحلبها .

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ، فتفاجّت عليه ودرّت . فدعا بإناء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب هو . وحلب فيه ثانياً فملأ الإناء ، ثم غادره عندها وارتحلوا (١) .

فقلٌ ما لبثت أن جاءها زوجها يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً . فلما رأى اللبن قال : من أين هذا والشاة عازب ، ولا حلوبة في البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، ومن حديثه كيت وكيت . قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه . صفيه لى يا أم معبد .

قالت: ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخَلْق ، لم تعبه تُجلة ، ولم تزر به صُعلة ، وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صَحَل ، وفي عنقه سَطْع ، وفي لحيته كثاثة ، أحور أكحل ، أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإذا تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فَصَل ، لا نذر ولا هَذْر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة لا تقتحمه عين من قصر ، ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم

⁽١) وهذه رابع المعجزات في واقعة الهجرة .

قدراً ، له رفقاء بحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمر محفود محشود ، لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هذا واللَّه صاحب قريش الذي تطلبه ، ولقد هممتُ أن أصـــه ولأفعلن ، إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

وقيل في هذا:

سلموا أختكم عمن شاتها وإنائها دعاها بشاة حائل ، فتحلبت

فإنكم واان تسألوا الشاة تشهر له بصريسح ضَرّة الشاة مزيد (

ويقول الإمام البوصيري رضي الله عنه:

أَتْسَمْتُ بِالقَسَرِ المُنْشَدِقُ إِنَّ لَهُ وَمَا حَسوَى الغَارُ مسنْ خَيْر وَمَنْ كَرَم فَالصَّدْقُ فِي الغَارِ وَالصَّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ظُنُسُوا ۚ الْحَمَسَامَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى وتَايِـــةُ اللَّه أَغْنَتْ عَـــنْ مُضَاعَفَــة

ويقول أمير الشعراء شوقى :

سَلْ عُصْبةَ الشُّرك حَولًا الغَارِ سَائِعةً

مِن قَلْبِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ (' وكُسلُ طُسرِف مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَم وَهُــمْ يَقُــولُونَ مَا بِالغَارِ مِنْ أَرَمِ (" خَيْد البَريَّة لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُم (٤ مسنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالَ مِنَ الأَطْمِ (٥

لُولاً مُطْسِارَدةً المُخْتَسِار لَمْ تُسم (٦)

⁽١) مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٩٦ (بتصرف) .

⁽٢) والمعنى : أنه من قبل معجزة انشقاق القمر شق ملكان قلب الرسول ﷺ ، وأخرجا منه حو الشيطان ، فيكون بين الانشقاقين - القلب والقمر - تناسب في كونهما خارقين للعادة .

⁽٣) لم يرما : لم يبرحا ولم يزولا ، من رام المكان إذا زال عنه وفارقه . أرم : مقيم .

⁽٤) تنسيع : راجع إلى العنكبوت ، تحم : أي تحوم ، راجع إلى الحمام .

⁽٥) الأُطُّم - بضم الهمزة والطاء : الحصن ، وجمعها أطام .

⁽٦) عصبة الشرك : كفار مكة ، الغار : كالثقب بجبل « ثور » أسفل مكة ، سائمة : راعية .

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: « إنى لأسعى فى الغلمان يقولون: جاء محمد .. فأسعى ولا أرى شيئاً ، ثم يقولون: جاء محمد ، فأسعى ولا أرى شيئاً ، حتى جاء رسول الله علله وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، فكمنا فى بعض خراب المدينة ، ثم بعثنا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار ، حتى انتهوا إليهما ، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين .. فأقبل رسول الله وصاحبه بين أظهرهم ، فخرج أهل المدينة حتى إن العوائق – أى الجوارى – لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيها به » .

⁽١) من أمم : من قرب .

⁽٢) الغاب: الشجر الكثير المتكاثف، الحائمات الزغب: الحمام، الرخم: جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط بالسواد والبياض.

⁽٣) شبه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بدمغ الباطل وإدحاضه ، ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلى ، واللاعن من نيها من المسلمين والملائكة ، والمراد وجوه أهلها أي أعيانهم وأفاضلهم .

⁽٤) الجاران : الرسول ﷺ ، وأبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، والمراد بالبد : النعمة ، وعينه : عنابته .

⁽٥) جناح الله : لطفه وستره ، يضم : يضمه ، تجوزُ بالجناح عن اللطف والستر لأنهما لازمان له كما يضم الطائر جناحه على فرخه .

ويقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: « لما بلغ الأنصار مخرج رسول الله على من مكة ، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه ، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا إلى منازلهم ، فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول ، على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته ، خرجوا على عادتهم . فلما حميت الشمس رجعوا ، فصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة ، فرأى رسول الله الله وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قيلة ، هذا واحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذى تنتظرونه .

فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ. وسُمعت الوجبة والتكبير في بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، وأحدقوا به مطيقين حوله .

فلما أتى - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، عدل ذات اليمين ، حتى نزل بقباء بنى عمرو بن عوف ، ونزل على كلثوم بن الهدم ، أو على سعد بن خيثمة - فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة .

فلما كان يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة في بنى سالم بن عوف . فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي ، ثم ركب . فأخذوا بخطام راحلته يقولون : هلم إلى القوة والمنعة والسلاح . فيقول : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » .

فلم تزل ناقته سائرة ، لا يمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه فى النزول عليهم ، فيقول : « دعوها فإنها مأمورة » ، فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم - وكان مربداً لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل - فبركت ولم ينزل عنها ، حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم رجعت ويركت فى موضعها الأول ، فنزل عنها .

وذلك في بني النجار ، أخوال جده عبد المطلب ."

وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم . فجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب خالد بن زيد إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله عليهم يقول : « المرء مع رحله » ، وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بخطام ناقته ، فكانت عنده (١) .

* * *

ثم آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وكانوا تسعين رجلاً . نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وعلى أن يتوارثوا بعد الموت ، دون ذوى الأرحام ، إلى وقعة بدر ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الأرحام بَعْضُهُم أُولَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ (٢) جعل التوارث إلى الأرحام .

وقيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ علياً أخا لنفسه . والأثبت الأول .



⁽١) مختصر السيرة النبوية ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٩٨ ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ، والسيرة النبوية لابن هشام .

⁽٢) الأنثال: ٥٧

الفصل الثالث

الرسول في المدينة

• إيذاء اليهود له:

هذا ما كان من أهل مكة مع رسول الله على ، وما لاقاه المسلمون - وكانوا قلة مستضعفة - على أيدى المشركين من أذى فى ذلك المجتمع الوثنى المظلم .. حتى أنجى الله رسوله على من ظلمهم وبغيهم ، وأنجى معه المسلمين بالهجرة من دار الكفر إلى دار العزة والإسلام .

أما فى مجتمع المدينة - حيث هاجر رسول الله على - وكثرت أعداد المسلمين ، وقويت شوكتهم .. فقد كان الأذى يقع على رسول الله على ، وعلى المسلمين ، من اليهود والمنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبّى بن سلول ، فقد ناصبوا المسلمين العداء وصبوا عليهم كيدهم ومكرهم ، بغياً من عند أنفسهم وحسداً ..

يقول ابن هشام: « ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله الله العداوة ، بغياً وحسداً وضغناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم في الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جُنَّة من القتل ونافقوا في السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبي الله ، وجحودهم الإسلام .

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله على ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل .. فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام ، كان المسلمون يسألون عنها » (١) .

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٢٦/١

● وكان ممن تعودٌ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود زيد بن اللصيت – وهو من بنى قينقاع ، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ا

المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ا

المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ا

المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين المحمد أنه يأتيه بدرى أين المحمد أنه يأتيه بدر المحمد أنه بدر المحمد أنه

فقال رسول الله ﷺ وجاء الخبر بما قال عدو الله في رحله ، ودلَ الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ على ناقته : « إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلّنى الله عليها ، فهى من هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ ، وكما وصف .



• ومن اليهود الذين ناصبوا الرسول الله العداء: حيى بن أخطب وأخواه ، وسلام بن مشكم ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صوريا ، ومخيريق ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وشاس ابن عدى ، وعدى بن زيد ، وكعب بن راشد ، ورافع بن أبى رافع ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وكعب بن أسد ، ولبيد بن الأعصم ، وكنانة بن صوريا ، وقردم ابن عمرو ، وسلسلة بن برهام ، وغيرهم من أحبار اليهود ، أهل الشرور والعداوة لرسول الله عليه وأصحابه ، وأصحاب المسألة ، والنصب لأمر الإسلام الشرور ليطفؤه ، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق اللذين أسلما .

وكان من حديث مخيريق - وكان حَبْراً عالماً - وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله علله بصفته ، وما يجده من علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يوم أحد - وكان يوم سبت - قال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد ، وعهد إلى من وراثه من قومه : إن قتلتُ في هذا اليوم فأموالى لمحمد (ﷺ) يصنع فيها ما أراه الله .

وأنزل الله تعالى فى شأن اليهود والمنافقين : ﴿ إِنَّ اللَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١) : أى بما أنزل إليك ، وإن قالوا إنَّا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَمْ لَمْ تُنذرهُم لا يُؤْمِنُونَ ﴾ : أى أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أَخِذ عليهم من الميثاق لك ، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم ، عا جاءهم به غيرك ، فكيف يستمعون منك إنذاراً أو تحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ ﴾ : أى عن الهدى أن يصيبوه أبداً ، يعنى بما كذبوك به من الحق الذي جاءك من ربك حتى يؤمنوا به ، وإن آمن بكل ما كان قبلك ، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ بما هم عليه من خلافك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فهذا فى الأحبار من يهود ، فيما كذبوا به من الحق بعد معرفته .

﴿ وَمَنَ النَّاسِ مَنَ يَقُولُ آمَنًا بِاللَّهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ : يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَاللَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَضْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فَى قُلُوبِهِم مُرضَ ﴾ : أى شكا ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلَيمُ مُرضاً ﴾ : أى شكا ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلَيمُ مِرضاً ﴾ : أى شكا ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلَيمُ بِمَا كَانُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا لَهُمْ لا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَعْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل نَعْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل

⁽١) الآية السادسة من سورة البقرة .

الكتاب، يقول الله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كُمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُوْمِنُ كَمَا آمَنَ السَّفَهَاءُ ، وَإِذَا قَيلَ لَهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا أَلاَ إِنَّا مَعَكُمْ أَلَا وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ - وهم علماء اليهود الفاسدين ، النين يأمرونهم بالتكذيب بالحق ، وخلاف ما جاء به الرسول ﴿ قَالُوا ۚ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ : أي إنّا على مثل ما أنتم عليه ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهُوْءُونَ ﴾ : أي إنما نستهيئ أي إنّا على مثل ما أنتم عليه ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهُوْءُونَ ﴾ : أي إنما الله عَزُ وجَلُ : ﴿ اللّهُ يَسْتَهُوْيَ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ قِي بِلْقُومُ وَلَعْكِ اللّهُ يَعْمَهُونَ ﴾ : أي يحارون ، ﴿ أُولَئِكَ الّذِينَ اشْتَرُوا ْ الضَّلالَةُ وَلَمُكَ الْذِينَ اشْتَرُوا ْ الضَّلالَةُ بَاللهُدَيْ ﴾ : أي الكفر بالإيمان ﴿ فَمَا رَبَحَت تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ . أي الكفر بالإيمان ﴿ فَمَا رَبَحَت تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهُتَدِينَ ﴾ .

ثم ضرب الله تعالى لهم مثلاً فقال: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثُلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكّهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾: أي لا يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفةو بكفرهم به ونفاقهم فيه ، فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدي ، ولا يستقيمون على حق ﴿ صُمّ بُكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾: أي لا يرجعون إلى خير ، ولا يصيبون نجاة ما كانوا على ما هم عليه ، ﴿ أو كصيب (١) مّن السّماء فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدُ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصابِعَهُمْ فِي آذانهم مّن الصّواعق حَذَر الموت ، والله من الذي هو من الذي هم من ظلمة ما هم عليه من الخلاف والتخوف لكم ، على مثل ما وصف ، من الذي هو في ظلمة الصيب ، يجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت . يقوله : في ظلمة الصيب ، يجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت . يقوله :

⁽١) الصيب: المطر، والجمع: صيائب.

يَخْطَفُ أَبْصَارُهُمْ ﴾ : أى لشدة ضوء الحق ، ﴿ كُلُمَا أَضَاءَ لَهُم مُّشَوا فيهِ وَإِذَا أَظُلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا ﴾ : أى يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه في الكفر قاموا متحيرين . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ : أى لما تركوا من الحق بعد معرفته ، ﴿ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ - للغريقين جميعاً من الكفار والمنافقين - أى : وحدوا ربكم ﴿ الّذي خَلْقَكُمْ وَالّذينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ وَالّذينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ مَنَ السّمَاء بَنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلا تَجْعَلُوا للّه أَنذَاداً وَأَنتُم مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمركوا بِاللّه غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه . ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَلْنَا عَلَيٰ عَبْدُنَا ﴾ : أي في شك مما جاءكم به ، ﴿ فَأَتُواْ بَسُورَة مِنْ مَثْلُه وَادْعُواْ شَهْدَاء كُم مِن دُونِ اللّه ﴾ : أي من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه ، ﴿ فَاتّقُواْ النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالحَجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) : ﴿ فَاتّقُواْ النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالحَجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) :

ثم رغبهم وحذرهم نقض الميثاق الذي أخذ عليهم لنبيه الله إذا جاءهم ، وذكر لهم بدء خلقهم حين خلقهم ، وشأن أبيهم آدم عليه السلام وأمره ، وكيف صنع به حين خالف عن طاعته . ثم قال : ﴿ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ ﴾ للأحبار من يهود ﴿ اذْكُرُوا ْ نِعْمَتِي النِّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي بلائي عندكم وعند آبائكم ،

⁽١) البقرة: ٢٤

لما نجاهم به من فرعون وقومه ﴿ وَأُوفُواْ بِعَهْدِي ﴾ الذي أخذت في أعناقكم لنبيي أحمد إذا جاءكم ﴿ أُوف بِعَهْدِكُمْ ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم على تصديقه واتباعه بوضع ما كان علبكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناتكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم ﴿ وَإِيّاي فَارْهُبُونِ ﴾ : أي أن أنزل بكم ما أنزلتُ بن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم ، من المسخ وغيره ، ﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لَمّا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُواْ أُولًا كَافر به ﴾ وعندكم من العلم فيه ما ليس عند غيركم ﴿ وَلا تَشْتُرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلْيلاً وَإِيّاي فَاتّقُونِ * وَلا تَلْبِسُواْ الْحَقِّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقِّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبا جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم . ﴿ أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأنتُمْ تَتْلُونَ الكتب التي بأيديكم . ﴿ أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكتبابَ ، أَفَلا تَعْقَلُونَ ﴾ : أي أتنهون الناس عن الكفر با عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم ، أي : وأنتم تكفرون با فيها من عهدي إليكم من تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي ، وتجحدون ما تعلمون من كتابي (١) .

* *

⁽١) البقرة : ٤٠ - ٤٢ ، وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣٣٩/١ وما يعدها .

⁽٢) الأذلم: الأسود الطويل ، وثائر شعر الرأس: مرتفعه ، والسفعة : حمرة تضرب إلى السواد .

وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرِ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِللَّهِ لِللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِللَّهِ لِللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ ٱلِيمٌ ﴾ (١) .

÷.

• ومنهم مربع بن قبظى من بنى النبيت عمرو بن مالك بن الأوس ، وهو الذى قال لرسول الله على عن أجاز فى حائطه ، ورسول الله على عامد إلى أحد : لا أحل لك يا محمد – إن كنت نبياً – أن تمر فى حائطى .

وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به .

فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ: « دعوه ، فهذا الأعمى ، أعمى القلب ، أعمى البصيرة » ، فضربه سعد بن زيد ، أخو بنى عبد الأشهل بالقوس فشجه .

وأخوه أوس بن قيظى ، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ يوم الخندن : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة (٢) ، فأذن لنا فلنرجع إليها ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُريدُونَ إِنَّا فَرَاراً ﴾ (٣) .

÷

• ومن بنى أمية بن زيد بن مالك : وديعة بن ثابت ، وهو ممن بنى مسجد الضرار ، وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تبارك وتعالى :

 ⁽١) التوبة : ٦١ (٢) أي معورة للعدو وضائعة . (٣) الأحزاب : ٦٣ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهُزْءُونَ ﴾ (١) .

*

• بل وحاول اليهود - لعنهم الله - قتل رسول الله تله عندما خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى دية القتيلين من بنى عامر اللذين قتل عمرو بن أمية الضمرى ، للجوار الذى كان رسول الله تله عقد لهما ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف .

فلما أتاهم رسول الله على يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت عما استعنت بنا عليه .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله على ألى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب - أحدهم - فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله الله الله عليه من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما استلبث النبى الماسية أصحابه ، قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ، حتى انتهوا إليه - صلى الله عليه وسلم - فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله الله بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم . وكانت غزوة بنى النضير التى نزل فيها سورة الحشر بأسرها .

*

⁽١) التوبة : ٦٥

• عبد الله بن أُبَى رأس المنافقين :

وكان عبد الله بن أُبَى بن سلول - رأس المنافقين - أشد الناس عداوة لرسول الله على .

ركب النبى ﷺ يوماً على حمار على إكاف (١) على قطبقة (٢) مذكية ، وأردف أسامة بن زيد وراء ويعود سعد بن عبادة رضى الله عنهما قبل وقعة بدر ، فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبّى بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبد الله ، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، فلما غشبت المجلس عجاجة (٣) الدابة ، خَمر (٤) عبد الله بن أبّى أنفه بردائه ، وقال : لا تغبّروا (٥) علينا .

فسلّم النبى ﷺ ووقف ونزل ، ودعاهم إلى اللّه فقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد اللّه بن أبى : يا أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا وإرجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه .

قال ابن رواحه: بلى يا رسول الله ، فاغشنا به فى مجالسنا فإنًا نحب ذلك . فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل رسول الله عنه يخفضهم حتى سكنوا ، فركب النبى على دابته حتى دخل على سعد بن عبادة رضى الله عنه فقال . « أى سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حباب » ؟ – يريد عبد الله بن أبّى – فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح ، فلقد أعطاك الله ما أعطاك ، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه ، فلما رد ذلك بالحق الذي أعطاك الله ، شرق (٦) بذلك ، وذلك الذي فعل به ما رأت (٧)

⁽١) الإكاف للحمار كالسرج للقرس . (٢) وهي كساء لدخمل .

⁽٣) أى الغبار (٤) أى غطى . (٥) أى لا تثيروا .

⁽٦) أي غص به . (٧) رواه البخاري عن أسامة بن زيد .

ومرٌ رسول الله ﷺ يوماً بعبد الله بن أبَى وهو في ظل أطم (١) فقال : غبر علينا ابن أبى كبشة ، فقال ابنه عبد الله رضى الله عنه : يا رسول الله ، والذي أكرمك لئن شئت لآتينك برأسه ، فقال : « لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته » (٢) .

وعند الطبراني ، عن عبد الله بن عبد الله رضى الله عنه أنه استأذن النبي الله أن يقتل أباه ، فقال : « لا تقتل أباك » .

وعن أنس رضى الله عنه قال: قيل للنبى ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبى ؟ فانطلق إليه النبى ﷺ وركب حماراً فانطلق المسلمون يمشون معه، وهى أرض سبخة (٣)، فلما أتاه النبى ﷺ قال: إليك عنى، والله لقد آذانى نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار منهم: والله، لحمار رسول الله ﷺ أطيب ربحاً منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأبدى والنعال، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَكَان بينهما ضرب بالجريد والأبدى والنعال، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائَفَتَان مِنَ المُؤْمنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما ، فَإِن بَغَتْ إحْداهُما عَلى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الله ، فإن قَامَتْ وَالله ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما ، فَإِن بَغَتْ إحْداهُما عَلَى فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما ، فَإِن بَعْتُ إحْداهُما عَلَى فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما ، فَإِن الله ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما بالعَدَل وَأَقْسَطُوا ، إِنَّ اللّه يُحبُّ المُقْسَطينَ ﴾ (٤) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: كنا في غزاة - قال سفيان مرة: في جيش - فكسع (٥) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: باللأنصار، وقال المهاجري: باللمهاجرين -

فسمع بذلك رسول الله على فقال: « ما بال دعوى الجاهلية » ؟ قالوا: يارسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : « دعوها فانها منتنة » ..

⁽١) الأطم : بناء مرتفع ، وجمعه : آطام . (٢) رواه البزار عن أبي هريرة -

⁽٣) وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر .

⁽٤) رواه البخاري – والآية من سورة الحجرات : ٩ (٥) أي ضرب الدبر بيده .

فسمع بذلك عبد الله بن أبنى فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُ منها الأذلُ . فبلغ النبى على فقام عمر رضى الله عنه وقال: يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى على : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد (١) .

وعن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصارى رضى الله عنهم: أن رسول الله عنها « مناة » رسول الله عنها غزوة المريسيع ، وهى التى هدم رسول الله عنه فيها « مناة » الطاغية التى كانت بين قفا المشلل وبين البحر ، فبعث رسول الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه فكسر « مناة » .

فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله تلك ، أحدهما من المهاجرين والآخر من « بهز » – وهم حلفاء الأنصار – فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي فقال : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار ، قال المهاجري : يا معشر المهاجرين ، فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شئ من القتال .

ثم حُجِزَ بينهم (٢) ، فانكفأ (٣) كل منافق أو رجل فى قلبه مرض إلى عبد الله بن أبّى بن سلول ، فقال : قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب – وكانوا يدعون كل حديث هجرة : الجلابيب – فقال عبد الله بن أبّى : والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعزُ منها الأذلُ ..

قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - : ألم أقل لكم لا تنفقوا على مَن عند رسول الله (على) حتى ينفضوا ؟

⁽١) رواه الشيخان . (٢) أي حيل بينهم . (٣) أي رجع .

فسمع بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأقبل حتى أتى رسول الله تقه فقال : يا رسول الله ، اثذن لى فى هذا الرجل الذى قد افتن الناس أضرب عنقه - يريد عبد الله بن أبّى - فقال رسول الله ته : « أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله » ؟ فقال عمر : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ته : « اجلس » .

فأقبل أسيد بن حضير رضى الله عنه - وهو أحد الأنصار ثم أحد بنى عبد الأشهل - حتى أتى رسول الله الله الله الذي أن الذي قد افتن الناس أضرب عنقه ، فقال رسول الله الله الله الذي قد افتن الناس أضرب عنقه ، فقال رسول الله الله الله الناس أنت إن أمرتك بقتله لأضربن بالسيف أنت إن أمرتك بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط الأذنين . فقال رسول الله الله الله المحلس » .

ثم قال رسول الله ﷺ: « آذنوا بالرحيل » . فهجر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل في هجر بالناس مثلها حتى صبح في ثلاث سارها من قفا المشلل ..

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عصر فدعاه ، فقال رسول الله ﷺ : « أى عمر ، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله » ؟ . فقال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ الأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه ، فيتحدث الناس أنى قد وقعت على أصحابى فأقتلهم صبراً » (١) .

وذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » القصة بطولها ، وفى سياقه : ثم مشى رسول الله به بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبّى .

⁽۱) رواه این أبی حاتم .

وأنزل الله عَنَّ وجَلُّ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنَفَّضُوا ، وَلله خَزَائِنُ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمَنافقينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَنُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَلَلُه العَزَةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبّى رضى الله عنه أتى رسول الله عنه فقال: يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبّى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمر لى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله .. لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبّى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله على : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : لما رجع رسول الله على من بنى المصطلق ، قام عبد الله بن عبد الله بن أبَى رضى الله عنه فسل على أبيه السيف وقال : لله على أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعزُّ ، وأنا الأذل . قال : ويلك ، محمد الأعزُّ وأنا الأذل . فبلغت رسول الله على فأعجبه وشكرها له (٢) .

وعبد الله بن أبَى هذا .. هو الذي تولى كبر الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقال الله تعال فيه : ﴿ وَالَّذِي تَوَلِّي كَبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴾ (٣) .

⁽۱) المنافقين: ٧ - ٨

وهو الذي قال الله عَزُّ وَجَلُّ فِي شَانِهِ : ﴿ وَلاَ تُصَلَّ عَلَى أَحَد مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقَمُّ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسْقُونَ ﴾ (١). *

وكانت العرب حين جاءهم الرسول على بداوتهم ، وفيهم خشونة البدو وغلظتهم . . شأنهم في ذلك كأرضهم في غلظتها ووعورة طبيعتها ، ولهذا كانت الغلظة والخشونة طابعهم في التعامل مع الدين الجديد الذي جاء ليهدم ما توارثوه من عقائد الجاهلية ومفاهيمها .. وبلغت عداوتهم للرسول على مداها ، فحاربوه بكل ما أوتوا من قوة ، وبذلوا في إيذائه أقصى جهدهم .. حتى أعز الله دينه ، ونصر رسوله ، وكان الفتح العظيم لمكة ، آخر حصون الشرك في جزيرة العرب .

فلما جا ، نصر الله والفتح ، وأصبحت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وفتح الله مكة لرسوله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .. قام رسول الله على باب الكعبة مخاطباً قومه ، وكان مما قاله : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مّن ذَكَرَ وَأَنْتَنَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكُرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللّهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ (٢) .

ثم قال : « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم » ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم :

قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وهكذا كان الرسول الله كريماً في عفوه ، كما كان عظيماً في حلمه ، وما ترك صلى الله عليه وسلم الحلم لحظة واحدة في حياته كلها ، رغم الخشونة والغلظة التي كانت لا تزال باقية في كثير من أهل الجزيرة بعد إسلامهم .

⁽۱) التوبة: ۸۲ (۲) الحجرات: ۱۳

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله على وعليه بُرد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى ، فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله على قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مُر لى من مال الله الذى عندك (!!) فالتقت إليه رسول الله على وضحك ، ثم أمر له بعطاء (!) .

ولهذا كانت الحاجة شديدة إلى نزول الوحى من السماء ، كى يرشد المؤمنين إلى الأسلوب الذي يتفق مع تعظيمه إلى الأسلوب الذي يتفق مع تعظيمه وتوقيره . فنزلت الآيات من سورة البقرة ، والنور ، والأحزاب ، والحجرات ، والمجادلة ، وغيرها .. لتحث المؤمنين على الآداب التي يجب اتباعها مع رسول الله ﷺ .

* * *

• حوليات الإسلام في المدينة :

وفى المدينة أكمل الله تعالى دينه ، وأتم على المؤمنين نعمته ، وأرسى دعائم الإسلام .

فما كاد رسول الله على يدخل المدينة من ثنية الوداع ، من شماليها ، وذلك في يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول من العام الأول الهجرى (. ٢ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) - بعد أربعة أيام قضاها في قرية قباء المجاورة - حتى بني مسجدها وهو أول مسجد أسس على التقوى في الإسلام .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم في ضيافة أبى أيوب خالد الأنصارى - حيث بركت ناقته القصواء أمام داره ، وآخى عليه السلام بين كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء دم ونسب تمكيناً للوحدة بين المسلمين الأول .

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

ثم وضع أول لبنة فى مسجد المدينة (الحرم النبوى) وعمل فيه بيديه ، وشارك فى بناءه المهاجرون والأنصار ، وكان فناء مفتوحاً تحيط به جدران من لبن ، فى جانب منه عريش مسقوف بسعف النخل ، وفى جانب حجرات عاطلات هى سكنى أهل بيت رسول الله على ، وفيها بنى عليه السلام بأم المؤمنين عائشة .

وأجاز رسول الله ﷺ الأذان للصلاة ، وكان بلال بن رباح رضى الله عنه أول مؤذن في الإسلام .

يقول ابن هشام: « فلما اطمأن رسول الله على بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفُرِضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفُرِض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله على حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة ، فَهَمّ رسول الله على حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنُحِت ليضرب به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك ، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، أخو بلحارث بن الخزرج ، النداء ، فأتى رسول الله عليه فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوسا في يده ، فقلت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، على الفلاح ، على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

فلما أخبر بها رسول الله علله ، قال : « إنها لرؤيا حق ، إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك » .

فلما أذّ نبها بلال سمعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو فى بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيتُ مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ : « فلله الحمد على ذلك » .

وعن عطاء قال: سمعت عبيد الله بن عمر الليثى يقول: ائتمر النبى المواصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس، إذ رأى عمر بن الخطاب في المنام: لا تجعلوا الناقوس، بل أذّنوا للصلاة. فذهب عمر إلى النبي الله ليخبره بالذي رأى، وقد جاء النبي الله الرحى بذلك، فما راع عمر إلا بلال يؤذّن، فقال رسول الله على حين أخبره بذلك: «قد سبقك بذلك الوحى».

وعن عروة بن الزبير عن امرأة من بنى النجار ، قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذّن عليه الفجر كل غداة ، فيأتى بسَحر ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك . قالت : والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة » (١).

وفى السنة الأولى للهجرة - وهى الرابعة عشر من النبوة - زيدت صلاة الخضر ركعتين ، فصارت أربع ركعات .

*

وفى صلاة الظهر يوم السابع عشر من شعبان من السنة الثانية للهجرة ، أوحى الله تعالى إلى نبيه تلله بصرف القبلة إلى الكعبة .

⁽١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٣٢٢

وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة استقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، قبلة اليهود . وكان يحب أن يصرفه الله إلى الكعبة ، وقال لجبريل عليه السلام ذلك، حتى أنزل الله عليه : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجِهِكَ فِي السَّمَاء ، فَلَنُولِّينَكَ قَبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلَّ وَجُهَكَ شَطْرَ المُسْجِدِ الْحَرَامَ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجَوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الكَتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ من رَبِّهمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمًّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكتَابَ بِكُلِّ آيَة مًّا تَبعُوا ۚ قَبْلَتَكَ ، وَمَا أَنتَ بتَابِعِ قَبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُم بتَابِعِ قَبْلَةً بَعْضَ ، وَلَتَن اتَّبَعْتَ أُهْوا ءَهُم مِّن بَعْدُ مَا جَاءَكَ مَن العلم إنَّكَ إَذَا لَّمَنَ الظَّالمَينَ * الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتَابَ يَعْرَفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتِمُونَ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبُّكَ ، فَلا تَكُونَن من الْمُمْتَرِينَ * وَلَكُلِّ وَجْهَةً هُوَ مُوَليِّهَا ، فَاسْتَبِقُواْ الخَّيْرَاتَ ، أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْت بَكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَديرٌ * وَمَنْ حَيثُ خَرَجْتَ فَوَلَّ وَجُهَكَ شَطْرَ المَسْجِد الحَرَام ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مَن رَّبُّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافل عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمَنْ خَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَئلًّا يَكُونَ للنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً إِلَّا الَّذَينَ ظَلَمُوا مُنْهُم فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلاَٰتُمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١١) .

وكان في ذلك حكمة عظيمة ، ومحنة للناس ، مسلمهم وكافرهم .

فأما المسلمون فقالوا : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (٢) ، وهم الذين هدى الله . ولم تكن بكبيرة عليهم .

وأما المشركون فقالوا : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قَبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ ؟ (٣) .

⁽١) البقرة : ١٤٤ - . ٥١ (٢) آل عمران : ٧

وأما المنافقون فقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقاً ، فقد تركها . وإن كانت الثانية هي الحق ، فقد كان على باطل .

ويرد الله تعالى على المشركين بقوله : ﴿ قُلُ لَلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمُغْرِبُ ، يَهُدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِراط مُستَقيم ﴾ (١) .

ويرد على المنافقين بقولد: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القَبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَبْعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقبَيْهُ ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى اللَّهُ يَالَنُاسِ لَرَّءُونَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرَّءُونَ لَكَبِيرَ هَدَى اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرَّءُونَ لَكَبِيرَ هَدَى اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرَّءُونَ رُحِيمٌ ﴾ (٢) .

ولما كان ذلك عظيماً وطأ الله سبحانه قبله أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه سبحانه يأتى بخير من المنسوخ أو مثله . ثم عقب ذلك بالمعاتبة لمن تعنت على رسوله ولم يَنْقَدْ له ، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شئ ، ثم ذكر شركهم بقولهم : اتخذ الله ولدا (٢) .

ثم أخبر أن المشرق والمغرب لله ، فأينما ولى عباده وجوههم فثم وجهه . وأخبر رسوله أن أهل الكتاب لا يرضون عنه حتى يتبع قبلتهم .

ثم ذكر خليله إبراهيم وبناءه البيت بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما السلام ، وأنه جعل إبراهيم إماماً للناس ، وأنه لا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه .

⁽۱) البقرة : ۱٤٣

⁽٣) يضاهئون قول الذين كفروا من البوذيين والبراهمة وقدماء المصريين وغيرهم من كل مشرك كان شركه على أساس : أن الله اتخذ ولدا .

ولم يكونوا يقولون إنها كولادة البّشر ، بل يقولون : إن معبودهم ومقدسهم ووليهم من بنى الإنسان : هو النور الأول الذى فاض وانبثق من الله ، فأخذ كل صفات وخصائص الله . وهذه هى عقيدة كل مشرك ، وإن لم يصرح بها بلسانه .

واقرأ سورة الأنعام وغيرها من السور المكية تفهم ذلك .

ثم أمر عباده أن يأتموا به ، وأن يؤمنوا بما أنزل إلى رسوله محمد ، وأن يؤمنوا بما أنزل إليهم وإلى سائر النبيين .

وأخبر أن الله - الذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم - هو الذى هداهم إلى هذه القبلة التى هى أوسط القبل ، وهم أوسط الأمم ، كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب .

وأخبر أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حُجَّة ، إلا الظالمين ، فإنهم يحتجون عليهم بتلك الحجج الباطلة الواهنة التي لا ينبغي أن تُعارَض الرسل بأمثالها ، وليتم نعمته عليهم ويهديهم .

ثم ذكر نعمته عليهم بإرسال الرسول الخاتم ، وإنزال الكتاب . وأمرهم بذكره وشكره ورغبهم في ذلك بأنه يذكر من ذكره ، ويشكر من شكره .

وأمرهم بما لا يتم ذلك إلا به ، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة ، وأخبرهم أنه مع الصابرين (١) .

وفى شهر شعبان من هذه السنة - الثانية - فُرض على المسلمين صوم شهر رمضان لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتبَ عَلَيْكُمُ الصَّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَيْكُمُ الصَّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَقُونَ ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهُ لَلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وفي الشهر نفسه فُرِضت زكاة المالَ قبل العيد بيومين .

وفي السنة الثالثة للهجرة نزلت الآبات القاطعة بتحريم الخمر.

وفى السنة الرابعة نزلت الرُخصة في التيمم ، وفيها صلى الرسول الله صلاة الخوف في يوم ذات الرقاع .

⁽١) مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١٠٤

⁽٢) البقرة: ١٨٧ - ١٨٧

وفى السنة الخامسة للهجرة - على الأرجح - فُرِضت شريعة الحج لمن استطاع اليه سبيلاً ، وفيها نزلت الآيات الخاصة بآداب النساء فى الحج والزينة ، وفيها نزل التشريع المنظم للتبنى والتشريع المنظم لحد القذف - أى قذف المحصنات بالزنا .

وفى السنة السابعة للهجرة ، نهى رسول الله عن زواج المتعة وكان حلاً وشائعاً في الجاهلية .

وفى السنة التاسعة فُرِضت الصدقات ، وحُرِّم على المشركين الحج ، كما حُرِّم الطواف على العراة .

وفى يوم السبت الخامس والعشرين من ذى القعدة ، خرج الرسول الله قاصداً أداء فريضة الحج لآخر مرة ، وفى التاسع من ذى الحجة وقف على بطاح عرفات يخطب مائة ألف ممن آمنوا برسالته ، فأجمل فى خطبته – خطبة الوداع – ركائز الإسلام من عبادات ومعاملات . وكان إذا انتهى من فقرة رفع رأسه قائلاً : « ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

ونزل فى هذه الحجة الآية من سورة المائدة : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينَكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمُ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمُ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ فَلَا تَخْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً ﴾ (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم قد استهل خطبة الوداع بقوله: « أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا » .

* *

⁽١) المائدة : ٣

• غزوات الرسول 🎳 .

وعكف الرسول على المدينة على تأسيس الدولة الإسلامية وإقامة دعائمها ، كما عكف على تجييش الجيوش وإرسال الوفود لنشر الإسلام فيما وراء الجزيرة العربية ، ولم تثنه مؤامرات اليهود أو فتن المنافقين عن رسالته التى بعثه الله بها .

عن جابر رضى الله عنه قال: غزا رسول الله الله الله إحدى وعشرين غزوة بنفسه، شهدت منها تسع عشرة غزوة وغبت عن اثنتين .

وعن ابن إسحاق أنها ست وعشرون غزوة .

وكانت سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه فيما بين أن قدم المدينة إلى أن قبضه الله تعالى : خمسة وثلاثين بين بعث وسرية .

كما كانت أول غزوة غزاها صلى الله عليه وسلم هى غزوة « ودان » - وهى الأبواء - فى شهر صفر من السنة الثانية ، ولم يلق فيها حرباً .. وكانت آخر غزوة غزاها حتى قبضه الله تعالى « تبوك » فى رجب من السنة التاسعة .

ففى السنة الثانية : كانت غزوة الأبواء ، ثم بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى ، ثم غزوة بنى سليم .

وفى السنة الثالثة : كانت غزوة الفرع ، ثم غزوة أحد .

وفى السنة الرابعة : كانت غزوة الرجيع ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة السويق (بدر الآخرة) .

وفى السنة الخامسة : كانت غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الحندق (الأحزاب) ، ثم غزوة بنى قريظة .

وفى السنة السادسة : كانت غزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق ، ثم غزوة الحديبية .

وفي السنة السابعة : كانت غزوة خيبر .

وفى السنة الثامنة : كانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة ذات السلاسل ، ثم فتح مكة ، ثم غزوة هوازن (حنين) ، ثم غزوة أوطاس ، ثم غزوة الطائف .

وفي السنة التاسعة : كانت غزوة تبوك .

وأشهر هذه الغزوات: غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق (الأحزاب) ، وغزوة الفتح ، ثم غزوة تبوك ، لذا نتحدث عن كل منها بشئ من التفصيل .

* *

غزوة بدر الكبرى :

أما غزوة بدر الكبرى ، فقد وقعت فى رمضان من السنة الثانية للهجرة . حين بلغ رسول الله على خبر العير المقبلة من الشام مع أبى سفيان بن حرب ، فيها أموال قريش ، فندب رسول الله على للخروج إليها ، فخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضع عشرة رجلاً ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود .

وكان معهم سبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

فلما كان بالروحاء: رد أبا لبابة ، واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، والراية إلى على ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما قرب من الصقراء : بعث بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء يتحسسان أخبار العير .

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله على . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وبعثه حثيثاً إلى مكة ، مستصرخاً قريشاً بالنفير إلى عيرهم ، فنهضوا مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه رجلاً بجعل ، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم من بطون قريش إلا بنى عدى

فلم يشهدها منهم أحد وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى : ﴿ بَطَراً وَرَبّاءَ النَّاسِ وَيَصدُونَ عَن سَبِيلِ اللّه ﴾ (١) ، فجمعهم على غير ميعاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَواعَدُتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ في الميعَاد ﴾ (٢) .

ولما بلغ رسول الله على خروج قريش ، استشار أصحابه ، فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانيا ، فتكلم المهاجرون ، ثم ثالثا فعلمت الأنصار أن رسول الله عنه : كأنك تُعرَّض رسول الله عنه : كأنك تُعرَّض بنا يا رسول الله ؟ - وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من ديارهم - وكأنك تخشى أن تكون الأنصار ثرى عليهم أن لا ينصروك إلا في ديارهم ؟ وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فامض بنا حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا منها ما شئت، وما أخذت منها كان أحب إلينا مما تركت ، فوالله لئن سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

وقال المقداد بن الأسود : إذن لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذْهَبُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْكَ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْكَ اللَّهُ وَعَن شَمَالِكُ .

فأشرق وجه رسول الله على بما سمع منهم ، وقال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدنى اجدى الطائفتين ، وإنى قد رأيتُ مصارع القوم » .

وكره بعض الصحابة لقاء النفير ، وقالوا : لم نستعد لهم ، فهو قوله تعالى :
﴿ كَمَا أُخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *
يُجَادلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيْنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المُوْتَ وَهُمْ يَنظُرُونَ *
وَإِذْ يَعدكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أُنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ

 ⁽١) الأنفال : ٤٧ - بلفظ : فاذهب .

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحقُّ الحَقُّ بِكَلَمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقُّ الحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقُّ الْحَقُّ الْحَقُّ الْخَرِمُونَ ﴾ (١).

وسار رسول الله على إلى بدر . وخفض أبو سفيان فلحق بد حلى البحر ، وكتب إلى قريش : أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم فأتاهم الخبر فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها ، نطعم من حضر ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القبان ، وتسمع بنا الرب فلا تزال تهابنا أبداً وتخافنا .

فأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع ، فلم يفعلوا ، فرجع هو وبنو زهرة ، فلم يزل الأخنس في بني زهرة مطاعاً بعدها .

وأراد بنو هاشم الرجوع ، فقال أبو جهل : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع . فساروا ، إلا طالب بن أبي طالب فرجع .

وسار رسول الله على حتى نزل على ماء أدنى مياه بدر ، فقال الحباب بن المنذر : إن رأيت أن نسير إلى قُلْبٍ - قد عرفناها - كثيرة الماء عذبة ، فتنزل عليها ، ونغور ما سواها من المياه ؟

وأنزل الله تعالى في تلك الليلة مطراً واجداً ، وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ، وربط على قلوبهم .

ومشى رسول الله الله الله الله على موضع المعركة ، وجعل يشير بيده ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته صلى الله عليه وسلم (٢) .

فلما طلع المشركون قال رسول الله ﷺ: « اللَّهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحادُك ، وتكذَّب رسولك . اللَّهم فنصرك الذي وعدتني . اللَّهم أُحنهم الغداة » .

 ⁽١) الأنفال: ٥ - ٨
 (٢) وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وقام صلى الله عليه وسلم ورفع يديه ، واستنصر ربه ، وبالغ فى التضرع ورفع يديه حتى سقط رداؤه ، وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد فى الأرض بعد ً » .

فالتزمه أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وقال : حَسْبُك مناشدتك ربك ، يا رسول الله أبشر ، فوالذي نفسى بيده لينجزن الله لك ما وعدك .

واستنصر المسلمون الله واستغاثوه ، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة : ﴿ أَنَّى مَعَكُمْ فَشَبَّتُوا اللَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلُقى في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (١) ، وأوحى الله إلى رسوله : ﴿ أَنَّى مُمَدُّكُم بِأَلْف مِنْ المَلائكَة مُرد فين ﴾ (١) - بكسر الدال وفتحها - قيل : إردافا لكم ، وقيل : يردف بعضهم بعضاً ، لم يجيئوا دفعة واحدة .

فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها . وقلل الله المسلمين في أعينهم ، حتى قال أبو جهل - لما أشار عتبة بن ربيعة بالرجوع خوفاً على قريش من التفرق والقطيعة ، إذا قتلوا أقاربهم - إن ذلك ليس به ، ولكنه - يعنى عتبة - عرف أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه .

وقلل الله المشركين أيضاً في أعين المسلمين ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وأمر أبو جهل عامر بن الحضرمى - أخا عمرو بن الحضرمى - أن يطلب دم أخيد ، فصاح وكشف عن إسته يصرخ : واعمراه ، واعمراه . فحمى القوم ونشبت الحرب .

وعدًل رسول الله ﷺ الصفوف ، ثم انصرف وغفا غفوة ، وأخذ المسلمين النعاس ، وأبو بكر الصديّق رضى الله عنه مع رسول الله ﷺ يحرسه ، وعنده

⁽۱) الأنفال : ۲) الأنفال : ۹

سعد بن معاذ وجماعة من الأنصار على باب العريش ، فخرج رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿ سَيُهُزَّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) .

ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين ، فتناولوهم قتلاً وأسراً ، فقتلوا سبعين وأسروا سبعين .

وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة : يطلبون المبارزة ، فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد من بنى عمنا . فبرز إليهم حمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعلى بن أبى طالب .

فقتل على قرنه الوليد ، وقتل حمزة قرنه شيبة ، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه . فكر حمزة وعلى على قرن عبيدة فقتلاه ، واحتملا عبيدة ، قد قطعت رجله . فقال : لو كان أبو طالب حياً لعلم أنًا أولى منه بقوله :

وَنُسْلِمه حتى نُصَرُّع حوله وَنُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل

ومات بالصفراء . وفيهم نزلت : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا فَطُعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْق رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (٢) فكان على رضى الله عند يقول : « أنا أول مَن يجثو للخصومة بين يدى الله عَزُ وجَلُ يوم القيامة » .

ولما عزمت قريش على الخروج ، وذكروا ما بينهم وبين بنى كنانة من الحرب ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سُراقة بن مالك فقال : ﴿ لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ ﴾ (٣) ، فلما تعبأوا للقتال ، ورأى الملائكة ، فَرُّ

(١) التمر: ٤٥ (٢) الحج: ١٩ (٣) الأنفال: ٨٤

ونكص على عقبيه فقالوا: إلى أين يا سراقة ! فقال : ﴿ إِنِّي أُرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَديدُ العقاب ﴾ (١) .

وظن المنافقون ومَن في قلبه مرض: أن الغلبة بالكثرة فقالوا: ﴿ غُرُّ هَوُّلاَ ءِ دينُهُمْ ﴾ (٢) ، فأخبر الله سبحانه: أن النصر إنما هو بالتوكل على الله وحده.

ولما دنا العدو ، قام رسول الله على ، فوعظ الناس ، وذكرهم بما لهم فى الصبر والثبات من النصر ، وأن الله قد أوجب الجنة لمن يستشهد فى سبيله ، فأخرج عمير بن الحمام بن الجموح تمرات من قرنه يأكلهن . ثم قال : « لئن حييتُ حتى أكل تمراتى هذه ، إنها لحياة طويلة » ، فرمى بهن ، وقاتل حتى قُتل فكان أول قتيل .

وأخذ رسول الله على مل عنه تراباً ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينه ، فهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٣) .

واستفتح أبو جهل فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وأأتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة .

ولما وضع المسلمون أيديهم على العدو - يقتلون ويأسرون - وسعد بن معاذ واقف عند رسول الله تلك في رجال من الأنصار في العريش - رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه سعد الكراهية ، فقال : « كأنك تكره ما يصنع الناس » ؟ قال : أجل ، والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله في المشركين ، وكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال .

ولما بردت الحرب ، وانهزم العدو ، قال رسول الله ﷺ : « مَن ينظر لنا ما صنع أبو جهل » ؟ فانطلق ابن مسعود ، فوجده قد ضريه مُعَوَّذ وعوف -

(١) الأنفال: ٨٤ (٢) الأنفال: ٨١ (٣) الأنفال: ٧٧

ابنا عفرا : - حتى برد ، فأخذ بلحيته فقال : أنت أبو جهل ؟ فقال : لن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله . ثم قال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وهل فوق رجل قتله قومه ؟ فأخذ رأسه عبد الله بن مسعود ، ثم أتى النبى شخ فقال: قتلته ، فقال : « آلله الذي لا إله إلا هو » ؟ - ثلاثاً - ثم قال : « الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . انطلق فأرنيه » ، فانطلقنا فأريته إياه ، فلما وقف عليه قال : « هذا فرعون هذه الأمة » .

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه علياً ، فأبصره بلال – وكان يعذبه بمكة – فقال : رأس الكفر أمية ؟ لا نجوت إن نجا . ثم استحمى جماعة من الأنصار ، واشتد عبد الرحمن بهما يحجزهما منهم ، فأدركوهم ، فشغلهم عن أمية بابنه على ففرغوا منه ، ثم لحقوهما فقال له عبد الرحمن : ابرك ، فبرك ، وألقى عليه عبد الرحمن بنفسه ، فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب يعض السيوف رجل عبد الرحمن .

وكان أمية قد قال له قبل ذلك : من المعلّم في صدره بريش النعام ؟ فقال له: ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن ، فأعطاه النبى على جَذْلاً من حطب ، فلما أخذه وهزّه : عاد في يده سيفاً طويلاً ، فلم يزل يقاتل به حتى تُتِل يوم الردّة .

ولما انقضت الحرب ، أقبل النبى الله محتى وقف على القتلى ، فقال : « بئس عشيرة النبى كنتم ، كذّبتمونى وصدّقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس » .

ثم أمر بهم فسُحبوا حتى ألقوا فى القليب - قليب بدر - ثم وقف عليهم ، فقال : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا فلان : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً » .

فقال عمر : يا رسول الله ؛ ما تخاطب من أقوام قد جَيِّفوا ؟ فقال : « ما أنت بأسمع لما أقول منهم » .

ثم ارتحل مؤيّداً منصوراً ، قرير العين ، معه الأسرى والمغانم .

فلما كان بالصفراء ، قسم الفنائم ، وضرب عنق النضر بن الحارث .

ثم لما نزل بعرق الظبية : ضرب عنق عقبة بن أبى مُعَيْط .

ثم دخل المدينة مؤيّداً منصوراً ، قد خافه كل عدو له بالمدينة .

فأسلم بَشَر كثير من أهل المدينة ، ودخل عبد الله بن أبَىّ – رأس المنافقين – وأصحابه الإسلام .

وكان جملة من حصر بدراً: ثلاثمائة ويضع عشرة رجلاً، واستشهد منهبم أربعة عشر رجلاً.

قال ابن إسحاق : كان أناس قد أسلموا ، فلما هاجر رسول الله على حبسهم أهلهم بمكة ، وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ اللَّلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسهمْ قَالُوا فيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنًا مُسْتَضْعَفَينَ في الأرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّه واسعَةً فَالُوا فيها ، فَأُولَئكَ مَأَواهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مصيراً ﴾ (١) .

*

• غزوة أحد :

وأما غزوة أحد فقد وقعت في شوال من السنة الثالثة للهجرة . وذلك أن الله تبارك وتعالى لما أوقع بقريش يوم بدر ، وترأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، أخذ يؤلب على رسول الله على المسلمين ، ويجمع الجموع ، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش ، والحلفاء والأحابيش ، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد .

⁽١) النساء: ٩٧ ، وانظر: مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١١٠ وما بعدها (بتصرف) .

فاستشار رسول الله الصحابة في الخروج إليهم ، وكان رأية أن لا يخرجوا ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك ، والنساء من فوق البيوت ، ووافقة عبد الله بن أبي – رأس المنافقين – على هذا الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة – ممن فاته بدر – وأشاروا على رسول الله الله بالخروج ، وألحوا عليه ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج عليهم فقالوا : استكرهنا رسول الله على الخروج ، ثم قالوا : إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل ، فقال : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

فخرج في ألف من الصحابة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

فلما كان بالشوط - بين المدينة وأحد - انخذل عبد الله بن أبّى بنحو ثلث العسكر ، وقال : عصانى وسمع من غيرى ، ما ندرى : علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس . فرجع وتبعهم عبد الله بن عمرو - والد جابر - يحرضهم على الرجوع ويقول : « قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا » ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبّهم .

وسأل نفر من الأنصار رسول الله ﷺ : أن يستعينوا بحلفاتهم من يهود ، فأبى وقال : « مَن يخرج بنا على القوم من كَثَب » ؟

فخرج به بعض الأنصار ، حتى سلك في حائط لمربع بن قيظى من المنافقين - وكان أعمى - فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول : لا أحلُّ لك أن

تدخل في حائطي ، إن كنت رسول الله . فابتدروه ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقتلوه ، فهذا أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ حتى نزل الشعب من أحد ، في عُدُّوة الوادى الدنيا ، وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال ، وهو في سبعمائة ، منهم خمسون فارساً ، واستعمل على الرماة - وكانوا خمسين - عبد الله بن جبير . وأمرهم أن لا يفارقوا مركزهم ، ولو رأوا الطير تختطف العسكر . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل ، لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

وظاهَرَ رسول اللَّه ﷺ بين درعين .

وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين : الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى : المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ ، فرد من استصغر عن القتال - كابن عمر ، وأسامة بن زيد ، والبراء ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، وعرابة الأوسى - وأجاز من رآه مطبقاً .

وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم : خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة : عكرمة بن أبي جهل .

ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبي دُجانة .

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر – عبد عمرو بن صيفى – الفاسق ، وكان يسمى الراهب ، وهو رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شَرَق به وجاهر بالعداوة ، فذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله على ووعدهم : بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، فلما ناداهم وتعرّف إليهم قالوا : لا أنعم الله بك علينا يا فاسق ، فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتل المسلمين قتالاً شديداً ، ثم أرضخهم بالحجارة .

وأبليٰ يومئذ أبو دُجانة ، وطلحة ، وحمزة ، وعلى ، والنضر بن أنس ، وسعد ابن الربيع بلاءً حسناً .

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين ، فانهزم أعداء الله ، وولُّوا مدبرين ، حتى انتهوا إلى نسائهم .

فلما رأى ذلك الرماة قالوا: الغنيمة ، الغنيمة . فذكرهم أميرهم عهد رسول الله على ، فلم يسمعوا . فأخلوا الثغر ، وكر فرسان المشركين عليه ، فوجدوه خالياً ، فجاءوا منه . وأقبل آخرهم حتى أحاطوا بالمسلمين ، فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة – وهم سبعون – وولّى الصحابة .

وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ، فجرحوه جراحات ، وكسروا رباعيته ، وقتل مصعب بن عمير بين يديه ، فدفع اللواء إلى على بن أبى طالب .

وأدركه المشركون يريدون قتله ، فحال دونه نحو عشرة حتى قُتلوا ، ثم جلدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه ، وترس أبو دُجانة عليه بظهره ، والنّبل يقع فيه وهو لا يتحرك .

وأصيبت يومنذ عين قتادة بن النعمان ، فأتى بها رسول الله على فردها بيده ، فكانت أحسن عينيه .

وصرخ الشيطان : إن محمداً قد قُتل ، فوقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين ، فمر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم ، فقالوا : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ، ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد ، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل حتى قُتل ، ووُجد به سبعون جراحة .

وقتلَ وَحْشِيٌّ الحبشى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، رماه بحربة على طريقة الحبشة .

وأقبل رسول الله على نحو المسلمين . فكان أول من عرفه تحت المغفر : كعب ابن مالك ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ هذا رسول الله ، فأشار إليه : أن اسكت ، فاجتمع إليه المسلمون ، ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه .

فلما أسندوا إلى الجبل أدركه أبنى بن خلف على فرس له ، كان يزعم بمكة : أنه يقتل عليه رسول الله على في ترقوته في ترقوته فكر منهزما ، فقال له المشركون : ما بك من بأس ، فقال : والله لو كان ما بى بأهل ذى المجاز لما توا أجمعين . فمات بسرف .

وحانت الصلاة ، فصلى بهم رسول الله ﷺ جالساً .

وشد حنظلة بن أبى عامر على أبى سفيان ، فلما تمكن منه حمل عليه شداد بن الأسود فقتله ، وكان حنظلة جُنباً ، فإنه حين سمع الصيحة - وهو فى فراش زوجه - قام من فوره إلى الجهاد ، فأخبر رسول الله على الله الملائكة تغسله .

وكان الأصيرم - عمرو بن ثابت بن وَقَش - يأبى الإسلام ، وهو من بنى عبد الأشهل ، فلما كان يوم أحد : قذف الله الإسلام فى قلبه ، للحسنى التى سبقت له ، فأسلم وأخذ سيفه ، فقاتل حتى أثبتته الجراح ، ولم يعلم أحد بأمره . فلما طاف بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم ، وجدوا الأصيرم - وبه رمق يسير - فقالوا : والله إن هذا الأصيرم ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ؟ أحدَب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ، ومات من وقته . فذكروه لرسول الله على فقال : « هو ما أهل الجنة » ، ولم يصل لله سجدة قط .

ولما انقضت الحرب ؛ أشرف أبو سفيان على الجبل ، ونادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر ابن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . فقال : أما هؤلاء ، فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله ؛ إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك منهم ما يسو عك .

قال أبو سفيان : اعل هُبَل . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجبيوه » ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجّل » .

قال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم . قال : « ألا تجيبوه » ؟ قالوا : ما نقول : قال : « قُولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

وأنزل الله عليهم النعاس في بدر وفي أحد ، والنعاس في الحرب : من الله ، وفي الصلاة ومجالس الذكر : من الشيطان .

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله على ، ففى الصحيحين عن سعد قال : « رأيتُ رسول الله يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد » .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار - وهو يتشحط في دمه - فقال : يا فلان ، أشعرت أن محمداً تُتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان قد تُتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْله الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلَبُ عَلَى عَقَبَيْه فَلن يَضُرُّ اللَّه شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكرينَ ﴾ (١) .

وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله عَزُّ وجَلُّ به المؤمنين ، وأظهر به المنافقين ، وأكرم فيه مَن أراد كرامته بالشهادة . فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد : إحدى وستون آية من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبُوّيً المُؤْمنينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ . . . إلى قوله جَلُّ شأنه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

ولما انصرفت قریش تلاوموا فیما بینهم وقالوا : لم تصنعوا شیئاً ، أصبتم شُوكتهم ثم تركتموهم ، وقد بقی منهم رؤوس یجمعون لكم ، فارجعوا حتی نستأصل بقیتهم .

(١) آل عمران : ١٤٤

(٢) آل عنموان : ١٢١ - ١٨٠

قبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادى فى الناس بالمسير إليهم وقال : « لا يخرج معنا إلا مَن شهد القتال » ، فقال له ابن أبَىّ : أركب معك ؟ قال : « لا » .

فاستجاب له المسلمون - على ما بهم من القُرْح الشديد - وقالوا : سمعاً وطاعة .

وقال جابر : يا رسول الله ؛ إنى أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنتُ معك ، وإنما خلّفني أبى على بناته ، فائذُن لى أسير معك ، فأذَن له .

*

• غزوة الخندق:

وكانت غزوة الخندق (الأحزاب) فى شوال من السنة الخامسة ، وسببها : أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين يوم أحد ، خرج أشرافهم - كسلام بن أبى الحُقيق - وغيره إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو رسول الله على ووعدهم من أنفسهم النصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان ، فاستجابوا لهم ، ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب .

⁽١) آل عمران : ١٧٣ ، وانظر المرجع السابق ص ١١٨ وما بعدها .

فخرجت قريش - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف ، ووافقهم بنو سليم بَر الظهران ، وبنو أسد ، وقزارة ، وأشجع وغيرهم . وكان مَنْ وافى الخندق من المشركين : عشرة آلاف .

فلما سمع رسول الله على بسيرهم إليه ، استشار أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة ، فأمر رسول الله على فبادر إليه المسلمون ، وعمل فيه بنفسه ، وكان فى حفره من آيات نبوته ما قد تواتر الخبر به وما سوف نتعرض له عند الحديث عن معجزاته صلى الله عليه وسلم بإذن الله .

وخرج صلى الله عليه وسلم ، وهم يحفرون في غداة باردة ، فلما رأى ما بهم من الشدة والجوع قال :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفس للأنصسار ، والمهاجرة فقالوا مجيبان له :

وانطلق حُيى بن أخطب إلى بنى قريظة ، فدنا من حصنهم ، فأبَى كَعْبُ بن أسد أن يفتح له ، فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل الحصن قال : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش وغطفان وأسد ، على قادتها لحرب محمد ، قال : بل جئتنى والله بذل الدهر ، جئتنى بجهام قد أراق ماءه ، فهو يُرْعَد ويبرق ، ليس فيه شئ .

فلم يزل حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله الله الله على مع المشركين ، وسُرٌ بذلك المشركون ، وشرط كعب على حُينى : أنهم إن لم يظفروا بمحمد أن يجئ حتى يدخل معهم فى حصنهم ، فيصيبه ما يصيبهم ، فشرط ذلك ووفى له .

ويلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فبعث إليهم السعدين - سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة - وخوات بن جبير ، وعبد الله بن رواحة ليتعرفوا الخبر .

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروا بالسب ، ونالوا من رسول الله ﷺ لحناً ، فعظم ذلك على المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين » .

واشتد البلاء ، ونجم النفاق ، واستأذن بعض بنى حارثة رسول الله ﷺ فى الذهاب إلى المدينة ، وقالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُريدُونَ إِلَّا فَرَاراً ﴾ (١) .

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً .

ولم يكن بينهم قتال ، لأجل الخندق ، إلا أن فوارس من قريش - منهم عمرو ابن عبد وُدً - أقبلوا نحو الخندق ، فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضبقاً منه ، وجالت بهم خيلهم فى السبخة ، ودعوا إلى البراز ، فانتدب لعمرو : على بن أبى طالب ، فبارزه ، فقتله الله على يدى على ، وكان من أبطال المشركين ، وانهزم أصحابه .

واستشار رسول الله الله السعدين - سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة - فقالا : إن كان الله أمرك ، فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيئاً تحب أن تصنعه صنعناه ، وإن كان شيئاً تصنعه لنا ، فلا . لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة ، إلا قرى أو بيعاً .

⁽١) الأحزاب : ١٣

أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف .

فصوُّب رأيهما وقال : « إنما هو شئ أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن الله عَزُّ وجَلُّ - وله الحمد - صنع أمرأ من عنده خذل به العدو .

فمن ذلك : أن رجلاً من غطفان - يقال له « نعيم بن مسعود » - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « إنما أنت رجل واحد ، فَخَذَّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خَدْعَة » .

فذهب إلى بنى قريظة - وكان عشيراً لهم - فدخل عليهم ، وهم لا يعلمون بإسلامه ، فقال : إنكم قد حاربتم محمداً ، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انْشَمروا . قالوا : فما العمل ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . فقالوا : قد أشرت بالرأى .

ثم مضى إلى قريش فقال : هل تعلمون وُدَّى لكم ونُصحى ؟ قالوا : نعم . قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم ، وإنهم قد أرسلوا إلى محمد : أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يالئونه عليكم ، فإن سألوكم فلا تعطوهم .

ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود : إنَّا لسنا معكم بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فاغدُوا بنا إلى محمد حتى نناجزه ، فأرسلوا اليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيد ، ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم قالوا: قد صدقكم والله نعيم . فبعثوا إليهم : إنَّا والله لا نبعث إليكم أحداً ، فقالت قريظة : قد صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان .

وأرسل الله على المشركين جنداً من الربح ، فجعلت تقوَّض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طُنباً إلا قلعته ، وجنداً من الملائكة يزلزلون بهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ربِحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (١) .

وأرسل رسول الله على حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إليه فأخبره برحيلهم

فلما أصبح رسول الله الصرف عن الخندق ، راجعاً والمسلمون إلى المدينة . فوضعوا السلاح ، فجاءه جبريل وقت الظهر فقال : « أقد وضعتم السلاح ؟ إن الملائكة لم تضع أسلحتها ، انهض إلى هؤلاء - » يعنى بنى قريظة - فنادى رسول الله الله عنه : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة » .

فخرج المسلمون سراعاً ، حتى إذ دنا رسول الله الله على من حصونهم ، قال : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » ؟

وحاصرهم رسول الله على خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار . وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد : إنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً ، خذوا أيها شئتم : نصد ق هذا الرجل ونتبعه ، فإنكم تعلمون أنه النبى الذى تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً .

قال: فاقتلوا أبنا ،كم ونسا ،كم واخرجوا إليه مصلتى سيوفكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. قالوا: فما خير العيش بعد أبنائنا ونسائنا ؟

⁽١) الأحزاب : ٩

قال : فانزلوا الليلة ، فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوكم فيها لأنها ليلة السبت - لعلنا نصيب منهم غرة . قالوا : لا نفسد سبتنا ، وقد علمت ما أصاب من اعتدوا في السبت .

قال : ما بات رجل منكم - منذ ولدته أمه - ليلة من الدهر حازماً .

ثم نزلوا على حكم رسول الله ته ، فحكم فيهم سعد بن معاذ فحكم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء .

وأنزل الله تعالى فى غزوة الخندق صدر سورة الأحزاب ، وذكر قصتهم فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ (١) .

• صلح الحديبية:

خرج رسول الله على السنة السادسة للهجرة - وفي صحبته ألف وأربعمائة من المسلمين يبغى العُمرة ، لهذا وضع المعتمرون السيوف في قرابها توكيداً لعنى المسالمة ، غير أن قريشاً أجمعت على صدهم بل واحتجزت عثمان بن عفان رضى الله عنه وجماعة معه كانوا رسل المسلمين إلى قريش ، عند ذلك بايع المسلمون الرسول على حرب قريش تحت الشجرة بالحدبيبة ، فمن ثم سميت بيعة الرضوان .

بَيْدَ أنه صلى الله عليه وسلم آثر أن يحقق بالمسالمة ما قد يحصل عليه بالقتال فمن ثَمَّ كان صلح الحديبية وهو أول هُدنة بين المسلمين وقريش ، وتضمن أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين .

وكان كاتب الصلح على بن أبي طالب كرّم الله وجهه .

⁽١) الأحزاب : ٩ – ٢٧

وفى مرجعه صلى الله عليه وسلم ، أنزل الله تعالى سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَعَنَّا لَكَ فَتُحالَ عَرَيْنًا * لَيَغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمُ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأْخُرَ وَبُتمَّ نَعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهِدِّيكَ صِرَاطاً مُسْتَقيماً * وَيَنصُركَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ (١) .

فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم. قال الصحابة : هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قَلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيَاناً مَّعَ إِيَانِهِمْ ، وَلله جُنُودُ السَّمَوَاتَ قَلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيَاناً مَّعَ إِيَانِهِمْ ، وَلله جُنُودُ السَّمَوَاتَ وَالأَرْضَ ، وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكيماً * لِيُدْخِلَ المؤمنينَ وَالمؤمنات جَنَّاتَ تَجْرِي مِن تَحْتها الأَنْهَارُ خَالدينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّنَاتِهِمْ ، وكَانَ تَجْرِي مِن تَحْتها الأَنْهَارُ خَالدينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّنَاتِهِمْ ، وكَانَ ذَلكَ عندَ الله فَوْزا عَظيماً ﴾ (٢).

*

• غزوة الفتح:

وفى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة وقعت غزوة الفتح ، وسببها أن بكراً عدت على خزاعة فى مائهم « الورتير » فبيترهم ، وقتلوا منهم . وكان فى صلح الحديبية : « أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله على فعل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش فعل » ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله على .

ثم إن بنى بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له « الوتير » قريباً من مكة ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم بعضهم مستخفياً ليلاً ، حتى لجأت خزاعة إلى الحرم .

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلي - وكان يومئذ قائدهم - : يا نوفل ، إنَّا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة :

⁽١) الفتح : ٤ - ٥

لا إله له اليوم ، يا بنى بكر : أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم . أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على رسول الله الله المدينة يستصرخه ، فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه ، فكان عاله .

يارب إنسى ناشد محمداً حلف أبينا وأبيد الأتلدا قد كُنتمسوا وُلداً وكنا والدا ثُمّت أسلمنا . ولم ننزع يدا فانصر هداك الله نصراً أيّدا وادعُ عبداد الله يأتوا مددا إلى آخر أبياته التى يستصرخ فيها رسول الله عليه ويناشده النصرة . فقال رسول الله عليه : « نُصرتَ يا عمرو بن سالم » .

ثم قدم أبو سفيان ، فدخل على ابنته أم حبيبة رضى الله عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله على طوته عنه ، فقال : يا بنيه ، ما أدرى : أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مشرك نَجُس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله على فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلمه فى أن يكلم النبى الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر ، فقال : أنا أشفع لكم ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ثم دخل على على ، وعنده فاطمة رضى الله عنها - والحسن غلام يدب بين يديها - فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رَحِما ، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجعن خائبا ،

اشفع لى إلى محمد . فقال : قد عزم رسول الله على أمر ، ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فقال لفاطمة رضى الله عنها : هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : ما يبلغ ابنى ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله على (١) .

فقال : يا أبا الحسن ، إنى رأيت الأمور قد اشتدت على ، فانصحني .

قال : وَاللَّهِ مَا أَعَلَمُ شَيْئاً يَعْنَى عَنْك ، وَلَكُنْك سَيْد بَنَّى كَنَانَة ، فَقُمْ وأُجِر بِينَ النَّاس ، ثم الحَقُ بأرضك .

فقال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟

قال : لا ، والله ما أظنه ، ولكن ما أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : يا أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره وانصرف عائداً إلى مكة .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتُ محمداً فكلمته ، فوالله ما ردَّ على شيئاً ، ثم جئتُ ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئتُ عمر ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو (٢) ، ثم جئتُ علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بكذا وكذا ، ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمداً ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك .

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد ، وقال : « اللَّهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها » .

فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً ، يخبرهم فيه بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى سارة - مولاة لبنى عبد المطلب - فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها . وأتى الخبر رسول الله عليه من السماء ، فأرسل

⁽۱) انظر كيف تضاءل أبو سفيان حتى طلب أن يجيره الحسن بن على رضى الله عنهما وهو غلام يدب بين يدى أمد ؟؟

رسول الله على عليا والزبير إلى المرأة ، فأدركاها بروضة خاخ ، فأنكرت . ففتشا رحلها ، فلم يجدا شيئا ، فهدداها ، فأخرجته من قرون رأسها (۱) ، فأتيا به رسول الله على ، فدعا حاطبا فقال : « ما هذا يا حاطب » ؛ ، فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ، ولكنى كنت امراً مُلصَقاً فى قريش ، لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت أن أتخذ عندهم يدا ، قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره .

فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق .

فقال رسول الله ﷺ: « إنه قد شهد بدراً وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلّع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم » . فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله ﷺ ، وعمَّى الله الأخبار عن قريش ، لكنهم على وَجَل ، فكان أبو سفيان يتجسس ، هو وحكيم بن حزام ، وبُدّيل بن ورقاء .

وكان العباس رضى الله عنه قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقى رسول الله على الطهران » نزل عشاءً ، فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقد أكثر من عشرة آلاف نار . فركب العباس بغلة رسول الله على وخرج يلتمس ، لعله يجد بعض الحطابة ، أو أحدا يخبر قريشاً ، ليخرجوا يستأمنون وسول الله على قبل أن يدخلها عنوة .

قال : فوالله إنى لأسير عليها ، إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل ، يتراجعان . يقول أبو سفيان : ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

⁽١) وهذه إحدى معجزات النبي على .

قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حَمَشتها الحرب .

قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها .

فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ، فداك أبى وأمى ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، وأصباحً قريش والله . قال : فما الحيلة !

قلت : والله لنن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجر هذه البغلة ، حتى آتيه بك فأستأمّنه لك .

فركب خلفى ورجع صاحباه ، فجئتُ به ، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين قالوا : مَن هذا ؟ فإذا رأونا قالوا : عَمُّ رسول الله على بغلته . حتى مررتُ بنار عمر فقال : مَن هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان قال : عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد .

فلما أكثر عمر ، قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا . قال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحباً إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ: « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فائتنى بد » .

ففعلت ، ثم غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ فقال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم : أنَّ لا إله إلا الله » ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! واللهِ لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد .

قال: « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم: أنى رسول الله » ؟ قال: بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس حتى الآن منها شئ .

فقال له العباس : ويحك ، أسلم قبل أن يُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

فقال العباس: إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً .

قال : « نعم ، مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله عليه : « يا عباس ، احبِسه بمضيق الوادى عند خَطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها » .

فخرجتُ حتى حبسته ، ومرت القبائل على راياتها ، حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء - لكثرة الحديد وظهوره فيهم - فيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الحَدَق . فقال : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء وطاقة .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مرّ بأبى سفيان قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحلُ الحرمة ، اليوم أذلَ اللّه قريشاً . فذكره أبو سفيان لرسول الله على فقال : « كذب سعد ، ولكن اليوم يوم تُعظُم فيه الكعبة ، اليوم أعزُ الله قريشاً » . ثم نزع اللواء من سعد ودفعه إلى قيس ابنه .

ومضى أبو سفيان ، فلما جاء قريشاً صرخ بأعلى صوته : هذا محمد قد جاءكم بما لا قبّل لكم به ، فمّن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك

الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وسار رسول الله على حتى دخل مكة من أعلاها ، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها ، وقال : « إن عَرَض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافونى على الصفا » .

فما عرض لهم أحد إلا أناموه .

وتجمع سفها عريش مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو بالخَنْدَمة ليقاتلوا ، وكان حماس بن قيس يعد سلاحاً قبل مجئ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له امرأته : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شئ ، فقال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى علَّة هـــذا ســـلاح كامل وإلَّهُ وذو غرارين سريع السلَّة

ثم شهد الخَنْدَمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصيب من المشركين اثنى عشر ، ثم انهزموا فدخل حماس على امرأته فقال : أغلقى على بابى ، فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخَنْدَمة وأبو يزيد قائد كالمؤتمة يقطعون كل ساعد وجمجمة لهدم نَهيتٌ خلفنا وهمهمد

إذ فَـر صفوان . وفر عكرمه واستقبلنا بالسيسوف المسلسه ضـرياً فلا يُسمع إلا عمعمه لم تنطقي باللوم أدنى كلمه

يقول أبو هريرة رضى الله عنه: أقبل رسول الله ، فدخل مكة ، فبعث الزبير على أحد المجنبتين ، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى ، وبعث أبا عبيدة ابن الجراح على الحسر . فأخذوا بطن الوادى ورسول الله على الحسر . فأخذوا بطن الوادى ورسول الله على في كتيبته وقد وبشت قريش أوباشها ، وقالوا : نقدم هؤلاء ، فإذا كان لهم شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطيناه الذى سألنا .

فقال رسول الله على : « يا أبا هريرة » . فقلت : لبيك يا رسول الله . قال : « اهتف لى بالأنصار ، ولا تأتيني إلا أنصاري »

فهتفت بهم فجاءوا ، فأطافوا برسول الله ﷺ فقال : « أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ - ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى - : احصدوهم حصداً ، حتى توافونى على الصفا » .

قال أبو هريرة: فانطلقنا ، فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل، وركزت راية رسول الله علله بالحجون عند مسجد الفتح ، ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه : ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » ، والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف .

فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال : « قاتلهم الله ، والله إن استقسما بها قط » ، وأمر بالصور فمحيت ، ثم أغلق عليه الباب ، هو وأسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ، ينظرون ماذا يصنع بهم ؟ فأخذ بعضادتى الباب ، وهم تحته ، فقال :

« لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ألا كل مأثَرة ، أو مال ، أو دم ، فهو تحت قَدَمَى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .

ألا وقتل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب » .

ثم تلى هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرِ وَأُنشَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ (١) .

ثم قال : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه على - ومفتاح الكعبة فى يده - فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك . فقال صلى الله عليه وسلم : « أين عثمان بن طلحة » ؟ ، فَدُعي له فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بِر ووفاء » .

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة فيؤذن - وأبو سفيان بن حرب ، وعتًاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفنا ، الكعبة - فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيد أن لا يكون سمع هذا . فقال الحارث : أما والله لو أعلم

⁽١) الحجرات : ١٣

أنه محق لاتبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذا الحصباء .

فخرج عليهم النبى ﷺ فقال : « قد علمتُ الذى قلتم » ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك (١) .

ثم دخل صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات ، صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلداً صلوا هذه الصلاة .

ولما استقر الفتح ، أمن رسول الله الله الناس كلهم ، إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة : عبد الله بن أبى سرَح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعبد العزى بن خَطل ، والحارث بن نفيل ، ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، وسارة مولاة لبنى عبد المطلب .

فأما ابن أبى سرح ، فجاء فاراً إلى عثمان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ ، فقبل منه ، بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله .

وأما عكرمة ، فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب ، وعادت به فأسلم وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل ، ومقيس ، والحارث ، وإحدى القينتين : فقتلوا .

وأما هبَّار ، ففر ثم جاء فأسلم وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة ، ولإحدى القينتين ، فأسلمتا .

فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله علله في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فلا يحل

⁽١) وهذه معجزة ثانية للنبي على .

لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر: أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة. فإن أحدٌ ترخُص بقتال رسول الله على فقولوا له: إنّ الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لك ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ».

وهُمُّ فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف . فلما دنا منه قال : « أفضالة » ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا تحدُّث به نفسك » ؟ قال : لا شئ ، كنت أذكر الله ، فضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه (١) .

وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شئ أحب إلى منه. قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث ، فقال: لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث. فقلت: لا يأبسى الإله عليسك والإسلام لو قسد رأيت محمداً وقبيله بالفتسح يسوم تُكَسَّر الأصنام لرأيت ديسن الله أضحسى بيناً والشسرك يغشى وجهه الإظلام وفر يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فاستأمن عمير بن وهب رسول الله لصفوان ، فلحقه وهو يريد أن يركب البحر فرده .

واستأمنت أم حكيم بنت الحارث بن هشام لزوجها عِكرمة ، فلحقت به بالبمن فردته .

ثم أمر رسول الله ع عَتَّاب بن أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم .

وبث صلى الله عليه وسلم سراياه إلى الأوثان التي حول مكة ، فكسرت كلها ، منها : اللَّات ، والعزِّي ، ومناة .

⁽١) وهذه معجزة أخرى للنبي ﷺ.

ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً الاكسره .

وبعث عمرو بن العاص فى شهر رمضان إلى « سواع » - وهو لهذيل - قال : فأتيته وعنده السادن فقال : ما تربد ؟ قلت : أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلت : لم ؟ قال : تُمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟ فدنوتُ منه فكسرته . وأمرتُ أصحابى فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيه شيئاً ، فقلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمتُ لله ..

ثم بعث سعد بن زيد بن مالك الأشهلي الأنصارى ، في شهر رمضان إلى « مناة » ، وكانت عند قُديد بالمشلل ، للأوس والخزرج وغسان وغيرهم .

فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها ، وعندها سادنها فقال : ما تريد ؟ قال : هدمها . قال : أنت وذاك .

فأقبل سعد يمشى إليها ، وتخرج إليه امرأة عربانة سودا ، ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها . فقال لها السادن : مناة ، دونك بعض عُصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً (١) .

*

• غزوة تبوك :

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله تلله ، ووقعت في شهر رجب من السنة التاسعة .

وقد كانت هذه الغزوة في زمان عُسرة من الناس ، وجدب من البلاد ، حين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، وكان صلى الله عليه وسلم

⁽١) انظر : مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص١٤٥ وما بعدها (بتصرف) .

قَلُما يخرج في غزوة إلا ورَّى بغيرها ، إلا ما كان منها ، فإنه جَلاَها للناس لبُعْد الشُّقة ، وشدة الزمان .

فقال ذات يوم - وهو في جهازه - للجدّ بن قيس : « هل لك في جلاد بنى الأصفر » ؟ فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتنّي ؟ فقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى خشيتُ إن رأيتُ نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فقال : « قد أذنتُ لك » ... ففيه نزلت : ﴿ وَمَنْهُم مَّن يَقُولُ اثّذَن لَى وَلا تَفْتِنِي ، ألا فِي الفِتنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطةً بالكافرينَ ﴾ (١).

وقال قوم من المنافقين ، بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر ، فنزل : ﴿ وَقَالُواْ لِا تَنفَرُواْ فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرَاً ، لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

ثم إن رسول الله على حض أهل الغنى على النفقة ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان ثلاثمائة بعير بأحلاسها ، وأقتابها وعدتها ، وألف دينار عَيْناً .

وجاء البكّاءون - وهم سبعة - يستحملون رسول الله على فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما بنفقون .

يقول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى المُرْضَىٰ وَلَا عَلَى المُرْضَىٰ وَلَا عَلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى اللّهُ سُنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَاللّهُ غَفُورٌ رُّحيمٌ * وَلَا عَلَى الّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكَ لَا يَحْمَلُهُمْ قُلَتَ لاَ أُجَدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُواْ وَأَعْيَنُهُمْ تَفييضُ مِنَ الدَّمْعِ لَتَحْمَلَهُمْ قُلْتَ لاَ أُجَدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُواْ وَأَعْيَنُهُمْ تَفييضُ مِنَ الدَّمْعِ مَزَناً أَلّا يَجدُواْ مَا يُنفتُونَ ﴾ (٣) .

وقام عُلبة بن يزيد ، فصلى من الليل وبكى ثم قال : « اللَّهم إنك أمرت

⁽١) التوبة: ٤٩ (٢) التوبة: ٨١ (٣) التوبة: ٩٢ – ٩٢

بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها : من مال ، أو جسد ، أو عرض » . ثم أصبح مع الناس ، فقال النبى الله « أين المتصدق هذه الليلة » ؟ فلم يقم أحد . ثم قال : « أين المتصدق » ؟ فلم يقم . فقام إليه فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبشر ، فوالذى نفس محمد بيده ، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة » (١) .

وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم ، فلم يعذرهم .

واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، فلما سار رسول الله ﷺ ، تخلف عبد الله بن أبنى ومن كان معه ، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب ، منهم الثلاثة – كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة السالمى ، وأبو ذر ، ثم لحقاه ، وشهدها رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفاً من الناس ، والخيل عشرة آلاف فرس ، وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة ، وهرقل يومئذ بحمص .

ولما خرج رسول الله ﷺ ، خلف علياً على أهله ، فقال المنافقون : ما خلفه إلا استثقالاً له ، وتخففاً منه . فأخذ سلاحه ولحق به بالجُرْف فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا استثقالاً ، فقال : « كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أو لا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى » . . فرجع .

ودخل أبو خيثمة إلى أهله فى يوم حار ، بعد ما سار رسول الله ﷺ أياماً ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط ، قد رَشُت كل واحدة منهما عريشها ، وبَرَّدت له ماءً ، وهيأت له طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا ، فقال : رسول الله فى الضَّحَّ والريح والحر ،

⁽١) وهذه أيضاً إحدى معجزات النبي ﷺ.

وأبو خيشمة فى ظل بارد وطعام مهيئ وامرأة حسناء ؟ ما هذا بالنُّصَف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله لله ، فهيَّنا لى زاداً ، فعلتاً . ثم قدَّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج حتى أدرك رسول الله على حين نزل تبوك .

وقد كان عمير بن وهب الجمحى أدرك أبا خيثمة فى الطريق فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة له : إن لى ذنبا ، فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله على ، ففعل .

حتى إذا دنا من رسول الله تقلق قال الناس: راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله على الطريق مقبل، فقال رسول الله تقلق: « كن أبا خيثمة » قالوا: يا رسول الله تقلل فسلم على رسول الله تقال له: « أولى لك يا أبا خيثمة » فأخبره الخبر، فقال له خيراً، ودعا له (١١).

وقد كان رسول الله على ، لما مر بالحجر - من ديار ثمود - قال : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم مثل ما أصابهم » ، وقال : « لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ، وأمرهم أن يهريقوا الماء ، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة .

وفى صحيح مسلم عن أبى حميد الساعدى قال : « انطلقنا حتى قدمنا تبوك ، فقال رسول الله على : « سَتَهُبُ عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يَقُمُ أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » . فهبت ريح شديدة ، فقام رجل ، فحملته الريح حتى ألقته بجبل طئ » .

⁽١) وهذه معجزة أخرى للنبي ﷺ .

وأصبح الناس ولا ماء معهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ، فدعا الله تعالى ، فأرسل الله سحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

ثم سار حتى إذا كان ببعض الطريق جعلوا يقولون : تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وتَلَوَّم على أبى ذر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله على ماشياً ، ونزل رسول الله على بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا رجل يمشى على الطريق . فقال رسول الله على الطريق . فقال رسول الله على أبا ذر » فلما تأملوه قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر » فقال : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » (١) .

وفى صحيح ابن حبان عن أم ذر قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت ، فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : وما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، وليس عندى ثوب يسعك كفناً ، ولا يدان لى فى تغيبك ؟ فقال : أبشرى ولا تبكى ، فإنى سمعت رسول الله على يقول لنفر - وأنا فيهم - : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض ، يشهده عصابة من المسلمين ، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات فى قرية وجماعة ، فأنا ذلك الرجل ، فوالله ما كذبت ، ولا كذبت ، فأبصرى الطربق .

فكنت أشتد إلى الكثيب أتبصر ، ثم أرجع فأمرضه .

فبينًا أنا وهو كذلك ، إذا أنا برجال على رحالهم ، كأنهم الرخَم ، تَخُبُّ بهم رواحلهم ، قالت : فأشرتُ إليهم ، فأسرعوا إلى حتى وقفوا على . فقالوا : يا أُمّة الله ، مالك ؟ قلت : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا : مَن هو ؟

⁽١) وهذه معجزة ثالثة لرسول الله على .

قلت: أبو ذر ، قالوا : صاحب رسول الله على ؟ قلت : نعم ، ففدوه بآبائهم وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه . فقال لهم : أبشروا ، فإنى سمعت رسول الله على - وذكر الحديث - ثم قال : وإنه لو كان عندى ثوب يسعنى كفتاً لى ولامراً تى لم أكفن إلا فى ثوب هو لى ، أو لها . فإنى أنشدكم الله أن لا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا ، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال ، إلا فتى من الأنصار قال : يا عم ، أقا أكفنك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين فى عَيْبَتى من غزل أمى ، قال : فأنت تكفننى ، فكفنه الأنصارى ، وأقاموا عليه ودفنوه فى نفر كلهم يَمان » .

وصدق رسول الله ﷺ .. لقد مشى أبو ذر وحده يوم اليرموك حتى لحق بالجيش . ومات وحده بالريذة منفياً من زمن عثمان بن عفان ، وسوف يبعث يوم القيامة وحده مصداقاً لقول الرسول ﷺ .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه صاحب أيلة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْبًا وأذَّرَح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتاباً فهو عندهم .

ثم بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دُومة ، وقال لخالد : « إنك تجده يصيد البقر » ، فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة – وهو وعلى سطح له – فبانت البقر تُحُكُّ بقرونها باب القصر . فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله . قالت : فمن يترك مثل هذه ؟ قال : لا أحد .

ثم نزل فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله الله على رسول الله صلى الله على الله على

وأقام رسول اللَّه ﷺ بتبوك بضعة عشر ليلة ، ثم انصرف إلى المدينة .

وعن ابن مسعود أنه كان يحدَّث ، قال : « قمتُ من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله على غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر ، فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا برسول الله على وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين (١) المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله على في حفرته ، وأبو بكر وعمر يُدلِّيانه إليه ، وهو يقول : « أدليا إلى أخاكما » ، فأدلياه إليه ، فلما هيأه لشقَّه قال : « اللهم إنى قد أمسيتُ راضياً عنه ، فارض عنه » قال : يقول عبد الله بن مسعود : يا ليتني كنت صاحب الحفرة » .

وأقبل رسول الله على من تبوك ، حتى كان بينه وبين المدينة ساعة ، وكان أصحاب مسجد الضِّرار أتوه - وهو يتجهز إلى تبوك - فقالوا : يا رسول الله ، إنًا بنينا مسجداً لذى العِلّة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنَّا نحب أن تصلى فيه ، فقال : « إنى على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم » .

فلما نزل بذى أوان ، جاءه خبر المسجد من السماء ، فدعا مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عدى فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه » فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف - وهم رهط مالك بن الدخشم - فقال لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه . وأنزل الله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجداً ضراراً وكَفُراً وَتَفْريقاً بَيْنَ المؤمنينَ وَإِرْصَاداً لَّمَنْ حَارَبَ اللّه وَرَسُولَهُ مَن قَبْلُ ، وَلَيْحُلْفُنَ إِنْ أَرَدْنَا إلا الْحُسْنَىٰ ، وَاللّه يَشْهَدُ إِنّهُمْ لَكَاذَبُونَ * لاَ تَقُمْ فيه وَلَيَحُلُفُنَ إِنْ أَرَدْنَا إلا الْحُسْنَىٰ ، وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنّهُمْ لَكَاذَبُونَ * لاَ تَقُمْ فيه أَبْداً ، لَمَسْجد أُسسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أُولًا يَوْم أُحَقُ أُنَ تَقُومَ فيه ، فيه رَجَالُ يُحبُونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ، وَاللّهُ يُحبُ الْمُطُهِّرِينَ * أَفَمَنْ أُسسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُف هار رَجَالٌ يُحبُونَ أَن يَتَطُهُرُواْ ، وَاللّهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْلُلُ عَلَى شَفَا جُرُف هار قَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللّهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لُولُ يَوْم أُحَقُ الطَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لَا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لُولُ يَوْد فَي نَارٍ جَهَنَّمَ ، وَاللّهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لُولُولُ اللّهُ وَرَفْوانِ خَيْر لُهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لللهُ وَرَفْوانِ خَيْر لُهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُ لا يَهْدى القَوْمَ الطَّالِمُونَ فَي نَارٍ جَهَنَّمَ ، وَاللّهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزْالُولُهُ اللّهُ وَرَفْوانِ خَيْلُهُ لا يَهْدى القَوْمَ الظَالِمُ اللّهُ الْمُلْسَلُولُ اللّهُ وَلَى الْمُؤْلُولُ اللّهُ وَلَوْلُولُ اللّهُ وَلِولُهُ الللّهُ وَلَوْلُولُ اللّهُ اللّهُ وَلَوْلُولُهُ الْمُلْمُ اللّهُ وَلَوْلُولُولُ اللّهُ وَلَاللّهُ لا يَعْدَى القَوْمَ اللّهُ اللّهُ وَلَوْلُولُهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَاللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

⁽١) البجاد: الكساء الأسود.

بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوا رِبِبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إلا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكيمٌ ﴾ (١) .

قال ابن عباس فى الآية : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر الفاسق : ابنوا مسجدكم ، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآت بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه .

فلما فرغوا من بنائه ، أتوا النبى الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ لاَ تَقُمُ فِيهِ أَبَداً ﴾ ونحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ لاَ تَقُمُ فِيهِ أَبَداً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى الشك ، ﴿ إلا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبِهُمْ ﴾ يعنى بالموت .

ولما دنا رسول الله على من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، والنساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الرداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله على بنفسه ، وأنزل الله فيها سورة التوبة .

وكانت تسمى فى زمان النبى على وبعده : « المبعثرة » لما كشفت من سرائر المنافقين وخبايا قلوبهم .

وفى غزوة تبوك ، كانت قصة تَخَلُفُ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفى ، ممن شهدوا بدراً ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف عن رسول الله عليه الله عليه الله عليه الله عليه المعذرون من الأعراب

⁽١) التوبة: ١١. - ١١٠

من المنافقين ، يحلفون أنهم كانوا معذورين ، فقبل منهم رسول الله على ، وأرجأ كعب بن مالك وصاحبيه حتى أنزل الله تعالى في شأنهم وفي توبتهم - وكانوا من خيار المؤمنين : ﴿ لَقَد تَّابَ اللّهُ عَلَى النّبِيّ وَالْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ اللّذينَ أَبّعُوهُ في سَاعَة العُسْرَة من بَعْد مَا كَادَ يَزيغُ قُلُوبُ فَرِيق مِّنهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنّهُ بِهِمْ رَءُوفَ رَحيمٌ * وعلى الثّلاثة الذينَ خُلُفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيْهِمْ أَلَارُوضُ بِمَا رَحُبَت وضَاقَت عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظُنُواْ أَن لا مَلْجَأ مِنَ الله إلا إليه ثم تَابَ عَلَيْهِمْ ليَتُوبُواْ ، إِنَّ اللّهَ هُو التّوابُ الرّحيمُ * يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) خلفهم الله وأخر توبتهم ليمحصهم ويطهرهم من ذنب تأخرهم ، لأنهم كانوا من الصادقين (٢) .

* * *

كانت السنة الأولى للهجرة هي السنة التي أذن الله فيها لرسوله تلك في الهجرة ، فسميت « سنة الإذن » .

وسميت السنة الثانية « سنة الأمر بالقتال » - أى قتال الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدون عن سبيل الله ، إذ من أوجب الواجبات دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ المُعتدينَ ﴾ (٣) .

وسميت السنة الثالثة « سنة التمحيص والتطهير » لقوله تعالى : ﴿ وَلِيمُحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴾ (٤) في الإشارة إلى يوم

 ⁽١) التوبة: ١١٧ - ١١٩ (٢) المرجع السابق ص ١٧٢ وما بعدها (بتصرف) .

⁽٣) البقرة : . ١٩. (٤) آل عسران : ١٤١

أحد حين خرج مشركو قريش في النصف من شوال وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ليثأروا لما أصابهم يوم بدر .

وسميت السنة الرابعة « سنة الترفئة » أي الاتفاق وجمع الشمل .

وسميت السنة الخامسة « سنة الزلزلة » لقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا وَلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (١) تعبيراً عن شدة حال المسلمين في يوم الأحزاب حين تحالفت قريش وقبائل غطفان وكنانة مع اليهود على غزو المسلمين في المدينة .

وسميت السنة السادسة « سنة الاستئناس » إشارة إلى الآية من سورة النور التى نزلت فى هذه السنة خاصة بآداب السلوك وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلَهَا ﴾ (٢)

وسميت السنة السابعة « سنة الاستغلاب » ففيها كان فتح خيبر .

وسميت السنة الثامنة « سنة الفتح » - أو « سنة الاستواء » .

وسميت السنة التاسعة « سنة البراءة » - أى التوبة من المنافقين المتخلفين عن الجهاد يوم تبوك ، كما سميت « سنة الوفود » لقدوم أفواج العرب معلنين إسلامهم .

وسميت السنة العاشرة « سنة الوداع » ، أخذت اسمها من حجة الوداع ، إذ كانت آخر خروج للرسول ﷺ إلى بيت الله الحرام بمكة ..

وفى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة العاشرة للهجرة (٨ يونيه سنة ٦٣٢ الميلادية) اختار الله تعالى إلى جواره نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أن حمل الأمانة وبلغ الرسالة .

340	**	*

• بعوث رسول الله على :

لما رجع رسول الله على من الحديبية - فى ذى الحجة سنة ست - أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ، فقيل : يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله على يومئذ خاتماً من فضة ، فصد مند ، نقشد ثلاثة أسطر : « محمد رسول الله » ، وختم به الكتب . فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم .

فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ: عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ، كما بعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، كما بعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى ، وكلهم يدعوهم - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام .

كما بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ، وعمرو بن العاص إلى ملك عُمان ، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن على صاحب اليمامة .. واستمرت البعوث التي يرسلها صلى الله عليه وسلم إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام .

* * *

• توافد الوفود على الرسول 🕮 :

ولما فرغ رسول الله على من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، ضربت إليه أكباد الإبل ، تحمل وفود العرب من كل وجه ، في سنة تسع ، وكانت تسمى سنة الوفود .

وإنما كانت العرب تربُّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهداتهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك .

وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ،

فدخلوا في دين الله أفواجاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دينِ اللّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبَّحْ بِعَمْدُ رَبِّكَ وَاسْتَغْفَرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (١) .

- فقدم عليه عطارد بن حاجب التميمى ، فى أشراف من بنى تميم ، جاءوا فى أسرى بنى تميم الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزارى فى المحرم من السنة التاسعة ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً . . ثم أسلموا وحسن إسلامهم .
- وقدم عليه وفد طئ ، فيهم زيد الخيل وهو سيدهم فعرض عليهم
 رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم .
- وقدم عليه الجارود العبدى فى وفد عبد القيس وكان نصرانياً ، فأسلم
 وأسلم أصحابه .
- وكان صلى الله عليه وسلم قد بعث العلاء بن الحضرمى − قبل فتح مكة
 لى المنذر بن ساوى العبدى ، فأسلم وحسن إسلامه .
- وقدم على الرسول الله ، وفد بنى حنيفة ، فيهم مسيلمة الكذاب ، فأتوه وخلفوا مسيلمة فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : با رسول الله ، إنّا قد خلفنا صاحباً لنا فى رحالنا يحفظها لنا ، فأمر له بمثل ما أمر به للقوم ، وقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » ، يعنى لحفظه ضيعة أصحابه ، ثم انصرفوا ، فلما أتوا إلى اليمامة ، ارتد عدو الله وتنبأ ، وقال : إنى أشركت فى الأمر معه ، وقال للوفد : ألم يقل لكم : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » ؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت فى الأمر معه ، ثم جعل يسجع لهم السجعات ، مضاهاة للقرآن ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله على بالنبوة .

⁽١) سورة النصر كاملة ، وانظر : مختصر سيرة الرسول - مرجع سابق - ص ١٧٨ وما بعدها (بتصرف) .

● وتوالى قدوم الوفود إلى المدينة معلنة إسلامها ، منها : وقد بنى أسد وفيهم طليحة الذى ارتد بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ثم عاد فحسن إسلامه ، ووقد بكى ، وبهراء ، وفزارة ، والبكاء ، وسعد بن بكر ، وغيرها من الوفود كوقد : بنو عبد المدان ، وكندة وفيهم الأشعث ، ومنهم أزد شنوءة وفيهم صرد بن عبد الله ، وبنو عذرة ، وهمدان ، وتجيب ، وغسان ، وبنو محارب ، وبنو عبس ، وبنو مذحج ، وغيرهم . جاءوا ومعهم رؤوسهم وشعراؤهم وصدقات أموالهم ، وممن جاء - في السنة العاشرة للهجرة - معلناً إسلامه : جرير الشاعر .

* * *

• أزواجه .. صلى الله عليه وسلم :

أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، تزوجها رسول الله عنها أربعون أو فوق الأربعين ، فولدت له أولاده كلهم عدا وسنها رضى الله عنها أربعون أو فوق الأربعين ، فولدت له أولاده كلهم عدا إبراهيم : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهم جميعا ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت في العام العاشر من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد عمه أبي طالب بأيام ، وكان عمرها رضى الله عنها حين ماتت ٥٠ سنة .

- فلما ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجرى الحبشة ، فلما توفى عنها تزوجها رسول الله على ، قال الزهرى : تزوجها قبل عائشة وهو بمكة ، وبنى بها بمكة أيضاً ، وقال غيره : تزوج عائشة قبلها وإنما ابتنى بسودة قبل عائشة لصغر عائشة ، وماتت رضى الله عنها عام ٢٣ فى خلافة عمر بن الخطاب .

- ثم تزوج صلى الله عليه وسلم عائشة بنت الصدِّيق رضى الله عنهما وأرضاهما ، وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة سنة اثنتين بالمدينة ، ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم بكراً غيرها ، وكانت أحب نسائه إليه ، وقيل : كان سنها حين تزوجها رسول الله عليه تسع سنوات ، وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر ، وتوفى عنها رسول الله على ، وماتت رضى الله عنها سنة ٥٨ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٣٦ سنة .
- ثم تزوج حفصة بنت عمر رضى الله عنهما بعد الهجرة بسنتين وأشهر ، سنة ثلاث ، تزوجها ثيباً بعد ما عرضها أبوها على أبى بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا ، فوعده النبى تلك خيراً منهما وتزوجها ، وماتت رضى الله عنها سنة . كان لها من العمر حين ماتت ٦٧ سنة .
- وتزوج زينب بنت خزيمة الهلالية (أم المساكين) سنة ثلاث ، وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، قُتل يوم بدر ، وقيل : كان زوجها قبل النبى على هو عبد الله بن جحش الأسدى المستشهد يوم أحد ، ولعل هذا هو الأقرب ، وأقامت رضى الله عنها عند رسول الله على شهرين أو ثلاثة ، ثم ماتت سنة ٤ ولها من العمر ٣٠ سنة ، ولم يمت من أزواجه قبلها غيرها وغير خديجة رضى الله عنها .
- وتزوج أم سلمة (هند) بنت أمية رضى الله عنها سنة أربع ، وكانت قبله زوجاً لأبى سلمة الذى جُرِح فى أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به ، فتزوج رسول الله على أرملته ، وضم إليه عيالها من أبى سلمة ، وماتت رضى الله عنها سنة ٥٩ فى خلافة يزيد بن معاوية ، وهى آخر أمهات المؤمنين موتاً بعد رسول الله على ، وكان لها من العمر حين ماتت ٨٤ سنة .
- وتزرج زينب بنت جحش رضى الله عنها ، بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد ابن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها ، فزوجها الله تعالى لرسوله عليه من فوق

سبع سموات سنة خمس - وقيل غبر ذلك ، وكانت رضى الله عنها جميلة وضيئة ، وهى التى كانت عائشة رضى الله عنها تحس أنها تساميها ، لنسبها من رسول الله علله - وهى بنت عمته - ولوضاءتها ، وماتت رضى الله عنها سنة . ٢ فى خلافة عمر ، وكانت أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - لحوقاً به بعد موته كما أخبر ، وكان عمرها رضى الله عنها حين ماتت ٥٣ سنة .

- وتزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق بعد غزوة بنى المصطلق فى أواسط السنة السادسة الهجرية - وقيل: سنة خس - قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: « لما قسم رسول الله علله سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى أسهم الثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته عن نفسها ، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ! وعرفت أنه سيرى منها - صلى الله عليه وسلم - ما رأيت ، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته عن نفسى ، فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته عن نفسى ، فعالسة وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » . قالت : نعم وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » . قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلت » . وماتت رضى الله عنها سنة . ٥ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت رضى الله عنها سنة . ٥ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت رضى الله عنها سنة . ٥ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت رشى الله عنها سنة . ٥

- وتزوج أم حبيبة (رملة) بنت أبى سفيان بعد الحديبية سنة ست ، وبنى بها سنة سبع ، وكانت رضى الله عنها مهاجرة مسلمة فى بلاد الحبشة ، فارتد زوجها عبيد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها ، فخطبها النبى تلك وأمهرها عنه نجاشى الحبشة ، وجاءت من هناك إلى المدينة ، وماتت رضى الله عنها سنة على خلافة معاوية .

- وتزوج صلى الله عليه وسلم - إثر فتح خيبر بعد الحديبية - سنة سبع - صفية بنت حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، وكانت زوجة لكنانة بن أبى حقيق وهو من زعماء اليهود أيضاً . ويذكر ابن إسحاق فى قصة زواجه - صلى الله عليه وسلم - منها : أنها أتي بها وبأخرى معها من السبى ، فمر بهما بلال رضى الله عنه على قتلى من قُتل من اليهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال صلى الله عليه وسلم : « اغربوا عنى هذه الشيطانة » ، وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها ردا من فعرف المسلمون أن رسول الله عليه قد اصطفاها لنفسه ، فقال رسول الله تلك لبلال - فيما بلغنى - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين قر بامرأتين على قتلى رجالهما » ؟ . وماتت صفية رضى الله عنها سنة ٥٢ فى خلافة معاوية .

- ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن ، وهى خالة خالد بن الوليد وعبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ، وكانت قبل رسول الله عنه أبى رهم بن عبد العزى ، وهى آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم ، تزوجها سنة سبع ، وماتت رضى الله عنها سنة ١٨ فى خلافة معاوية ، وكان لها من العمر حين ماتت ٨١ سنة .

وأما اللواتى تزوجهن ولم يدخل بهن ، أو خطبهن ولم يتم له العقد ، أو استعاذت منه ففارقها ، فقد اختلف فيهن وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً ولا يحصل من ذكرهن فائدة . .

فمنهن العالية بنت ظبيان ، وأسماء بنت النعمان بن الجون - وقيل : اسمها « أميمة » . والمستعيذة - قيل : هى أميمة ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك ، وقيل : مليكة .

ومنهن الغفارية ، رأى بها برصا ففارقها .

ومنهن أم شريك ، وهبت نفسها للنبي تله ، وأسماء بنت الصلت السلمية ، وليلى بنت الخطيم الأنصارية .

وأما سراريه ، فمنهن مارية القبطية - وهبها له المقوقس ، وهى أم ابنه إبراهيم ، وتوفيت رضى الله عنها سنة ١٦ فى خلافة عمر ، ومنهن ريحانة بنت عمرو القرظية ، وفى الاستيعاب : ريحانة بنت شمعون .

* * *

• أولاده وبناته .. صلى الله عليه وسلم :

أول أولاده - صلى الله عليه وسلم - القاسم ، وبه كان يكنى ، مات رضيعاً ، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة .

- ثم زينب رضى الله عنها ، ولدت وللرسول الله ثلاثون سنة ، وماتت سنة ثمان ، تزوجت أبى العاص بن الربيع ، ففرق بينهما الإسلام ، ثم ردها الرسول العد إسلامه ، ولدت رضى الله عنها على وناهز الاحتلام ، كما ولدت له أيضاً أمامة .

- ثم رقية رضى الله عنها ، تزوجت عتبة بن أبى سفيان ، وطلقها قبل الدخول بها فتزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وولدت له عبد الله الذى مات عن ست سنوات عام ٤ هجرية ، وماتت رضى الله عنها يوم وصول البشير بالنصر في بدر .

- ثم أم كلثوم رضى الله عنها ، تزوجت عتيبة بن أبى سفيان ، وطلقها قبل الدخول بها ، فتزوجها عثمان رضى الله عنه بعد موت أختها رقية ، ولم تلد منه ، وتوفيت رضى الله عنها سنة تسع .

- ثم فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، تزوجت على بن أبى طالب فى السنة الثانية للهجرة ، وكان عمرها ١٥ سنة وخمسة أشهر ، وانقطع نسل رسول الله على إلا منها حيث ولدت له الحسن والحسين وزينب رضى الله عنهم ، وفيهم انحصر النسل الشريف .. توفيت بعد الرسول بستة أشهر ، وهو أصح

ما قيل ، وقيل : ٣ شهور ، وقيل : ٧٠ يوماً ، وكان عمرها رضى الله عنها يوم ماتت ٢٩ سنة .

- عبد الله ، ولد بعد النبوة ، ولذا لقب بالطيب والطاهر ، ومات طفلاً .

- إبراهيم ، ولد للرسول على سنة ٨ هجرية - وأمه مارية القبطية رضى الله عنها ، ومات عن ١٨ شهراً .

ويقول ابن القيم: « أولاده صلى الله عليه وسلم: أولهم القاسم، وبه كان يكنى ، مات طفلاً ، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجيبة .

ثم زينب - وقيل : هي أسن من القاسم ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .. وقد قيل في كل واحدة منهن أنها أسن من أختيها .

وقد ذكر عن ابن عباس أن رقية أسن الثلاثة وأم كلثوم أصغرهن ، ثم ولد له عبد الله ، وهل ولد بعد النبوة أو قبلها – اختلاف ، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة ، وهل هو الطيب والطاهر ، أو هما غيره على قولين ، والصحيح أنهما لقبان له ، والله أعلم .

وهؤلاء كلهم من خديجة رضي اللَّه عنها ولم يولد له من زوجة غيرها .

ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية القبطية سنة ثمان من الهجرة ، وبشره بها أبو رافع مولاه ، فوهب له عبداً ، ومات طفلاً قبل الفطام ، واختلف هل صلى عليه أم لا على قولين .

وكل أولاده - صلى الله عليه وسلم - توفى قبله إلا فاطمة رضى الله عنها، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر ، فرفع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فُضًلت به على نساء العالمين ، وفاطمة أفضل بناته على الإطلاق ، وقيل : إنها أفضل نساء العالمين ، وقيل : بل أمها خديجة ، وقيل : بل عائشة ، وقيل : بل بالوقف من ذلك » (١).

* * *

⁽١) زاد المعاد لابن القيم: ١/٢٥

• صور من داخل البيت النبوى الكريم:

کانت بیوت زوجات النبی الله الله عند می بین عبد العزیز رضی الله عند می بیوتاً باللبن ، ولها حُجَر من جرید النخل مطرورة بالطین ، علی أبوابها المسوح (۱) من شعر أسود ، وكان مقاس الستر منها ثلاث أذرع فی ذراع ، وكان الرجل متوسط القامة إذا وقف فی وسط البیت منها تناول سقفه بیده ، وكان عددها تسعة أبیات بحجرها ، وهی ما بین بیت عائشة رضی الله عنها إلی الباب الذی یلی باب النبی الله إلی منزل أسماء بنت حسن .

وعن عبد الله بن يزيد الهذلى ، أنه رأى بيت أم سلمة رضى الله عنها وحجرتها من لبن ، فسأل أين ابنها فقال : لما غزا رسول الله على غزوة « دومة » بنت أم سلمة حجرتها بلبن ، فلما قدم رسول الله الله الله الله الله فدخل عليها أول نسائه فقال : « ما هذا البناء » ؟ فقالت : أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس ، فقال : « يا أم سلمة ، إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان » .

وعن عبد الله بن عامر الأسلمى قال: قال لى أبو بكر بن حزم ، وهو فى مصلاه فيما بين الأسطوانة التى تلى حرف القبر التى تلى الأخرى إلى طريق باب رسول الله على : هذا بيت زينب بنت جحش ، وكان رسول الله على يصلى فيه ، وهذا كله إلى باب أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس اليوم إلى رحبة المسجد ، فهذه بيوته التى رأيتها بالجريد ، وقد طُرِّت بالطين ، عليها مسوح الشَعْر .

ويقول عطاء: فسمعتُ سعيد بن المسيب يقول يومئذ - أى يوم ورود كتاب الوليد بن عبد الملك بإدخال حُجَر أزواج النبى تلط فى مسجده - والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناشئ أهل المدينة ، ويقدم القادم من الأفق

⁽١) المسوح: متاع العرب، وهي الستور،

فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر .

قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراسانى من حديثه قال عمر بن أبى أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حُجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حُجر لها ، على أبوابها مسوح الشعر ، ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع فى ذراع والعظم أو أدنى من العظم ، فأما ما ذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتنى فى مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله على منهم أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : لبتها ثركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويرون ما رضى الله لنبيه عليه السلام ، ومفاتح خزائن الدنيا بيده (١) .

وكان فراش رسول الله ﷺ من أدّم (٢) محشواً ليفاً ، على سرير من جريد – أو حصير – مرمول بشرط ، وكانت وسادته من أدّم محشوة بليف !!

وكان صلى الله عليه وسلم يصلى على بساط ، أو حصير ، أو فروة مديوغة !!

وعن جندب بن سفيان رضى الله عنه قال: أصابت النبى الله أشاءة نخلة فأدمت أصبعه، فقال: « ما هى إلا أصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت ». قال: فحمل فوضع على سرير مرمول بشرط، ووضع تحت رأسه مرفقة من أدم محشوة بليف، فدخل عليه عمر وقد أثر الشريط بجنبه، فبكى عمر، فقال: « ما يبكيك » ؟ قال: يا رسول الله، ذكرت كسرى وقيصر يجلسون على سرر الذهب، ويلبسون السندس والاستبرق – أو قال: الحرير والاستبرق – فقال: « أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا » ؟

⁽١) انظر: الطبقات الكبرى - لابن سعد - القسم الثاني: ١٨./١

⁽٢) الأدَم : الجلد المدبوغ .

قال : وفي البيت أُهُبُ (١) لها ريح (٢) ، فقال : لو أمرت بهذه فأخرجت ـ فقال : « لا ، متاع الحي » (يعني الأهل) .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما ينام على الحصير - ليس بينه وبين الأرض شئ - حتى يؤثر في جنبه !!

وعنها: أنها كانت تفرش للنبى الله عباءة باثنين ، فجاء ليلة وقد ربعتها فنام عليها فقال: « يا عائشة ، ما لفراشى الليلة ليس كما كان » ؟ قلت : يا رسول الله ، ربعتها ! قال: « فاعيديه كما كان » (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان عامة خبزهم الشعير ، وما أكل صلى الله عليه وسلم الشعير منخولاً حتى فارق الدنيا ، إنما كانوا يطحنونه ثم ينفخون قشره فيطير ما يطير ، ويستمسكون ما استمسك .

وما شبع صلى الله عليه وسلم من الخبز والزيت مرتين فى يوم ، وما اجتمع فى بطنه طعامان فى يوم قط ، إن أكل لحماً لم يزد عليه ، وإن أكل غبراً لم يزد عليه ..

وعن النعمان بن بشير أنه سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يخطب

⁽١) الإهاب : الجد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ .

⁽٢) أي عطنة . (٣) المرجع السابق ص ١٥٧

ويقول: احمدوا الله ، فربما أتى على رسول الله ﷺ اليوم يظل يتلوى ، ما شبع من الدقل (١١) .

وجاءته فاطمة رضى الله عنها يوماً بكسرة خبز ، فقال : « ما هذه الكسرة يا فاطمة » ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » .

وعن أبى هريرة قال : كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلال ، لا يوقد فى شئ من بيوته نار ، لا لخبز ولا لطبيخ . قالوا : بأى شئ كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين : التمر والماء . قال : وكان له جيران من الأنصار - جزاهم الله خيراً - لهم منائح يرسلون إليه بشئ من لبن .

وعن مسروق قال : دخلت على عائشة أم المؤمنين وهي تبكى ، فقلت : يا أم المؤمنين ، ما يبكيك ؟ قالت : ما أشبع فأشاء أن أبكى إلا بكبت ، وقالك لأن رسول الله على كانت تأتى عليه أربع أشهر ما يشبع من خبر بُر (٢) .

* * *

فى هذه البيوت المسرفة فى التواضع ، وعلى هذا الحال من خفض العيش ، عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه رضى الله عنهن ، معيشة هى أقرب ما تكون إلى الكفاف حتى بعد أن فتحت الفتوح ونعم المسلمون بالقئ والغنائم ..

وينقل لنا القرآن الكريم - فيما ينقل - خمس صور من داخل بيوت النبي على مثل وقائع خمس في حياته صلى الله عليه وسلم ، وتحمل كل صورة منها تشريعاً جديداً ينظم حياة الأسرة المسلمة ويُحكم أمورها .

أولى هذه الصور جاءت فى سورة النور ، بمناسبة حادثة الإفك ، تلك الحادثة التى كلفت أطهر النفوس فى تاريخ البَشرية كلها – صلى الله عليه وسلم – آلاماً لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها

⁽١) الدقل: ردى التمر. (٢) المرجع السابق ص ١١٣

الطويل .. وعلق قلب رسول الله على ، وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل .. علق هذه القلوب الكريمة شهراً كاملاً بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يُطاق .. ثم ما تبع هذه الصورة القاسية من تشريع رباني بإنزال حد قذف المحصنات .

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ جَاءُو بِالإِفْكُ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ، لا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لكُلِّ امْرِيء مَّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْم ، وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كَبْرَهُ مَنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لُولا إِذْ سَعِتْمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِالنَّهُ مَ فَيْراً وَقَالُواْ هَذَا إِفْكُ مَّبِينٌ * لُولا جَاءُو عَلَيْه بِأَربَعَة وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْهُمْ فَي مَا أَتُواْ بِالشَّهُدَاء فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللّه هُمُ الكَاذبُونَ * وَلُولا فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فَي الدَّنْيَا وَالآخِرَة لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فَي الدَّنْيَا وَالآخِرَة لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فَي الدَّنْيَا وَالآخِرَة لَمَسَّكُمْ فِي مَا الْفَضْتُمُ فِيهِ عَلْمُ وَتَعْولُونَ بِأَفُواهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عَلَمٌ وَتَعْولُونَ بِأَفُواهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عَلَمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيْنَا وَهُو عَنْدَ اللّه عَظِيمٌ * وَلُولا إِنْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَتَكَلَّمَ بِهِلَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهُتَانُ عَظِيمٌ * يَعَظُكُمُ اللّهُ أَن مَا يَعْودُوا لَمِنْهُ أَن اللّهُ لَكُمُ الآيَات ، واللّهُ مَن اللهُ لَكُمُ الآيَات ، واللّهُ عَلَيْمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونَ أَن تَشْيَع الفَاحشَةُ فَي الدُّيْنَ اللّهُ لَكُمُ الآيَات ، واللّهُ عَلَيْمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحِيمٌ ﴾ اللّه لَيْمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحْيمٌ ﴾ (اللّه عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحِيمٌ ﴾ (اللّه عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحْيمٌ ﴾ (اللّه عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحْيمٌ ﴾ (١٤ اللّهُ عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحْيمٌ ﴾ (١١ الله عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ رَعُونُ رُحْيمٌ ﴾ (١٤ الله عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ وَعُونُ وَقُولُونَ الْعُلُولُ الْعُلُولُ الله وَاللّهُ الله الله عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ وَعُولًا الله عَلَيْكُمُ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهُ وَاللّهُ مُولُولًا الله الله الله الله الله المُعْمَلُولُ الله والله الله الله الله المُتَالِقُولُهُ الله ا

وتحدثنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن هذه الآلام التي عانتها فتقول: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .. فأقرع بيننا في غزوة غزاها (٢) فخرج فيها سهمي ، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل

⁽١) النور : ١١ – ٢٠

⁽٢) غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة الهجرية على الأرجع .

فيه مسيرنا ، حتى فرغ رسول الله على من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل ، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل ومشيتُ حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلتُ إلى الرحل ، فلمستُ صدرى فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعتُ فالتمستُ عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون ، فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه .

قالت عائشة : وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا إلى .

فبينًا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان به المعطل السلمي الذكواني قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وقد كان يراني قبل أن يُضرب على الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمه غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ..

وهلك من هلك في ، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمتها شهرا ، والناس يخوضون في قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشئ من ذلك ، ويريبني في وجعى أنى لا أعرف من رسول الله على الله الذي كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ ، فذلك بحزنني ولا أشعر بالشر .

حتى خرجتُ بعد ما نقهتُ وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بسما قلت ! أتسبين رجلاً قد شهد بدراً ؟

قالت : أي هنتاه ! أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟

فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ودخل على رسول الله على ثم قال : « كيف تيكم » ؟ قلت : تأذن لى أن آتى أبوى ؟ . قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله على .

فجئتُ أبوىٌ فقلت : يا أماه ، ما يتحدث الناس ؟ قال : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت : فقلت سبحان الله ، وقد تحدُّث الناس بهذا ؟

قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتُ أبكى . ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما في فراق أهله .

فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله تلل بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله، هم أهلك وما نعلم الاخيراً.

وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيِّق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله على بريرة (١) فقال: يا بريرة ، هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة ؟ قالت بريرة : والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه (٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن (٣) فتأكله .

قالت: فقام رسول الله على فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » .

فقام سعد بن معاذ (٤) الأنصارى فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج - وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله .

فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمر الله لنقتلنه ، إنك منافق تجادل عن المنافقين .

فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

⁽١) حقق الإمام ابن القيم أن الجارية التي سئلت لم تكن هي بريرة ، لأن بريرة إنما كاتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة ، إنما قال الإمام على كرم الله وجهه : سل الجارية تخبرك ، فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها .

⁽٢) أغمصه: أعيبه. (٣) الداجن: الشاة في البيت.

⁽٤) في رواية ابن إسحاق أن الذي قال هذا وذلك هو أسيد بن حضير ، وحتق الإمام ابن القيم في « زاد المعاد » أن سعد بن معاذ كان قد توفى بعد غزوة بنى قريظة ، قبل حديث الإفك ، وأن الذي قال ما قيل هو أسيد بن حضير ، وكذلك قال الإمام ابن حزم مستشهدا برواية عبيد الله بن عبد الله بن عبة عن عائشة ، وليس فيها ذكر سعد بن معاذ .

قالت : وبكيتُ يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها وجلست تبكى معى .

قالت: فبينًا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله على ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قبل لى ما قبل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شئ، قالت: فتشهد رسول الله على حين جلس ثم قال: « أما بعد يا عائشة، فإنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه ».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله. فقلت لأمى: أجيبى رسول الله، فقالت: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله. فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً في القرآن -: والله لقد عرفتُ أنكم سمعتم هذا وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلتُ لكم إنى بريثة والله يعلم أنى منه بريئة - لتصدقنى ، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا ما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، والله المستَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

قالت: ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشى ، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يُتلَى ، ولشأنى كان أحقر فى ننسى من أن يتكلم الله تعالى فى بأمر يُتلَى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله تعالى بها .

⁽۱) يوسف : ۱۸

قالت: فوالله ما رام رسول الله على منزله ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه على العرق في اليوم الشاتى من ثقل القول الذي أنزل عليه .

قالت: فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك ، وكان أول كلمة تكلمها أن قال: « أبشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله » . فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني .

قالت : فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةً مُّ مُنكُم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .. (العشر آيات) .

فلما أنزل الله تعالى هذه الآية في براءتي قال الصديّيق - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَل أُولُوا الْفَضْل مِنكُم وَالسّعَة أَن يُوتُوا أُولُو اللّهُ لِكُم ﴿ وَلا يَأْتُل أَولُوا الْفَضْل مِنكُم وَالسّعَة أَن يُوتُوا أُولُو اللّهُ لِي اللّهُ لَكُم ﴾ (١) - فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبدا ﴾ (٣) .

ويقول الله تعالى : ﴿ لا تَحْسِبُوهُ شَراً لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٤) . حقاً إنه لخير ، وأي خير ؟!

فقد كشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله على وأهل بيته.

⁽۱) النور: ۱۱ – ۲۱ (۲) النور: ۲۲

 ⁽٣) رواه البخارى ومسلم كلاهما عن أبى الربيع الزهرائى ، وانظر أسباب النزول للنيسابورى طبع دار الكتب العلمية ببيروت - ص ٢١٤ وما بعدها .

⁽٤) النور : ١١

كما كشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله تعالى ، وبين مدى الأخطار التى تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .. فهى لا تقف عند حد ، وإنما تمضى صاعدة إلى أشرف المقامات . وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياد ..

إنه خير .. فقد كشف الله تعالى للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم في مواجهة هذا الأمر العظيم .. فيأتى حكمه تعالى في التشريع الرباني بإنزال حد قذف المحصنات ، فيقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَة شُهَدَاءَ فَاجْلدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَد ، وَأُولَئكَ هُمْ الفَاسقُونَ ﴾ (١) .

هذا حكم الله في من يرمون المحصنات بالزنا دون أن يأتوا بأربعة شهداء ، يشهدون برؤيتهم لوقوع الفعل حين حدوثه يأعينهم ..

فما هو الحكم حين يرمى رجل امرأته بهذه التهمة دون أن يكون معه شهود ؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَداءَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدهمْ أَرْبَعُ شَهَادَات بِاللّه إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادَقِينَ * وَيَدْرَوُا عَنْهَا وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللّه عَلَيْهِ إِن كَانَ مَنَ الكَاذَبِينَ * وَيَدْرَوُا عَنْهَا العَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبُعَ شَهَادَاتَ بِاللّه إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذَبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ العَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبُعَ شَهَادَاتَ بِاللّه إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذَبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَن العَذَابَ أَل اللّه عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادَقِينَ ﴾ (٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ اللَّهُ عَنهما قال : « لما نزلت : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ – قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال

⁽١) النور : ٤

رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم » ؟ قالوا: يا رسول الله ، إنه رجل غيور ، والله ما تزوج قط إلا بكراً وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ! فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشياً فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه .

فقال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله على هلال بن أمية ويُبطل شهادته في المسلمين ، فقال هلال: والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً ، فقال هلال: يا رسول الله ، إنى قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتُ به ، والله يعلم إنى لصادق ، فوالله إن رسول الله على يريد أن يأمر بضربه ، إذ نزل عليه الوحى ، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تريد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ، فنزلت: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أُزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَداء وين من الوحى ، فنزلت: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أُزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَداء إلّا أَنفُسُهُمْ ﴾ - الآيات كلها - فسرى عن رسول الله على فقال: « أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » ، فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربي » (١) .

* * *

أما الصورة الثانية التي ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبي الله عليه وسلم ، فقد جاءت في سورة

⁽١) أسباب النزول للنيسابوري – مرجع سابق – ص ٢١٢

الأحزاب ، عندما طلب نساؤه - صلى الله عليه وسلم - منه التوسعة فى النفقة عليهن بعد ما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فئ بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم .. فجاء القرار من الله تعالى بتخيير أزواجه صلى الله عليه وسلم بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة .. وقد اخترن - رضى الله عنهن - الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسوله قائرنه على متاع الحياة ..

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلُ لاَ زُواجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ اللَّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنُ سَرَاحاً جَميلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارُ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ للمُحْسنَات منكُنَّ أَجْراً عَظِيماً * يَا نساءَ النَّبِيِّ مَن يَأْت منكُنَّ بِفَاحِشَة مُبَيَّنَة يُضَاعَفُ لَهَا العَذَابُ ضعْفَيْنِ ، وكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّه يَسيراً * وَمَن يَقَنَّتُ منكُنَّ للله وَرَسُولِه وَتَعْمَلُ صَالِحاً نُوْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدَنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيما * يَا نساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء ، إِن اتَقَيْتُنَ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَولُ وَرَسُولِه وَتَعْمَلُ صَالِحاً نُوْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدَنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيما * يَا نساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء ، إِن اتَقَيْتُنَ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَولُ وَرَسُولِه وَتَعْمَلُ صَالِحاً نُوتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدُنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيما * فَيَطْمَعَ اللّذِي فِي قَلْهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَولاً مَعْرُوفا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَالْعَعْنَ اللّهُ وَرَسُولَهُ * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ مِنْ السَّاءَ اللّه وَالْحَكُمْة وَالْمَا لُكُنَ اللّه وَالْحَكُمة وَالْعَلَى فِي بُيوتِكُنَ مِنْ آيَاتِ اللّه وَالْحَكُمة وَالْحَكُمة ، إِنَّ مَا يُتَكُى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّه وَالْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَالْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَالْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَالْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَادْحُكُمة ، إِنَّ اللّه وَادْحُكُمة ، إِنَّ اللّه وَادْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَادْحُكُمة وَاللّه وَادْحُكُمة وَاللّه وَالْحَكُمة وَاللّه وَالْحَكُمة ، إِنَّ اللّه وَادْحُكُمة واللّه وَالْحَكُمة واللّه وَالْحَلَق اللّه وَالْحَكُمة واللّه وَالْحَكُمة واللّه وَالْحَلَا اللّه وَالْحَلَى اللّه وَالْحَلَى اللّه وَالْحَكُمة واللّه واللّه وَالْحَلَى الْمُعْلَ الْمَلْ الْمُعْرَاقِه اللّه والْحَلَى الْمُعْلَ الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمَعْلَى الْمُعْلَا الْمُولُ الْمُعْلَ اللّه والْمُولِلَا الْمُولِلَ الْمُعْلَى الْمُعْلِ

اختار النبى الله لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزاً عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد !

⁽١) الأحزاب: ٢٨ - ٣٤

ومع هذا فقد كان الشهر يمضى ولا توقد في بيوته - صلى الله عليه وسلم - نار ، مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا .

ولكن نساء النبى على حين رأين السعة والرخاء بعد ما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين ، راجعنه - صلى الله عليه وسلم - في أمر النفقة .. فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا . إذ كانت نفسه - صلى الله عليه وسلم - ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضا ، متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضئ المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها .

وبلغ الأسى به - صلى الله عليه وسلم - أن احتجب عن أصحابه ، وكان احتجابه عنهم أمرأ صعباً عليهم ، يهون كل شئ دونه ، وجاءوا فلم يؤذن لهم (١١) .

ويحدثنا الإمام أحمد عن هذا الموقف فيقول: « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له .

ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له .

ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى على جالس وحوله نساؤه ، وهو صلى الله عليه وسلم ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى على لعله يضحك . فقال : يا رسول الله ، لو رأيتَ ابنة زبير - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبى على حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » !

فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده !!

⁽١) انظر : في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب : ٢٨٥٣/١ (بتصرف) .

فنهاهما الرسول على فقلن : والله لا نسأل رسول الله الله على بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

قال: وأنزل الله عَزُّ وجَلُّ الخيار، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال: « إنى ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْواَجِكَ ... ﴾ ... الآية .

قالت عائشة رضى الله عنها: أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت .

فقال صلى الله عليه وسلم: « إن الله تعالى لم يبعثنى معنتاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » (١) .

وفى رواية للبخارى: أن عائشة رضى الله عنها أخبرت أن رسول الله على جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه. قالت: « فبدأ بى رسول الله تفافقال: « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » – وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه – قالت: ثم قال: « إن الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْواجِكَ ... ﴾ ... إلى قام الآيتين – فقلت له: ففى أى هذا أستأمر أبوى ! فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

اختارت عائشة رضى الله عنها: الله ورسوله والدار الآخرة .. واختار نساء النبى ﷺ : الله ورسوله والدار الآخرة ، وقلن: « والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده » ..

وفي رواية : أنَّ الرسول ﷺ فرح بهذا الاختيار ..

ثم تأتى الآيات بآداب يأمر الله بها نساء النبى على ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك .

⁽١) رواه أحمد ، وأخرجه مسلم من حديث زكريا بن إسحاق .

فقال تعالى مخاطباً نساء النبى الله بأن من تأت منهن بفاحشة - وهى النشوز وسوء الخُلُق فسوف يضاعف الله لها العذاب ضعفين - وعلى كل تقدير هو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع - وأن من تطع منهن الله ورسوله وتستجب ، فسوف يؤتها تعالى أجرها مرتين ، أى فى الجنة ، فى منازل رسول الله الله في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

ثم يخاطب الله تعالى نساء النبى - ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك - بأنهن إذا اتقين الله عز وجَل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ونهاهن عن ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه دغل ، وأن يقلن قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

وأمرهن تعالى - ونساء الأُمة تبع لهن فى ذلك - أن يلزمن بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة - ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه - ونهاهن عن التبرج وشبّهه بتبرج الجاهلية الأولى حيث كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج ، فنهى الله نساء المؤمنين عن ذلك . وقال مقاتل ابن حيان : « والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك منها ، وذلك التبرج » .

نهاهن الله تعالى أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرَّجْسَ أَهْلَ البَيْتَ وَيُطْهِّرِكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت ههناً لأنهن سبب نزول هذه الآية .

⁽١) الأحزاب : ٣٣

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

ثم أمرهن الله تعالى أن يذكرن نعمة الله عليهن بأن جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فيشكرن الله تعالى على ذلك ويحمدنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ أى ذا لطف إذ جعلهن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة - وهى السنّة - خبيراً بهن إذ اختارهن لرسوله أزواجاً .

* * *

كما جاءت الصورة الثالثة التي ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبي على وقتل ثالثة الوقائع في حياته صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب أيضاً .. وكانت في شأن تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله على من زيد بن حارثة مولاه ، وما نزل في شأنه أولاً من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شئ ، وليس لهم في أنفسهم خيرة ، إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شئ ، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح ، ذلك لأن الإسلام قد جاء ليزيل الفوارق بين السادة والعبيد ويسوى بينهم ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، فلا سادة ولا عبيد في ظل أخوة الإسلام ..

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ، وما وراءه من إبطال آثار التبنى بسابقة عملية ، يُختار لها رسول الله على بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها ، فيقع الابتلاء على رسول الله للله ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها فى واقع المجتمع ، بعد تقريرها فى أعماق الضمير .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَمُؤْمِنِ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرُهُمْ ، وَمَن يَعْضِ اللَّهَ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلُ أَمْرُهُمْ ، وَمَن يَعْضِ اللَّهَ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلُ ضَلًا مَسْبِيناً * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَٱنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكُ

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهُ وَتُخْفِي فِي نَفْسكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيه وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أُحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لكَىٰ لا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أُزْوَاجِ أُدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَ وَطَراً ، لا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أُزْوَاجِ أُدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَ وَطَراً ، وكَانَ أَمْرُ اللّه مَفْعُولاً * مًا كَانَ عَلَى النّبِي مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللّه فِي اللّهِ فَي اللّهِ مَنْ خَلُوا مِن قَبْلُ ، وكَانَ أَمْرُ اللّه فَدَرًا مَقْدُوراً * اللّه يَبلّغُونَ رَسَالاَتَ اللّه وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحْداً إِلّا اللّهَ ، وكَفَى باللّه خَسيباً * مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أُحَد مِّن رَجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النّبينَ ، وكَانَ اللّهُ بكُلّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (١٠) .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات: « انطلق رسول الله على ليخطب على فتاة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها . فقالت : لستُ بناكحته ! فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » . قالت : يا رسول الله ، أؤامر في نفسي . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ .. قالت : قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » ! قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي » .

ويقول الشهيد سيد قطب: « وهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول ، وفي الحديث : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

مكثت زينب رضى الله عنها عند زيد بن حارثة قريباً من سنة ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله تله ، فجعل الرسول تله يقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . . قال له ذلك أكثر من مرة .

⁽١) الأحزاب: ٣٦ - ٤.

ولما أراد الله تعالى إبطال تقليد التبنى ، ورد الأدعياء إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى فقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيا عَكُمْ أَبْنَا عَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْواهِكُمْ ، وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُو يَهدى السّبيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائهمْ هُو أَقْسَطُ عندَ الله ، فإن لَمْ تَعْلَمُوا أَبَا عَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدّينِ وَمَوالِيكُمْ ، ولَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فيما أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكُن ما تَعَمَدت قُلُوبُكُمْ ، وكان اللّه غَفُوراً رّحيماً ﴾ (١) .

« وكان لنظام التبنى آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثراً فى النفوس ، ولا بد من سوابق عملية مضادة ، ولا بد أن تُستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ، وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين .

وقد زوج الرسول على بنت عمته زينب بنت بحض لزيد بن حارثة – الذى كان متبناه ، وكان يُدعى زيد بن محمد ، ثم دُعي إلى أبيه – ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، وليحقق أن المعيار هو التقوى ، وليقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى . ثم شاء الله تعالى أن يحمل نبيه بعد ذلك – فيما يحمل من أعباء الرسالة – مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها .. فألهم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زينب ، وأنه هو سيتزوجها ، الحكمة التى قضى الله بها . وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً » (٢) .

⁽١) الأحزاب: ٤ - ٥

⁽٢) انظر : في ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب : ٥/ ٢٨٦٨ (بتصرف) .

أعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » ، فقال تعالى : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

فلما فرغ زيد منها وفارقها زوجها الله تعالى له ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ، وإنما أباح له تزويجها لئلا يبقى حَرَج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء . إذن فليس على الرسول على حَرَج فيما أحلُّ الله له ، وأمره من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه . وهذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله ، إذ لم يكن ليأمرهم بشى وعليهم فى ذلك حَرَج ، لأن أمره تعالى الذى يُقدَّره كائن لا محالة ، وواقع لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وكان زواجه - صلى الله عليه وسلم - من زينب رضى الله عنها بعد انقضاء عد أرسله إليها عد أرسله إليها ليخطبها عليه . أرسله إليها ليخطبها عليه .

عن أنس رضى الله عنه قال: لما انقضت عدّة زينب رضى الله عنها قال رسول الله عنها قال يد بن حارثة: « اذهب فاذكرها على »، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها ، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول: إن رسول الله على يذكر. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى عَزُ وجَلُ ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن. وجاء رسول الله على فدخل عليها بغير إذن (١).

وقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال : إن زينب

⁽١) رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة .

بنت جعش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى الله فتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات » .

وهكذا .. حينما أراد النبى الله أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة أمر زينب بنت جحش – بنت عمته – الشريفة الهاشمية بالزواج من مولاه الذي تبناه : زيد بن حارثة رضى الله عنه .

وعندما أراد الله تعالى إبطال تقليد التبنى ، ورد الأدعياء إلى آبائهم ، أمر رسوله ﷺ أن يتزوج من مطلقة متبناه .

« وما كان على النبى على من حرج فيما فرض الله له من الزواج بزينب ، وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء ، وليس النبى على فيه بدعاً من الرسل ، فهو أمر يمضى وفق سُنَّة الله التي لا تتبدل ، والتي تتعلق بحقائق الأشياء ، لا بما يحوطها من تصورات مصطنعة لا تقوم على أساس . فهو أمر نافذ مفعول ، لا يقف في وجهه شئ ولا أحد ، وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن ، منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه . ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها ، وقد أمر الله تعالى رسوله أن يبطل هذه العادة ويمحو آثارها عملياً ، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية ، ولم يكن بُدٌ من نفاذ أمر الله .

وسننة الله هذه قد مضت في الذين خلوا من قبل من الرسل ، فهم لا يحسبون للخلق حساباً فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشون أحداً إلا الله الذي أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ ، فهو وحده الذي يحاسبهم ، وليس للناس عليهم من حساب ..

يقول تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَد مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النّبَيِينَ ﴾ (١) ، فزينب رضى الله عنها ليست حليلة ابنه ، وزيد رضى الله عنه ليس ابن محمد ﷺ ، إنما هو ابن حارثة ، ولا حَرَج إذن في الأمر حين يُنظر إليه بعين الحقيقة الواقعة .

⁽١) الأحزاب : . ٤

والعلاقة بين محمد على وبين جميع المسلمين - ومنهم زيد بن حارثة - هى علاقة نبى بقومه ، وليس هو أباً لأحد منهم ، ومن ثَمَّ فهو يشرَّع الشرائع الباتية لتسير عليها البَشرية ، وفق آخر رسالة للسماء إلى الأرض ، التى لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير » (١) .

* *

ومن سورة الأحراب أيضاً تأتى الصورة الرابعة التى ينقلها إلينا القرآن الكريم من داخل بيوت النبى ، وقد تناولت تنظيم الحياة الزوجية للنبى ، وتُبيَّن من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه ، ثم تستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبى تا وأزواجه فى حياته وبعد وفاته ، وتقرير احتجابهم إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن ... إلخ .

كما تستطرد إلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله على فى أزواجه وبيوته وشعوره ، وبلعنهم فى الدنيا والآخرة ، مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً ، ثم يعقب على هذا بأمر أزواج النبى وبناته _ ونساء المؤمنين كافة – أن يدنين عليهن من جلابيبهن ..

يقول الله تعالى: ﴿ يُا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمًّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَات عَمَّكَ وَبَنَات عَمَّكَ وَبَنَات عَمَّكَ وَبَنَات عَمَّكَ وَبَنَات عَمَّكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً عَمَّاتِكَ وَبَنَات خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَّبِيِّ إِنْ أُرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنَكَحَهَا خَالصَةً لَكَ مِن دُونَ اللَّهُ مَنِينَ ، قَدْ عَلَمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهُمْ فِي أُزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ اللَّهُ عَنُوراً رَّحِيماً * تُرْجِي مَن تُشَاءُ للكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَّجٌ ، وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * تُرْجِي مَن تُشَاءُ مَنْ شَيَاءُ مَنْ تَشَاءُ وَمَن إِبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جَنَاحَ عَلَيْكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَنُوراً رَحِيماً * تُرْجِي مَن تُشَاءُ مَنْ تَشَاءُ وَلَا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَ كُلُهُنَ ، واللَّهُ فَلَكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَ كُلُهُنَّ ، واللَّهُ فَلَكَ أَدُنْكَى أَلُولُكُ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَ وَلا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَ كُلُهُنَ ، واللَّهُ فَلَكَ أَدُنْكَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُهُنَّ ، واللَّهُ

⁽١) المرجع السابق: ٥/. ٢٨٧ (يتصرف) .

يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً * لا يَحلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواج وَلَوْ أُعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلَّا مَا مَلَكَتْ يَعْيَنُكَ ، وكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رُقِيباً ﴾ (١) .

« يبين الله لرسوله على ما يحل له من النساء ، وما فى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعد ما نزلت آية سورة النساء التى تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعاً : ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَرُبَاعَ ﴾ (٢) .

وكان في عصمة النبي الله في هذا الوقت تسع نساء ، تزوج بكل منهن لمعنى خاص ، عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبي بكر وعمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتي فقدن أزواجهن وأراد النبي الله تكريمهن ، ولم يكن من ذوات جمال ولا شباب ، إنما كان معنى التكريم لهن خالصا في هذا الزواج . وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها ، وقد كان هناك تعويض لها كذلك عن طلاقها من زيد الذي زوجها رسول الله الله عنه منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى ، وعرفناه في قصتها ، ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وكانتا من السبى فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، توثيقاً لعلاقته بالقبائل ، وتكرياً لهما ، وقد أسلمتا بعد ما نزل بأهلهما من الشدة .

وكن قد أصبحن « أمهات المؤمنين » ونلن شرف القرب من رسول الله ﷺ ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتى التخيير . فكان صعباً على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء . وقد نظر الله إليهن ، فاستثنى رسول الله ﷺ من ذلك القيد ، وأحل له استبقاء نسائه جميعاً في عصمته ، وجعلهن كلهن حلاً له ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحداً ،

⁽١) الأحزاب: . ٥ - ٢٥

ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى . فإغا هذه الميزة لهؤلاء اللواتى ارتبطن به وحدهن ، كى لا يُحرمن شرف النسبة إليه ، بعد ما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وحول هذه المبادئ تدور هذه الآيات . ففيها يحل الله للنبى الشائلة أنواع النساء المذكورات فيها - ولو كن فوق الأربع - ما هو محرم على غيره ، وهذه الأنواع هى : الأزواج اللواتى أمهرهن ، وما ملكت بمينه إطلاقاً من الفئ ، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن من لم يهاجرن - إكراماً للمهاجرات - وأيما امرأة وهبت نفسها للنبى بلا مهر ولا ولى . إن أراد النبى نكاحها (وقد تضاريت الروايات حول ما إذا كان النبى على قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوج اللواتى عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين) ، وقد جعل الله هذه الخصوصية للنبى على عا أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعاً . فأما الآخرون فهم خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كى خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كى المحيطة بشخصه .

ثم ترك الخيار له - صلى الله عليه وسلم - في أن يضم إلى عصمته من شاء من يعرضن أنفسهن عليه ، أو يؤجل ذلك . ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء.. وله أن يباشر من نسائه من يريد ويرجئ من يريد ثم يعود .. ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْينُهُنَ وَلا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَ كُلُّهُنَ ﴾ .. فهى مراعاة الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول على شرف الاتصال به ، نما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه .

ثم أنزل الله تحريم من عدا نسائه اللواتى فى عصمته فعلاً ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ، ولم يُعرف أن رسول الله عليه قد زاد عليهن قبل التحريم .

وقد روت عائشة رضى الله عنها أن هذا التحريم قد ألغى قبل وفاة النبى على وقد روت عائشة رضى الله عنها أن هذا التحريم قد ألغواج ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة ، فكن هن أمهات المؤمنين ..

بعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبى الله وبنسائه - أمهات المؤمنين - في حياته وبعد وفاته كذلك . ويواجه حالة كانت واقعة ، إذ كان بعض المنافقين والذين في قلوبهم مرض يؤذون النبي الله في بيوته وفي نسائه . فيحذرهم تحذيراً شديداً ، ويريهم شناعة جرمهم عند الله وبشاعته ، ويهددهم بعلم الله لما يخفون في صدورهم من كيد وشر » (١) .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النّبِيّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَام غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَانتَشْرُواْ وَلا مُسْتَغْنسينَ لحَديث ، إِنَّ ذَلكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبِيّ فَيَسْتَحْي مِن الْحَقِّ ، وَإِذَا سَٱلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَيَسْتَحْي مِن الْحَقِّ ، وَإِذَا سَٱلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حجَاب ، ذَلكُمْ أَطَهَرُ لَقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوْذُواْ رَسُولَ اللّه وَلا أَن تَنكحُواْ أَزْواَجَهُ مَن بَعْده أَبَدا ، إِنَّ ذَلكُمْ لَكُمْ أَن تُوخُواْ مَنْ عَلَى كُلُّ أَنْ تَنكحُواْ أَزْواَجَهُ مَن بَعْده أَبَدا ، إِنَّ ذَلكُمْ كَانَ عِندَ اللّه عَظيماً * لا جَنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاء أَنْ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْء عَلَى كُلَّ شَيْء اللّهُ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلا أَبْنَاء أَنْ اللّهَ وَمَلائكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَلا أَبْنَاء أَوْلَا مَا مَلكَتُ أَيْمَانُهُنَّ وَلا أَبْنَاء أَوْلَا مَنْ وَلا أَنْفَالُونُ وَلا أَنْ اللّه وَمَلائكَتَّ أَيْمَانُهُنَّ وَلا أَنْفَالُونَ عَلَى اللّه وَمَلائكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَلا أَنْفَالُونُ وَلا أَنْ اللّه وَمَلائكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَلَا أَنْ عَلَى كُلَّ شَيْء شَهيداً * إِنْ اللّه وَمَلائكَتُهُ وَاللّه وَمَلائكَتُهُ وَاللّهُ فَي الدُّنِينَ يُؤِذُونَ المُؤْمنِينَ وَالْمُواْ عَلَيْه وَسَلّمُواْ تَسْليما * عَذَابا مُهينا * وَاللّذِينَ يُؤَذُونَ المُؤْمنينَ وَالمُؤْمنينَ وَالمُؤْمنينَ وَالمُؤْمنَات بِغَيْر مَا اكْتَسَلَوا فَقَد اللّه وَسَلّمُواْ وَسَاء عَذَاباً مُهينا وَإِنْما مُبْينا * يَا أَيُهَا النّبِي قُلُ لاَزُواجِكَ وَبَنَاتِكَ وَبَسَاء وَسَاء وَسَلَيما وَاللّهُ وَاللّه وَسَاء وَسُولُونُ وَسَاء وَسُولُونُ وَسَاء وَالْمَالِولُونُ اللّهُ وَلَا لَوْلُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُو

⁽١) انظر : في ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب - : ٥/ ٢٨٧٥ (بتصرف) .

الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنِّ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفَٰنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ، وَكِانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحيماً ﴾ (١) .

الآية الأولى من هذه الآيات هى آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، فقد حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل الرسول على بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون . إلا أن يؤذن لهم إلى طعام غير متحينين نضجه واستواء ، ولكن إذا دعوا فليدخلوا ، فإذا طعموا فلينتشروا . روى مسلم فى صحيحه : قال رسول الله على : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره » .

ونهاهم تعالى أن يستأنسوا للحديث كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله على كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْي مِنكُمْ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْي مِن الحَقِّ ﴾ .

وكما نهاهم الله عن الدخول عليهن ، كذلك أمرهم ألا ينظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدهم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ، فهذا الذي أمرهم به وشرعه لهم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤُذُواْ رَسُولَ اللّه وَلا أَن تَنكِعُواْ أَزُواَجَهُ مِن بَعْده أَبَداً ، إِنَّ ذَلكُمْ كَانَ عِندَ اللّه عَظِيماً ﴾ نزلت في رجل أعلن عن رغبته في الزواج من بعض نساء النبي ﷺ بعد موته ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

ثم يخبرهم - تعالى - بأنه مهما تكنه ضمائرهم وما تنطوى عليه سرائرهم فإن الله يعلمه ، فإنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْبُنِ وَمَا تُخْفى الصَّدُورُ ﴾ (٢) .

⁽١) الأحزاب : ٣٥ - ٥٩

ولما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم فى سورة النور : ﴿ وَلا يُبدّينَ زِينَتَهُنَّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ... ﴾ (١) . وقد سأل بعض السّلف : لِمَ لَمْ يَذكر العم والخال فى هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبى : بأنهما لم يُذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . ولكن كرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها . وقوله : ﴿ أَوْ نَسَائِهِنَّ ﴾ يعنى بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعنى به أرقاءهن من الذكور والإناث . ثم يحثهن على خشية الله فى الخلوة والعلانية ، فإنه تعالى شهيد على كل شئ ، لا تخفى عليه خافية ، فليراقبن الرقيب .

ثم يحث المسلمين على الصلاة على رسوله ، فإنه تعالى وملائكته يصلون عليه .. وصلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، أو : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

ثم يهدد الله تعالى ويتوعد من آذى رسول الله ﷺ بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وإيذا ، رسوله بعيب أو بنقص – عياذاً بالله من ذلك – وقد نزلت هذه الآية في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزوجه صفية بنت حيى ، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشئ ، ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله .

ويتوعد الله الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات وينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ، والبهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الذين يعيبون الصحابة بما قد برأهم الله منه وينتقصوهم بما قد برأهم الله منه ، فإن الله تعالى قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم .

⁽١) النور : ٣١

ثم يقول الله تعالى آمراً رسوله الله أن يأمر النساء المؤمنات - وخاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار .. عن ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة . فإذا فعلن ذلك عُرفن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، فلا يتعرضن للإيذاء .

* *

أما الصورة الخامسة والأخيرة - التى نعرضها هنا - فقد جاءت فى سورة التحريم ، وتعرض صفحة من الحياة البيتية للنبى ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته صلى الله عليه وسلم وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك ، ثم فى الترجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله عليه وبين أزاوجه حين أفشت إحداهن سرأ له إلى صاحبة لها من أزواجه فتآمرتا عليه مما أدى إلى غضبه صلى الله عليه وسلم وإيلائه من نسائه أن لا يقربهن شهراً . بل وهم صلى الله عليه وسلم بتطليقهن .

كما تعرض هذه الصورة لما ورد فى هذا الحادث من توجيهات ربانية ، وبخاصة دعوة الزوجتين اللتين تظاهرتا عليه إلى التوبة إلى الله تعالى من هذا الذنب العظيم .

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلُّ اللّهُ لَكُ ، تَبْتَغَى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللّهُ غَفُورٌ رُحِيمُ * قَدْ فَرَضَ اللّهُ لَكُمْ تَحَلّهُ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللّهُ مَوْلاكُمْ ، وَهُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أُسَرَّ النّبِي اللّهُ لَكُمْ بَعْضَهُ بَعْضَهُ أَزْوَاجِه حَدِيثاً فَلَمّا نَبّأت بِهَ وَأَظْهَرَهُ اللّهُ عَلَيْه عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضَ ، فَلَمّا نَبّأهَا بِه قَالَتْ مَنْ أُنبَأَكَ هَذَا ، قَالَ نَبّأنِي العَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إلَى اللّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظْاهَرَا العَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إلَى اللّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظْاهَرا العَلِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إلَى اللّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظْاهَرَا

عَلْيَه فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُولاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبَّهُ إِن طَلَقَكُنَّ أَن يُبْدَلَهُ أَزْواَجاً خَيْراً مَّنكُنَّ مُسْلِماًتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِداتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ (١).

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيد من توجيهات ، وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيد إلى التوبة ، نجد الله تعالى يعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد الكافرين في هذه النار ، ويختتم السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن ، وعن امرأة فرعون كمثل للإيان في بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وهى صورة وإن كانت تعرض صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ، فهى تعرض كذلك صورة لانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته صلى الله عليه وسلم وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك ، ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله ﷺ وبين أزواجه كما قدمنا .

وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت في شأن مارية القبطية - سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان الرسول قد حرَّمها . روى النسائي أن رسول الله

⁽١) التحريم : ١ - ٥

صلى الله عليه وسلم كانت له أمّة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها ، فأنزل الله عَزّ وجَلّ هذه الآيات .

وروى ابن جرير أن رسول الله على أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه ، فقال : أى رسول الله ، في بيتى وعلى فراشى ، فجعلها عليه حراماً ، فقالت : أى رسول الله ، كيف يُحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

والصحيح : أن ذلك كان في تحريمه العسل .

روی البخاری عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت: « كان النبی تشخ یشرب عسلاً عند زینب بنت جحش ، و یمکث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة علی أیتنا دخل علیها فلتقل له: أكلت مغافیر (۱) ، إنی أجد منك ربح المغافیر قال: « لا ، ولكنی كنت أشرب عسلاً عند زینب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبری بذلك أحدا » .. فهذا هو الذی حرمه علی نفسه وهو حلال له .

ويقول الشهيد «سيد قطب »: « ... يبدو أن التى حدّتها رسول الله على هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها ، فأطلع الله رسوله على على الأمر . فعاد إليها فى هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه ، تمشيأ مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسأ مختصراً لتعرف أنه يعرف وكفى ، فدهشت هى وسألته : « مَن أنبأك هذا » ؟ .. ولعله دار فى خلدها أن الأخرى هى التى نبأته ! ولكنه أجابها : « نبأنى العليم الخبير » .. فالخبير هو المصدر الذى يعلمه كله ، ومضمون هذا أن الرسول عليه يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذى حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تآمر ومكايدات في بيت

⁽١) المغافير : صمغ حلو الطعم كريد الوائحة .

الرسول الله أن غضب ، فآلى من نسائه لا يقربهن شهراً ، وهَمَّ بتطليقهن - على ما تسامع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات وقد هدأ غضبه صلى الله عليه وسلم فعاد إلى نسائه » (١) .

وبعد أن يعرض الرواية الأخرى للحادث التى أخرجها النسائى من حديث أنس ، وكما رواها ابن جرير وابن إسحاق من أن هذه الآيات إغا نزلت فى شأن مارية القبطية ، يقول : « وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذى وقع ، وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدى إلى طلاق زوجات الرسول على نظراً لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسناداً ، وهى فى الرقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التى ترتبت عليها ، إذا نظرنا إلى المستوى الذى يسود بيوت النبى ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئاً كبيراً ، والله أعلم أى ذلك كان » (٢) .

أما وقع هذا الحادث - حادث إبلاء النبي من أزواجه - فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال : « لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله الله الله الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبا إِلَى اللّهِ فَقَد ْ صَغَت ْ قُلُوبُكُما ﴾ حتى حج عمر وحججت معد ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، نتبرز ، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبي على الله نقد صَغَت قُلُوبكُما ﴾ ؟ فقال عمر : واعجبا لك يابن عباس ! (قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال : هي عائشة وحفصة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث :

« قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

⁽١) في ظلال القرآن - للشهيد « سيد قطب » : ٣٦١٣/٦ (بتصرف) .

⁽٢) نفس المرجع والصفحة .

« قال : وكان منزلى فى دار أمية بن زيد بالعوالى . قال : ففضبت يوماً على امرأتى ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرتُ أن تراجعنى . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله تلك ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل !

« قال : فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم ! قلت : قد خاب مَن فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منك - يريد عائشة .

« قال : وكان لى جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحى وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاءً فضرب بابى ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله ﷺ نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائناً .

« حتى إذا صليتُ الصبح شددت على ثيابى ثم نزلتُ فدخلت على حفصة وهى تبكى . فقلت : أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل في هذه المشربة .

« فأتيتُ غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت ! فانطلقتُ حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلستُ عنده قليلاً ، ثم غلبنى ما أجد فأتيتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت ! فخرجتُ فجلستُ إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت !

« فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه . فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يوما ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت: ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت ؟ .. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« قال : فقلت : يا رسول الله ، قد دخلتُ على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ! .. فتبسم أخرى .

« قال : فقلت : أستأنس يا رسول الله ! قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يا رسول الله .. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عَزُّ وجَلُّ » (١) .

وروى ابن أبى حاتم عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : بلغنى شئ كان بين أمهات المؤمنين وبين النبى على فاستقريتهن أقول : لتكفن عن رسول الله الله أو ليبدلنه الله أزواجا خيراً منكن ، حتى أتيت آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظ نساء حتى تعظهن ، فأنزل الله تعالى :

⁽١) وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدَلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ .. ﴾ ، وهذه المرأة التي ردته هي أم سلمة رضى الله عنها كما ثبت ذلك في صحيح البخاري .

وفى رواية أن عمر رضى الله عنه قالى: يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكالى ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدَّق قولى ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِن تَظَاهَرا عَلْيَه فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مُولاهُ وَجبْرِيلُ وصَالحُ المُؤْمنينَ ، والملائكةُ بَعْدَ ذَلكَ ظَهيرٌ ﴾ .

أرأيت كيف كان عمق هذا الحادث وأثره في قلب الرسول على حتى آلى من نساءه أنه يهجرهن شهراً ، وحتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول على ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير ؟!

أرأيت كيف أثر هذا الحادث على نفوس المسلمين حتى عدوه أعظم وأخطر من غزو غسان لبلادهم ، وكيف كانوا يرون أن استقرار قلب رسولهم الكبير ، وسلام بيته الكريم أكبر من كل شأن ، وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ؟!

أما اليمين - التى يوحى النص بأن الرسول على قد حلفها - بتحريم العسل على نفسه - فقد فرض الله تحلتها ، أى كفارتها التى يحل منها ، ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى بقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللّهُ لَكُمْ تَحِلّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللّهُ مَوْلاكُمْ ، وَهُو الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .. الله مولانا .. فهو يعيننا على ضعفنا وعلى ما يشق علينا ، ومن ثَمَّ فرض تحلة الأيمان للخروج من العنت والمشقة ، وهو العليم الحكيم .. يُشرِّع لنا عن علم وعن حكمة ، ويأمرنا بما يناسب طاقتنا وما يصلح لنا ، فلا نحره إلا ما حره ، ولا نحل غير ما أحل .

الفصل الرابع

صاحب المعجرات الباهرة

• المعجزة .. والكرامة :

المعجزة - فى أصل معناها اللغوى - مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .، ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلاً على صدق دعوته ، ويرهاناً على حقية رسالته .

ولقد جرت سُنّة الله سبحانه: أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة، وخارجة عن حدود المألوف للناس، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الإيان بهم، والإذعان لهم، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وإرشاد.

كان النبى يُبعث فى قومه فيصدع بالدعوة إلى الله ، فيستجيب له مَن شرح الله صدره لدعوته ، ويكذَّب به مَن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم : أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم .

ويتماذى المكذّبون في المكابرة والعناد ، فإذا بهم يرمون أنبياءهم - بعد الكذب - بالسحر تارة وبالجنون أخرى .

قالوا كل ذلك وأكثر منه في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم . فما كان من الأنبياء إلا أن لجأوا إلى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد لهم بصدق دعوتهم .

وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز . وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبئاً بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء !!

وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء .

ومن شرط المعجزة أن تكون مبنية على الظهور والإعلان ، لأنها حُجُة الأنبياء على دعوى النبوة ، فلا بد من إظهارها وإعلانها صريحة جلية أمام المكذّبين الجاحدين حتى يسلموا لأنبيائهم ويدخلوا في دينهم . كما يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

ومن أدلتها في القرآن الكريم قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ فَٱلْقَيْ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُّبُينٌ * وَنَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضًا ءُ للنَّاظرينَ ﴾ (١).

وقوله على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّى قَدْ جِئْتَكُمُ بِآيَةٍ مِّن رَبِّكُمْ ، أُنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأْنَفُخُ فِيهَ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَبْرِئُ الأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ وَأُخْي المَوْتَىٰ بَاذُنْ اللَّهِ ، وَأَبْرِئُ الأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ وَأُخْي المَوْتَىٰ بإذْن اللَّه ، وَأُنْبَثُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (١) .

وقوله عن الرسول الخاتم ﷺ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مَّنَ اللَّهِ مِنْ آيَاتِنَا ، المُسْجِد الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِد الْأَقْصَا الَّذِي بَارِكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَّهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢٦) .

ولقد كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الخالدة والباقية إلى يوم القيامة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى : ﴿ قُل لَّمْنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنَّ

⁽١) الأعراف: ١.٨ – ١.٨ (٢) آل عمران: ٤٩ (٣) الإسراء: ١

عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لِا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ظَهِيراً ﴾ (١) .

أما الكرامة .. فهى أمر خارق للعادة أيضاً - بَيْدَ أنه غير مقرون بدعوى النبوة - يظهره الله تعالى على يد عبد صالح ، متحل بهدى النبى الله ، عامل بأحكام الشريعة المطهرة ، ومتأدب بآدابها فى اعتقاده وقوله وعمله ، وهى - شأنها شأن المعجزة - ثابتة عند جماهير العلماء خَلَفاً وسَلَفاً .

ولا يُشترط فى الكرامة الظهور والإعلان ، لأنها مبنية على الإخفاء والإسرار ، وما يظهر منها لا يكون عن قصد الولى أو إدعاءً منه للكرامة ، فكثيراً ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها . ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى إنه ليطلب منه الأمر الخارق للعادة فيُجاب إليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد فى زمرة الأفاكين والأدعياء .

كما أن الكرامة تختص ببعض خوارق العادات دون بعض ، فهي تتعلق -- عادة - بالخوارق التي لا تبلغ حد المعجزة في الغرابة والاستبعاد .

ويقول الإمام القشيرى فى الرسالة القشيرية: « ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه فى العقل، لا يؤدى حصوله إلى رفع أصل من الأصول، فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شئ يمنع جواز حصوله.

وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله . فمن لم يكن صادقاً فظهور مثلها عليه لا يجوز . والذي يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه إيانا حتى نفرًق بين من كان صادقاً في أحواله وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم ، ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفترى في دعواه ، وذلك الأمر هو الكرامة التي أشرنا إليها .

⁽١) الإسراء: ٨٨

ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف ، ظاهراً على موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله » ا . هـ .

ومن أدلة الكرامة ، ما ذكره الله تعالى فى شأن مريم ابنة عمران ، قال تعالى : ﴿ كُلِّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيًّا الْمحْرَابَ وَجَدَ عندَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أُنَّىٰ لَكَ هَذَا ، قَالَتْ هُو مِنْ عَندِ اللّهِ ، إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حسابٍ ﴾ (١) .

يقول الإمام القرطبى : كان يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ ، وفاكهة القيظ في الشتاء .

ويقول جلَّ شأنه : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْك بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطُباً جَنياً * فَكُلى وَاشْرَبِي وَقَرِّى عَيْناً ﴾ (٢) .

قيل : كان جذع النخلة يابساً ، وقيل : كانت نخلة مثمرة .

والصحيح: أن النخلة لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاد المسيح عليه السلام . كان في زمن الشتاء ، وليس ذاك وقت ثمر النخل ، ويفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : ﴿ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطُباً جَنياً ﴾ .

ومن الأدلة على وقوع الكرامة : ما أكرم الله تعالى به أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - من تكثير طعامه أمام أضيافه حتى أكلوا جميعاً على كثرتهم وبقى الطعام أكثر مما كان .

ومنها ما أكرم بد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتحقيق كل ما ألهمه وظنه .

ومنها ما أكرم به سعيد بن زيد رضى الله عنه ، حين استجاب دعاءه على أروى بنت أوس ، لما ادعت عليه أمام مروان بن الحكم زوراً في أرض ادعت أنه اغتصبها .

⁽۱) آل عمران : ۲۷ (۲) مريم : ۲۵ – ۲۹

ومن الأدلة : ما أكرم الله تعالى به جريجاً العابد بنطق الطفل الرضيع ، وتبرئته من جريمة الزنا .

ومنها: ما أكرم الله به الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة حين توسلوا إليه تعالى بأعمالهم الصالحة ... إلخ .

ولا يمنع العقل إمكان حدوث المعجزة أو الكرامة ، ما دام الذى يجريهما هو الله تعالى على أيدى أنبيائه وأوليائه .. بل إن من ينكر المعجزة للنبى ، أو الكرامة للولى ، يُعد كافراً والعياذ بالله (١١) .

* * *

• المعجزة الكبرى .. « القرآن الكريم » :

لا يماري مخلوق في أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبري للرسول ﷺ.

والدليل على إعجاز القرآن أن النبى على النبوة ، وأتى بالقرآن ، وادعى أنه معجز قد أنبأه الله عَزُّ وجَلُّ به ، وجعله دلالة على صحة دعواه وبرهاناً على صدقه ، وتحدى به العرب قاطبة ، وقرعهم بالمعجز عن الإتيان بمثله ، بل بسورة مثله ، وفيهم الخطباء والشعراء والبلغاء وهم الغاية والبيان وأُولو المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه عن المنثور والمنظوم ، ولهم العادة المشهورة في التفاخر بالبلاغة والفصاحة ، والمعرفة بطريق المعارضات ومزايا المخاطبات ، مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية ، ومع شدة حرصهم على تكذيبه وتوهين أمره وإبطال دعواه ، حتى بذلوا لذلك ما عزَّ وهان من النفس فما دونها ..

والرسول عَلِيُّ يتحداهم ويقرعهم بالعجز ، ويدعى أنه حُجَّته وبينَّته ، ويذم مع

⁽۱) انظر كتابنا: « الله توحيد .. وليس وحدة » - نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦ ص ١٧٣ وما بعدها ، وانظر أيضاً: « الرسالة القشيرية » للإمام القشيرى ، و « الوحى .. والقرآن الكريم » للشيخ محمد حسين الذهبى .

ذلك أديانهم ، ويسب آلهتهم التي اتخذوها من دون الله عَزُّ وجَلُّ ، ويدعوهم إلى طاعته ، والتصرف على أمره ونهيه .

واستمر صلى الله عليه وسلم على ذلك زماناً بعد زمان فلم يعارضوه ، وعدلوا إلى الحرب التي هي أشق فقاتلوا حتى قتلوا وتُتلوا .

فدل ذلك على أن عدولهم عن معارضة القرآن لم يكن إلا لتعذره عليهم ، إذ لا يجوز على العقلاء إذا حاولوا أمراً أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل إلى الأعضل ، ومن الأيسر إلى الأعسر ، إذا كانوا متمكنين منهما .

وإذا ثبت تعذرها - أى المعارضة - عليهم ، يثبت أنها على غيرهم أشد تعذراً ..

والمعجز هو الأمر الذي يتعذر مثله على جميع البشر ، فثبت أن القرآن الكريم معجز على ما قلناه ، وهذه الدلالة مبنية على أن التحدى به قد وقع ، وأن المعارضة لم تقع ، وأن السبب الذي من أجله لم تقع هو التعذر ، وأن التعذر متى صح ، صح كونه معجزاً .

فالقرآن الكريم : كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

عرض رسول الله على قومه القرآن ، واستدل على صدقه به وتحداهم بقوله : إن كنتم فى شك من صدقى فائتوا بقرآن مثله ، وعند سماعهم له راعهم ما سمعوا ، وعلموا أنهم دون معارضته قد انقطعوا ، فلم يقدروا على ذلك . يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلُهُ ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُواْ بِحَديثٍ مِثْلُه إن كَانُواْ صَادقينَ ﴾ (١) .

⁽١) الطور : ٣٣ – ٣٤

ثم إند طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُورِ مَثْلَهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، فعجزوا ولم يقدروا .

ثم طلب منهم أن يأتوا بسورة مثله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَتُوا
بِسُورَة مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ..
فلم يستطيعوا .

بل إنه تعالى تحداهم وأخبرهم أنهم لن يتمكنوا أبداً - مهما حاولوا - من الإتيان بسورة من مثله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدُنَا فَأَتُوا بسُورَة مِّن مَّثْلُه وَادْعُوا شُهدا ءَكُم مِّن دُونِ الله إن كُنتُم صَادَقينَ * فَإِن لُمْ تَفْعَلُوا وَلَنَ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الْتِي وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ ، أُعدَّت للكافرينَ ﴾ (٣) .

وعند ذلك أخبرهم أنهم لو اجتمعوا هم والجن على أن يأتوا بمثله فلن يأتوا بمثله : ﴿ قُل لَّيْنِ اجْتَمَعَت الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٤) .

وعند ذلك ظهر عجزهم وتبلدهم وإن كانوا هم اللسن الفصحاء ، اللد البلغاء .

ويقول ابن كثير رضى الله عنه: ﴿ أُمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ... ﴾ أى إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذبا ومينا : إن هذا من عند محمد بشر مثلكم وقد جاء – فيما زعمتم – بهذا القرآن ، فأتوا أنتم يسورة مثله ، أى من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدى ، فإنه تعالى تحداهم إن كانوا

⁽۱) هود : ۱۳

⁽۲) يونس: ۳۸(٤) الإسراء: ۸۸

⁽٣) البقرة: ٢٣ - ٢٤

صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليأتوا بمثله ، وليستعينوا بمن شاؤوا فقال تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضَ ظَهِيراً ﴾ ، ثم تقاصر معهم القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضَ ظَهِيراً ﴾ ، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَن دُونِ اللّه إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، ثم تنازل مُفتريات وادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّه إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، ثم تنازل إلى سورة فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَة مِّ شُلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّه إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام ، وحلاوته وجزالته ، وطلاوته وإقادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له ، وأشدهم له انقيادا ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من عند الله ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى عليه السلام بُعث في زمان علماء الطب ، ومعالجة المرض فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله ، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » (١)

ويقول في تفسير آية هود : « بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، لأن كلام الرب

⁽١) مختصر تنسير ابن كثير ، للشيخ محمد كريم راجح ، تفسير سورة يونس : ١٨/١ه

تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شئ ، تعالى الله وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه » (١) .

ويقول فى تفسير آية الإسراء: « نبّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ، ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له » (٢).

ولو أن نبياً ادعى أنه رسول الله ، واستدل على صدقه بأن قال لقومه : آيتى ألا تقدروا اليوم على القيام فكان ذلك ، فهذا دليل صدقه وهو معجزة جلية .

والقرآن الكريم خارج عن مقدور البَشر ، وليس من جنس مقدورهم ، وأنه وإن كان كلاماً فليس بينه وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء إلا ما كان بين الحية التى انقلبت عصى موسى عنها ، وبين حيات السحرة التى كانت تخيل للناظر أنها حيات تسعى .

لم يستطع الناس على مر العصور وتعاقب الدهور أن يأتوا بمثل القرآن ، بل على الإتيان بآية طويلة من آياته ، لذا كان القرآن الكريم هو معجزة الرسول الخالدة ، فهى موجودة بعده ، وحاضرة مشاهدة في كل وقت إلى قيام الساعة .

ومن الوجوه الذي مايز به القرآن كلام العرب: فصاحته الرائعة وبلاغته الموفقة وجزالته الفائقة ، حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معانى كثيرة ، مع عذوبة إيرادها ، وجزالة مساقها وصحة معانيها مثل قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأُمُر بِالْعُرْف وَأُعْرِضْ عَن الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) ، ولما نزلت هذه الآية قال أبو جهل - وكان من أشد الأعداء على الرسول ﷺ : إن رب محمد لفصيح .

⁽١) المرجع السابق : ١٣/١ (٢) نفس المرجع : ٧١٢/١ (٣) الأعراف : ١٩٩

فهذه الآية بما تضمنت من الأحكام ، وتفسير الحلال والحرام ، والإعراض عن أهل الجهل والإجرام ، والأمر بالتزام أخلاق الكرام ، تدل دلالة قاطعة على أنها كلام العزيز العلام ، مع ما هي عليه من اللفظ الجزل الرصين ، الذي يروع قلوب العارفين . ويشلج قلوب القارئين والسامعين .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدَلُ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاء ذِي القُرْبَيٰ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذكَّرُونَ ﴾ (١) .

ولما سمع « المغيرة » هذه الآية - وكان من أعدائه الذين يريدون إطفاء نوره وإذهاب بهائه - قال : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر مورق ، وما يقول هذا يَشر » .

وهذه الآية – قد تضمنت بحكم عمومها وصحة مفهومها – معانى كتب المتقدمين ، وشرائع الماضين ، وتذكرة الحاضرين ، وتخويف المقصرين ، وترغيب المجتهدين ، مع ما هي عليه من قلة الكلمات ، ومع عذوبة المساق والجزالات .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولُهُ وَبَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقُهِ فَأُولَٰثِكَ هُمُ الفَائزُونَ ﴾ (٢) .

حكى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بينما هو نائم يوماً فى المسجد ، إذ وقف على رأسه رجل يتشهد بشهادة الحق ، فاستخبره . فقال : إنى كنت من يطارقة الروم ، وكنت عن يحسن كلام العرب وغيرهم ، فسمعت أسيراً من المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها ، فإذا هى قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ، ثم قرأ عليه هذه الآية .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُوحَيْنَا إِلَىٰ أُمَّ مُوسَىٰ أَنْ أُرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقَيِهِ فَي الْيَمَّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مَنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

⁽١) النحل: ٩. (٢) النور: ٥٢ (٣) القصص: ٧

حكى أن « الأصمعي » سمع جارية من العرب تنشد :

أستغفسرُ اللّه لذنبى كلّه قتلتُ إنساناً بغيسر حِلّه مثل غزال ناعماً في دلّه وانتصف الليلُ ولم أصلّه

فتعجب الأصمعي من فصاحتها . فقالت : وهل بعد قول الله تعالى فصاحة حيث قال : ﴿ وَأُوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ... ﴾ – وتلت الآية ثم قالت : فإنه جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَاصْدُعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) . حكى أن أعرابياً لما سمعها سجد ، فقيل له : لِمَ سجدتَ ؟ فقاًل : سجدتُ لفصاحته .

ولا يظن الجاهل أنًا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب ، كلا ، لو كان ذلك لكانت الحُجَّة أضعف من السراب ، بل نعلم أنه معجز بفصاحته علم ضرورة تحصل لنا عند سماعه وقراءته ، والبلغاء إذا وقفوا عليه وسمعوه ، لذلك العلم مضطرون ، بحيث لا يرتابون ولا يشكون .

⁽١) الحجر : ١٤ (٢) البقرة : ١٧٩ (٣) سبأ : ٥١

⁽٤) فصلت : ۳۲ (۵) هود : ٤٤

أَخَذَنَا بِذَنبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أُرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مِّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمَنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَمَنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَمَنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَكَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١).

ومثل ذلك كثير ...

إذا سمع العربى الفصيح هذه الآيات وأمثالها ، قضى من هذه البلاغة والجزالة ومتانة هذه المعانى : العجب ، وعلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ولا العرب .

وما عسى أن يقال فى كلام ذى الجلال ، إذ هو أصدق الكتب ، ومصدَّق خير الرسل ، ولو كانت البحار مداداً ، وجميع الجن والإنس كُتَّاباً ، ما بلغوا معشاره ، ولا قدروا مقداره .

قَالَ اللّه تعالى في كتابه الكريم : ﴿ قُلُ لُو ۚ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكُلْمَاتِ رَبِّي لَنَفْدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلْمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلُه مَدَداً ﴾ (٢) .

كما أن من إعجازه نظمه العجيب وأسلوبه الغريب الذى خالف به جميع أسلوب كلام العرب ، حتى كأنه ليس بينه وبينه نسب ولا سبب ، فلا هو كمنظوم كلامها ، فيكون شعراً موزوناً ، ولا كمنثوره فيكون نثراً عرياً عن الفواصل محروماً . بل تشبه رؤوس آيه وفراصله قوافى النظم ولا تدانيها ، وتخالف آيه متفرقات النثر وتناديها ، فصار لذلك أسلوباً خارجاً عن كلامهم ، ومنهاجاً خارقاً لعادة خطابهم .

وذلك أن كلام بلغاء العرب لا يخلو : إما أن يكون موزوناً منظوماً أو غير موزون ولا منظوم .

فالأول: هو الشعر ، وهو أصناف وأنواع بحسب اختلاف أعاريضه .

⁽١) العنكبوت : . ٤(١) الكهف : ١.٩

والثانى : هو النثر .. والقرآن العزيز خارج عن الصنفين ، مفارق للنوعين . فارق الشعر بأنه ليس موزوناً وزنه فتكسره لفظة زائدة ، ولا مرتبطاً ربطه حتى تفسده مخالفة قافية واحدة في الوقوف عليه ، وأوضح شاهد ، وأقطع لشبهة كل معاند .

والقرآن الكريم ذو آيات لها فواصل ومقاطع ، ورؤوس تشبه القوافى ، فقد عرفت أنه خالف نظم كلام العرب ونثرها ، فهو منهاج آخر وأسلوب لم تكن عرب تعرفه ، ولما سمعته العرب ووعته ، لم يتحدث قط واحد منهم بأنه يقدر على معارضة آية منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم .

لذا قال « الوليد بن المغيرة » لملأ قريش : « يا معشر قريش ، إنه قد حضر موسم الحج ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم ، ولا بد أن يسألوكم عنه ، فماذا تقولون لهم ؟ فأجّمعوا فيه رأياً واحداً لئلا تكذبكم عرب إذا اختلفتم فيه » .

قالوا: نقول: إنه كاهن.

فقال لهم : « والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه » .

قالوا: فنقول: إنه مجنون.

قال : « والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وعرفناه ، والله ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته » .

قالوا : فنقول : إنه شاعر .

قال: « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر » .

قالوا: فنقول: إنه ساحر.

قال : « ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده . وما أنتم قائلون شيئاً من هذا إلا كذبتكم العرب وعرفت أنه باطل » .

قالوا: فما تقول أنت ؟

قال: « والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لمثمر . وإن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه » .

يعنى - لعند الله - أن هذا تقبله العرب فإنها لا تعرف السحر.

فعولوا على أن يقولوا: إنه سحر. ففعلوا. وفي الوليد أنزل الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتً لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآياتنا عَنيداً * سَأُره قَهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ * فَقُتلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ فَتلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أُدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْليه سَقَرَ * (١).

فانظر كيف عرفوا أنه ليس من جنس كلامهم ، ولا من جنس كلام الكهنة ولا السحرة ، ولم ينعهم من الإيمان به إلا ما سبق لهم من الشقاوة والعناد والجفوة ..

كما قال « عتبة بن ربيعة » لما سمع : ﴿ حم * تَنزِيلٌ مَّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِ الرَّحْمِمِ * كَتَابٌ فُصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذيراً فَأَعْرَضَ أَكَثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢) قال : « والله ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر .

« يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوا ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

⁽۱) المدثر: ۱۱ – ۲۲ (۲) فصلت: ۱ – ٤

وكذلك قال « أنيس » - أخو أبى ذر الغفارى - وكان شاعراً مفلقاً ، يناقض الشعراء ويعارضهم ، فلما سمع القرآن قال لأخيه أبى ذر : « لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد يدّعى أنه شعر ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون » .

كما أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم ما تضمنه من الإخبار بالمغيبات قبل أن يحيط أحد من البَشر بعلمها ، وبوقوع كائنات قبل وجودها ، وذلك أمر لا يتوصل إلى العلم به إلا من جهة الصادقين الذين يخبرون عن الله تعالى .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُعَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾ (١) .

فهذه الآية من أوضح معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الله تعالى وعده بأن يدخله المسجد الحرام هو وقومه فى حالة أمن ، ويفتح عليهم مكة على أحسن حال ، فما زالوا ينتظرون ذلك حتى بلغ وقته ، وصدق وعده ، فدخلوا كما وعدهم ، وفتحوه على ما أخبرهم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَم * غُلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلَبُونَ * فِي بِضَعْ سنينَ ، لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ، وَيَوْمَئذ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ الله ، يَنصُرُ مَن يَشَاءَ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ الله ، لا يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَلَكِنَ أَكُثْرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وهذه الآية أيضاً من أعظم معجزاته - صلى الله عليه وسلم - وذلك أن هذه الآية لما نزلت كانت « فارس » غالبى « الروم » ، وكان المسلمون يحبون ظهور فارس على الروم ، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ، فلما أنزل الله

⁽¹⁾ النتج : (\dot{Y}) الروم : (\dot{Y})

تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح فى الناس ، وفى نواحى مكة بهذه الآية ، ويقرأها على مشركى قريش ، فقال ناس من قريش : زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك افقال : بلى – وذلك قبل تحريم الرهان – فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبى بكر : كم نجعل البضع ؟ – والبضع ثلاث سنين إلى تسع سنين – فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست سنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية «ست سنين » لأن الله تعالى قال : ﴿ في بضع سنين ﴾ . قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير .

وفى الآية أيضاً إعجاز آخر وهو فرح المؤمنين فيما بعد بنصر الله ، وقد انتصروا على فارس والروم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ْ مَنكُمْ وَعَملُوا ْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلَفَنَهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلَهِمْ وَلَيُمَكَّنَنَ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيبَدَلَّنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفِهِمْ أَمْناً ، وَلَيمُدُونَنِي لا يُشْرَكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (١)

وقولَه سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللّه بِأَفْواَهِهِمْ وَاللّهُ مُتمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الّذِي أَرْسَلَ رَسُولُهُ بِاللّهُدَى وَدِينِ الْحَقَّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلّهَ وَلَوْ كَرَهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقد فعل الله تعالى ذلك بالرسول الله وأمته ، ملكهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأذل ملوكها تحت سيف القهر بعد أن كانوا أهل عز وكبر ، وأورثهم

⁽٢) الصف : ٨ – ٩

أرضهم وديارهم وأموالهم ، ومنحهم رقابهم ، وأتم نوره ، وأظهر دينه على الدين كله ﴿ وَعْدُ اللَّه ، إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلفُ الْميعَادَ ﴾ (١) .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُريهِمْ آيَاتنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (٢).

قوله سبحانه: ﴿ فِي الآفَاقِ ﴾ يريد بذلك فتح الأمصار ، وقوله : ﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ يرجع إلى كفار قريش . ولذلك قال النبي ﷺ : « إنَّ اللَّه زوى لى الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن مُلك أمتى سببلغ ما زوى منها » .

ومعنى زوى : جمع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَيُهُزَّمُ الْجَمْعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٣) .

يريد بذلك - والله أعلم - جمع كفار قريش . . وكذلك فعل بهم ، وذلك أنهم خرجوا إلى حربه صلى الله عليه وسلم في غير موطن ، فهزمهم الله وولوا الأدبار ، وكانت عاقبتهم الخسار والبوار .

وكذلك قال تعالى في آيات أُخر: ﴿ قُل لِّلَذِينَ كَفَرُواْ سَتَغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ، وَبَئْسَ الْمهَادُ ﴾ (٤) .

وَفَى آيَة أَخْرَى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَى ۚ ، وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ (٥) .

فهذه الآية اقتضت بشارتين ، إحداهما : أنهم لن يصلوا إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بضر أكثر من السب . والثانية : أنهم يُغلبون ويولون الأدبار .. وكذلك كان ، على نحو ما أنزله ذو العزة والسلطان .

⁽١) الرعد : ٣١ (٢) نصلت : ٥٣ (٣) القبر : ٤٥

⁽٤) آل عمران: ١٢ (٥) آل عمران: ١١١

والآيات في القرآن لهذا النوع كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ لَوَالِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ لَزَلْنَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافظُونَ ﴾ (١) .

فى هذه الآية يخبرنا تعالى: أنه أنزل القرآن ، وأنه تولى حفظه . وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه ، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من لفظه على كثرة من سعى فى تغييره ، فأطفأ نوره - لا سيما القرامطة فإنهم كانوا قد أجمعوا كيدهم ، واستنفدوا فى تغييره وتحريفه جهدهم ، ولم يزل كذلك دأبهم ودأب غيرهم من أعداء الدين وعتاة الملحدين ، ويأبى الله إلا أن تعلى كلمته وتظهر شريعته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهُ زِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهُا آخَرَ ﴾ (٢)

وكان هؤلاء المستهزئون نفراً من الكفار معروفون بأعيانهم وأسمائهم ، ينفرون الناس عنه ويؤذونه ويهزأون به ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم هذه الآية يبشره بإهلاكهم وهم أحياء .

فكان سبب إهلاكهم من أعجب آيات النبي ﷺ ، وذلك أنه كان منهم « الأسود ابن عبد المطلب » رمى النبي ﷺ في وجهه بورقة خضراء ، فعمى .

ومنهم « الأسود بن عبد يغوث » أشار إليه النبى الله فاستسقى بطنه ، فمات حَبناً (٣) .

ومنهم « الوليد بن المغيرة » أشار النبى على أثر جرح كان بأسفل كعبه ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين ، وكان قد برأ فتجدد حتى قتله الله به .

ومنهم « العاص بن وائل » أشار النبى الله إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرماه حماره على الأرض فدخلت في أخمص رجله شوكة ، فقتلته .

⁽۱) الحجر : ۹ – ۹۱ (۲) الحجر : ۹۹ – ۹۹

⁽٣) الحبن : داء في البطن يَعظُم منه ويَرِمُ (الاستسقاء) .

ومنهم « الحارث بن الطلالة » أشار النبي الله إلى رأسه فاستحال دمه قيحاً فقتله.

ومن وجوه إعجازه ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السابقة ، والقرون السالفة ، والشرائع الدائرة ، والقصص الغابرة التي لا يعلم منها بعضها إلا الآحاد من علماء ذلك الشأن ، الذين قد انقبضت لهم في تعلم تلك العلوم أزمان . فيورده النبي على في القرآن على وجهه ، ويأتي به على نصه ، فيعترف العالم بصحته وتصديق قصته ، مع العلم بأن النبي على لم ينل ذلك بتعليم ، ولا اكتسب ذلك بواسطة معلم ولا حكيم ، بل حصل له ذلك بإعلام العزيز العليم .

وإلا فهو أمى ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يتفقه ولا يحسب ، ومع ذلك فقد حصلت له علوم الأولين والآخرين ، وصار كتابه وكلامه منبع علوم العالمين ، فلقد كان أهل الكتاب يجتمعون إليه ويلحون بالأسئلة عليه ، فينزل عليه بأجوبتهم القرآن ، فما ينكر شيئاً من ذلك منهم إنسان ، بل يعترف بذلك ، ولا ينكر مما يسمع هنالك .

هذا مع شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه ، وهو مع ذلك يحتج عليهم بما فى كتبهم ويقرعهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، ويبين لهم كثيراً بما كانوا يخفون من شرائع كتبهم ووصايا رسلهم ، وهم مع ذلك يرومون تعنيته ويقصدون بأسئلتهم تبكيته ، مثل سؤالهم عن الروح ، وعن ذى القرنين ، وعن أصحاب الكهف ، وعن عيسى ابن مريم ، وعن حكم الرجم ، وعن ما حرم إسرائيل على نفسه ، وعما حُرم عليهم من الأنعام ، ومن طيبات أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم .. وغير ذلك من أمورهم التى نزل القرآن جواباً عنها ، فلم ينكروا شيئاً منها حين ذكرها لهم على وجهها .

ولا يظن ظان أن إعجاز القرآن إنما هو من هذه الوجوه فقط ، بل وجوه إعجازه أكثر من أن يحصيها عدد ، أو يحيط بها أحد .

وعلى الجملة فإنًا نقول لمن كذَّب محمداً على ، أو شك فى رسالته ما قال الله تعالى فى كتابه محتجاً على من أصرً على تكذيبه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدَنَا فَأَتُواْ بِسُورَة مِّن مَّثْله وَادْعُواْ شُهَدَا عَكُم مَّن دُونَ مَّن لَدُونَ الله إِن كُنتُمْ صَادقينَ * فَإِن لَمْ تَفْعَلُواْ وَلَنَ تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهُمَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ ، أُعدَّتْ للكافرينَ ﴾ (١).

* * *

• الإخبار بالمغيبات قبل وقوعها :

من الناس صنف ضرب الله على أبصارهم وران على قلوبهم فلا تنفتح أعينهم إلا على الأدلة التي يلمسونها بأيديهم ، ولا تقتنع عقولهم إلا بالبراهين المادية والآيات المحسوسة الملموسة . وهذا لما جُبلوا عليه من جمود العقول والأفهام .

هذا الصنف من الناس الذين لا يؤمنون إلا بما تراه أعينهم ، ولا يصدِّقون إلا ما تلمسه أيديهم ، في حاجة دائمة إلى الأدلة المحسوسة والقرائن الملموسة .

ولهؤلاء الصنف كان لا بد للمعجزات التى يجريها الله تعالى على أيدى أنبيائه من أن تكون أموراً خارقة للعادة ، خارجة عن المألوف ، حتى تتفتح البصائر وتنجلى العقول وتلين الأفهام . وبهذا تتأيد دعوة الرسل ، وتقام الحُجّة على أقوامهم .

ولهذا كانت المعجزات التي أوتيها رسول الله الله الله الله الله القرآن معجزته الكبرى - أموراً خارقة للعادة ، خارجة عن المألوف ، تتحير فيها العقول ، وتنهل عن تفسيرها الأفهام ، وتعجز قدرات الناس جميعاً عن معارضتها .

⁽١) البقرة: ٢٣ - ٢٤ 🕆

وانظر : إثبات نبوة النبي - لأبي الحسن الهاروني الزيدي ، والإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام - للقرطبي ، ومختصر تفسير ابن كثير ، للشيخ محمد كريم راجع .

والمعجزات التي يأتي بها الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - صنفين : غيبية ، وحسية ..

لذا كان من الصنف الأول: إخباره صلى الله عليه وسلم عن المغيبات قبل وقوعها ، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام بكثير من الأمور التى لم تقع قبل إخباره بها - أو في حين الإخبار - ثم حدثت هذه الأمور بعد ذلك بأزمان طويلة ، ومنها ما حدث في حياته - صلى الله عليه وسلم - ومنها ما حدث فور الإخبار به .

• ومن هذه المعجزات ما ذكره « حذيفة » قال : قام فينا رسول الله على مقاماً ، فما ترك شيئاً في مقامه ذلك يكون إلى قيام الساعة إلا حدّته ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه ، فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه . ثم قال : لا أدرى ، أنسى أصحابي أم تناسوه ؟ والله ما ترك رسول الله على من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمانة فصاعداً إلا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته (١) .

ويقول أبو ذر رضى الله عنه : لقد تركنا رسول الله ﷺ ، وما من طائر يحرك جناحيه في السماء ، إلا ذكر لنا منه علماً .

وقد خرَّج أهل الصحيح في كتبهم ، واشتهر عن الأثمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس واليمن والشام والعراق ومصر ، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة ، لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة لا تُغزَى .

• فعن نافع بن عتبة بن أبى وقاص قال: قال رسول الله على : « تقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم ، ثم تقاتلون فارس فيفتحها الله لكم ، ثم تقاتلون الدجال فيفتحه الله لكم » .

⁽١) ذكره أبو داود .

قال جابر بن سَمُرَة - راوى الحديث عن نافع : لا يخرج الدجال حتى يفتتح الروم (١) .

- وعن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله على أنه قال : « إنكم ستفتحون أرضاً يُذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » (٢١) .
- وعن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله تققال: « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط فيراً فإن لهم ذمة ورحماً » (٣).
- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: حدثنى خليلى الصادق رسول الله تقال: « تكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند » (٤)
- وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت على صخرة ، ورسول الله على قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى ، قال : ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى .

قال: قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: « أو قد رأيت ذلك يا سلمان »؟ قال: قلت نعم. قال: « أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق » .

⁽١) رواه أحمد في المسند (١٥٤) .

⁽۲) رواه مسلم ، والذمة هي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام ، أما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم ، والبلاد التي يذكر فيها القيراط هي مصر . (٣) رواه مالك .

⁽¹⁾ رواه أحمد ، وقد غزا المسلمون الهند عام £2 هـ في إمارة معاوية ، كما غزاها الملك محمود بن شنكشير صاحب بلاد غزنة عام . . £ هـ .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمان عمر وعثمان رضى الله عنهما وما بعده: « افتحوا ما بدا لكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً على مفاتيحها قبل ذلك » (١) .

*

كما أعلم رسول الله ﷺ بفتح خيبر على يد على بن أبى طالب كرم الله وجهه في غد يومه .

عن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: بعث رسول الله الله الله الله المر الصدِّيق رضى الله عند برايته - وكانت بيضاء فيما قال ابن هشام - إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يك فتح، وقد جهد، فقال رسول الله الله الله علين الأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار. قال عقول مسلمة: فدعا رسول الله الله على أرضوان الله عليه، وهو أرمد، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك».

قال : يقول مسلمة : فخرج والله بها يأنح (٢) ، يهرول هرولة ، وإنّا لخلفه نتبع أثره ، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبي طالب . قال : يقول اليهودي : علوتم ، وما أنزل على موسى ، أو كما قال . قال : فما رجع حتى فتح الله على يديه (٣) .

• وعن أبى رافع - مولى رسول الله ﷺ - قال : خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود ، فطاح ترسه من يده ،

⁽١) رواه ابن هشام في السيرة .

⁽٢) يأنح : أي به نفس شديد من الإعياء في العدو ، والرضم : الحجارة المجتمعة .

⁽٣) رواه ابن هشام في السيرة .

فتناول على - كرّم الله وجهه - باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معى ، أنا ثامنهم ، نجهد أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه (١) .

*

كما أعلم عليه الصلاة والسلام المسلمين بما يكون في غزوة أحد في غد يومه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً لى تُذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أنى أدخلت يدى في درع حصينة ، وأولها صى الله عليه وسلم : « فأما البقر : فهي ناس من أصحابي يُقتلون ، وأما الثلم الى رأيت في ذباب سيفي : فهو رجل من أهل بيتي يُقتل ، وأما الدرع الحصينة : فهي المدينة » (٢) .

فلما كانت الواقعة ، استشهد حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ، كما استشهد من الصحابة - رضوان الله عليهم - خمس وستون صحابياً .

÷

وقد مر بنا فى خبر الصحيفة التى كتبتها قريش وتعاقدوا فيها على مقاطعة بنى هاشم فلا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ، ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم ، ولا يخالطوهم فى شئ ولا يكلموهم ، حتى مكثوا على ذلك ثلاث سنين فى شعبهم محصورين .

ثم أطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور أو ظلم وبقى ما كان فيها من ذكر الله تعالى ، فذكر ذلك رسول الله تلك لعمه أبى طالب فقال أبو طالب : أحق ما تخبرنى به يابن أخى ؟ قال : نعم والله .

⁽١) رواه ابن هشام في السيرة . (٢) رواه ابن هشام في السيرة .

ويروى ابن سعد عن زكريا بن عمرو ، عن شيخ من قريش ، أنَّ أبا طالب ذكر ذلك لاخرته ، فقالوا له : ما ظنك به ؟

قال : فقال أبو طالب : والله ما كذبنى قط ، قالوا : فما ترى ؟ قال : أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدونه من الثياب ثم تخرجوا إلى قريش فنذكر ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر .

قال: فخرجوا حتى دخلوا إلى المسجد، فصعدوا إلى الحجر – وكان لا يجلس فيه إلا مسانٌ قريش وذوو نهاهم – فترفعت إليهم المجالس ينظرون ماذا يقولون. فقال أبو طالب: إنّا قد جننا لأمر فأجيبوا فيه بالذي يُعرف لكم. قالوا: مرحباً بك وأهلاً، وعندنا ما يسرك فيما طلبت.

قال : إنَّ ابن أخى قد أخبرنى - ولم يكذبنى قط - أنَّ اللَّه سلَّط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به اللَّه تعالى ، فإن كان ابن أخى صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه إن شئتم .

قالوا: قد أنصفتنا ، فأرسلوا إلى الصحيفة فلما أتي بها قال أبو طالب: اقرأوها ، فلما فتحوها إذا هي كما قال رسول الله ، قد أكلت كلها إلا ما كان من ذكر الله تعالى فيها .

قال: فسُقط في أيدى القوم ثم نُكسوا على رؤوسهم. فقال أبو طالب: هل يبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة ؟

فلم يراجعه أحد من القوم ، وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم ، فمكثوا غير كثير ، ورجع أبو طالب إلى الشعب وهو يقول : يا معشر قريش ، علام نُحصر ونُحبس وقد بان الأمر ؟ ثم دخًل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال : اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل منا ما يحرم عليه منا ، ثم انصرفوا (١) .

*

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى .

كما مر بنا فى حديث الإسراء - الذى كان من أكبر المعجزات للنبى الله الله الله على يديه من أهل مكة كذّبوا رسول الله الله الله على يديه من الآيات والمعجزات ما حير عقولهم .

ويروى ابن سعد: « أنَّ رسول الله على قال لجبريل عليه السلام: يا جبريل ، إنَّ قومى لا يصدقونى ، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصدين ، وافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا وأسلموا ، فقال رسول الله على : « وقمت إلى الحجر ، فخيل لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه فقال بعضهم : كم للمسجد من باب ؟ ولم أكن عددتُ أبوابه ، فجعلتُ أنظر إليها وأعدها باباً وأعلمهم ، وأخبرتهم عن عيرات لهم في الطريق وعلامات منها فوجدوا ذلك كما أخبرتهم .

وفى رواية عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما يسألونى عن شئ إلا أنبأتهم به » (١١) .

وفى رواية ابن هشام: « أنَّ رسول الله على لما خرج إلى الناس وأخبرهم الخبر عجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنًا لم نسمع بمثل هذا قط. قال: « آية ذلك أنى مررتُ بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حس الدابة ، فندُّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلتُ حتى إذا كنت بضجنان مررتُ بعير بنى فلان فوجدتُ القوم نياماً ، ولهم إنا عنيه ما عد غطوا عليه بشئ ، فكشفت غطاء وشربتُ ما فيه ، ثم غطيتُ عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوِّب من البيضاء ، ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء والأخرى برقاء .

⁽١) الطبقات الكبرى لابن سعد .

فلما ابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه ، وأنهم هبوا ، فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أنفرنا في الوادى الذي ذكر ، وند لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه » (١) .

.

ومرٌ بنا في الحديث عن غزوة بدر الكبرى أن رسول الله ﷺ « لما كان يوم بدر مشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده ويقول : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله ، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته صلى الله عليه وسلم . وأخذ رسول الله ﷺ ملء كفه ترابا ، فرمى به في وجوه القوم فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه ، فهو قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَ اللّهَ وَمَلَى ﴾ (٢) .

*

كما نعى النبى ﷺ إلى المسلمين النجاشى ، وجعفر بن أبى طالب وزيد بن
 حارثة قبل أن يجئ خبرهم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله الله الله على النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى ، فصف بهم وكبّر عليه أربع تكبيرات (٣) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى الله نعى جعفراً وزيداً قبل أن يجئ خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله – يعنى خالد بن الوليد – حتى فتح الله عليهم » (٤) .

 ⁽١) رواه ابن هشام في السيرة . (٢) الأنفال : ١٧ (٣) متفق عليه .

⁽٤) رواه البخاري ، ونعى : أي نقل خبر الوفاة ، وأصيب : استشهد ، تذرفان : أي الدموع .

وقد حدث ذلك في غزوة مؤتة بالشام وأخبر عنه الرسول ﷺ وهو في المدينة .

كما أنبأ - صلى الله عليه وسلم - بأن أبا لهب ، وامرأته ، وأمية بن خلف يموتون على الكفر لقوله تعالى فى أبى لهب وامرأته : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبِ * وَامْرَأْتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطّب * فى جيدها حَبْلٌ مَّن مَسَد ﴾ (١) .

وقوله في أمية : ﴿ كُلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ * نَارُ اللَّه الْمُوقَدَةُ ﴾ (٢) .. وقد ماتوا على الكفر فعلاً .

● وإعلامه صلى الله عليه وسلم بأن أبّى بن خلف سيموت كافراً ، بل وأنه - صلى الله عليه وسلم ..

فقد روى أن أبّى بن خلف كان يقول للنبى على حين افتدى يوم بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أقتلك إن شاء الله » . فلما رآه يوم أحد شد أبّى فرسه على رسول الله الله فاعترضه رجال من المسلمين فقال النبى الله على خلوا طريقه وتناول الحربة من الحارث بن الصمة فانتفضه بها انتفاضة تطاير منه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله النبى الله فطعنه في عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه ، فرفع إلى قريش يقول : قتلنى محمد ، وهم يقولون : لا بأس بك ، فقال : لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلك ، والله لو بصق على لقتلنى ، فمات بسرف في قفول القوم إلى مكة ..

×

وكذلك إعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفتح الله به على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر ، وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قبلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين

⁽٢) الهمزة: ٤ - ٦

فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنها ستكون لهم أنماط ، ويغدو أحدهم في حلة ، ويروح في أخرى ، ويسترون بيوتهم ويروح في أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تُستر الكعبة ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء (١) ، وخدمتهم بنات فارس والروم ، رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم .

وإخباره صلى الله عليه وسلم بقتال الترك والخزر والروم ، وذهاب كسرى وفارس حتى لا قيصر بعده ، وإخباره عن الروم ، لا تزال ذات أقران حتى تقوم الساعة ، وإخباره بملك بنى أمية وولاية معاوية ووصاه ، ومدة الخلافة ، واتخاذ بنى أمية ملك الله دولاً ، وإخباره عن خروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما ملكوا .

• عن عدى بن حاتم قال : بينًا أنا عند النبى الله إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال : « يا عدى ، هل رأيت الحيرة » ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها . قال : « فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله » .

قلت فيما بيني وبين نفسى : فأين دعًار طئ الذين قد سعروا البلاد ؟

ثم قال صلى الله عليه وسلم: « ولئن طالت بك حياة ، لتفتحن كنوز كسرى » - قلت : كسرى بن هرمز » .

« ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه » .

يقول عدى: « فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يخرج مل، كفه » (٢) .

● وروى ابن هشام : كتب كسرى إلى باذان : إنه بلغنى أن رجلاً من قريش

⁽١) المطبطاء: التبختر في المشي . (٢) من حديث رواه البخاري - باب و علامات النبوة » .

خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلى رأسه ، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله على ، فكتب إليه رسول الله على « إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا » ، فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر ، وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال ، فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله على يدى ابنه شيروية وقال الزهرى : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله على أن أنتم منا وإلينا أهل البيت » (١) .

- وعن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا هلك كسرى فلا كسرى ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفس محمد بيده لتُنْفَقَنَ كسرى ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفس محمد بيده لتُنْفَقَنَ كنوزهما في سبيل الله » (٢) .
- وعن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا مشت أمتى المطيطاء (٣) ، وخدمتها أولاد الملوك وفارس والروم ، سُلَّط شرارها على خيارها » (٤) .
- وأعلم صلى الله عليه وسلم بافتراق الأمة من بعده على ثلاث وسبعين فرقة ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله تله : « إنَّ بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » (٥) .
- وأعلم بأن الخلافة بعده ثلاثون ثم تكون مُلكاً عضوضاً .. فعن سفينة أن النبى على قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكاً » (٦) .

⁽١) رواه ابن هشام في السيرة .

⁽٣) وهو التبختر في المشي .

⁽٥) رواه ابن ماجد .

⁽٢) رواه البخاري في علامات النبوة .

⁽٤) أخرجه الترمذي (٢٢٦٢) .

⁽٦) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وحسنه .

وعن أبى عبيدة ومعاذ بن جبل عن النبى على قال : « إنَّ الله بدأ هذا الأمر بنبوة ورحمة ، وستكون خلافة ورحمة ، وسيكون عزاً وحُرمة ، وسيكون مُلكاً عضوداً ، وفساداً في الأمة ، يستحلون به الفروج والخمور والحرير ، ويُنصرون على ذلك ويُرزقون أبداً حتى يلقوا الله عَزُّ وجَلُّ » (١) .

وقد اشتملت هذه الثلاثون سنة على خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهم - وكان ختامها بستة أشهر وليها الحسن بن على رضى الله عنه بعد أبيه ، وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبى سفيان سنة أربعون هجرية .

وعن معاذ بن جبل قال : خرج علينا رسول الله على فقال : « أنا محمد ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه ، فأطيعونى ما دمت بين أظهركم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله عز وجل ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه ، أتتكم الموتة ، أتتكم فتن كقطع الليل المظلم ، كلما ذهب رسل جاءت رسل ، تناسخت النبوة فصارت ملكا ، رحم الله من أخذها بحقها ، وخرج منها كما دخلها ، أمسك يا معاذ واحص – قال معاذ : فأحصيت خمسا – يعنى من الخلفاء : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن – فقال النبى على : « يزيد . . لا بارك الله فى يزيد » ، ثم ذرفت عيناه بالدموع فقال صلى الله عليه وسلم : « نُعى إلى الحسين ، وأتيت بتربته ، وأخبرت بقاتله ، لا يُقتل بين ظهرانى قوم لا يمنعوه ، الا خالف الله بين صدورهم وقلوبهم ، وسلط عليهم أشرارهم ، وألبسهم شيعاً » (٢) .

• وأعلم صلى الله عليه وسلم بأمر الخوارج .. فعن زيد بن وهب : أنه كان فى الجيش الذين كانوا مع على كرم الله وجهه الذين ساروا إلى الخوارج ، فقال على : « أيها الناس ، إنى سمعت رسول الله على : « يخرج قوم من أمتى

⁽١) رواء أبو داود .

⁽٢) أخرجه ابن عوانة في مسنده ، والطيراني في معجمه الكبير .

يقرأون القرآن ، وليس قراءتكم بشئ إلى قراءتهم ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشئ ، يقرأون القرآن يحسبونه أنه لهم وهو عليهم ، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم ، يرقون من الإسلام كما يرق السهم من الرمية » .

« لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لنكلوا عن العمل – أى لاتكلوا – وآية ذلك : « أن فيهم رجلاً له عضد ، ليس له ذراع على عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض » ، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام ، وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم ؟ والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا في سرح الناس ، فسيروا على اسم الله » .

يقول سلمة بن كهيل: فنزُلنى زيد بن وهب منزلاً منزلاً ، حتى قال: مررنا على قنطرة ، فلما التقينا – وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبى ، فقال لهم: ألقوا الرماح ، وسلوا سيوفكم من جفونها ، فإنى أخاف أن يناشدوكم ، كما ناشدوكم يوم حرورا ، فرجعوا ، فوحشوا برماحهم ، وسلوا السيوف ، وشجرهم الناس برماحهم . قال: وقُتل بعضهم على بعض ، وما أصيب يومئذ من الناس إلا رجلان ، فقال على رضى الله عنه : التمسوا فيهم المُخدّج ، فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بنفسه حتى أتى أناساً قد قتل بعضهم على بعض ، قال : أخروهم ، فوجدوه مما يلى الأرض ، فكبر ثم قال : صدق الله وبلغ رسوله ، قال : فقام إليه عبيدة السلماني فقال : يا أمير المؤمنين ، آلله الذي لا إله إلا هو ، لسمعت هذا الحديث من رسول الله على الله عليه وسلم ؟ قال : إي والله الذي لا إله إلا هو ، حتى استحلفه بالله ثلاثاً وهو يحلف له (١) .

⁽١) أخرجه مسلم وأبو داود .

● كما ذكر صلى الله عليه وسلم بنى مروان ، فعن سعيد بن عمرو بن العاص قال : كنت مع مروان وأبى هريرة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فسمعت أبا هريرة يقول : سمعت الصادق المصدوق يقول : « هلاك أمتى على يد أغيلمة من قريش ، فقال مروان : غِلْمَة ، قال أبو هريرة : إن شئت أن أسميهم بنى فلان وبنى فلان .

وفى رواية : قال مروان : لعنة الله عليهم - قال عمرو بن يحيى بن سعيد - راوى الحديث - : فكنت أخرج مع جدى سعيد إلى الشام حين ملكه بنو مروان ، فإذا رآهم أحداثاً قال : عسى هؤلاء الذين عنى أبو هريرة ، فقلت : أنت أعلم (١١) .

• وذكر صلى الله عليه وسلم المختار الثقفى والحجاج بن يوسف ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله عليه : « في ثقيف كذاب ومبير (٢) قال : ويقال الكذاب : المختار بن أبى عبيد ، والمبير : الحجاج بن يوسف .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت للحجاج : أما إنَّ رسول الله على حدُّثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً ، فأما الكذاب فرأيناه - تعنى به المختار بن أبى عبيد الثقفى فإنه تنبأ وتبعه ناس حتى أهلكه الله - ، وأما المبير - أى المهلك - فلا إخالك إلا إياه ، قال : فقام عنها ولم يراجعها (٣) .

وعن هشام بن حسان قال : أحصى عدد من قتل الحجاج صبراً ، فوجد ماثة ألف وعشرين ألفاً (٤) .

• وأخبر بالعباسيين وخروجهم ، فعن هلال بن عمرو قال : سمعتُ علياً رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج رجل من ورا ، النهر يقال له « الحارث بن حراث » على مقدمته رجل يقال له « منصور » يوطَّئ – أو يمكَّن

⁽١) رواهما البخاري في باب الفتن . (٢) أخرجه الترمذي .

⁽٣) أخرجه مسلم . (٤) أخرجه الترمذي .

- لآل محمد ، كما مكنت قريش لرسول الله ﷺ ، وجب على كل مؤمن نصره ، أو قال : إجابته » (١) .

● كما أخبر صلى الله عليه وسلم بخروج مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، وقدمها فى بَشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس ابن شماس ، وفى يد رسول الله ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أربتُ فيك ما رأيت ».

فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله تقلق قال : « بينما أنا نائم رأيتُ في يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذاً بين يخرجان بعدى » ، فكان أحدهما العنسى ، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة » (٢) .

÷

• وأخبر صلى الله عليه وسلم بما ينال أهل بيته من القتل والشدائد ، وإخباره عن قتل على كرم الله وجهه ، وإخباره بقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف ، وإخباره أن عمر وعثمان وعلى والحسين وعمار - رضى الله عنهم - سيموتون شهداء ، وأن الحسين يُقتل في كربلاء ، وأن عماراً تقتله الفئة الباغية .. وأن الحسن رضى الله عنه سيكون له شأن عظيم في الإصلاح بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، وإخباره لبعض زوجاته أنها ستنبحها كلاب من الحوأب ، وأن ابنته فاطمة رضى الله عنها أول أهله لحوقاً به ، وأن زينب بنت جحش أول نساءه لحوقاً به . فكان ذلك كله كما ذكر رسول الله عنه .

⁽١) أخرجه أبو داود .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : صعد النبى الله أحداً ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فرجف الجبل ، فضربه برجله وقال : « اثبت أحد ، فما عليك إلا نبى وصدين وشهيدان » (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لعثمان : « تُقتل وأنت مظلوم ، وتقطر قطرة من دمك على : ﴿ فَسَيَكُفْكِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ قال : فإنها إلى الساعة لفى المصحف » (٢) .

وعن أبى عون الأنصارى أنَّ عثمان بن عفان قال لابن مسعود : هل أنت منته عما بلغنى عنك ؟ فاعتذر بعض العذر ، فقال عثمان : ويحك ، إنى قد سمعت وحفظت ، وليس كما سمعت ، إن رسول الله على قال : « سيقتل أمير ، وينتزى منتزى » (٣) ، وإنى أنا المقتول ، وليس عمر ، إنما قتل عمر واحد ، وإنه مجتمع على (١٤) .

وعن نائلة بنت الفرافصة - امرأة عثمان بن عفان رضى الله عنه قالت : نعس أمير المؤمنين عثمان فأغفى ، فاستيقظ فقال : ليقتلننى اليوم ، قلت : كلا إن شاء الله ، لم يبلغ ذلك ، إن رعيتك استعتبوك . قال : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى وأبو بكر وعمر فقالوا : تفطر عندنا الليلة (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم عن عثمان رضى الله عنه أنه يدخل الجنة على بلوى تصيبه ، كما قال له : « إنَّ الله مقمصك قميصاً ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم » - يعنى الخلافة - وقال له : « لعلك تُضرب على هذه فتختضب » - يعنى رأسه ولحيته .

⁽١) رواه البخاري .

⁽٢) أسد الغابة : ٣/٤/٥ – والآية من سورة البقرة : ١٣٧

⁽٣) الانتزاء: الوثوب وتسرع الإنسان إلى الشر.

⁽٤) رواه أحمد في المسند (٤٧٩) . ﴿ (٥) رواه أحمد في المسند (٥٣٦) .

ووقع ما أخبر به الرسول على ، إذ استشهد عمر رضى الله عنه لأربع ليال بقين من ذى الحجة ، سنة ثلاث وعشرين (٢ نوفمبر سنة ١٤٤ م) وكانت خلافته عشر سنين ، وخمسة أشهر ، وواحداً وعشرين يوماً ، قتله أبر لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة (١) .

كما وقع ما أخبر بد صلى الله عليه وسلم ، إذ استشهد عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة لثمان عشرة – أو سبع عشرة . خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين (١٧ يونية سنة ٦٥٦ م) ، على رأس إحدى عشرة سنة ، وأحد عشر شهرا ، واثنين وعشرين يوما من مقتل عمر بن الخطاب ، وعلى رأس خمس وعشرين من متوفى رسول الله على ، بعد حصار دام تسعة وأربعين يوما ، وثنتل صائما وهو يقرأ القرآن وسقط دمه الزكى على آية البقرة : ﴿ فَسَيَكُفْكَيَهُمُ الله ﴾ تماما كما أخبر الرسول الله ، وكانت خلافته – رضى الله عنه – اثنتى عشرة سنة الا اثنى عشر يوما () .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن علياً كرم الله وجهد قال للنبى ﷺ: إنك قلت لى يوم أحد حين أخّرت عنى الشهادة واستشهد من استشهد : « إن الشهادة من وراءك ، فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه بدم - وأهوى بيده إلى لحيت ورأسه ، فقال على : يا رسول الله ، أما أن تثبت لى ما أثبت فليس ذلك من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البُشرى والكرامة (٣).

وعن عثمان بن صهيب عن أبيه قال : قال على كرم الله وجهه : قال لى رسول الله ﷺ : « مَن أشقى الأولين » ؟ قلت : عاقر الناقة ، قال : « صدقت ، فمن أشقى الآخرين » ؟ قلت : لا علم لى يا رسول الله ، قال : « الذى يضربك على هذا » - وأشار بيده إلى يافوخه - وكان على كرم الله وجهه يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم ، فخضب هذه من هذه - يعنى لحيته من دم رأسه (1) .

⁽٢) أسد الغابة : ٩٣/٣

⁽٤) رواه الطبراني وأبو يعلى -

١٧٩/٤ : ١٧٩/٤ .

⁽٣) أسد الغاية : ١١٧/٤

ولذا قال كرم الله وجهه فى إحدى خطبه : « والذى فلق الحبة وبرأ النَّسَمة لَتُخْضَبَنُ هذه من هذه – يعنى لحيت من دم رأسه – قال : قال الناس : فأعلمنا من هو ؟ والله لنبيرنُ (١) عترته ! قال : أنشدكم بالله أن يُقتل غير قاتلى (٢) .

وقد وقع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم تماماً ، فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى - أحد الخوارج - بالسيف على أم رأسه ، ومكث - كرم الله وجهه - يوم الجمعة ويوم السبت وبقى ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان من سنة أربعين (٢٤ يناير سنة ٦٦١ م) وتوفى رضوان الله عليه (٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل الحسين بن على رضى الله عنهما على رسول الله عنه وهو منكب ، على رسول الله عنه وهو منكب ، فقال جبريل: أتحبه يا محمد ؟ قال: « وما لى لا أحب ابنى » ؟ قال: فإن أمتك ستقتله من بعدك ، فمد جبريل يده فأتاه بتربة بيضاء ، فقال: فى هذه الأرض يُقتل ابنك هذا ، واسمها « الطف » . فلما ذهب جبريل من عند رسول الله صلى والتربة فى يده وهو يبكى ، قال: يا عائشة ، إن جبريل أخبرنى أن ابنى حسيناً مقتول فى أرض الطف ، وأن أمتى ستفتن بعدى .

ثم خرج إلى أصحابه وفيهم على وأبو بكر وعمر وحذيفة وعمار وأبو ذر ، وهو يبكى فبادروا إليه قائلين : ما يبكيك يا رسول الله ؟ فقال : أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يُقتل بعدى بأرض الطف ، وجاءنى بهذه التربة ، وأخبرنى أن فيها مضجعه »

واستشهد الحسين رضى الله عنه بكربلاء - من أرض الطف - يوم عاشورا ، الموافق العاشر من المحرّم سنة واحد وستون (. ١ أكتوبر سنة . ٦٨ م) ، كما استشهد من إخوته جعفر وعقيل ومحمد والعباس ، كما استشهد ابنه الأكبر

⁽١) أي لنُهلكنُّ . (٢) رواه أحمد في المسند (١٣٣٩) .

⁽٣) أسد الغاية : ١٢. /٤

على وعبد الله وابن أخيه القاسم بن الحسن ، وابنا مسلم بن عقيل عبد الله وعبد الرحمن وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أبشر يا عمار ، تقتلك الفئة الباغية » .

وروى ابن هشام: أن عمار بن ياسر رضى الله عنه ، دخل المسجد وقد أثقلوه باللَّبن حين كانوا يبنون مسجد رسول الله تلله فقال: يا رسول الله ، قتلونى ، يحملون على ما لا يحملون .

قالت أم سلمة - زوج النبى ﷺ - : فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده ، وكان رجلاً جعداً ، وهو يقول : « ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية » (١) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، فقلنا : يا رسول الله ، أمرتنا بقتال هؤلاء ، فمع من ؟ فقال : « مع على بن أبى طالب ، معه يُقتل عمار بن ياسر » (٢) .

وعن أبو البخترى أنَّ عمار بن ياسر رضى الله عنه قال يوم صفين : ائتونى بشربة ، فأتي بشربة لبن فقال : إنَّ رسول الله تش قال : « آخر شربها تشربها من الدنيا شربة لبن » ، وشربها ثم قاتل حتى قُتل (٣) .

وعن عمارة بن خزيمة قال: شهد خزيمة بن ثابت الجمل ، وهو لا يسل سيفاً ، وشهد صفين ولم يقاتل ، وقال : لا أقاتل حتى يُقتل عمار فأنظر مَن يقتله ، فإنى سمعتُ رسول الله تلك يقول : « تقتله الفئة الباغية » فلما تُتل عمار قال خزيمة : ظهرت لى الضلالة ، ثم قاتل حتى تُتل (ع) .

واستشهد عمار بن ياسر رضى الله عنه في موقعة صفين في ربيع الأول -

⁽١) رواه ابن هشام في السيرة . (٢) أسد الغابة : ١١٤/٤

⁽٣) المرجع السابق : ١٣٤/٤ (٤) نفس المرجع : ١٣٥/٤

وقيل : ربيع الآخر - من سنة سبع وثلاثين هجرية . ولما تُتل رضى الله عنه قال: ادفنوني في ثيابي فإني مخاصم » .

وقد اختُلفَ في قاتله ، فقيل : قتله أبو الغادية المزنى وقيل : الجهنى (١) ، طعنه طعنة فسقط فلما وقع أكبً عليه آخر فاحتز رأسه ، فأقبلا يختصمان ، كل منهما يقول : أنا قتلته ، فقال عمرو بن العاص : والله إن يختصمان إلا في النار ، والله لوددتُ أنى متُ قبل هذا بعشرين سنة (٢) .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال: بينًا النبى الله يخطب جاء الحسن رضى الله عنه ، فقال النبى الله أن يصلح به بين فنتين من المسلمين » (٣) .

وفى رواية : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ ابنى هذا سيد يصلح الله بد بين فئتين عظيمتين » (٤) .

ووقع ما أخبر به الرسول الله ، فقد ولى الحسن رضى الله عنه الخلافة بعد أبيه كرم الله وجهه ، وبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءه من خراسان والحجاز واليمن وغير ذلك ، ثم سار معاوية إليه من الشام ، وسار هو إلى معاوية ، فلما تقاربا علم أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يُقتل أكثر الأخرى ، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر إليه ، على أن تكون له الخلافة بعده ، وعلى أن لا يطلب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشئ مما كان أيام أبيه ، وغير ذلك من القواعد ، فأجابه معاوية إلى ما طلب .

وقع ذلك فى النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين هجرية ، وقيل : لخمس بقين من ربيع الأول منها ، وقيل : فى ربيع الآخر . فتكون خلافته – على هذا – ستة أشهر واثنى عشر يوماً ، حيث تولى الخلافة لثلاثة عشرة بقين من رمضان سنة أربعون هجرية (٥) .

⁽١) أبو الغادية المزنى والجهني صحابيان . (٢) أسد الغابة : ١٣٥/٤

⁽٣) رواه البخاري . (٤) أسد الغابة : ١٢/٣ (٥) أسد الغابة : ١٤/٢

وصدُّق بتنازله - رضى الله عنه - قول جده عليه الصلاة والسلام : « إنَّ ابنى هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين » ، كما صدُّق قوله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكاً » . وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على رضى الله عنهما ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال الثلاثين سنة من موت رسول الله على فإنه - عليه السلام - توفى في ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: ذكر النبى على خروج بعض نسائه أمهات المؤمنين ، فضحكت عائشة ، فقالت: « انظرى يا حميرا ، أن لا تكونى أنت » . ثم التفت إلى على فقال: « يا على ، إن وليت من أمرها شيئا ، فارفق بها » (١) .

يقول البيهقى : وقد روى حذيفة بن اليمان نحو ذلك ، وقد توفى قبل مسيرها ، وكان قد أخبر أبا الطفيل ، وعمر بن ضليع ، بمسير إحدى أمهات المؤمنين فى كتيبة ، ولا يقوله إلا عن سماع .

كما أخبرها صلى الله عليه وسلم أنها ستنبحها كلاب من الحوأب ، وأنها تُقْتَلُ حولها قتلى كثير ، فكان ذلك كله يوم الجمل .

كما أخبر صلى الله عليه وسلم بالفتن التى ستحدث بعده ، وأخبر عن تملك معاوية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى على قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة » – وفى رواية : « صغار الأعين ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » (٢)

قال أبو عبد الله محمد بن عباد : بلغنى أن أصحاب بابل كانت نعالهم الشعر ، وقال البيهقى : هم قوم من الخوارج خرجوا فى ناحية الرى ، فأكثروا الفساد والقتل فى المسلمين حتى قوتلوا وأهلكهم الله عَزُّ وجَلَّ .

⁽١) رواه البيهتي في دلاتل النبوة . (٢) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبى هريرة : أن النبى الله قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين ، فتكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة » (١) .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم » (٢) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « تكون بين يدى الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً – أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً – يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » (٣) .

وعن جابر قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ بين يدى الساعة كذَّابِين » (٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بينًا رسول الله على في مجلس يحدَّث القوم إذ جاءه أعرابى فقال: متى الساعة ؟ فمضى رسول الله على في حديثه ، فقال بعض القوم: سمع ما قال ، فكره ما قال . وقال بعضهم: لم يسمع . حتى إذا قضى حديثه قال: « أين السائل عن الساعة » ؟ قال: هأنذا يا رسول الله . قال: « إذا ضيعت الأمانة فأنتظر الساعة » قال: وكيف إضاعتها ؟ قال: « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٥) .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » (٦) .

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله على : « والذى نفسى بيده لا تمر الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه ويقول: ياليتنى مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدّين، ما به إلا البلاء » (٧).

⁽١) المرجع السابق . (٢) أخرجه الترمذي . (٣) المرجع السابق .

⁽٤) أخرجه مسلم . (٥) أخرجه البخاري . (٦) أخرجه مسلم .

⁽٧) أخرجه مسلم .

وعن فضالة بن أبى فضالة الأنصارى - وكان أبو فضالة من أهل بدر - قال : خرجتُ مع أبى عائداً لعلى بن أبى طالب من مرض أصابه ثقل منه ، قال : فقال له أبى : وما يقيمك بمنزلك هذا ؟ لو أصابك أجلك لم يلك إلا أعراب جهينة .. تُحمل إلى المدينة ، فإن أصابك أجلك ، وليك أصحابك وصلوا عليك .

فقال على كرّم الله وجهه : إنَّ رسول الله ﷺ عهد إلى أن لا أموت حتى أومر ، ثم تخضب هذه - يعنى هامته . فقُتِل ، وقُتِل أبو فضالة مع على يوم صفين (١) .

وعن إسماعيل بن إبراهيم ، عن عبد الملك بن عمير قال : قال معاوية : والله ما حملني على الخلافة إلا قول النبي ﷺ لى : « يا معاوية ، إن ملكتَ فأحْسَنَ » .

قال البيهقى: إسماعيل بن إبراهيم - هذا - ضعيف عند أهل المعرفة بالحديث ، غير أن لهذا الحديث شواهد ، منها : حديث عمرو بن يحيى بن سعيد ابن العاص عن جده سعيد ، أنَّ معاوية أخذ الإدواة فتبع رسول الله على فقال له : « يا معاوية ، إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » ، قال : فما زلت أظن أنى مبتلى بعمل لقول رسول الله على (٢) .

والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى ، يضطر الواقف عليها إلى العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك : أنه صلّى الله عليه وسلم أخبر بأن ابنته فاطمة رضى الله عنها ستكون أول أهله لحوقاً به ، وأن أم المؤمنين زينب بنت جُحش ستكون أول نساءه لحوقاً به ... فوقع كما أخبر .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: أقبلت فاطمة تمشى ، كأن مشيتها مشية

⁽١) رواه البيهقي وقال : ولهذا الحديث شواهد يقوى بشواهده .

⁽٢) المرجع السابق.

رسول الله ﷺ، فقال : « مرحباً بابنتى » ، ثم أجلسها عن يمينه - أو عن شماله - ثم أسر اليها حديثاً فضحكت ، فقلت يه أسر اليها حديثاً فضحكت ، فقلت يه ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن ، فسألتها عما قال فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ . فلما قُبِض سألتها ، فأخبرتنى أنه أسر الى فقال يه إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، وما أراه إلا حضر أجلى ، وأنك أول أهلى لحوقاً بى ، ونعم السكف أنا لك » يه فيكيت فقال : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين » (١) .

وفى رواية للبخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: « دعا النبى الله فاطمة ابنته فى شكواه الذى قُبِض فيه ، فسارها بشئ فبكت ، ثم دعاها فسارها فضحكت . قالت: فسألتها عن ذلك فقالت: سارتى النبى النبى فأخبرنى أنه يُقبض فى وجعه الذى توفى فيه فبكيت ، ثم سارتى فأخبرنى أنى أول أهل بيته أتبعه فضحكت » (٢) .

وتوفيت الزهراء رضى الله عنها بعد رسول الله تلله بستة أشهر - هذا أصبح ما قيل - وقيل: بثلاثة أشهر، وقيل: عاشت بعده سبعين يوماً.

وما رؤيت رضى الله عنها ضاحكة بعد وفاة رسول الله عنى لحقت بالله عَنْ وجَلٌ ، ووَجَدت عليه وَجُداً عظيماً (٣) .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً ، فكنا نتطاول أينا أطول يداً ، قالت : فكانت زينب أطولنا يداً لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق (٤) .

وصدق الرسول ﷺ ، إذ كانت أم المؤمنين زينب بنت بحش أول نسائد لحوقاً بد ، فماتت رضى الله عنها في سنة عشرين هجرية في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(١) أسد الغابة : ٢٢٣/٧ (٢) رواد البخاري في علامات النبوة .

(٣) أسد الغابة : ٢٢٥/٧ (٤) المرجم السابق : ٢٦٦/٧

ومن المعجزات الغيبية : إخباره - صلى الله عليه وسلم - بأن أبا ذر رضى الله عنه سوف يموت وحيداً ..

حتى قيل: يا رسول الله ، تخلّف أبو ذر ، فقال رسول الله على ما كان يقوله فتلوم (١) أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله على ماشياً ، ونظر ناظر من المسلمين فقال: إن هذا الرجل يمشى على الطريق ، فقال رسول الله على : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله على : « يرحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويوت وحده ، ويُحشر وحده » (٢) .

ومات أبو ذر رضى الله عنه فى العام الواحد والثلاثين الهجرى – أو الثانى والثلاثين – فى منفاه بالربذة حيث نفاه عثمان بن عفان .

• ومنها : إخباره بأن سراقة بن مالك سوف يلبس سواري كسرى .

فعن الحسن أنُّ رسول اللَّه ﷺ قال لسراقة بن مالك : « كيف بك إذا لبستُ سوارى كسرى » ؟

قال : فلما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا بسراقة بن مالك فألبسه إياهما ، وكان سراقة رجلاً أزرب ، كثير شعر الساعدين ، فقال له : ارفع يديك ، فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم ، أعرابى من بنى مدلج . يرفع بها عمر صوته (٣) .

⁽٢) أسد الغابة : ١.١/٦

⁽١) أي تمكَّث وقمهُل .

⁽٣) أخرجه ابن عبد البر في ترجمة سراقة .

• ومنها: إخباره بمكان الظعينة التي كانت تحمل كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش ، فعن عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت على بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: بعثنا رسول الله على أنا والزبير بن العوام والمقداد ، فقال: « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (١) ، فإن بها ظعينة (٢) معها كتاب فخذوه منها فائتوني به » .

فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنجردن الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها (٣) فإذا به كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر النبى على من غزو مكة (٤) .

• ومنها : إخباره أنَّ أم حرام بنت ملحان سوف تموت في الغزو .

فعن أنس بن مالك عن أم حرام بنت ملحان - وكانت خالته - أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نام - أو قال (٥) - في بيتها ، فاستيقظ وهو يضحك ، وقال : « عُرِض على ناس من أمتى يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة » فقلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : « إنك منهم » .

ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقلت : يا رسول الله ، ما يضحكك ؟ فقال : « عُرِض على ناس من أمتى يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة » ، قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، قالت : « أنت من الأولين » .

فتزوجها عبادة بن الصامت فأخرجها معه ، فلما جاز البحر بها ركبت دابة فصرعتها فقتلتها (٦) .

⁽١) موضع بين مكة والمدينة . (٢) وهي المرأة في الهودج . (٣) أي ضفائرها .

 ⁽٤) أسد الغابة : ٢٣٢/١ (٥) القيلولة : الاستراحة في وسط النهار .

⁽٦) أسد الغابة : ٣١٨/٧

وكانت تلك الغزوة هي غزوة تبرص عام سبع وعشرين هجرية ، في خلافة عثمان رضي الله عند .

• ومنها : إخباره - صلى الله عليه وسلم - أن أم ورقة ستموت شهيدة .

فعن عبد الرحمن بن خلاد الأنصارى ، عن أم ورقة بنت نوفل ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما غزا بدراً قالت : قلت له : يا رسول الله ، ائذن لى فى الفزو معك ، أمرض مرضاكم ، لعل الله أن يرزقنى الشهادة ، قال : « قَرَّى فى بيتك ، فإن الله عَزِّ وجَلُّ يرزقك الشهادة » .

قال: فكانت تسمى « الشهيدة » وكانت قد قرأت القرآن ، واستأذنت النبى على أن تتخذ فى دارها مؤذناً ، فأذن لها ، وكانت قد دبرت غلاماً لها وجارية ، فقاما إليها بالليل فغمًاها بقطيفة لها حتى ماتت وذهبا ، فأصبح عمر ، فقام فى الناس فقال : من عنده من هذين علم – أو من رآهما – فليجئ بهما ، فجئ بهما ، فأمر بهما فصلبا ، فكانا أول مصلوب بالمدينة (١) .

- ومنها: إخباره صلى الله عليه وسلم بقبر أبى رغال وما فيه من ذهب. فعن عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسول الله على حين خرجنا معه إلى الطائف، فمرونا بقبر، فقال رسول الله على: « هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقبف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج، أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه». قال: فابتدره الناس فاستخرجوا معه الغصن (٢).
- ومنها: إخباره بمكان ناقته حين ضلّت ، فقد روى أن زيد بن اللصيت من يهود بنى قينقاع وكان ممن تعود بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق ، فقال حين ضلّت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ا فقال رسول الله ﷺ وجاءه الخبر بما قال

⁽١) رواه البيهقي ، وأبو داود . (٢) رواه البيهتي .

عدو الله في رحله ، ودلّ الله تبارك وتعالى رسوله على ناقته – قال : « إنّ قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ! وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلّنى عليها ، فهى في هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها » . فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله على (١) .

• ومنها: إخباره - صلى الله عليه وسلم - بسبب اللحم الذي صار حجراً.

فعن أم سلمة زوج النبى على قالت: أهدبت إلى قدرة من لحم ، فقلت للخادم: ارفعيها لرسول الله على حتى يجئ ، قالت: فجاء رسول الله على فقلت للخادم: قربى إلى رسول الله على القدرة اللحم ، قالت: فجاءت بها ، فأرتها أم سلمة ، فإذا هي قد صارت مروة (٢) حجر ، قالت: فنظر رسول الله على فقال: « مالك يا أم سلمة » ؟ فقصت عليه القصة فقال: « لعله قام على بابكم سائل فأهنتموه » ؟ قالت: أجل يا رسول الله ، قال: « فإن ذاك لذاك » (٣).

ومن إخباره - صلى الله عليه وسلم - بالمغيبات: إخباره بإسلام أبى الدرداء ، فعن جبير بن نفير قال: كان أبو الدرداء يعبد صنماً فى الجاهلية ، وأن عبد الله ابن رواحة ، ومحمد بن مسلمة دخلا بيته فكسرا صنمه ، فرجع أبو الدرداء وجعل يجمع صنمه ويقول: ويحك! ألا امتنعت؟ ألا دفعت عن نفسك ؟ فقالت: أم الدرداء: لو كان ينفع أحداً ، أو يدفع عن أحد ، دفع عن نفسه ونفعها . فقال أبو الدرداء: أعدى لى فى المغتسل ماءً ، فجعلت له ماء ، فاغتسل ، وأخذ حلته فلبسها ثم ذهب إلى النبى على ، فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً ، فقال النبى الدرداء ، وما أراه جاء إلا فى طلبنا . فقال النبى الله : « لا ، إنما جاء ليسلم ، وإن ربى وعدنى بأبى الدرداء أن يسلم » (٤) .

⁽١) رواه ابن هشام في السيرة . (٢) وتجمع على « مرو » ، وهي الحجارة البيض البراقة .

⁽٣) رواه البيهقي ، وأبو نعيم . ﴿ ٤) المرجع السابق .

● ومنها : إخباره - صلى الله عليه وسلم - مَن قال في نفسه شعراً في الشكاية بذلك .. فعن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إن أباه يريد أن يأخذ ماله ، فقال النبي على العد الي ، قال : فجاء ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ ابنك يزعم أنك تأخذ ماله » ، فقال : سله ، هل هو إلا عماته أو قراباته ، أو ما أنفقه على نفسي وعيالي ؟

فقال : فهبط جبريل الأمين عليه السلام ، فقال : يا رسول الله ، إنَّ الشيخ قد قال في نفسه شعراً لم تسمعه أذناه ، فقال رسول الله ﷺ : « قلت في نفسك شعراً لم تسمعه أذناك » . فقال : لا يزال يزيدنا الله بك بصيرة ويقيناً ، نعم قلت ، قال : هات ، فأنشأ بقول :

غَذَوتُـــكَ مـــولوداً ومنتُـكَ يافعاً إذا لَيْلَمةً صَافَتُكَ بالسُّقُم لَمْ أبت لسُقُم لَكُ إلا سَاهم رأ أتَمَلْمَلُ تَخَسَافُ الردَى نَفْسى عَلَيْكَ وإنَّهَا لَتَعَلَّمُ أَنَّ الْمُسوِّتَ حَتْمَ مُوكِّلُ كَأَنِّـــى أَنَا المُطْــرُوقُ دُونَك بِالَّذِي فَلَمُّا بَلَغْتَ السِّنُّ وَالْفَايَدَ التي جَعَلْــتَ جَزَائـــى غَلْظَـةً وَفَظَاظَةً فَلَيْتَكِ إِذْ لَمْ تَكِرُعُ حَقُّ أَبِوتِي

تُعَـلُ عِا أَجْنى عَلَيْكُ وتُنْهَلُ طُـرِثْتَ بِـه دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمُلُ إلَيْسِكَ مَدا مَا كُنْتُ فيكَ أُومُلُ كَأْنُكُ أَنْتَ المُنْعِمُ الْمَتَفَضَّلُ كَمَا يَفَعْسَلَ الجَسَارُ الْمُجَاوِرِ تَفْعَلُ

قال : فبكى صلى الله عليه وسلم وأخذ بتلابيب ابنه وقال : « أنت ومالك لأسك » (١).

● ومنها : إخباره - صلى الله عليه وسلم - بالسحابة التي أمطرت بواد في اليمن ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أصابتنا سحابة ولم يطلع فيها ، فخرج علينا النبي على فقال: « إن ملكا موكلاً بالسحاب ، دخل على آنفا ،

⁽١) رواه البيهقي ، وأبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أيبه عن جده .

فسلم على ، فأخبرنى أنه يسوق بالسحاب إلى واد باليمن يقال له « صريح » فجاءنا راكب بعد ذلك ، فسألناه عن السحابة ، فأخبر أنهم مُطروا فى ذلك اليوم (١) .

- ومنها: إخباره صلى الله عليه وسلم بهبوب الريح لموت منافق .. فعن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قدم من سفر ، فلما كان قرب المدينة ، هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب ، فزعم أن رسول الله ﷺ قال : « هذه الريح لموت منافق » ، فلما قدم المدينة فإذا عظيم من المنافقين قد مات (٢) .
- ومنها اخباره صلى الله عليه وسلم بهلاك المشرك السائل عن ذات الله عزّ وجُلٌ .. فعن أنس قال : أرسل رسول الله على رجلاً من أصحابه إلى رأس من رؤوس المشركين يدعوه إلى الله عَزّ وجَلٌ ، فقال المشرك : هذا الإله الذى تدعو إليه من ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ فتعاظم مقالته فى صدر رسول رسول الله على ، فرجع إلى رسول الله المناه فأخبره فقال : « ارجع إليه » ، فرجع إليه ، فقال له مثل ذلك ، فرجع إلى النبى المناه فأخبره ، فقال له : « ارجع إليه » ، فرجع إليه ، فقال له مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى صاعقة من السماء ورسول رسول الله عن في الطريق لا يدرى ، فرجع إلى النبى النبى على رسوله النبى : « إن الله عَز وجَل قد أهلك صاحبك ، وأنزل الله تعالى على رسوله الله عن وجَل قد أهلك صاحبك ، وأنزل الله تعالى على رسوله الله ويُرسلُ الصواعق فيُصيبُ بها مَن يَشاءُ .. ﴾ (٣) .

• ومنها: إخباره - صلى الله عليه وسلم - بالكاذب عليه للذين أرسلهما وراءه: أنهما لن يدركاه، فلم يدركاه.

فعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى قرية من قرى الأنصار فقال : إنَّ رسول الله على أرسلنى إليكم ، وأمركم أن تزوجونى فلانة . قال : فقال رجل من أهلها : جاءكم هذا بشئ ما نعرفه من رسول الله على أنزلوا الرجل وأكرموه حتى آتيكم بخبر ذلك ، فأتى رسول الله على فذكر له ذلك ، فأرسل النبى على علياً والزبير ، فقال : « اذهبا فإن أدركتماه فاقتلاه ، ولا أراكما تدركانه » .

⁽١) رواه البيهقي . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الرعد : ١٣

قال: فذهبا ، فرجداه قد لدغته حية فقتلته ، فرجعا إلى النبى الله ، فأخبراه ، فأخبراه ، فقال النبي الله : « مَن كذب على فليتبوأ مقعده من النار » (١١) .

و ومنها : إخباره - صلى الله عليه وسلم - الرجل بجبذته .. فعن أبى سهم قال : مرت بى امرأة فى المدينة ، فأخذت بكشحها ، ثم أطلقتها ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الناس ، فأتيته ، فلم يبايعنى فقال : « صاحب الجبذة بالأمس » ؟ قال : قلت : والله لا أعود ، فبايعنى .

ومنها: إخباره - صلى الله عليه وسلم - بالشاة التى أخذت بغير إذن أهلها وامتناعه من أكلها .. فعن عاصم بن كليب ، عن أبيه عن رجل من الأنصار ، قال : خرجنا مع رسول الله في جنازة ، فرأيت رسول الله وهو على القبر يوصى الحافر : « أوسع قبل رجليه ، أوسع من قبل رأسه » ، فلما رجع استقبله داعى امرأة ، فجاء وجئ بالطعام فوضع يده ، ثم وضع القوم ، فأكلوا ، فنظرنا إلى رسول الله في يلوك لقمة في فمه ، ثم قال : « أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها » ، فأرسلت المرأة قالت : يا رسول الله ، إنى أرسلت إلى البقيع يُشترى لى شاة فلم أجد ، فأرسلت إلى جار لى قد اشترى شاة أن أرسل إلى بثمنها ، فلم يوجد ، فأرسلت إلى امرأته ، فأرسلت إلى أرسلت إلى أرسلت الى بها ، فقال رسول الله عليه وسلم : « أضعميه الأسارى » (٢) .

• ومنها: إخباره - صلى الله عليه وسلم - السائل ما أراد أن يسأله قبل سؤاله .. فعن وابصة الأسدى قال: جئتُ لأسأل رسول الله عليه عن البر والإثم ؟ فقال من قبل أن أسأله: « يا وابصة ، تسألنى عن البر والإثم » ؟ قلت : إى والذى بعثك بالحق ، إنه للذى جئتُ أسألك عنه ، فقال : « البر : ما انشرح له صدرك ، والإثم : ما حاك فى نفسك وإن أفتاك عنه الناس » (٣) .

⁽١) أخرجه الطحاوي بنحوه في « مشكل الأثر » من حديث بريدة بسند صحيح .

⁽٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٣٢) ني البيوع : باب « ني اجتناب الشبهات » وإسناده صعبح .

⁽٣) ذكره البيهقى فى الدلائل ، ورواه أحمد في المسند ، والمرفوع منه فى صحيح مسلم بنحوه من حديث النواس بن سمعان .

- ومنها: إخباره صلى الله عليه وسلم بأن ذؤيب بن كليب ألقى فى النار .. فقد روى ابن وهب عن ابن لهيعة : أن ذؤيب بن كليب بن ربيعة الخولانى ، كان أول من أسلم باليمن ، فسماه النبى هذا « عبد الله » ، وكان الأسود الكذّاب قد ألقاه فى النار لتصديقه بالنبى هذا ، فلم تضره النار ، وذكر النبى هذا لأصحابه ، فهو شبيه إبراهيم عليه السلام (١) .
- ومنها: إخباره صلى الله عليه وسلم عن رجل من أمته يتكلم بعد موته، وأنه من خير التابعين .. فعن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله على قال: « يتكلم رجل من أمتى بعد الموت، من خير التابعين » .

روى البيهقى ، عن ربعى بن حراش قال : أتيتُ فقيل لى : إنَّ أخاك قد مات ، فجئت ، فوجدت أخى مسجى عليه ثوب ، وأنا عند رأسه أستغفر له ، وأترحم عليه ، إذ كشف الثوب عن وجهه فقال : السلام عليكم ، فقلت : وعليك السلام ، فقلنا : سبحان الله ، أبعد الموت ؟ قال : بعد الموت ، إنى قدمت على الله عز وجل بعدكم ، فتلقيت بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، وكسانى ثياباً خضراً من سندس واستبرق ، ووجدت الأمر أيسر مما تظنون ، لا تتكلوا ، إنى استأذنت ربى أن أخبركم وأبشركم ، فاحملونى إلى رسول الله على ، فقد عهد إلى أن لا أبرح حتى ألقاه ، ثم طفئ كما هو .

يقول البيهقي : هذا إسناد صحيح لا يشك حديثي في صحته .

وفى رواية قال: فبلغ عائشة رضى الله عنها فقالت: صدق أخو بنى عبس، سمعتُ رسول الله على يقول: « يتكلم رجل من أمتى بعد الموت من خير التابعين » (٢).

• ومنها: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - على من احتكر بالجذام .. فعن فروخ مولى عثمان ، قال: ألقى على باب مسجد مكة طعام كثير ، وعمر

⁽١) رواه ابن عبد البر : وابن لهيعة : ضعيف . (٢) رواه البيهتي في دلائل النبوة .

يومئذ أمير المؤمنين ، فخرج إلى المسجد فرأى الطعام ، فقال : ما هذا الطعام ؟ قالوا : طعام جُلب إلينا ، قال : بارك الله فيه وفيمن جلبه ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد احتُكر ، قال : من احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عشمان ، وقلان مولاك . فقال : سمعت رسول الله على يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام ، أو بالإفلاس » .

قال فروخ : أعاهد الله يا أمير المؤمنين أن لا أعود ، فحول تجارته إلى برَّ مصر ، وأما مولى عمر ، فقال : نشترى بأموالنا ونبيع ، فزعم أبو يحيى أنه رأى مولى عمر بعد حين مجذوماً .

قال البيهقي : وكذلك رواه جماعة عن الهيثم وأبو يحيى مولى (١).

ومنها: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - على كاتب الوحى حين ارتد .. فعن أنس قال: كان رجل نصرانيا فأسلم ، فقرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب الوحى للنبى على ، فعاد نصرانيا ، فكان يقول: ما يدرى محمد إلا ما كتبت له ، فقال رسول الله على : « اللهم اجعله آية » . فأماته الله ، فدفنوه ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه ، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه ، فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا ، فأصبحوا وقد لفظته الأرض ، فقالوا مثل الأول ، فحفروا وأعمقوا ، فلفظته الثالثة ، فعلموا أنه ليس من الناس ، فألقوه بين حجرين ورضموا عليه الحجارة (٢) .

• ومنها: رؤياه - صلى الله عليه وسلم الغنم - ، وتأويلها ، وتصدين ذلك .. فعن عمرو بن شرحبيل قال: قال رسول الله تلله : « إنى رأيتُ الليلة كأنى تتبعنى غنم سود ، ثم أردفتها غنم بيض ، حتى لم تُر السود فيها » ، فقصّها على أبى بكر رضى الله عنه فقال: يا رسول الله ، هى العرب تتبعك ، ثم أردفتها العجم ، حتى لم يروا فيها . قال: « أجل ، كذلك عبّرها الملك سَحَراً » .

⁽۱) أخرجه أحمد في المسند (۱۳۵) ، ورواه ابن ماجه (۲۱۵۵) ، مختصراً ، وقال البوصيري : إسناده صحبح ورواته موثقون . (۲) أخرجه البخاري ومسلم .

- ومنها: رؤياه صلى الله عليه وسلم الخلفاء بعده ، فكان كما رآه .. فعن جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « أرى الليلة رجل صالح ، كأن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ، ونيط عمر بن الخطاب بأبى بكر ، ونيط عثمان بن عفان بعمر » ، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح ، فرسول الله ﷺ ، وأما نوط بعضهم ببعض ، فهم ولاة الأمر الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم (١١).
- ومنها: إخباره صلى الله عليه وسلم علياً كرَّم الله وجهه بولادة غلام يسميه باسمه وكنيته .. فعن على كرَّم الله وجهه قال: قال لى رسول الله على « سيولد لك بعدى ولد ، وقد نحلته اسمى وكنيتى » .. فوُلِد لعلى كرَّم الله وجهه من الحنفية محمد ابن الحنفية (٢) .
- ومنها: دعاؤه صلى الله عليه وسلم للسائب بن يزيد .. فعن السائب ابن يزيد .. فعن السائب ابن يزيد قال: ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله ، إن ابن أختى وجع ، فمسح رأسى ، ودعا لى بالبركة ، فتوضأ ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره ، فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة .

يقول الجعد : رأيت السائب بن يزيد ابن أربع وتسعين ، جَلداً معتدلاً ، فقال : قد علمتُ ما متعت به سمعى وبصرى إلا بدعاء رسول الله على (٣) .

• ومنها: دعاؤه لجابر بالبركة في ثمره فبورك له .. فعن جابر بن عبد الله قال: توفى أبي وعليه دَيْن ، فعرضتُ على غرمائه أن يأخذوا الثمر بما عليه ، فأبوا ، ولم يروا بأن فيه وفاء ، فأتيتُ النبي على ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : « إذا جَدَدتَه فوضعته فآذًني » ، فلما وضعته في المربد ، آذنتُ رسول الله على فجاء ومعه أبو بكر وعمر ، فجلس عليه ، ودعا بالبركة ، ثم قال : « ادع غرماءك ، فأوفهم » ، فما تركتُ أحدا له دَيْن على أبي إلا قضيته ، وفضل ثلاثة عشر وسقاً ، سبعة عجوة ، وستة لون – أو ستة عجوة وسبعة لون –

⁽١) أخرجه أبو داود . (٢) رواه البيهقي . (٣) أخرجه البخاري ومسلم .

فوافيت رسول الله ﷺ المغرب ، فذكرت له ذلك ، فضحك وقال : « ائت أبا بكر وعمر ، فأخبرهما » ، فقالا : قد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك (١) .

● ومنها: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - بالبركة لحمل أم سليم .. فعن أنس بن مالك قال: كان لأم سليم من أبي طلحة ابن ، فمرض مرضه الذي مات فيه ، فلما مات ، غطته أمه بثوب ، فدخل أبو طلحة ، فقال: كيف أمسى ابني ؟ فقالت: أمسى هادئاً ، فتعشى ، ثم قالت له في بعض الليل: أرأيت لو أن رجلاً أعارك عارية ، ثم أخذها منك إذن جزعت ؟ فقال: لا ، فقالت: إن الله أعارك ابنك وقد أخذه منك .

قال: فغدا إلى النبى ﷺ، فأخبره بقولها ، وقد كان أصابها تلك الليلة ، فقال رسول الله ﷺ: « بارك الله لكما في ليلتكما ». قال: فولدت له غلاماً كان اسمه عبد الله ، قال: فذكروا أنه كان من خير أهل زمانه.

ورواه عباية بن رافع عن أنس ، وقال عباية : لقد رأيتُ لذلك الغلام سبعة بنين ، كلهم قد قرأوا القرآن (٢)

● ومنها: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - لأبى زيد عمرو بن أخطب .. فعن أبى زيد الأنصارى قال: قال لى رسول الله ﷺ: « ادن منى » ، فمسح بيده على رأسى ولحيتى ، ثم قال: « اللهم جَمَّله وأدم جماله » .

قال الراوى عنه : فبلغ بضعاً ومائة سنة وما فى لحيته بياض إلا نبذة يسيرة ، ولقد كان منبسط الوجه ، ولم ينقبض وجهه حتى مات (٣) .

ومنها: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - لعبد الرحمن بن عوف بالبركة ،
 فكثر ماله حتى صولحت امرأة من نسائه من رُبع الثُمُن على ثمانين ألفأ ..

⁽١) رواه البخاري . (١) رواه البخاري والبيهقي .

⁽٣) أخرجه أحمد في المسند ، ورواه البيهقي .

فعن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن أثر صفرة ، فقال: « ما هذا يا أبا محمد » ؟ قال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، قال: « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة » (١) .

- ومنها: دعاؤه صلى الله عليه وسلم للرجل: « ضرب الله عنقه » فقتل في سبيل الله .. فعن جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله تله في غزوة بنى أغار، فذكر الحديث في الرجل الذي عليه ثوبان قد خَلَقا، وله ثوبان في العَيْبَة ، فأمره النبي تله فلبسهما ، ثم ولى يذهب ، فقال رسول الله تله : « ما له ضرب الله عنقه ، أليس هذا خيراً » ! فسمعه الرجل فقال : يا رسول الله ، في سبيل الله . ، فقتيل الرجل في سبيل الله . ، فقتيل الرجل في سبيل الله . ، فقيل الرجل في سبيل الله . .
- ومنها: دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأمته فى بكورها وظهور أثر ذلك لمن فعله معتقداً .. فعن صخر الغامدى قال: قال رسول الله عليه « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يبعث سرية إلا بعثهم فى أول النهار. قال الراوى: وكان صخر رجلاً تاجراً ، فكان يبعث غلمانه فى أول النهار ، فأثرى وكثر ماله ، حتى لم يدر أين يضعه (٣).
- ومنها: إخباره صلى اللّه عليه وسلم بأمور غيبية حين أرادوا اختباره .. فعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود بعنى رسول اللّه عنها ، فقالوا: يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى . قال: « سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على نبيه ، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام » ؟ قالوا: فذلك لك . قال: « سلونى عما شئتم » .

⁽١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) رواه البيهتي ومالك .

⁽٣) رواه أحمد في المسند ، والترمذي في البيوع ، والبيهقي في دلائل النبوة .

قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن .. أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟

وأخبرنا كيف ماء المرأة من ماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه ، وكيف تكون الأنثى .

وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ، ومَن وليه من الملائكة !

قال : « فعليكم عهد الله لئن أنا أخبرتكم لتتابعني » ؟ فأعظموه ما شاء من عهد وميثاق .

قال: « فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضاً شديداً وطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه ، وأحب الطعام إليه ، فكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » ؟

قالوا : اللَّهم نعم . قال : « اللَّهم اشهد عليهم » . .

قال: فأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أنَّ ماء الرجل أبيض غليظ ، وأنَّ ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله » ؟

قالوا : اللَّهم نعم . قال : « اللَّهم اشهد عليهم » .

قال : « فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أنَّ هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه » ؟

قالوا : اللَّهم نعم . قال : « اللَّهم اشهد عليهم » -

قالوا : أنت الآن ، فحدُّثنا عن وليك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارتك ، قالوا : فعندها « فإنّ وليي جبريل ، ولم يُبعث نبى قط إلا هو وليد » . قالوا : فعندها

نفارقك ، لو كان وليك سوا، من الملائكة لتابعناك وصدّقناك . قال : « فما يمنعكم من أن تصدّقوه » ؟ قالوا : إنه عدونا ، فعند ذلك قال الله عَزِّ وجَلَّ ثناؤه : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوا لَجبريلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّه مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لَلْمُوْمنينَ * مَن كَانَ عَدُوا لَلَّه وَمَلاَئكَته وَرُسُله وَجبريلَ وَإِنَّ اللَّهَ عَدُوا لَلْه وَمَلاَئكَته وَرُسُله وَجبريلَ وَميكالَ فَإِنَّ اللَّه عَدُوا لَلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .. فعند ذلك باءوا بغضب على غضب (١) .

* * *

• المعجزات الحسية للرسل عليهم السلام:

شهدت الرسالات السماوية الكثير من المعجرات الحسية التى يجريها الله تعالى على أيدى أنبيائه ورسله ليؤيد بها دعواهم ، ولكى يؤمن بها الماديون الذين لا تنفتح أعينهم إلا على الأدلة التى يلمسونها بأيديهم ، ولا تقتنع عقولهم إلا بالبراهين المادية والآيات المحسوسة الملموسة .

• معجزة صالح عليه السلام:

وعلى سبيل المثال: كانت معجزة صالح عليه السلام هي الناقة .. يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أُرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّه إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمٍ هَذِه نَاقَةً اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللّه وَلا تَمَسُوهَا وَيَا قَوْمٍ هَذِه نَاقَةً اللّه لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللّه وَلا تَمَسُوهَا بَسُوء فَيَا حُنَد كُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ شَلْاثَةً أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَيْنَا صَالِحاً وَلَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةً مِنَّا وَمِنْ خَرْي يَوْمِئذٍ ، إِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْقَوِيُ الْعَزِيزُ ﴾ (٣) .

⁽١) البقرة : ٩٧ – ٩٨ (٢) رواه ابن سعد . (٣) هود : ٦٣ – ٦٦

وثمود قبيلة مشهورة من العرب العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، سميت باسم جدهم « ثمود » أخى جديس ، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح . وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام مثلهم .. فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله « صالح بن عبيد الله بن ماسح بن عبيد ابن حادر بن ثمود » عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئاً . فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التى جعلها الله تعالى حُجّة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وقد قص الله تعالى نبأهم علينا في سور : الأعراف ، وهود ، والحجر ، والإسراء ، والشعراء ، والنمل ، وفصلت ، والقمر ، والشمس .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى في كتابه بين ذكر عاد وثمود ، كما في سورة التوبة ، وإبراهيم ، والفرقان ، وسورة ص ، وسورة ق ، والنجم ، والفجر .

ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا ْ أُنتُم وَمَن في الأرْضِ جَميعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَعَني حَميد * أَلَم يَأْتِكُم نَبَوًا الَّذِينَ مِن قَبُلِكُم قَوْم نُوح وَعَاد وَتُمُود وَالَّذِينَ مِن بَعْدهم لا يَعْلَمُهُم إلَّا اللَّه ، جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَينات ﴾ ... الآية (١) .

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجى الله تعالى نبيه

⁽١) إبراهيم : ٨ - ٩

صالحاً عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام .

كان قوم ثمود عرباً - كما قدَّمنا - وكانوا بعد عاد ، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم ، ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : إنَّ الله تعالى إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم ، وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور ، وجعلكم حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها ، فقابِلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح ، والعبادة له وحده لا شربك له ، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته ، فإن عاقبة ذلك وخيمة .

ووعظهم بقوله: إنَّ الله هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض ، وجعلكم عمَّارها ، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرزاق ، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه ، فأقلعوا عما أنتم فيه ، وأقبلوا على عبادته ، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم .

فما كان منهم إلا أن سخروا منه بقولهم : إنّا كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة ، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد .

وتلطف صالح – عليه السلام – بهم فى العبارة وآلان لهم جانبه ، فقال لهم : فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ ماذا عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته ، وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى . فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له ، حتى يحكم الله بينى وبينكم .

ولكن القوم استمروا في طغيانهم وكفرهم ، واتهموه بأنه مسحور لا يدرى ما يقول في دعائه إياهم إلى إفراد العبادة لله وحده ، وخلع ما سواه من الأنداد ، ثم سألوه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به ..

وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة ، من صفتها كيت وكيت - وذكروا أوصافاً سموها وتفننوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا ..

فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الرجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جنتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه فصلَى للّه عَزَّ وجَلَّ ما قُدَّر له ، ثم دعا ربه عَزَّ وجَلَّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عَزَّ وجَلَّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا .

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعماً وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، فجحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها ، أى أكثرهم .

وكان رئيس الذين آمنوا « جندع بن عمرو » وكان من رؤسائهم وهم بقبة الأشراف بالإسلام فصدهم « ذؤاب بن عمرو » و « الحباب » صاحب أوثانهم ، و « رباب بن صعر » . ودعا « جندع » ابن عمه « شهاب بن خليفة » - وكان من أشرافهم - فهم بالإسلام فنهاه أولئك . فمال إليهم . ولهذا قال أهم صالح عليه السلام : ﴿ هَذِه نَاقَةُ اللّه ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم ، كقوله : بيت الله وعبد الله ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ أى دليلاً على صعق ما جئتكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ الله وكلا تَمسُوها بسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَريبٌ ﴾ .

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء الميئر

يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم . ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : ﴿ لَهَا شُرْبٌ وَلَكُمْ شُرْبُ يَوْمٍ مُعْلُومٍ ﴾ (١) .

أرسل الله تعالى الناقة إليهم اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون - والله أعلم بما يفعلون - فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم ، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ، ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وتحدوه قائلين : يا صالح ائتنا عا تعدنا .

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم «قدار بن سالف » ، وكان أحمر أزرق أصهب ، وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش «سالف » ، وهو ابن رجل يقال له «صبيان » ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نُسبِ الفعل إليهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أنّ امرأتين من ثمود ، اسم إحداهما « صدوق » ابنة « المحيا بن زهير » ، وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له « مصرع بن مهرج » وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة . واسم الأخرى « عنيزة بنت غنيم » وتكنى « أم غنمة » وكانت عجوزاً كافرة ، لها بنات من زوجها « ذؤاب ابن عمرو » أحد الرؤساء ، فعرضت بناتها الأربع على « قدار بن سالف »، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء ، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك ، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة ، وهم المذكورون فى قوله تعالى : وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها ، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها ، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاء النساء يذمرون (٣) القبيلة فى قتلها ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاء النساء يذمرون (٣) القبيلة فى قتلها ،

 ⁽١) الشعراء: ١٥٥ (٢) النمل: ٤٨ (٣) أي يحضضن ويشجعن .

وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم فى ذلك فابتدرهم « قدار بن سالف » ، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ، ثم طعن فى لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها – وهو فصيلها – فصعد جبلاً منبعاً ورغا ثلاثاً .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن سمع الحسن أنه قال : يارب ، أين أمى ؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها . ويقال : بل اتبعوه فعقروه أيضاً .

عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : « إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عارم (١) عزيز (٢) منيع (٣) في رهطه ، مثل أبي زمعة » (٤) .

وعن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله الله الله الله وجهه : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ قال : بلى . قال : « رجلان ، أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى لحيته » (٥٠) .

يقول الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ النَّاقَةُ وَعَتَواْ عَنْ أُمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٦) ، فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه : فقد خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية ، واستعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه ، وكذّبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه ، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم .

⁽١) عارم : أي سهم .

⁽٣) منيع : أي مطاع ني قومه .

⁽٥) رواه ابن أبي حاتم .

⁽٢) عزيز: أي رئيس.

⁽٤) رواه أحمد نبي المسند .

⁽٦) الأعراف : ٧٧

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (١) أمسوا أي غير يومهم ذلك ، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد . بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا أن يلحقوه بالناقة : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللّهِ لَنُبَيَّتَنَّهُ وَالْفَالُمُ ﴾ (٢) أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ، ثم نجحدن قتله ، ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ، ولهذا قالوا : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لُولِيَّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادَقُونَ ﴾ (٣) .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ْ مَكْراً وَمَكَرُنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنَجْينَا اللَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٤) .

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفا وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة – ووجوههم مصفرة ، كما أنذرهم صالح عليه السلام . فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل ، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل – وهو يوم الجمعة – ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع – وهو يوم السبت – ووجوههم مسودة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل .

فلما كان صبيحة يوم الأحد ، تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ، لا يدرون كيف يُفعل بهم ، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب .

(۱) هود : ۲۵ (۲) النمل : ۲۹

(٣) النمل : ٤٩ (١) النمل : ٥٠ – ٥٣

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صبحة من السماء من فوقهم ، ورجفة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق ، فأصبحوا في دارهم جائمين ، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها . قالوا : ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها « كلبة بنت الساق » ويقال لها « الذريعة » – وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شئ ، فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت . . يقول الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بطَغُواهَا * إذ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله وَسُقْياهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بَذُنبِهِمْ فَسَواها * وكَ يَخَافُ عُقْبَاها * (١) .

وقال جَلِّ شأنه: ﴿ كَأَن لَمْ يَغْنُوا فِيهَا ﴾ أى لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿ أَلا إِنَّ تَمُودا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلا بُعْداً لِّثَمُود ﴾ (٢) أى نادى عليهم لسان القدر بهذا .

وعن جابر رضى الله عنه قال: لما مر رسول الله تلك بالحجر قال: « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت – أى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ما هم يومأ ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صبحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » (٣).

* *

⁽۱) الشمس : ۱۱ – ۱۵ (۲) هود : ۸۸

⁽٣) رواه أحمد - وانظر البداية والنهاية لابن كثير (بتصرف) .

• معجزة موسى عليه السلام:

وكانت معجزة موسى عليه السلام في يده وفي عصاه .

يقول الله تعالى : ﴿ اسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ وَأُدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (١) . أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألاً كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بهق .

ويقول جلَّ شأنه عن العصا : ﴿ وَأُوحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفَكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

ويقول سبحانه : ﴿ فَأُوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبِ بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فرْقِ كَالطَّوْدِ الْعَظيم ﴾ (٤) .

ويقول جلٌ وعلا : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبِ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ منْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ (٥) .

فالعصاحين يلقيها موسى عليه السلام بين يدى فرعون وملأه تنقلب حية تلقف حبال وعصى آل فرعون الذين سحروا بها أعين الناس فخيل إليهم من سحرها أنها تسعى ، ثم تعود عصاكما كانت لم تزد شبراً .

وحين يضرب بها البحر ينفلق اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط من أسباط بنى إسرائيل طريق يسيرون فيه ، وماء البحر حولهم قائماً مثل الجبال ، حتى إذا ما نجا بنو إسرائيل من كيد فرعون وبطشه ، يعود البحر لينطبق - بضربة ثانية من عصا موسى - على فرعون وجنده فيغرقهم أجمعين .

⁽١) القصص : ٣٢ (٢) النمل : ١٢ (٣) الأعراف : ١١٧ – ١١٨

⁽٤) الشعراء: ٦٤ (٥) البقرة: ٦٠

وحين يضرب بها الحجر الذي كانوا يحملونه معهم – بأمر من ربه – يتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط عين منه تنبجس ، ثم تتفجر ماءً زلالاً فيستقون ويشربون ويسقون دوابهم ، ويدخرون كفايتهم . .

ومن قبل .. أيَّد الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزات باهرة وحجج قاطعة - إلى جانب معجزة اليد والعصى - عله يرتدع عن كفره وضلاله ، ولكنه أبَى إلا الإقامة على الكفر والتمادى في الشر ، والاستمرار على الضلال والجهل .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخْذَنَا آلَ فَرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذُكُرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسنَةُ قَالُوا لَنَا هَذه ، وَإِن تُصبْهُمْ سَيَّنَةٌ يَطْيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ، ألا إِنَّمَا طَائرُهُمْ عندَ اللَّه وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَنَا بِهِ مِنْ آيَةً لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمُّلُ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتَ مُقَصَّلاتِ فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْما مُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

يخبرنا جلَّ شأنه أنه ابتلى آل فرعون - وهم قومه - بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع ، وقلة الثمار من الأشجار ، فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم .

فأرسل الله تعالى عليهم الطوفان ، وهو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والشمار ، كما ابتلاهم بالطاعون وكثرة الموت ، ثم سلط عليهم الجراد والقمل والضفادع والدم .

أما الجراد فمعروف ، وأما القُمُّل : فعن ابن عباس رضى الله عنهما - أنه السوس الذى يخرج من الحنطة ، وقيل : هو صغار الجراد الذى لا أجنحة لها ، وقيل : هو دواب سود صغار ، وقيل : هو البراغيث . وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحمنان ، وهو صغار القردان فوق القمامة . فدخل معهم البيوت

⁽١) الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣

والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء ابن السائب بهذا القمل المعروف .

وأما الضفادع فمعروفة ، لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به ، فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً طرياً ، ولا من نهر ولا بئر ولا شئ إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بنى إسرائيل من ذلك شئ بالكلية ، وهذا من قام المعجزة الباهرة ، والحُجَّة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل ، وفى هذا دليل أدل دليل .

أما الآيات التسع التى ذكرها الله تعالى فى سورة الإسراء فهى : العصا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد والضفادع والقُمَّل والدم ، ونقص الثمار ، وفلق البحر ، وانبجاس الماء من الحجر ، ونتق الجبل كأنه ظُلَّم ، وخطابه لربه .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تسْعَ آيَات بَيِّنَات ، فَاسْأَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فَرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنَّكَ يَا مُوسَىٰ مَسَّحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلَمْتَ مَا أُنزَلَ هَوُلا ء إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنَّكَ يَا فَرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ (١) .

كذلك جعل الله تعالى بعض بقرة مذبوحة - قيل: بلحم فخذها ، وقيل: بالعظم الذى يلى الغضروف ، وقيل: بالبضعة التى بين الكتفين . . جعل الله من هذا الجزء الميت من البقرة آية لموسى ، فنطق القتيل من بنى إسرائيل باسم قاتله ، سأله موسى عليه السلام: من قتلك ؟ قال: قتلنى ابن أخى ، ثم عاد ميتاً كما كان .

⁽١) الإسراء: ١.١ – ١.٢

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأَتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَعْقُلُونَ ﴾ (١)

أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ، كذلك أمره فى سائر الموتى ، إذا شاء أحياهم فى ساعة واحدة كما قال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسِ وَاحدَةً ﴾ (٢) .

* *

• معجزة المسيح عليه السلام:

وكانت معجزة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أُنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَة مَّن رَبِّكُمْ ، أُنِّى أُخْلَقُ لَكُم مِّنَ الطَّينِ كَهَيْئَة الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَبْرِئُ الأَكْمَة وَالأَبْرَصَ وَأُخْبِي الْمَوتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنْبَئُكُم بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنْبَئُكُم بِهِا فَي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم بَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنينَ ﴾ (٣) .

يخبرنا الله تعالى أنه بعث المسيح عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل ، مستدلاً على صدق رسالته بمعجزات من الله ، هى أن يصور لهم من الطين صورة مثل صورة الطير ، ينفخ فيها فتحل فيها الحياة وتتحرك طائراً بإرادة الله تعالى ، ويشفى بتقدير الله من ولد أعمى فيبصر ، ومن به برص فيزول برصه ، ويعيد الحياة إلى من فقدها .. كل ذلك بإذن الله وإرادته ، ويخبرهم بما يدخرون

⁽١) البقرة : ٧٢ - ٧٣ (٢) لقمان : ٢٨ (٣) آل عمران : ٤٩

فى بيوتهم من مأكول وغيره ، ويقول لهم إن هذه الآيات التى أظهرها الله على يديه حُجّة على أن رسالته حق .

يقول الإمام ابن كثير رضى الله عنه :

« لقد كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث الله بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بُعثَ في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، أنّى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله » .

ومن قبل كانت معجزة سليمان في تسخير الربح له ، وتكليمه للطير والحيوان وتسخير الجن له ..

* * *

• المعجزات الحسيَّة للرسول ﷺ :

وقد أُوتِي نبينا صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، وجُمع له من الآيات ما لم يُجمع لأحد من الأنبياء قبله ، ولم يُعط أحد مثله ، فكان لذلك أوضحهم دلالة ، وأعمهم رسالة ، ولذلك لم يُعط الله نبيا من الأنبياء معجزة إلا أعطى نبينا محمداً على مثلها ، أو أوضح منها ، أو ما يقاربها .

ومن هذه المعجزات: انشقاق القمر، وحبس الشمس له، ونبع الماء وتكثيره، وتكثير الطعام ببركته، وكلام الشجر وكثير من الجمادات وشهادتها له بالنبوة،

وكلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم ، وإحياء الموتى ، وكلام الصبيان والمراضع وشهاد تهم له بالنبوة ، وإبراؤه - صلى الله عليه وسلم - المرضى وذوى العاهات ، وإجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، وعصمة الله له ممن أراد كيده ، وغير ذلك من المعجزات التى لا يحصيها العد ، و لا يحيط بها الحصر . لذا نقتصر من هذه المعجزات على ما تناقله علماء الأمصار والعدول من نقلة الأخبار ، مما صح نقله ، واشتهر ذكره وحمله .

• انشقاق القمر:

من المعجزات الحسية للرسول الله الله الله الله عليه وسلم - آية ، وهو بمنى ، فأراهم انشقاق القمر ، فصار فرقتين ، حتى رأوا جبلى « حراء » بينما . وقال ابن مسعود : صار فرقتين ، فرقة فوق الجبل وفرقة تحته ، فقال النبى الله نجاته ، وقال تحته ، فقال النبى الله نجاته ، وقال كفار قريش : هذا سحر مستمر . فقال أبو جهل : هذا سحر ، فابعثوا إلى أهل الآفاق ، حتى ننظر ، أرأوا ذلك أم لا ؟ فأخبر أهل مكة : أنهم رأوه منشقاً .

فأنزل اللّه تعالى على نبيه محمد على : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقُ الْقَمَرُ * وَإِن يَرُوا اَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُستَمرٍ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أُهُوا ءَهُمْ ، وكُلُّ أُمْرٍ مُستَقِرٌ ﴾ (١) ، وهذا الحديث قد نقله الجم الفقير ، والعدد الكثير ..

وعن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا .. اشهدوا » (٣) .

وفى رواية لمسلم : بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى ، إذ انفلق القمر فلقتين : فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « اشهدوا » .

⁽۱) القمر : ۱ - (7) رواه البخارى ومسلم . (7) رواه البخارى ومسلم .

وفي أخرى لمسلم : فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فون الجبل .

وفى أخرى له : إن أهل مكة سألوا رسول الله على أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر .

كما رواه من الصحابة : ابن عباس ، وابن عمر ، وحذيفة ، وعلى ، وجبير بن مطعم وغيرهم ، رضى الله عنهم .

وقد نقل إلينا من القرآن نقلاً متواتراً ، محصلاً للعلم ، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما ذكرناه آنفاً ، فصحت الآية ، وعُلمت المعجزة والحمد لله .

وقد يقول قائل : كيف يصح هذا ؟ ولو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شئ ظاهر لجميعهم ، ولو ظهر إليهم انتقل عنهم ، ولكان مشهوراً منقولاً على التواتر .

ونقول: هذا الاستبعاد الوهمى يندفع بأيسر أمر، وذلك أن هذه الآية كانت آية ليلية، والناس على عادتهم المستمرة: الغالب عليهم النوم، ومن كان منهم منتبها ، كان منهم من قد انصرف عن ذلك ببعض أشغالهم، وكان معهم أيضا من رآه على ما حكيناه عن أهل آفاق مكة.

وأيضاً: فلعله إنما كان ذلك في أول طلوع القمر ، ولا شك أن الناس تختلف رؤيتهم للقمر وغيره من الكواكب بحسب اختلاف ارتفاع البلاد والأقاليم وانخفاضها ، فليس كل من في معمور الأرض يراه في وقت واحد ، بل يختلف ذلك في حقهم ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين ، وقد يطلع على قوم لا يشاهده الآخرون ، وقد يحول بين قوم وبينه سحاب ، أو جبال .

ولهذا تجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، ويكون في بعضها جزئية ، وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المشتغلون بعلم ذلك ، ولا يحس بها غيرهم ، لا سيما وهذه الآية كانت بالليل ، والعادة من الناس ما تقدَّم من الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف شيئاً من آيات السماء إلا من رصد واهتبل .

وكثيراً ما يحدِّث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار وشهب ونجوم طوالع عظام تظهر في أحيان من السماء ، ولا علم عند أحد غيرهم منها .

وانشقاق القمر من هذا القبيل ، إذ لم يكن دائماً ، وإنما كان يسيراً فى زمن قريب ، ثم لا يبعد أن يكون الله تعالى صرف الناس فى تلك الساعة عن النظر إليه ، لتختص هذه الآية بمشاهدة أهل مكة ، ومن جاورها من أهل الآفاق ، فيكون صرف الناس عن ذلك من قبيل خوارق العادات ، وذلك أوضح فى المعجزات ، فقد صح ما رمناه ، وانفصلنا عما ألزمناه .

وعند الوقوف على هذه المعجزة الظاهرة ، والآية الباهرة ، تعلم أنها أعظم من انشقاق البحر ، الذى خص الله تعالى بد موسى عليه السلام ، وإن كان عظيماً ، إذ انشقاق البحر لم يكن قطعاً في معظم البحر ، من إحدى ضفتيه إلى الأخرى ، وإنما كان قطع طريق من بحر القلزم إلى مفارشود ، والقمر انقسم فرقتين ، وصار شطرين (١) .



• حبس الشمس:

ومنها ما روى أنَّ النبى على كان يوحى إليه ، ورأسه فى حجر على كرم الله وجهه ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس ، فلما ارتفع الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا على ، أصليت العصر » ؟ قال : لا ، فقال رسول الله عليه و اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك ، فاردد » قال الراوى : فرأيتها غربت ، ووقفت على الجبال والأرض ، وذلك بالصهباء فى خبير (٢) .

⁽١) انظر الإعلام ، للإمام القرطبي - مرجع سابق : ٣٤٨/٣

⁽٢) ذكره الطحارى من طريقين ، قال عياض : وهذان الطريقان ثابتان ، رواتهما ثقات . حكاه اللكء، .

ومن هذا القبيل ما ذكره « يونس بن بكير » في زيادة المغازى ، روايته عن ابن إسحاق : « لما أسرى برسول الله ﷺ ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير التي رأى في مسراه ، قالوا له : متى تجئ ؟ فقال لهم : « يوم الأربعاء » فلما كان يوم الأربعاء الموعود به ، أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولي النهار ، ولم تجئ ، فدعا رسول الله ﷺ ربه ، فزيد له في النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس .

وهذه الآية أعظم من آية « يشوع بن نون » فأهل الكتاب يقولون إن « يشوع » استوقف الشمس فوقفت ، وفي بعض كتبهم : إنما استوقف ضياها ، في حين أن نبينا عليه السلام استرجعها فرجعت ، واستزاد ساعة في النهار فزيدت .

ولا يعترضن معترض من أهل الكتاب على هذه المعجزة بشئ ، لأنه لو اعترض لعارضناه بمعجزة يشوع ، فبالذى ينفصل على معجزة يشوع بمثله منفصل عما اعترض به ، وإن كان طبيعياً غير متشرع (١) .

*

• نبع الماء وتكثيره:

وهذه المعجزة مثل معجزة موسى عليه السلام ، التى هى نبع الماء من الحجر ، وزاد عليه نبع الماء من بين أصابعه ، فكان انفجار الماء من اللحم أعجب من انفجاره من الحجارة .

وذلك أنهم رووا: أن الحجر الذي كان تنفجر منه المياه ، إنما كان حجراً واحداً حمله موسى معه ، في حين أن الرسول الله علله كان يقول: « ايتونى بإناء – أي ماء كان » .

روى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس في العسكر ماء، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، ليس في العسكر

⁽١) انظر الإعلام - للقرطبي - مرجع سابق: ٣٨. ٣٥

ماء ، قال : « هل عندك شئ » ؟ قال : نعم . قال : « فأتنى بد » . قال : فأتاه بإناء فيد شئ من ماء قليل ، فجعل رسول الله الله السابعد في فم الإناء وفتح أصابعد ، قال : فانفجرت من بين أصابعد عيون ، وأمر بلالاً فقال : « ناد في الناس : الوضوء المبارك » (١١) .

● وعن ثابت قال: قلت لأنس: يا أبا حمزة ، حدّثنا من هذه الأعاجيب شيئاً شهدته ولا تحدثه عن غيرك ، قال: صلّى رسول الله على صلاة الظهر يوماً ، ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التي كان يأتيه عليها جبريل ، فجاء بلال فنادى بالعصر ، فقام كل مَن كان له بالمدينة أهل يقضى الحاجة ويصيب فيها الوضوء ، وبقى رجال من المهاجرين ليس لهم أهل بالمدينة ، فأتى رسول الله على بقدح أروح فيه ماء ، فوضع رسول الله على كفه في الإناء ، فما وسع الإناء كف رسول الله على كلها ، فقال بهؤلاء الأربع في الإناء – أى أدخل فيه أصابعه الأربع – ثم قال: « ادنوا فتوضأوا » – ويده في الإناء – فتوضأوا حتى ما بقى منهم أحد إلا توضأ ، قال: فقلت : يا أبا حمزة ، كم تراهم ؟ قال: ما بين السبعين والثمانين (٢).

• وعن عبد الله بن رباح ، عن أبى قتادة قال : خطبنا رسول الله على عشية فقال : « إنكم تسرون عشيتكم هذه وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً » ، فانطلق الناس لا يلوى بعضهم على بعض ، فإنى لأسير إلى جنب النبى على حين ابهار الليل ، إذ نعس النبى على فمال على راحلته ، فدعمته – أى أسندته من غير أن أوقظه ، فاعتدل على راحلته ، ثم سرنا ثم تهور الليل ، فنعس النبى على واحلته ميلة أخرى ، فدعمته من غير أن أوقظه ، فاعتدل على راحلته ميلة أخرى ، فدعمته من غير أن أوقظه ، فاعتدل على راحلته ، ثم سرنا حتى إذا كان من آخر السَحَر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد أن ينجفل فدعمته ، فرفع رأسه فقال : « من هذا » ؟ فلت : ما زال فقلت : أبو قتادة . قال : « متى كان هذا من مسيرك منى » ؟ قلت : ما زال

⁽١) رواه أحمد في المسند (٢٢٦٨) . (٢) رواه ابن سعد في الطبقات .

هذا مسيرى منك منذ الليلة . قال : « حفظك الله بما حفظت نبيه به » . ثم قال : « أترانا نخفى على الناس ؟ هل ترى من أحد » ؟ - كأنه يريد أن يعرس . قال : قلت : هذا راكب ، ثم قلت : هذا راكب ، فاجتمعنا - وكنا سبعة ركبة - فمال النبى عليه السلام عن الطريق ، فوضع رأسه ثم قال : احفظوا علينا صلاتنا ، فكان أول ما استيقظ هو بالشمس ، فقمنا فزعين قال : « اركبوا » ، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ، فدعا بميضأة كانت معى فيها ما ، ، فتوضأنا وضوء دون وضوء ، وبقى فيها شئ من ما . . فقال النبى ﷺ : « يا أبا قتادة ، احفظ علينا ميضأتك هذه فإنه سيكون لها نبأ ، ثم نودى بالصلاة ، فصلى النبى ﷺ ركعتين قبل الفجر ، ثم صلى الفجر كما كان يصلى كل يوم ، ثم قال : « اركبوا » ، فركبنا ، فجعل بعضنا يهمس إلى بعض ، فقال النبى ﷺ : الصلاة . قال : قلنا : قلنا : قلنا : يا رسول الله ، تفريطنا فى الصلاة . قال : فقال : « أما لكم في أسوة ؟ إنه ليس فى النوم تفريط ، ولكن التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجئ وقت الصلاة الأخرى ، فمن فعل ذلك فليصل حين ينتبه لها ، فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها » .

ثم قال: « ما ترون الناس صنعوا » ؟ ثم قال: « أصبح الناس فقدوا نبيهم » . فقال أبو بكر وعمر: رسول الله يعدكم لم يكن ليخلفكم . فقال الناس: النبى عليه السلام بين أيديكم ، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا .

فانتهينا إلى الناس حين حمى كل شئ - أو قال : حين تعالى النهار - وهم يقولون : يا رسول الله ، هلكنا عطشاً . قال : « لا هلك عليكم » . فنزل وقال : « أطلقوا لى غُمرى - يعنى بالغُمر القعب الصغير - ودعا بالميضأة ، فجعل النبى على يصب وأسقيهم ، فلما رأى الناس ما فيها تكابوا ، فقال النبى على : « أحسنوا الملأ فكلكم سيروى » . قال : فجعل النبى على يصب وأسقيهم حتى ما بقى غيرى وغيره ، قال : فصب وقال : « اشرب » ، قال : فقلت : يا رسول الله ، لا أشرب حتى تشرب ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ساقى القوم آخرهم » ، قال : فشربت وشرب النبى على ، قال : فأتى الناس الماء جامين واء .

قال عبد الله بن رباح - راوى الحديث - إنى لفى مسجدكم هذا الجامع أحدًث هذا الحديث إذ قال عمران بن حصين : انظر أيها الفتى ، انظر كيف تحدَّث فإنى أحد الركب تلك الليلة ، قال : قلت : يا أبا نجيد ، فأنت أعلم . قال : من الأنصار . قال : فأنتم أعلم بحديثكم ، حدَّث القوم . قال : فحدُّثت القوم فقال عمران : وقد شهدت تلك الليلة وما شعرت أن أحداً من الناس حفظه كما حفظته (١) .

- ومن ذلك : أن الناس عطشوا يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه وقالوا : ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، وكانوا خمس عشرة مائة ، قالوا : ولو كنا مائة ألف لكفانا .
- ومنها: ما اتفق له صلى الله عليه وسلم بالحديبية أيضاً ، ورواه البراء وسلمة بن الأكوع ، وذلك أنهم أتوا الحديبية وهم أربع عشرة مائة ، وبئرها لا تروى خمسين شاة ، فنزحوها فلم يتركوا فيها شيئاً ، فقعد رسول الله على على بثرها ، فبصق ودعا ، وأخرج سهماً من كنانته ، فوضعه في البئر ، فجاشت العين بماء كثير ، فأرووا أنفسهم وركابهم ، وهم ألف وأربعمائة .
- ومنها: ما اتفق فی غزوة تبوك ورواه معاذ ، وذلك أنهم وردوا عیناً بتبوك ، وهی تبض بشئ من ماء ، مثل الشراك ، فغرفوا من العین بأیدیهم ، حتی اجتمع منه شئ قلیل ، ثم غسل النبی علله فیه وجهه ویدیه ، وأعاده فیها ، فجرت بماء كثیر فاستقی الناس .

يقول ابن إسحاق: فانخرق الماء ما له حس كحس الصواعق. ثم قال رسول الله ﷺ: « يوشك يا معاذ ، إن طالت بك حياة ، أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً ».

وكذلك صنع ذلك الموضع جناناً بعده صلى الله عليه وسلم .

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات .

قال عمران : إنهما لم يزدادا إلا امتلاءً ، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها ، ثم قال لها : « اذهبى ، فإنًا ما نقصناكِ من مائكِ شيئاً ، ولكن الله سقانا » .

- ومن ذلك : حديث عمر فى جيش العُسْرة ، وذكر ما أصابهم من العطش ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، فرغب أبو بكر للنبى الله فى الدعاء ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت ، فملأوا ما معهم من آنية ، ولم يجاوز ذلك المطر العسكر .
- ومن ذلك : حديث « عمرو بن شعيب » أنَّ أبا طالب قال للنبى ﷺ وهو ردفه بذى المجاز : عطشتُ ، وليس عندى ماء ، فنزل النبى ﷺ فضرب بقدمه الأرض فخرج الماء ، فقال له : « اشرب » .
- ومنه: ما رواه ابن سعد عن أنس بن مالك قال: إنى لقائم عند المنبر يوم الجمعة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، إذ قال بعض أهل المسجد : يا رسول الله ، حُبِس المطر وهلكت المواشى ، فادع الله أن يسقينا . فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى فى السماء من سحاب ، فألف الله بين السحاب فوبلتنا حتى رأيت الرجل الشديد تهمه نفسه أن يأتى أهله ، قال : فمطرنا سبعاً لا تقلع ، حتى الجمعة الثانية ورسول الله ﷺ يخطب ، فقال بعض القوم : يا رسول الله ، تهدمت البيوت وحُبس السنّة ار ، فادع الله أن يرفعها عنا ، فرفع رسول الله ﷺ

يديه فقال : « اللَّهم حوالينا ولا علينا » ، قال : فتقور ما فوق رؤوسنا منها كأنًّا في إكليل ، يحطر ما حولنا ولا نمطر (١) .

والأحاديث من هذا النوع كثيرة ، رويت من طرق عديدة ، لا يتطرق لها الكذب ، ولم يردها أحد من أهل العقل والأدب ، لكونها وتعت في جموع كثيرة ، وتناقلها جماعات عديدة ، يدينون تحريم الكذب ، ويرونه أقبح شبهة وأشنع سبب ، بل يبادرون إلى ذم الكاذب وإظهار فضيحته ، ولا يقرون شيئاً من الكذب بحال عند معرفته .

*

• تكثير الطعام ببركته صلى الله عليه وسلم:

وهذا النوع من المعجزات هو من قبيل ما نقلت النصارى عن المسيح عليه السلام فى الإنجيل ، وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز وحوتين : خمسة آلاف رجل سوى النساء ، وهو من قبيل ما ثبت أن موسى عليه السلام أطعم بنى إسرائيل بالمفاز « المن والسلوى » .

ومنها نعلم أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه الله عزّ وجَلٌ من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله ، وزاده على ذلك . ولا يسع أهل الكتاب من اليهود والنصارى الاعتراض على هذا النوع من المعجزات فقد أوتى أنبياؤهم شيئاً منها ، وإلا انسحب الاعتراض عليهم .

والأخبار في هذا الباب كثيرة ، يطول الكتاب بنقلها ، على أنه لا يجهل شئ منها ، بل هي عند المسلمين معروفة منقولة ، مشهورة موصوفة .

• ومن ذلك : ما رواه على بن أبى طالب كرّم الله وجهه قال : أمر رسول الله ﷺ خديجة – وهو بمكة – فاتخذت له طعاماً ، ثم قال لعلى : « ادع لى بنى عبد المطلب » ، فدعا أربعين ، فقال لعلى : « هلم طعامك » ، قال

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات .

على : فأتيتهم بثريدة إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا ، ثم قال : « اسقهم » فسقيتهم بإنا ، هو رى أحدهم ، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا ، فقال أبو لهب : لقد سحركم محمد ، فتفرقوا ولم يدعهم ، فلبثوا أياماً ثم صنع لهم مثله ، ثم أمرنى فجمعتهم فطعموا ، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : « من يؤزرنى على ما أنا عليه ويجيبنى على أن يكون أخى وله الجنة » ؟ فقلت : أنا يا رسول الله - وإنى لأحدثهم سنا وأحمشهم ساقاً ، وسكت القوم ثم قالوا : يا أبا طالب ، ألا ترى ابنك ؟ قال : دعوه ، فلن يألو ابن عمه خيراً (١) .

● وروى ابن سعد عن شيخ من بنى جمع قال : لما أتى النبى ﷺ أم معبد قال : « هل من قرَى » ؟ قالت : لا . قال : فانتبذ هو وأبو بكر وراح ابنها بشويهات فقال لأمد : ما هذا السواد الذى أرى منتبذاً ؟ قالت : قوم طلبوا القرَى فقلت ما عندنا من قرَى ، فأتاهم ابنها فاعتذر وقال : إنها امرأة ضعيفة ، وعندنا ما تحتاجون إليه . فقال رسول الله ﷺ : « فائتنى بشاة من غنمك » ، فجاء فأخذ عناقاً ، فقالت أمد : أين تذهب ؟ قال : سألانى شاة ، قالت : يصنعان بها ماذا ؟ قال : ما أحبا .

فمسح النبى على ضرعها وضرتها فتحفلت ، فحلب حتى ملاً قعباً وتركها أحفل ما كانت وقال : « انطلق بنا إلى أمك وائتنى بشاة أخرى من غنمك » فأتى أمد بالقعب فقالت : أنّى لك هذا ؟ قال : من لبن الفلانة ، قالت : وكيف ولم تقر سلاً قط ؟ أظن هذا واللات الصابئ الذي بمكة ، وشربت مند ، ثم جاءه بعناق أخرى فحلبها حتى ملاً القعب ، ثم تركها أحفل ما كانت ، ثم قال لد : « اشرب » ، فشرب ، ثم قال : جننى بأخرى ، فأتاه بها فحلب وسقى أبا بكر ثم قال : « جئتى بأخرى » ، فأتاه بها فحلب وسقى أبا بكر ثم قال : « جئتى بأخرى » ، فأتاه بها فحلب ثم شرب وتركهن أحفل ما كن .

● ومن ذلك : خبره فى تزويج « زينب » رضى الله عنها ، وذلك أنه أمر خادمه « أنسأ » أن يدعو له الناس فدعاهم ، فاجتمعوا ، حتى امتلأ البيت

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات .

والحجرة ، وقدم إليه توراً من حجارة فيه حيس ، أهدته له « أم سليم » فقال لهم رسول الله ﷺ : « ليتحلق عشرة عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . قال : فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ودخلت طائفة أخرى حتى أكلوا كلهم . وكنت – قال أنس – لم أدع إنساناً إلا دعوته . قال أنس : ثم قال لى : « ارفع التور » فرفعته ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر ، أم حين رفعت ؟

● ومنها : ما رواه أنس بن مالك قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعتُ صوت رسول الله على ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شئ ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلَفت الخبز ببعضه ثم دسته في يدى وردتني ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ . قال : فذهبتُ به إليه فوجدتُ رسول الله على جالساً في المسجد ومعه الناس ، قال : فقمت عليهم فقال رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة » ؟ فقلت : نعم ، قال : « بطعام » ؟ فقلت : نعم . فقال رسول الله على لمن معد : « قوموا » ، قال : فانطلقوا فانطلقت بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول اللَّه ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، قالت أم سليم : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم وأبو طلحة معه حتى دخلا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « هلمي يا أم سليم ما عندك » . فأتيته بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ففتُّ وعصرت أم سليم بعكة (١) لها فأدمته ، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « انذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » ، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، فأكل القوم كلهم وشبعرا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً (٢) .

ومنها: ما رواه سمرة بن جندب قال: كنا مع النبى ﷺ نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل، تقوم عشرة وتقعد عشرة، قلنا: فما كانت تُمد ؟

⁽١) العكة : إناء من جلد يحفظ فيه الدهن . (٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحبح .

قال: من أى شئ تعجب ؟ ما كانت تَمَد إلا من ههنا ، وأشار بيده إلى السماء (١) .

• ومنها : ما رواه جابر رضى الله عنه قال : إنَّا كنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت لنا كدية شديدة (٢) ، فجاءوا إلى النبي علله فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل - أو أهيم - فقلت : يا رسول الله ، ائذن لي إلى البيت ، فقلت الامرأتي : رأيتُ بالنبي على ما عن ذلك صبر ، فعندك شئ ؟ فقالت : عندى شعير وعناق (٣) ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ، ثم جئتُ النبي على والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج ، فقلت : طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجَّلان ، قال : « كم هو » ؟ فذكرت له فقال : « كثير طيب ، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى » فقال : « قوموا » ، فقام المهاجرون والأنصار ، فدخلتُ عليها فقلت : ويحك ، جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومَن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: « ادخلوا ولا تضاغوا ». فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا ، وبقى منه فقال : « كلى وأهدى فإن الناس أصابتهم محاعة » (٤) .

وفى رواية : قال جابر : لما حفر الخندق رأيت بالنبى على خمصاً ، فانكفأت إلى امرأتى فقلت : هل عندك شئ ؟ فإنى رأيتُ برسول الله على خمصاً شديداً، فأخرجت إلى جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بُهيمة داجن فذبحتها ، وطحنت الشعير ، ففرغت إلى فراغى وقطعتها في برمتها ، ثم وليتُ إلى رسول الله على

⁽١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . ﴿ ﴿ ﴾ أي صَحْرة .

⁽٣) أي عنزة صغيرة . (٤) متفق عليه .

فقالت: لا تفضحنى برسول الله الله المؤوم ومن معه . فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله ، ذبحنا بُهيمة لنا ، وطحنت صاعاً من شعير ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح رسول الله الله فقال: « يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سؤراً فحيعلا بكم » ، فقال النبى الله الله عله : « لا تُنزِلن برمتكم ، ولا تخبزن عجبنكم حتى أجئ » ، فجئت وجاء النبى الله يقدم الناس ، حتى جئت امرأتى فقالت : بك وبك ! فقلت : قد فعلت الذي قلت ، فأخرجت عجيننا فبصق فيه وبارك ، ثم قال : « ادع خابزة فلتخبز معك ، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو .

• ومنها: ما رواه عبد الرحمن بن أبى بكر قال: كنا مع النبى الله ثلاثين ومائة ، فقال النبى الله : هل مع أحد منكم طعام ، فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه ، فعجن ، ثم جاء رجل مشرك مُشعَان (١) طويل بغنم يسوقها ، فقال النبى الله : « أبيعا أم عطية ؟ - أو قال : أم هدية - قال : لا ، بل بيع ، فاشترى منه شاة ، فصنعت ، وأمر النبى الله بسواد البطن (٢) أن يُشوى ، قال : وإيم الله ما من الثلاثين والمائة إلا قد حز (١) رسول الله الله حزة من سواد بطنها ، إن كان شاهدا أعطاها إياه ، وإن كان غائباً خباً له ، قال : وجعل منها قصعتين ، قال : فأكلنا أجمعون وشبعنا ، وفضل في القصعتين فجعلناه على البعير (١).

• ومن هذه المعجزات ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل « مر الظهران » (٥) في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول : ما يتباعثون (٦) من العجف (٧) ، فقال

⁽١) مشعان - بضم الميم وسكون الشين وتشديد النون : هو المنتفش الشعر الثائر الرأس .

⁽٢) سواد البطن : هو الكبد ، كما في النهاية .

⁽٣) الحز : القطع ، والحُزة - بضم الحاء - : القطعة من اللحم ونحوه .

⁽٤) رواه أحمد في المسند (١٧.٣) . (٥) مر الظهران : موضع على مرحلة من مكة .

⁽٦) يتباعثون : من البعث وأصله الإثارة . (٧) العجف : ذهاب السمن والهزال .

أصحابه: لو انتحرنا (۱) من ظهرنا (۲) ، فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقد أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وينا جمامة (۳) قال: « لا تفعلوا ، ولكن اجمعوا لى من أزوادكم » فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع (٤) ، فأكلوا حتى تولوا ، وحثا كل واحد منهم في جرابه ، ثم أقبل رسول الله على حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحجر ، فاضطبع (٥) بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غميزة (٦) ، فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن الشمالي مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشى إنهم لينقزون (٧) نقز الظباء ، ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سننة » .

قال أبو الطفيل: « وأخبرني ابن عباس أنَّ النبي ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع » (٨).

ومنها: ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال على كرم الله وجهه: بتنا ليلة بغير عشاء ، فأصبحت فخرجت ، ثم رجعت إلى فاطمة رضى الله عنها وهي محزونة ، فقلت: مالك؟ فقالت: لم نتعش البارحة ولم نتغد اليوم وليس عندنا عشاء! ، فخرجت فالتمست فأصبت ما اشتريت طعاماً ولحماً بدرهم ، ثم أتيتها به فخبزت وطبخت ، فلما فرغت من انضاج القدر قالت: لو أتيت أبى فدعوته ، فأتيت رسول الله على وهو مضطجع في المسجد ، وهو يقول: « أعود بالله من الجوع ضجيعاً »! فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، عندنا طعام

⁽١) انتجرنا: من النجر، يريد: نجرنا.

⁽٢) من ظهرنا : الظهر الإبل التي يُحمل عليها وتُركب .

⁽٣) جمامة : أي راحة وشبع وري .

⁽٤) الأنطاع : جمع نطع : بساط من جلد يجعل كالمائدة .

⁽٥) اضطبع بردائد : هو أن يأخذ الرداء فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقى طرفيه على كشفه الأيسر من جهة صدره وظهره ، وسمى بذلك لإبداء الضبعين .

⁽٦) الغميزة : العيب من الغمز ، والمغامز : المعايب .

⁽٧) النقز : الوثبان صعداً من مكان . (٨) رواه أحمد في المسند (٢٧٨٣) .

فهلم ، فتوكأ على حتى دخل والقدر تفور فقال : « اغرفى لعائشة » ، فغرفت فى صحفة ، ثم قال : « اغرفى لحفصة » ، فغرفت فى صحفة ، حتى غرفت لجميع نسائه التسع ، ثم قال : « اغرفى لابنك وزوجك » ، فغرفت ، فقال : « اغرفى فكلى » ، فغرفت . ثم رفعت القدر وإنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله .

ومنها: ما رواه ابن هشام فی السیرة: أن ابنة لبشیر بن سعد - أخت النعمان بن بشیر - قالت: دعتنی أمی عمرة بنت رواحة فأعطتنی حفنة من تمر فی ثوبی ثم قالت: أی بنیة ، اذهبی إلی أبیك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت: فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا التمس أبی وخالی ، فقال: « تعالی یا بنیة ، ما هذا معك » ؟ قالت: قلت: یا رسول الله ، هذا تمر بعثتنی به أمی إلی أبی بشیر بن سعد وخالی عبد الله بن رواحة یتغدیانه . قال: « هاتیه » . قالت: فصببته فی کفی رسول الله ﷺ وأما ملأتها ، ثم أمر بثوب فَبُسط له ، ثم دحا بالتمر علیه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده: اخرج فی أهل الخندق ، أن هلم إلی الغداء » . فاجتمع أهل الخندق علیه فجعلوا یأکلون منه ، وجعل یزید حتی صدر أهل الخندق عنه ، وانه لیسقط من أطراف الثوب .

• ومنها: ما روى عبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قال: حدثنى أبى قال: كنا فى غذاة (١) ، فأصاب الناس مخمصة ، فاستأذن الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نحر بعض ظهرهم ، وقالوا: يبلغنا الله به ، فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله على هم أن يأذن لهم فى نحر بعض ظهرهم ، قال : يا نبى الله ، كيف بنا إذا نحن لقينا القوم غدأ جياعاً رجالاً ، ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ، ثم تدعو الله فيها بالبركة ، فإن الله سيبلغنا بدعوتك – أو سيبارك لنا فى دعوتك – فدعا رسول الله على ببقايا أزوادهم ، فجعل الناس يجيئون بالحثية من الطعام وفوق ذلك ، وكان أعلاهم مَن جاء بصاع من تمر ، فجمعها رسول الله على ثم قام فدعا بما شاء الله أن يدعو ،

⁽١) هي غزوة تبوك .

ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحثوا ، فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملأوه وبقى منه ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنى رسول الله ، لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجبت عنه النار يوم القيامة » (١) .

فجاءوا حتى ملأوا البيت وملأوا الحجرة وكانوا في الدار ، وجئ بمثل الكف فوضعت ، فجعل رسول الله على يبسطها في الإناء ، ويقول ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : « ادنوا فكلوا ، فإذا شبع أحدكم فليُخل لصاحبه » . قال : فجعل الرجل يقوم والآخر يقعد ، حتى ما بقى من أهل البيت أحد إلا شبع ، ثم قال : قال : ادع لى أهل الحجرة ، فجعل يقعد قاعد ويقوم قائم حتى شبعوا ، ثم قال : ادع لى أهل الدر ، فصنعوا مثل ذلك ، قال : وبقى مثل ما كان في الإناء ، قال : فقال رسول الله على : « كلوا وأطعموا جيرانكم » (٢) .

● ومنها : ما رواه أبو هريرة قال : والله الذي لا إلله إلا هو ، إنْ كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر بي النبي ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في وجهى وما في نفسى ، ثم قال : « أبا هرٍ » ،

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات . (٢) المرجع السابق .

قلت: لبيك يا رسول الله ، قال: « إلحق » . ومضى فتبعته ، فدخل فاستأذنت فأذن لى فدخلت ، فوجد لبنا فى قدح فقال: « من أين هذا اللبن » ؟ قالوا: أهداه لك فلان - أو فلانة - قال: « أباهر » ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال: « إلحق إلى أهل الصُفّة فادعهم لى » .

قال: وأهل الصُفَّة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ، ولا على أحد ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب منها وأشركهم فيها . فساءنى ذلك فقلت - أى فى نفسه - وما هذا اللبن فى أهل الصُفَّة ، كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا وأمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله على بد ، فأتبتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا ، فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت .

قال: «یا أباهر»، قلت: لبیك یا رسول الله، قال: «خذ فأعطهم». قال: فأخذتُ القدح فجعلت أعطیه الرجل فیشرب حتی یروی ثم یرد علی القدح، فأعطیه الرجل فیشرب حتی یروی ثم یرد علی القدح، فأعطیه الرجل فیشرب حتی یروی ثم یرد علی القدح، فأعطیه الرجل فیشرب حتی یروی ثم یرد علی القدح، حتی انتهیت ولی النبی شخه، وقد روی القوم کلهم فأخذ القدح فوضعه علی یده، فنظر إلی فتبسم، فقال: «أباهر» قلت: لبیك یا رسول الله، قال: «اقید فاشرب»، فقدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال یقول: «اشرب» حتی قلت: لا والذی بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: «فأرنی»، فأعطیته القدح، فحمد الله تعالی وسمی وشرب الفضل (۱).

• ومنها : ما رواه نافع : أنه كان مع رسول الله تلك فى زهاء أربعمائة رجل ، فنزل بنا على غير ماء ، فكأنه اشتد على الناس ورأوا رسول الله تلك نزل فنزلوا ، إذ أقبلت عنز تمشى حتى أتت رسول الله تلك محددة القرنين ، قال :

⁽١) رواه البخاري .

فحلبها رسول الله ﷺ، قال : فأروى الجند وروى ، قال : ثم قال : « يا نافع ، املكها ، وما أراك تملكها » قال : فلما قال رسول الله ﷺ : « وما أراك تملكها » قال : فأخذت عوداً فريطتُ الشاة فاستوثقتُ منها ، قال : ونام رسول الله ﷺ ونام الناس وغت ، قال : فاستيقظت فإذا الحبل محلول وإذا لا شاة ، قال : فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته قال : قلت : الشاة ذهبت . قال : فقال رسول الله ﷺ : « يا نافع ، أما أخبرتك أنك قلت ؛ الشاة ذهبت . قال : فقال رسول الله ﷺ : « يا نافع ، أما أخبرتك أنك لا تملكها ؟ إنّ الذي جاء بها هو الذي ذهب بها » (١) .

• ومن هذه المعجزات حديث مزود « أبى هريرة » وذلك أن الناس أصابتهم مجاعة شديدة في بعض أسفاره ، فقال النبى على الأبى هريرة : « هل من شئ »؟ قال : قلت : نعم ، شئ من تمر في المزود ، قال : « فآتني به » ، فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ، ودعا بالبركة ، ثم قال : « ادع عشرة » فدعوتهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم لم يزل كذلك حتى أطعم الجيش كله ، وقال لى : « خذ ما جئت به » فأخذت ، فأكلت منه وأطعمت حياته ، وحياة أبى بكر ، وعمر ، إلى أن قتل عثمان فانتهب منى فذهب . وقد قيل : إن ذلك التمر إنما كان بضع عشرة تمرة .

● ومن ذلك ما رواه سلمان الفارسى قال : أتيتُ رسول الله ﷺ وهو فى جنازة رجل من أصحابه ، فلما رآنى مقبلاً قال لى : در خلفى ، وطرح رداءه فرأيتُ الخاتم وتبعته ، ثم درتُ إليه فجلست بين يديه فقال : « كاتب » ،

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات . (٢) رواه ابن سعد في الطبقات .

فكاتبت على ثلاثمائة ودية عالقة وأربعين أوقية من ذهب ، فقال رسول الله على « أعينوا أخاكم » ، فكان الرجل يأتى بالودية والثنتين والثلاث حتى جمعوا لى ثلاثمائة ، فقلت : كيفي لى بعلوقها ؟ فقال لى : « انطلق ففقر لها بيدك » ، ففقرتُ لها ، ثم أتيته فجاء معى فوضعها بيده ، فما أخفقت منها واحدة ، فقلرتُ لها ، ثم أتيته فجاء معى فوضعها بيده ، فما أخفقت منها واحدة ، وبقى الذهب ، فبينا أنا عنده أتى بمثل بيضة الحمامة من ذهب صدقة ، فقال : « أين العبد المكاتب الفارسي » ؟ فقمت فقال : خذ هذه فأد منها ، فقلت : كيف تكفينى هذه ؟ فمسح رسول الله على لسانه عليها ، فوزنت منها أربعين أوقية ، وبقى عندى مثل ما أعطيتهم (١١) .

* * *

• كلام الشجر ، وكثير من الجمادات وشهادتها له بالنبوة :

اختص الله تعالى نبيه ورسوله على بإنطاق الحجر والشجر له ، وبتحريك الشجر والسجود بين يديه ، مما كثرت حكاياته ، واتسعت رواياته ، لكثرة عدد ما روى فى ذلك ، وصحة ما اتفق هنالك ، فوردت به الأخبار ، ونقل عن الأثمة العدول الأخيار .

ومن ذلك : ما رواه جابر بن عبد الله قال : كان في رسول الله ﷺ خصال : لم يكن في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عَرْفه أو ريح عَرقه - الشك من إسحاق - ولم يكن يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له (٢).

• ومن هذه المعجزات: ما رواه على بن أبى طالب كرّم الله وجهد قال: كنت مع النبى علله بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله (٣).

♦ ومنها : ما رواه جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بعثت ، إنى لا أعرفه الآن » (٤) .

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات . (٢) أخرجه البيهتي في دلائل النبوة .

⁽٣) رواء الترمذي (٥. ٣٧) وقال : حديث حسن غريب .

⁽٤) رواه الترمذي (٣٧.٣) وقال : حديث حسن غريب .

- ومنها: ما رواه أبو زيد: أنَّ رسول الله على كان بالحجون وهو مكتئب حزين، فقال: « اللهم أرنى اليوم آية لا أبالى مَنْ كذَّبنى بعدها من قومى »، فإذا شجرة من قبل عقبة المدينة، فناداها فجاءت تشق الأرض حتى انتهت إليه وسلمت عليه، ثم أمرها فرجعت، فقال: « ما أبالى مَنْ كذَّبنى بعدها من قومى » (٢).
- ومنها: ما رواه بريدة: أنَّ النبي ﷺ كان في بعض غزواته، فدنا منه أعرابي فقال له: « ها في أعرابي فقال له: « ها في خير منهم » ؟ قال: ما هو ؟ قال: « تشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ». فقال: ومن يشهد لي على صحة ما تقول ؟ قال: « هذه الشجرة شجرة كانت بشاطئ الوادي فادعها فإنها تجيبك ».

قال : فدعوتها ، فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها ، فتقطعت عروقها ، ثم جاءت تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : السلام عليك يا رسول الله . فقال الأعرابى :

⁽١) رواه البيهقي في دلائل النبوة . (٢) رواه ابن سعد في الطبقات .

مرها فلترجع إلى هيئتها ، فأمرها فرجعت فدلّت عروقها حيث كانت واستوت ، فآمن الأعرابي وقال : ائذن لي أسجد لك . فقال عليه الصلاة والسلام : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لبعلها » ، قال : فائذن لي أن أثبًل يديك ورجليك ، فأذن له .

وقد روى عن النبى الله أنه ظهرت على يديه مثل هذه المعجزة مرات ، وطرقها صحاح ، بل منها ما هو متواتر على ما حكاه أهل النقل ، فقد روى أنه طافت به شجرة ثم رجعت إلى منبتها ، فقال رسول الله الله الله الله الله الله أن تسلّم » .

ومنها: ما رواه جابر: أنه صلى الله عليه وسلم خرج يوماً ليقضى حاجته، فلم يجد بما يستتر، وإذا بشجرتين بشاطئ الوادى، فانطلق رسول الله المؤخذ بغصن من أغصانها وقال لها: « انقادى على بإذن الله »، فانقادت معه كالبعير المذلل، ثم فعل بالأخرى مثل ذلك وقال: « التنما على » فالتنما، فلما قضى حاجته. يقول جابر: فالتفتُ فإذا رسول الله على مقبل والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساقها.

وكذلك روى مثل هذا الحديث عطاء قال: بلغنى أن النبى الله كان مسافراً، فذهب يريد أن يتبرز - أو يقضى حاجته - فلم يجد شيئاً يتوارى به من الناس، فرأى شجرتين بعيدتين فقال لابن مسعود: « اذهب فقم بينهما فقل لهما: إن رسول الله أرسلنى إليكما أن تجتمعا حتى يقضى حاجته وراءكما »، فذهب ابن مسعود فقال لهما، فأقبلت إحداهما إلى الأخرى فقضى حاجته وراءهما.

كما روى أسامة بن زيد مثل هذا في النخيل ، وقال فيه : قال لى : « انطلق إلى هذه النخلات وقل لهن : إنَّ رسول الله ﷺ بأمركن أن تأتين لحاجة رسول الله ، وقل للحجارة مثل ذلك » . فقلت ذلك لهن ، فوالذي بعثه بالحق : لقد رأيتُ النخلات يتقاربن ويجتمعن ، والحجارة يتعاقدن ويتراكمن حتى صرن ركاماً خلفه ، فلما قضى حاجته قال لى : « قل لهن يفترقن » ، فوالذى نفسى بيده لقد رأيتُ النخلات والحجارة يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن .

- ومنها: ما روته أم المؤمنين عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، تأتى الحلاء فلا يُرى منك شيئاً من الأذى! فقال: « أوَ ما علمت يا عائشة أنَّ الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء فلا يُرى منه شئ »؟ (١١).
- ومنها: ما رواه أبو بكر بن فورك: أن رسول الله على كان فى غزوة الطائف ليلاً، وهو يسير، فأخذته سنّة، فاعترضته سدرة، فانفرجت له نصفين حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهى هناك معروفة معظمة.
- ومنها: ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال: أتى النبى الله رجل من بنى عامر فقال: يا رسول الله، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك فإنى من أطب الناس، فقال له رسول الله على: « ألا أريك آية ؟ قال: بلى، قال: فنظر إلى نخلة فقال: « ادع ذلك العذق »، قال: فدعاه، فجاء ينقز حتى قام بين يديه، فقال له رسول الله على: « ارجع » فرجع إلى مكانه، فقال العامرى: يا آل بنى عامر، ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر (٢).

ومنها: ما رواه أنس: أنَّ الرسول الله ﷺ أخذ كفاً من حصى ، فسبَّحت في يده حتى سمعنا تسبيحها ، ثم صبها رسول الله ﷺ في يد أبي بكر فسبَّحت كذلك ، ثم صبها في أيدينا فلم تسبَّح .

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات .

 ⁽۲) رواه أحمد فى المسند (١٩٥٤) ، كما رواه أبو نعيم فى دلاتل النبوة من طريق الأعمش
 عن سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس مطولاً ، وفى آخره : « فقال العامرى : والله لا أكذبك بقول
 أبداً ، ثم قال : يا بنى صعصعة ، والله لا أكذبه بشئ يقوله أبداً » .

⁽٣) رواه الترمذي (٣٧.٧) وقال : حديث حسن غريب صحبح .

- ومنها: ما رواه عبد الله بن مسعود قال: إنكم تعدون الآبات عذاباً ، وإنما نعدها على عهد رسول الله بلله بركة ، لقد كنا نأكل الطعام مع النبى وانحن نسمع تسبيح الطعام ، قال: وأتي النبى بله بإناء فوضع يده فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فقال صلى الله عليه وسلم: «حى على الوضوء المبارك ، والبركة من السماء » حتى توضأنا كلنا (١) .
- ومنها: ما رواه ابن عباس عن سهل الساعدى عن أبيه: أن النبى الله كان يقوم يوم الجمعة إذا خطب إلى خشبة ذات فرضتين ، قال: أراها من دوم ، وكانت في مصلاه فكان يتكئ إليها ، فقال له أصحابه: يا رسول الله ، إن الناس قد كثروا ، فلو اتخذت شيئاً تقوم إليه إذا خطبت يراك الناس ؟ قال: « ما شئتم » قال سهل: ولم يكن بالمدينة إلا نجار واحد ، فذهبت أنا وذلك النجار إلى الخافقين فقطعنا هذا المنبر من أثلة ، قال: فقام علبه النبي شخ فحنت الخشبة ، فقال النبي تا الا تعجبون لحنين هذه الخشبة » ؟ فأقبل الناس وفرقوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم ، فنزل النبي تا حتى أتاها ، فوضع يده عليها فسكنت ، فأمر النبي تا فدفنت تحت منبره ، أو جعلت في السقف .

⁽١) رواه الترمذي (٣٧١٢) وقال : حسن صحيح .

⁽٢) رواه ابن سعد في الطبقات .

وفى رواية لابن عباس: أنه صلى الله عليه وسلم أتى الجذع فاحتضنه، فقال: « لو لم أحتضنه لحن الى يوم القيامة » (١).

وقد روى هذا الحديث بريدة وزاد فيه: « فقال النبى الله للجذع: « إن شنت أردك إلى الحائط الذى كنت فيه فتنبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجدد خوصك وثمرك ، وإن شئت أغرسك فى الجنة يأكل منك ومن ثمرك أولياء الله » ، ثم أصغى له النبى الله يستمع له ما يقول ، فقال : بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله ، وأكون فى مكان لا أبلى فيه يسمعه من يليه ، فقال له: « قد فعلت » ، ثم قال رسول الله الله الم التعار دار البقاء على دار الفناء » .

فكان الحسن رضى الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث بكى وقال : يا عباد الله ، الحشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه ، فأنتم أحق بذلك وأن تشتاقوا إلى لقائه .

*

• وحديث رسول الله على مع ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب – الذى أسلم بعد الفتح ، وتوفى فى أول خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ – من أعجب الأحاديث لما اشتمل عليه من المعجزات الباهرة لرسول الله عليه .

فقد روى البيهقى عن أبى أمامة رضى الله عنه أنه قال : « كان رجل من بنى هاشم يقال له « ركانة » وكان من أفتك الناس وأشده ، وكان مشركاً ، وكان يرعى غنمه فى واد يقال له « اضم » .

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات.

ينجيك منى اليوم ، وسأعرض عليك أمراً ، هل لك أن أصارعك وتدعو إلهك العزيز الحكيم يعينك على ، وأنا أدعو اللات والعُزَّى ، فإن أنت صرعتنى فلك عشر من غنمى هذه تختارها .

فقال عند ذلك نبى الله ﷺ: « نعم ، إن شئت » فاتحدا ، ودعا النبى ﷺ إلهه العزيز الحكيم أن يعينه على ركانة ، ودعا ركانة اللات والعُزَّى : أعنًى اليوم على محمد .

فأخذه النبى على ، فصرعه وجلس على صدره ، فقال ركانة : قم ، فلستَ أنت الذى فعلت بى هذا ، إنما فعله إلهك العزيز الحكيم وخُذلِت اللات والعُزَّى ، وما وضع أحد جنبى قبلك .

فقال له ركانة : عد ، فإن أنت صرعتنى ، فلك عشرة أخرى تختارها ، فأخذه نبى الله بني الله ودعا كل واحد منهم إلهه كما فعلا أول مرة ، فصرعه نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس على كبده ، فقال له ركانة : قم ، فلست أنت الذي فعل بى هذا ، إنما فعله إلهك العزيز الحكيم ، وخُذلت اللات والعُزَى ، وما وضع أحد جنبى قبلك .

فقال له ركانة : عد ، فإن أنت صرعتنى ، فلك عشرة أخرى تختارها ، فأخذه نبى الله الله الثالثة ، ودعا كل واحد منهما إلهه ، فصرعه نبى الله الله الثالثة، فقال له ركانة : لست أنت الذى فعلت بى هذا ، وإنما فعله العزيز الحكيم ، وخُذلت اللات والعُزى ، فدونك ثلاثين شاة من غنمى فاخترها .

فقال له النبى ﷺ: « ما أريد ذلك ، ولكن أدعوك إلى الإسلام يا ركانة ، وأتعس بك أن تصير إلى النار ، إنك إن تُسلم تُسلم » .

فقال له ركانة : لا ، إلا أن تريني آية ، فقال له نبى الله ﷺ : « الله شهيد إن أنا دعوت ربى فأريتك آية لتجيبني إلى ما أدعوك إليه » ؟ قال : نعم .

وقريباً منهم شجرة سمر ، ذات فروع وقضبان ، فأشار إليها نبى الله الله الله الله على نصف ساقها وقال لها : « أقبلي بإذن الله » ، فانشقت باثنين ، فأقبلت على نصف ساقها

وقضبانها وفروعها ، حتى كانت بين يدى رسول الله ﷺ وبين ركانة ، فقال له ركانة : أريتنى عظيماً ، فمرها فلترجع .

فقال له نبى الله ﷺ: « عليك الله شهيد إن أنا دعوتُ ربى عَزُّ وجَلُّ أمرتها فرجعت ، أتجيبنى إلى ما أدعوك إليه » ؟ قال : نعم . فأمرها فرجعت بقضبانها وفروعها حتى التأمت بشقها .

فقال له النبى ﷺ: « أسلم تسلم » . فقال له ركانة : ما بى إلا أن أكون رأيت عظيماً ، ولكنى أكره أن تتحدث نساء المدينة وصبيانهم أنى إنما أجبتك لرعب دخل قلبى منك ، ولكن قد علمت نساء أهل المدينة وصبيانهم : أنه لم يضع جنبى أحد قط ، ولم يدخل قلبى رعب ساعة ليلاً ولا نهاراً ، ولكن دونك فاختر غنمك .

فقال النبي ﷺ: « ليس بي حاجة إلى غنمك إذ أبيتَ أن تسلم » .

⁽١) المائدة : ٢٧

فقال النبى ﷺ : « إنى دعوت ربى ، فأعاننى عليه ، وإن ربى عَزُّ وجَلُّ أَعاننى ببضع عشرة ، وبقوة عشرة » (١) .

* * *

• كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم له:

ومن المعجزات التي اختُصُّ بها النبي على كلام الحيوانات وتسخيرهم له .

● فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه ، إذ جاءه أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً وجعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله ، فلما رأى الجماعة قال : ما هذا ؟ قالوا : هذا الذي يذكر أنه نبى ، فجاء حتى شق الناس فقال : واللات والعُزَّى ، ما شملت النساء على ذى لهجة أبغض إلى منك ، ولا أمقت ، ولولا أن يسميني قومي عجولاً لعجلت عليك فقتلتك ، فسررت بقتلك الأسود والأحمر والأبيض وغيرهم .

فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله فأقوم فأقتله .

قال: « يا عمر ، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً » . ثم أقبل على الأعرابي فقال: « ما حملك على ما قلت وقلت غير الحق ولم تكرمني في مجلسي » ؟ قال: وتكلمني أيضاً - استخفافاً برسول الله على - واللات والعُزُّى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب . وأخرج الضب من كمه ، وطرحه بين يدى رسول الله على .

فقال رسول الله ﷺ: « يا ضب » ، فأجابه الضب بلسان عربى مبين سمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة .

قال: « مَن تعبد يا ضب » ؟

⁽١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة وفى سنده أبو عبد الملك ، قال البيهقى : أبو عبد الملك هذا على ين زيد الشامى وليس بالقوى ، إلا أن معه ما يؤكد حديثه ، والله أعلم .

قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه.

قال : « فمن أنا يا ضب » ؟

قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح مَن صدُّقك ، وخاب مَن كذُّبك .

قال الأعرابي: لا أتبع أثراً بعد عين ، والله لقد جئتك وما على ظهر الأرض أحد أبغض إلى منك ، وإنك اليوم أحب إلى من والدى ، ومن عيني ، ومنى ، وإنى لأحبك بداخلي وخارجي وسرى وعلانيتي ، وأشهد أنْ لا إله إلّا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ: « الحمد لله الذي هداك بي ، إن هذا الدين يعلو ولا يُعلى عليه ، ولا يُقبل إلا بصلاة ، ولا تُقبل الصلاة إلا بقرآن » .

قال : فعلَّمنى . فعلَّمه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، قال : زدنى ، فما سمعت في البسيط ولا في الرجز أحسن من هذا .

قال: « يا أعرابى ، إنَّ هذا كلام الله ليس بشعر ، إنك إن قرأت: ﴿ قُلْ هُوَ اللّٰهُ أُحَدُ ﴾ مرة ، كان لك كأجر من قرأ ثلث القرآن ، وإن قرأت مرتين كان لك كأجر من قرأ القرآن كان لك كأجر من قرأ القرآن كله » .

قال الأعرابي : نعم الإله إلها يقبل اليسير ويعطى الجزيل .

فقال له رسول الله ﷺ: « ألك مال »؟

قال : فقال : ما في بني سليم قاطبة رجل هو أفقر مني .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: « أعطوه » ، فأعطوه حتى أبطروه ، فقام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ، إنَّ له عندى ناقة عُشَراً ، ، دون

البختى وفوق الأعرابي ، تلحق ولا تُلحق ، أهديّت إلى يوم تبوك ، أتقرب بها إلى الله عَزّ وجَلُّ ، وأدفعها إلى الأعرابي .

فقال رسول الله ﷺ: «قد وصفتَ ناقتك ، فأصفُ ما لك عند الله عَزُّ وجَلُّ يوم القيامة » ؟

قال: نعم. قال: « لك ناقة من درة جوفا، ، قوائمها من زبرجد أخضر ، وعنقها من زبرجد أصفر ، عليها هودج ، وعلى الهودج السندس والاستبرق ، وقر بك على الصراط كالبرق الخاطف ، يغبطك بها كل من رآك يوم القيامة » .

فقال عبد الرحمن: قد رضيتُ .

فخرج الأعرابى فلقيد ألف أعرابى من بنى سليم على ألف دابة ، معهم ألف سيف وألف رمح ، فقال لهم : أين تريدون ؟ قالوا له : نريد هذا الذى سفّه آلهتنا فنقتله . قال : لا تفعلوا ، وأنا أشهد أنْ لا إلله إلّا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، فحد تهم بالحديث فقالوا بأجمعهم : لا إله إلّا الله معمد رسول الله .

ثم دخلوا ، فقيل للنبى على ، فتلقاهم بلا رداء ، فنزلوا عن ركابهم يقبلون حيث وافوا منه وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ثم قالوا : يا رسول الله ، مرنا بأمرك . قال : « كونوا تحت راية خالد بن الوليد » فلم يؤمن من العرب ولا غيرهم ألف غيرهم (١) .

• ومنها: ما رواه أبو سعيد الخدرى قال: بينًا أعرابى فى بعض نواحى المدينة فى غنم له ، إذ عدا عليها الذئب ، فأخذ شاة من غنمه ، فأدركه الأعرابى فأخذها منه ، وانطلق الذئب يمشى ، ثم رجع الذئب مستنفراً بذنبه مستقبل الأعرابى ، ثم قال: ويحك ، ألا تحرَّج ؟ تنتزع رزقاً رزقنيه الله ؟

فطفق الأعرابي بين يديه فقال: العجب من ذئب يتكلم!

⁽١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة باب « ما جاء فى شهادة الضب » ، والطبرانى فى الأوسط والصغير ، وابن عدى والحاكم فى المعجزات ، وأبو نعيم ، وابن عساكر .

فقال الذئب: والله إنك لتدع ما هو أعجب من هذا!

قال: وما هو أعجب من هذا؟ قال: نبى الله فى النخلات يحدُّث الناس عن أنباء ما قد سبق وما يكون بعد ذلك.

فساق الأعرابي غنمه حتى ألجئ إلى بعض المدينة ، وسعى إلى النبي على حتى ضرب عليه بابه ، فأذن له ، فحدُّله الأعرابي فصدُّقه ، ثم قال : « إذا صليتُ بالناس الصلاة فاحضرني » . فلما صلى رسول الله على قال : « من صاحب الغنم » ؟ فقام الأعرابي فقال له النبي على : « حدَّث بما رأيتَ وما سمعتَ » ، فحدُّث الأعرابي بما سمع وبما رأى ، ثم قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده » (١)

وقد رُوى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة ، وزاد نى هذا الحديث : « فقال له الذئب : أنت أعجب ، وقفت على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله قط نبياً أعظم منه قدراً عنده ، قد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينتظرون إقبالهم ، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب فتصير في جنود الله .

فقال الراعى : لو كان لى من يرعى الغنم لمشيت إليه .

فقال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع. فأسلم الراعى إليه غنمه ومضى. وذكر قصته وإسلامه. وفيه أن النبى على قال له: « عد إلى غنمك تجدها بوفرها » فوجدها كذلك، وذبح للذئب منها شاة.

وكان اسم هذا الراعى « أهبان بن أوس » ، وكان يقال لأولاده : « بنو مكلّم الذئب » - ذكره ابن أبى داود .

وقد ذكر مثل هذه القصة عن « سلمة بن الأكوع » وأنها كانت سبب إسلامه .

⁽١) رواه البيهقى فى دلاتل النبوة واللفظ له ، ورواه أحمد فى المسند وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان والحاكم ، ووافقه الذهبى ، وقال الهيشمى فى مجمع الزوائد : ورجال أحد إسنادى أحمد رجال الصحيح .

- ومن ذلك ما يحكى أنَّ « أبا سفيان بن حرب » بينًا هو فى ملأ من قريش بمكة ، إذ بظبى يطرده ذئب ، فدخل الظبى الحرم فرجع الذئب ، فعجبوا من ذلك ، فقال الذئب : أعجب من ذلك : محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار ؛ فقال أبو سفيان : واللات والعُزَّى ، لئن ذكرتم هذا بمكة ليتركنها خلوفاً .
- ومنها: ما رواه زيد بن أرقم قال: كنت مع النبى الله في بعض سكك المدينة ، فمررنا بخباء أعرابي ، فإذا ظبية مشدودة إلى الخباء ، فقالت: يا رسول الله ، إنَّ هذا الأعرابي اصطادني ولي خشفان في البرية ، وقد تعقد اللبن في أخلافي ، فلا هو يذبحني فأستريح ، ولا هو يدعني فأرجع إلى خشفي في البرية .

فقال لها رسول الله ﷺ : « إن تركتك ، ترجعين » ؟

قالت : نعم ، وإلا عذَّبني الله عذاب العشار .

فأطلقها رسول الله ﷺ ، فلم تلبث أن جاءت تلمظ ، فشدُها رسول الله ﷺ ؛ وأتبل الأعرابي ومعد قربة ، فقال له رسول الله ﷺ : « أتبيعنيها » ؟ قال : هي لك يا رسول الله ، فأطلقها رسول الله ﷺ .

قال زيد بن أرقم : فأنا والله رأيتها تسيح في البرية وهي تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله (١) .

- ومن ذلك : ما روى من كلام الحمار الذى أصابه بخيبر ، وقال : اسمى يزيد بن شهاب ، فسماه النبى الله « يعفور » ، وكان يوجهه إلى دور أصحابه ، فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم ، وأنه لما مات النبى الله تردى فى بئر جزعاً وحزناً ، فمات .
- ومن ذلك : ما روى جابر بن عبد الله قال : جاء رجل فآمن بالنبي ﷺ وهو

⁽١) رواه البيهتي في دلائل النبوة .

على بعض حصون خيبر ، وكان في غنم يرعاها لهم - يعنى لأهل خيبر - فقال لرسول الله ﷺ : كيف بالغنم ؟ فقال : « احصب وجوهها - يعنى اضربها بالرمل - فإن الله سيؤدى أمانتك ، ويردها إلى أهلها » ، ففعل ، فسارت كل شاة منها حتى أتت أهلها .

- ومن هذه المعجزات: حديث أنس ، أنَّ النبى تَ دخل حائط رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار ، وفي الحائط غنم ، فسجدت له فقال أبو بكر: نحن أحق بالسجود لك منها ... وذكر الحديث .
- ومنها: ما رواه ابن وهب: أن حمام مكة أظلت النبى ﷺ يوم فتحها ،
 فدعا لها بالبركة .
- ومنها: ما رواه ابن عباس قال: كان النبي الله إذا أراد الحاجة أبعد، قال : فذهب فقعد تحت شجرة ، فنزع خُفيه ولبس أحدهما ، فجاء طير ، فأخذ خفه الآخر ، فحلق به في السماء ، فأسلت منه أسود سالخ (ثعبان) . فقال النبي الله : « هذه كرامة أكرمني الله بها ، اللهم إني أعوذ بك من شر من يمشي على رجليه ، ومن شر من يمشي على بطنه » (١) .
- ومنها: ما رواه أنس وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة: أنَّ النبي على حين أوى وصاحبه إلى الغار، أمر الله شجرة فنبتت تجاه النبي على فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا في فم الغار، وأن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطالبون له رأوا ذلك فقالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامات ولا العنكبوت، فانصرفوا والنبي على يسمع كلامهم وقد تقدم في حديث الهجرة.
- ومنها: ما روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان لأهل رسول الله ﷺ وحش وفى رواية داجن فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب وذهب وجاء، فإذا جاء رسول الله ﷺ فى البيت (٢).

⁽١) رواه البيهةي في دلاتل النبوة ، والأسود السالخ : ذكر الحية .

⁽ ٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ونسبه لأحمد ، وأبى يعلى والبزار والطبراني فى الأوسط وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح .

• ومنها : ما رواه حماد بن سلمة قال : سمعت شيخاً من قيس يحدث عن أبيد قال : جاءنا النبى تلله ، وعندنا بكرة صعبة لا يُقدر عليها ، قال : فدنا منها رسول الله تلله فمسح ضرعها فحفل ، فاحتلب فشرب .

• ومنها: ما رواه جابر بن عبد الله: أن ناضحاً لبعض بنى سلمة اغتلم، فصال عليهم، وامتنع عليهم حتى عطبت نخله، فانطلق إلى النبى عليه فاشتكى ذلك إليه، فقال النبى عليه : « انطلق » .

وذهب النبى على معه ، فلما بلغ باب النخل قال : يا رسول الله ، لا تدخل فإنى أخاف عليك ، فقال النبى على : « ادخلوا فلا بأس عليكم » . فلما رآه الجمل أقبل يمشى واضعاً رأسه حتى قام بين يديه فسجد . فقال النبى على : « ائتوا جملكم فاخطموه وارتحلوه » ، فخطموه وارتحلوه ، وقالوا : سجد لك يا رسول الله حين رآك ، فقال : « لا تقولوا ذلك لى ، لا تقولوا ما لم أبلغ ، فلعمرى ما سجد لى ، ولكن سجد لله عَزُ وجَلٌ ولكن الله تعالى سخُره لى » (١) .

فقال رجل : يا رسول الله ، هذا جمل فلان وقد أراد به ذلك ، فدعا النبي على

⁽١) رواه البيهقي في دلائل النبوة .

⁽٢) رواه البيهقى في دلائل النبوة ، ورواه أحمد بنحوه في المسند وله شواهد يصح بها ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير .

والأخبار في هذا كثيرة شهيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل وديانة .

* * *

• إحياء الموتى وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة :

من ذلك : الخبر المشهور المعلوم عن غير واحد من الصحابة : أن يهودية بخيبر أهدت لرسول الله على شاة مشوية ، فسمتها . فأكل منها رسول الله على وأكل القوم معه ، فقال : « ارفعوا ، فإنَّ هذه الشاة أخبرتنى أنها مسمومة » ، ثم قال لليهودية : « ما حملك على ما صنعت » ؟ قالت : إن كنت نبياً صادقاً لم يضرك الذي صنعت ، وإن كنت ملكاً أرحت منك . فقال : « ما كان الله ليسلطك

⁽١) رواء ابن سعد في الطبقات .

⁽٢) الهدف: كلُّ ما كان له شخص مرتفع من بناء وغيره .

⁽٣) حائش نخل : جماعة النخل الصغار ، لا واحد له من لفظه ، وتيل : النخل الملتف المجتمع .

⁽٤) سراة كل شئ : ظهره وأعلاه .

⁽٥) ذِفَرَاهُ : مؤخر رأسه ، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه .

⁽٦) تدئبه : أي تكده وتتعبه ، والحديث رواه أحمد في المسند (١٧٤٥) .

على ذلك » فقالوا : نقتلها ؟ قال : « لا » ، فلم يزل أثر تلك الأكلة فى لهوات رسول الله على حتى قال فى وجعه الذى مات فيه : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى ، فالآن قطعت أبهرى » .

قال ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله هل مات شهيداً ، مع ما أكرمه الله به من النبوة .

وروى هذا الحديث من طريق البزار عن أبى سعيد الخدرى وزاد نيه: « فبسط رسول الله ﷺ يده وقال: « كلوا باسم الله » فأكلنا ، وذكرنا اسم الله ، فلم تضر أحد منا ، إلا ما ذكر من موت بشر بن البراء.

وفى هذا الحديث أنواع من دلالات نبوته صلى الله عليه وسلم: نطق الميت، وذلك أن الشاة كلمته بعد أن شويت، وأنهم أكلوا السم ولم يضرهم، وفى موت البراء دليل على أنَّ الذى أكلوه سم قاتل، وبذلك اعترفت اليهودية وقالت: أردت قتلك، فأراد الله تعالى أن يميت أحدهم ليعلم أن الذى أكلوه سم، وأن يحيى جميعهم آية لرسول الله على .

ومن آیاته فی هذه القصة: تأخر موته بالسم دون عِلَّة نُزمته منه نحو عشرین سنة ، وهذه کلها أمور خارقة للعادات ، فهی من أوضع الدلالات (۱) .

• ومن هذه المعجزات: ما رواه الحسن قال: أتى رجل النبى الله فذكر أنه طرح بنية له فى وداى كذا ، فانطلق معه إلى ذلك الوادى وناداها باسمها: « يا فلانة ، احيى بإذن الله » فخرجت وهى تقول: لبيك وسعديك ، فقال لها: « إن أبويك قد أسلما ، فإن أحببت أن أردك عليهما » فقالت: لا حاجة لى فيهما ، وجدت الله خيراً منهما .

• ومنها : ما رواه عبد الله بن عبيد الله قال : كنت فيمن دفن ثابت بن قيس ابن شماس - وكان تُتل باليمامة ، فسمعناه حين أدخلناه في القبر يقول : محمد

⁽١) انظر : الإعلام ، للإمام القرطبي ص ٣٦٣

رسول الله ، أبو بكر الصدِّيق ، عمر الشهيد ، عثمان البر الرحيم ، فنظرنا فإذا هو ميت (١) .

• ومنها: ما رواه سعيد بن المسيب: أن زيد بن خارجه الأنصارى ، توفى زمن عثمان بن عفان ، فسجى فى ثوبه ، ثم إنهم سمعوا جلجلة فى صدره ، ثم تكلم ، ثم قال: « أحمد أحمد فى الكتاب الأول ، صدق صدق ، أبو بكر الصديق ، الضعيف فى نفسه القوى فى أمر الله ، فى الكتاب الأول ، صدق صدق .. عمر بن الخطاب ، القوى الأمين فى الكتاب الأول ، ألا قد صدق ، صدق صدق صدق ، عثمان بن عفان على مناهجهم .

مضت أربع وبقيت ثنتان ، أتت الفتن ، وأكل الشديد الضعيف ، وقامت الساعة ، وسيأتيكم من جيشكم خبر بئر أريس ، وما بئر أريس » .

قال بحیی بن سعید : قال سعید - یعنی ابن المسیب - : ثم هلك رجل من بنی خطمة ، فسجی بثوب ، فسمع جلجلة فی صدره ثم تكلم فقال : إن أخا بنی الحارث بن الخزرج - یعنی زید بن خارجة - صدق صدق (۲) .

• ومنها: ما رواه معرض بن عبد الله ، عن أبيه عن جده قال: حججت حجة الوداع ، فدخلت داراً بمكة ، فرأيت فيها رسول الله وجهه كدارة القمر، فسمعت منه عجباً ، أتاه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد وقد لفه في خرقة ، فقال له رسول الله على : « يا غلام ، من أنا » ؟ فقال : أنت رسول الله ، قال : « صدقت ، بارك الله فيك » . ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب . قال أبي : فكنا نسميه مبارك اليمامة (٣) .

* * *

⁽١) المرجع السابق ص ٣٦٤ (٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة .

⁽٣) رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، ومعرض : هو معرض بن عبد الله بن معرض بن معيقيب اليمامي .

• إبراؤه - صلى الله عليه وسلم - المرضى وذوى العاهات :

يقول الإمام القرطبى: « معجزات النبى على في هذا الباب كثيرة ، وإذا تأملتها وتأملت ما قبلها من إحياء الموتى وشهادة الصبيان والمراضع له بالنبوة ، تعلم أن نبينا صلى الله عليه وسلم أوتى من المعجزات مثلف ما أوتى عيسى ابن مريم عليه السلام من إحياء الموتى ، وإبراء العمى والمجانين وذوى الأسقام والآفات - كما تحكى النصارى في إنجيلها - وزاد عليه بأمور كثيرة ..

فيلزم النصارى إذ كذّبوا بنبوة محمد على القمنا عليه من الآيات ، وأثبتنا من واضح المعجزات - أن يكذّبوا بنبوة عيسى عليه السلام ، فإن معجزاته كمعجزاته ، وإن كذّبونا فيما نقلنا عارضناهم فيما نقلوه ، ولم يقدروا أن يثبتوا نبوة عيسى عليه السلام علينا ، ولا على غيرنا » (١) .

- من ذلك : ما اشتهر واستفاض من قصة عين قتادة بن عمر يوم « أحد » وذلك أنه أصيب في إحدى عينيه ، حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه .
- ومن هذه المعجزات: ما رواه عثمان بن حنيف: أن أعمى قال: يا رسول الله ، ادع الله أن يكشف لى عن بصرى فقال له: « انطلق ، فتوضأ ثم قل: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، نبى الرحمة ، يا محمد ، إنى أتوجه بك إلى ديى أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه في " فرجع الرجل وقد كشف الله عن بصره .
- ومنها : ما رواه حبيب بن فديك أن أباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئاً ، فنفث رسول الله تلك في عينيه فأبصر ، قال : فرأيته يُدخل الخيط في الإبرة ، وهو ابن ثمانين .
- ومنها : ما روى أن « ملاعب الأسنة » أصابه استسقاء ، فبعث إلى وسول الله على فأخذ بيده حثوة من تراب ، فتفل عليها ، ثم أعطاها رسوله ،

⁽١) الإعلام للإمام القرطبي ص ٣٦٦

- فأخذها رسوله متعجباً ، يرى أنه قد هزأ به ، فأتاه بها وهو على شقاء ، فشربها ، فشفاه الله تعالى .
- ومنها: ما رواه كلثوم بن الحصين ، وذلك أنه أصيب يوم « أحد » فى نحره ، فبصق فيه رسول الله بن أنيس فلم تمد .
- ومنها: حديث على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، يوم خببر ، وذلك أن رسول الله ﷺ قال وهو على خببر: « لأعطينُ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » ، فبات أصحابه تلك الليلة كلهم يرجو أن يُعطاها ، فلما أصبح دعا علياً ، فإذا به رمد ، فتفل في عينيه ، فبرئ لحينه ، وفتح الله على يديه الحصن .
 - وفى تلك الغزاة ، نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع فبرأت .
- وكذلك فعل بساق على بن الحكم يوم الخندق ، وكانت قد انكسرت ، فبرأ
 مكانه ولم ينزل عن فرسه .
- وأصاب علياً وجع ، فقال النبى ﷺ : « اللهم اشفه أو عافه » ثم
 ضربه برجله ، فما اثتكى ذلك الوجع بعد .
- وقطع أبو جهل لعنه الله يوم بدر يد معوذ بن عفرا ، فجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله ﷺ ، وألصقها فلصقت .
 - وكذلك أصيب في ذلك اليوم حبيب بن يساف ، فنفث عليها من ريقد فصع .
- وانكفأت القدر وهي تغلى على ذراع محمد بن حاطب ، وهو طفل صغير، فمسح رسول الله على عليه ، ودعا له وتفل ، فبرأ لحينه .

- وكانت فى كف شرحبيل الجحفى سلعة ، تمنعه القبض على السيف ، وعنان الدابة ، فشكاها للنبى الله ، فما زال يسحها بكفه حتى رفع كفه وما لها من أثر (١) .
- ومنها: ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما: أن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله ، إن به لمماً ، وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا ، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له ، فتع تعدّ (٢) فخرج من فيه مثل الجرو الأسود فشفى (٣) .
- ومن هذه المعجزات: أن امرأة من خثعم ، أتت النبى الله يوماً ومعها صبى به بلاء ، لا يعقل ولا يتكلم ، فأتي بماء فمضمض فاه ، وغسل يديه صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم أعطاها ذلك الماء ، وأمرها أن تسقيه إياه ، ففعلت ، فبرئ الغلام وعقل عقلاً يفضل كثير من الناس .

* * *

- جُمَل من بركاته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم :
 - الأخبار في هذا الباب كثيرة جداً تفوق الحصر.
- من ذلك ما اشتهر وصح أنه وقع فزع بالمدينة ، فركب صلى الله عليه وسلم فرساً لأبى طلحة : « وجدنا فرسك بحراً يريد كثير الجرى كالبحر قال : فكان ذلك الفرس لا يُجارَى » .
- ونخس جمل جابر ، وكان قد أعيا ، فنشط ، حتى كان ما يملك زمامه وسنأتي تفصيله .
- وصنع مثل ذلك بفرس لجميل الأشجعى ، خفقها بمخفقة معد ، وبرك عليها
 فلم تملك رأسها نشاطأ ، وباع من بطنها باثنى عشر ألفاً .

⁽١) انظر الإعلام ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦

⁽٢) تعُّ : أي قاء . (٣) رواه أحمد في المسند (٢١٣٣) .

- وكانت شعرات من شعر رسول الله ﷺ في قلنسوة خالد بن الوليد ، فلم يشهد بها قتالاً ، إلا رُزق النصر .
 - وكانت جبة رسول الله تلله تُغسل للمرضى بعد موته ، فيستشفّى بها .
- وأخذ « جهجاه » قضيب رسول الله ﷺ ليكسره ، فأخذته في يده أكلة ، فقطعها ومات قبل الحَول .
 - وسكب من فضل وضوئه في بنر قباء ، فما جفٌّ ماؤها بعد .
 - وبزق في بئر كانت في دار أنس ، فلم يكن بالمدينة أعذب منها .
- ومر على ماء ، فسأل عنه فقيل : اسمه « بيسان » وماؤه ملح ، فقال :
 « بل هو نعمان ، ومائه طيب » ، فطاب .
 - وأوتى بدلو من ماء زمزم فمج فيه ، فصارت أطيب من المسك .
- وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه ، وكانا يبكيان عطشاً ، فرويا وسكتا .
- وكانت لأم مالك عكة تهدى فيها للنبى الله سمنا ، فأمرها النبى الله أن تعصرها ، ثم دفعها إليها ، فإذا هي مملوءة سمنا ، فيأتيها بنوها ويسألونها الأدم ، وليس عندهم شئ ، فتعمد إليها فتجد فيها سمنا ، فكانت تقسم أدمها حتى عصرتها .
- وكان صلى الله عليه وسلم يتفل في أفواه المراضع فيجزيهم ريقه إلى . الليل .
 - ومن ذلك بركة يده فيما لمس أو غرس .. فقد غرس لسلمان ثلثمائة ودية ، وكان كاتب مواليه على ثلاثمائة نخلة وعلى أربعين أوقية ، فغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلا واحدة ، فأطعمت في عامها إلا تلك الواحدة ، فقلعها رسول الله عليه وغرسها فأطعمت من عامها .

- وأعطاه صلى الله عليه وسلم مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه ، فوزن منها أربعين أوقية لمواليه ، وبقى مثلها .
- ومن ذلك ما رواه حنش بن عقيل قال : سقاني رسول الله على شربة من سويق شرب أولها ، وشربت آخرها ، فما زلت أجد شبعها إذا جعت ، وريها إذا عطشت ، وبردها إذا ظمئت .
- وأعطى قتادة بن النعمان ، وكان قد صلى معه العشاء الأخيرة فى ليلة مطيرة عرجوناً فقال : « انطلق فإنه سيضئ لك من بين يديك عشراً ، ومن خلفك عشراً فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه الشيطان » ، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ، ووجد السواد فضربه حتى خرج .
- ومنها دفعه لعكاشة جذل حطب وقال له: « اضرب به » حين انكسر سيفه يوم بدر ، فعاد في يده سيفاً صارماً ، طويل القامة ، أبيض شديد المتن ، فقاتل به ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف ، إلى أن استشهد في قتال أهل الردّة ، وكان هذا السيف يسمى « العون » .
- وكذلك دفع لعبد الله بن جحش يوم أحد وقد ذهب سيفه عسيب نخل فعاد في يده سيفاً .
- ومن ذلك بركته صلى الله عليه وسلم فى درور الشياه الحوائل: اللبن الكثير كقصة شاة أم معبد، وغنم حليمة مرضعته، وكذلك قصة شاة عبد الله ابن مسعود وكان لم ينز عليها فحل قط، وكذلك شاة المقداد.
- ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه ودعا فيه ، فلما حلاه إذا به لبن طيب وزبده في فمه .
 - ومسح على رأس عمير بن سعد وبارك ، فمات وهو ابن ثمانين فما شاب .
- ومن ذلك أن عتبة بن فرقد كان يوجد له طيب يغلب طيب نسائد ، لأن رسول الله ﷺ مسح بيده بطنه ويده .

- وسلت عايذ بن عمرو عن وجهد صلى الله عليه وسلم الدم يوم
 « أُحد » ، فدعا له فكانت له غُرة كغُرة الفرس .
- ومسح صلى الله عليه وسلم على رأس قيس بن زيد الجذامى ، ودعا له ، فمات ابن مائة سنة ورأسه أبيض ، وموضع كف النبى الله أسود ، فكان يدعى الأغر .
 - € ومسح وجه رجل آخر فما زال على وجهه نور .
- ومسح وجه قتادة بن ملحان ، فكان لوجهه بريق ، حتى كان ينظر فى
 وجهه كما ينظر فى المرآة .
- ووضع صلى الله عليه وسلم يده على رأس حنظلة بن خديم وبارك عليه ، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه ، والشاة قد ورم ضرعها ، فيوضع على موضع كف النبى على فيذهب الورم .
- ونضح فى وجه زينب بنت أم سلمة نضحة من ماء ، فما كان يُعرف فى
 وجه امرأة من الجمال ما كان بها .
- ومسح على رأس صبى به عاهة يعنى قرعاً فبرأ واستوى شعره . وكذلك مسح على غير واحد من الصبيان المرضى والمجانين فبرأوا . ولأجل هذا قال طاوس : لم يؤت النبى على بأحد به جنون فصك في صدره ، إلا ذهب ذلك الجنون .
 - وأتاه رجل آدر ، فأمره أن ينضحها بماء من عس ، مجَّ فيه ، ففعل فبرأ .
- ومن ذلك خبره المشهور عن تراب يوم حنين ، وذلك أنه لما اشتد القتال بينه وبين الكفار ذلك اليوم ، أخذ غرفة من تراب ، ورمى بها وجوه الكفار وقال : « شاهت الوجوه » ، فما بقى منهم أحد إلا أصاب من عينيه من ذلك التراب ، فهزمهم الله ، ورجعوا على أعقابهم يمسحون عن أعينهم .

• ومن ذلك الخبر المشهور عن أبى هريرة : أنه كان كثير النسيان ، فأمره ببسط ثوبه ، فغرف بيده ، ثم أمره بضمه ، ففعل ، فما نسى شيئاً بعد (١) .

* * *

• استجابة الله لدعائه صلى الله عليه وسلم:

والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن يُحاط بها ، ولو لم يثبت لرسول الله على من الآيات إلا ما ثبت فيه ، لكان فى ذلك أعظم دليل على صدق رسالته وصحة نبوته ، فقد كان دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - عند الله مسموعاً ، وكان مقامه عند الله مقاماً كرعاً مرفوعاً . .

وذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - كان كلما دعا الله في شئ أجابه فيه ، وظهرت بركة دعوته على المدعو له وعلى أهله وبنيه ، حتى كان حذيفة يقول : كان رسول الله على إذا دعا لأحد أدركته الدعوة وولد ولده .

• ومن ذلك : ما رواه أنس بن مالك قال : قالت أمى : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » . قال أنس حين حدّث بهذا الحديث : فوالله إنَّ مالى كثير ، وإنَّ ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم .

وفى رواية أخرى عنه أنه قال: وما أعلم أحدا أصاب من رخاء العيش ما أصبت ، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدى ، لا أقول سقطا ولا ولد ولد .

• ومنه: دعائه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة ، قال عبد الرحمن: فلو رفعتُ حجراً لرجوتُ أن أصيب تحته ذهباً ، وفتح الله عليه ، ومات فحفر الذهب من تركته بالفئوس حتى مجلت الأيدى ، وأخذت كل زوجة من زوجاته: ثمانون ألقاً – وكن أربعاً .

⁽١) الإعلام للقرطبي ص ٣٧٠ وما بعدها .

وقيل: بل صولحت إحداهن لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفا ، وأوصى بخمسين ألفا ، وهذا كله بعد صدقاته ، الفاشية في حياته ، وعوارفه العظيمة .. أعتق يوما ثلاثين عبدا ، ووردت له مرة عير له فيها سبعمائة بعير ، تحمل من كل شئ فتصد ت بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها .

• ومن ذلك : دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - لمعاوية بالتمكين في البلاد ، فنال الخلافة .

● ومنه: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبى وقاص بأن يجيب الله دعوته، فما دعا على أحد، أو لأحد، إلا استجيب له.

● ومنه: دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - حيث قال: « اللّهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: بعمر بن الخطاب، أو بأبى جهل بن هشام »، فأجاب الله دعوته في عمر بن الخطاب، ولذلك قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ابن الخطاب.

• وأصاب الناسي عطش شديد ، في سفر من أسفاره ، فدعا الله فجاءت سحابة فسقتهم حاجتهم .

• رمن ذلك حديث الاستسقاء ، وذلك أنَّ رسول الله على بينما هو يوم الجمعة يخطب ، إذ دخل عليه رجل فقال : يا رسول الله ، قد هلكت الأموال وانقطعت السبل ، وهلكت المواشى ، فادع الله أن يغيثنا ، فقال النبى على : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا . قال : فأنشأت سحابة مثل الترس ، ثم انتشرت .

قال راويه : فلا والله ما رأينا الشمس سبعاً - يعنى أسبوعاً .

ثم دخل أعرابى فى الجمعة المقبلة فقال: يا رسول الله ، هلكت المواشى وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا . فقال رسول الله على اللهم على الأكام والظراب ، ومنابت الشجر » . قال : فانجابت السجابة عن المدينة انجياب الثوب ، فخرجنا نمشى .

● ومن ذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - قال للنابغة الجعدى: « لا يفضض الله فاك »، فما سقطت له سن حتى مات .

وفى رواية : كان أحسن الناس ثغراً ، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى ، وعاش عشرين ومائة .

- وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس: « اللهم فقهه فى الدين ، وعلّمه التأويل » ، فكان بحر الفقه وترجمان القرآن .
- ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه ، فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه .
 - ودعا للمقداد بن الأسود بالبركة ، فكان عنده غرائر من المال .
- ودعا لعروة بن أبى الجعد فقال : لقد كنت أقدم بـ « الكياسة » سوق لهم فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً .

وقال البخارى : فكان لو اشترى التراب ربح فيه ، وندت له ناقة ، فدعا ربه أن يردها عليه فجاء بها أعصار ربح حتى ردها عليه .

- ودعا لأم أبى هريرة فأسلمت .
- ودعا لعلى بن أبى طالب أن يُكفّى ألم الحر والبرد ، فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف ، وفي الصيف ثياب الشتاء ، ولا يصيبه حر ولا برد .
- وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه فقال : « اللَّهم نورٌ له » ، فسطع له نور بين عينيه فقال : يارب ، أخاف أن يقولوا : إنها مُثللة ، فتحول إلى طرف سوطه ، فكان يضئ في الليل المظلمة فسمى ذا النور .
- ودعا على مضر بالقحط فأقحطوا حتى أكلوا الجلود والعظام ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .
 - ودعا على كسرى حين مزِّق كتابه بأن يُمَزِّق ملكه ، فلم تبق له باقية .

- وقال لرجل رآه يأكل بشماله: « كُلُّ بيمينك » ، فقال: لا أستطيع . فقال له : « لا استطعت ك » ، فلم يرفعها إلى فيه بعد .
- وقال لعقبة بن أبى لهب: « اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك » ، فأكله الأسد .
- ومن ذلك حديثه المشهور مع ملأ قريش ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم بينما هو ساجد بإزاء الكعبة إذ ألقت قريش على ظهره فرثاً ودماً وسلا جزور نحرت ، فقال : « اللهم عليك بهم » ثم سماهم واحداً واحداً ، فكان من سمى قتلى يوم بدر .
- ودعا على غلم بن جثامة ، فلفظته الأرض ، فوورى ، فلفظته الأرض ، ثم وورى فلفظته الأرض مراراً ، فألقوه بين ضدين - يريد جانبى الوادى - ورضوا عليه بالحجارة .. وقد تقدم ذكر قصته .
- وباعد رجل فرساً فجحده ، فقال : « اللَّهم إن كان كاذباً فلا تبارك لد فيد »
 فأصبحت شاصية يريد رافعة برجلها يقول : ماتت (١١) .

* * *

• معجزات للرسول على في الهجرة :

أما عن معجزاته - صلى الله عليه وسلم الحسيّة ، فقد وقعت في حادثة الهجرة - وحدها - خمس معجزات .

الأولى : عندما اجتمع النفر من مشركى قريش حول بيته - صلى الله عليه وسلم - يتطلعون من صير الباب ، ويرصدونه ، ويأتمرون أيهم يحمل على المضطجع صاحب الفراش . فخرج رسول الله تلك عليهم وهم جلوس على الباب ،

⁽١) الإعلام للقرطبي ص ٣٦٧ وما بعدها .

فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو: ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذَرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، ومضى رسول الله ﷺ فقال قائل منهم: ما تنتظرون ؟ قالوا: محمداً ، قال : خبتم وخسرتم ، قد والله مر بكم وذر على رؤوسكم التراب ، قالوا: والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم (٢).

والثانية : عندما أوى النبى الله وصاحبه إلى الغار ، فأمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجهه فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر العامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان من قريش من كل بطن رجل بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم ، حتى إذا كانوا من النبى الله قدر أربعين ذراعا نظر أولهم فرأى حمامتين فرجع فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، وقال بعضهم : إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، فانصرفوا (٣) .

والرابعة : عندما أدرك سراقة بن مالك رسول الله ﷺ وصاحبه في طريقهما

⁽١) يس : ١ - . ١ (٢) رواه ابن سعد في الطبقات .

⁽٣) المرجع السابق . (٤) من حديث أخرجه النسائي .

إلى المدينة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا ، فقال : « لا تحزن ، إنّ الله معنا » ، حتى إذا دنا منهما فكان بينهما وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة قال : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا ، وبكى ، قال : « لم تبكى » ؟ قال : أما والله ما على نفسى أبكى ، ولكن أبكى عليك ، قال : فدعا عليه رسول الله تشخ فقال : « اللهم اكفناه بما شئت » ، فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد ، ووثب منها وقال : يا محمد ، قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأغمين على من ورائى من الطلب ، وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر بإبلى وغنمي في موضع كذا وكذا ، فخذ منها حاجتك ، قال : فقال رسول الله على أصحابه ، ومضى رسول الله قال : ودعا له رسول الله عليه وسلم وأبو بكر معه حتى قدما المدينة (١) .

والخامسة: لما هاجر - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثى ، فمروا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة برزة ، تحتبى وتقعد بفناء الخيمة ، ثم تسقى وتطعم ، فسألوها تمرأ أو لحماً يشترون ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وإذا القوم مرملون مسنتون ، فقالت : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى ، فنظر رسول الله على شاة في كسر الخيمة فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد » ؟ قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : « هل بها من لبن » ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : « أتأذنين لي أن أحلبها » ؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمى ، إن رأيت بها حلباً ؟

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال: « اللهم بارك لها في شاتها ». قال: فتفاجت ودرت واجترت ، فدعا بإناء لها يُربض الرهط ، فحلب فيه ثجاً حتى غلبه الثمال ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى

⁽١) من حديث رواه أحمد في المسند (٣) .

أصحابه حتى رووا ، وشرب هو آخرهم وقال : « ساقى القوم آخرهم » فشربوا جميعاً عللاً بعد نهل حتى أراضوا ، ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ، فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها (١) .

* * *

• معجزات أخرى للرسول علله في بعض غزواته:

كما وقع الكثير من المعجزات في غزوات الرسول على نذكر منها :

أولاً - نزول الملائكة يوم بدر :

- روى أبو يعلى عن على كرّم الله وجهه قال: « كنت أسبح على القليب يوم بدر ، فجاءت ربح شديدة ثم أخرى ثم أخرى ، فنزل ميكائيل في ألف من الملائكة فوقف على يمين رسول الله تلك وهناك أبو بكر ، وإسرافيل في ألف في الميسرة وأنا فيها ، وجبريل في ألف ، قال : وقد طفت يومئذ حتى بلغ إبطى » (٢).
- وروى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس: أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو خطم وشق وجهه بضربة السوط ، وحضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدت فإذا حرسول الله عليه فقال: « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » (٣).
- وروى ابن إسحاق عن ابن عباس عن رجل من بنى غفار قال : حضرتُ أنا وابن عم لى بدراً ، ونحن على شركنا ، وإنّا لفى جبل ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة ، فأقبلت سحابة ، فلما دنت من الجبل سمعنا منها حمحمة الخيل ،

⁽١) رواه ابن سعد في الطبقات . (٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٣٢٩/٣

⁽٣) المرجع السابق: ٢٧٩/٣

وسمعنا قائلاً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبى فأنكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا لكدت أن أهلك ثم انتعشت بعد ذلك (١١).

• وقال ابن إسحاق: كان السائب بن أبى حبيش يحدَّث فى زمن عمر يقول: والله ما أسرنى أحد من الناس، فيقال: فمن ؟ يقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فأدركنى رجل أشعر طويل على فرس أبيض فأوثقنى رباطأ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً فنادى فى العسكر: من أسر هذا؟ حتى انتهى بى إلى رسول الله على فقال: « مَن أسرك » ؟ فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذى رأيت فقال رسول الله على : « أسرك مكك من الملائكة، اذهب يابن عوف بأسيرك » (٢).

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرِ وَأَنتُمْ أَذَلَةً ، فَاتَّقُوا اللّهَ لَلهُ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكُفِيكُمْ أَن يُمدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةَ الْعَلْكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكُفِيكُمْ أَن يُمدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةَ اللهُ وَتَتَقُوا وَيَاتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ اللهُ عَنْ المَلاثكَة مُسوَمِينَ ﴾ (٣) .

ويقول جَلُّ شَأَنه : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيُومْ مَنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفَثَتَانِ نَكُصَ عَلَىٰ عَقبَيْهُ وَقَالَ إِنِّى بَرِئٌ مَّنكُمْ إِنِّى أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعَقَابِ ﴾ (٤) .

• وروى البيهقى: أن إبليس جاء فى جند من الشياطين ومعه ذريته وهم فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، وقال الشيطان للمشركين: « لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم » ، فلما اصطف الناس قال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع رسول الله

⁽١) البداية والنهاية : ٣/ ٨٨ (٢) المرجع السابق : ٣/ ٢٨١

⁽٣) آل عمران : ١٢٣ - ١٢٥

صلى الله عليه وسلم يديه فقال: « يارب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد فى الأرض أبداً » ، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه – وكانت يده فى يد رجل من المشركين – انتزع إيليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل: يا سراقة ، أما زعمت أنك لنا جار ، قال: « إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب » ، وذلك حين رأى الملائكة (١) .

• وروى الطبرانى عن رفاعة بن رافع قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص إليه ، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز فى صدر الحارث ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه فى البحر ورفع يديه فقال : اللهم إنى أسألك نظرتك إياى ، وخاف أن يخلص القتل إليه .

وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس ، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل شيبة والوليد فإنهم قد عجلوا ، واللات والعُزَّى لا نرجع حتى نفرقهم بالجبال ، فلا ألفينَ منكم رجلاً قتل رجلاً ، ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورغبتهم عن اللات والعُزَّى (٢) .

- وروى الواقدى ، عن عبد الله بن ثعلبة ين صعير ، قال : سمعت نوفل بن معاوية الديلى يقول : انهزمنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصا فى الطاس فى أفئدتنا ومن خلفنا ، وكان ذلك من أشد الرعب علينا (٣) .
- وروى السدى الكبير قال: قال رسول الله ﷺ لعلى يوم بدر: « أعطنى حصباء من الأرض »، فناوله حصباء عليها تراب، فرمى به في وجوه القوم فلم

⁽١) البداية والنهاية لابن كثير : ٢٨٣/٣

⁽٣) نفس المرجع : ٢٨٣/٣

يبق مشرك إلا ودخل في عينيه من ذلك التراب شئ ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ وَلَكِنَّ اللّهَ وَمَلْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبلِّي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً ، إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا قال عروة وعكرمة ومجاهد ومحمد بن كعب ومحمد بن قيس وقتادة وابن زيد وغيرهم: أن هذه الآية نزلت في ذلك يوم بدر (٢).

- وروى البيهقى عن عمر بن عثمان الخشنى عن أبيه عن عمته قالت: قال عكاشة بن محصن: انقطع سيفى يوم بدر فأعطانى رسول الله على عوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين، ولم يزل عنده حتى هلك (٣).
- وروى الواقدى عن رجال من بنى عبد الأشهل عدة قالوا: انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر فبقى أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله تشخ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب (٤) فقال: « اضرب به » ، فإذا هو سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قُتل يوم جسر أبى عبيدة (٥) .

*

ثانياً - يوم أُحُد :

● عن جابر بن عبد الله قال: إن قتادة بن عمر أصيبت عينه يوم أُخُد حتى سالت على خده ، فردها رسول الله ﷺ مكانها فكانت أحسن عينيه ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

⁽١) الأنفال: ١٧ (٢) البداية والنهاية : ٣/ ٢٨٤ (٣) المرجع السابق : ٣/ ٢٩١

⁽٤) عذق ابن طاب : نخل بالمدينة ، وابن طاب : ضرب من الرطب .

⁽٥) البداية والنهاية: ٣/ ٢٩١

ولهذا لما وفد ولده على عمر بن عبد العزيز قال له : مَن أنت ؟ فقال له مرتجلاً :

أنا ابنُ الذى سالت على الخدِّ عينُه فسردت بكف المصطفى أحسن رد فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسنَها عيناً ويا حُسنَا ما خدَّ فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارمُ لا قَيعانِ من لبن من لبن من لبن من لبن من الله عنه أبوالا ثم وصله فأحسن جائزته . . رضى الله عنه (١) .

*

ثالثاً - يوم الخندق (الأحزاب) :

ورى البيهقى عن عازب الأنصارى قال: لما كان حين أمرنا رسول الله الله الله الله الخندق ، عرض لنا فى بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوا ذلك إلى رسول الله الله الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، الله » ، وضرب ضربة تكسر ثلثها وقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله » ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض » ، ثم ضرب الثالثة فقال : « بسم الله » ، فقطع بقية الحجر فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة » (٢) .

⁽١) البداية والنهاية : ٣٣/٤ ، ويشير عمر رضى الله عنه بقوله : « لا قيعان من لبن شيبت يماء » إلى قصة اللبن المشهورة عندما رفض الله عنه من الله عنه من اينه ، يريد أن مكرمة رض العين أفضل من مكرمة اللبن .

⁽٢) المرجع السابق: ١٠١/٤

يقول عمرو بن عوف : إنه مع كل ضربة كانت تبرق برقة تضئ ما بين لابتى المدينة حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم .

ويقول عبد الله بن عمرو: إنه كانت تُسمع فى كل ضربة هدّة لم يُسمع مثلها قط. وفى هذه الواقعة نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قَلُوبِهِم مُّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً ﴾ (١) ، وذلك أن المسلمين استبشروا وقالوا: الحمد لله، موعود صادق.

ولما طلعت الأحزاب قال المؤمنون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْليماً ﴾ (٢) .

وقال المنافقون : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تُفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا ! (٣) .

• وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة واليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه .

فجعل المنافقون يستأذنون النبى الله ويقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ويأذن لهم ويتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله الله الله الله الله على جُنّة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي .

قال : فأتانى وأنا جاث على ركبتى فقال : « مَن هذا » ؟ فقلت : حذيفة ، فقال : « حذيفة » ؟ فتقاصرت للأرض فقلت : بلى يا رسول الله ، - كراهية أن

⁽۱) الأحزاب : ۱۲ (۲) الأحزاب : ۲۲ (۳) البداية والنهاية : ٤/...١

أقوم – فقمت فقال : « إنه كائن في القوم خبر ، فأتنى بخبر القوم » . قال : وأما من أشد الناس فزعاً وأشدهم قرأ .

قال : فخرجتُ فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن عينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » .

قال: فوالله ، ما خلق الله فزعاً ، ولا قرأ في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد فيه شيئاً .

قال: فلما وليتُ قال: « يا حذيفة ، لا تُحدثن في القوم شيئاً حتى تأتينى ، ، قال: فخرجتُ حتى إذا دنوتُ من عسكر القوم نظرتُ ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل /ك ، فانتزعتُ سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في /نوء النار ، فذكرتُ قول رسول الله على : لأسكتُ ورددتُ سهمي إلى كنانتي .

ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيل الرحيل ، لا مقام لكم .

وإذا الربح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفُرُشهم الربح تضرب بها ، حتى إنى خرجتُ نحو رسول الله ، فلما انتصف بى الطريق – أو نحو من ذلك – إذا أنا بنحو من عشرين فارساً – أو نحو ذلك – معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أنَّ الله كفاه .

قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فوالله ما عدا أن رجعتُ راجعنى القر وجعلت أقرقف ، فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوتُ منه فأسبل على شملته ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . فأخبرته خبر القوم ، أخبرته أنى تركتهم يرحلون .

قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نَعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيَحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا .. ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَرَدَّ اللّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظَهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ، وكَفَى اللّهُ المؤمنينَ الْقَتَالَ ، وكَانَ اللّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (١) ، أى : صرف الله عنهم عدوهم بالربّح التي أرسلها عليهم والجنود من الملائكة التي بعثها الله إليهم ، ﴿ وكَفَى اللّهُ المُؤْمِنِينَ الْقَتَالَ ﴾ ، أى لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم ، بل صرفهم القوى العزيز بحوله وقوته (٢) .

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: كان رسول الله على يقول: « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده » .

وفى قوله تعالى : ﴿ وكفّى اللّهُ المُؤْمنِينَ الْقَتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبينهم ، وهكذا وقع ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين - كما قال محمد بن إسحاق رحمه الله - فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله ﷺ : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم ولكنكم تغزونهم » قال : فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله عليه مكة (٣) .

*

رابعاً - يوم حنين (هوازن) :

وَفَى غَزُوةَ حَنِينَ أَنْزِلُ اللَّهُ المُلاَئِكَةُ لِنُصِرَةَ المُسلمينَ ، يقولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فَى مَواطِنَ كَثِيرَةَ وَيَوْمَ حُنَيْنِ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُم مُدْبِرِينَ * ثُمَّ

⁽١) الأحزاب : ٩ - ٢٥ (٢) البداية والنهاية : ١١٤/٤

⁽٣) المرجع السابق : ١١٥/٤

أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىْ رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلكَ جَزَاءُ الكَافرينَ ﴾ (١).

- € روى ابن إسحاق أن مالك بن عوف بعث عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خبل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى (٢).
- ولما انهزم المسلمون يوم حنين وولوا مدبرين ، جعل رسول الله على يقول : « يا عباد الله ، أنا عبد الله ورسوله » ، واقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه ، وأخذ حفنة من التراب فحثى بها وجوه العدو وقال : « شاهت الوجوه » .

قال يعليّ بن عطاء : فحدثنا أبناؤهم عن آبائهم قالوا : ما بقي أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب ، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد ، فهزمهم الله عَزُّ وجَلُّ (٣) .

- وعن مصعب بن شيبة عن أبيه قال : خرجتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة بد، ولكن أبيتُ أن نظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه : يا رسول الله ، إني أرى خيلاً بُلَّقاً ، قال : « يا شيبة ، إنه لا يراها إلا كافر » ، فضرب يده في صدري ثم قال : « اللَّهم أهد شيبة » ، ثم ضرب الثانية فقال: « اللَّهم أهد شيبة » ، ثم ضربها الثالثة ثم قال: « اللُّهم أهد شيبة » . قال : فوالله ما رفع يده عن صدرى في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلى منه (٤٠) .
- . وعن شيبة بن عثمان قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ، ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأرى من محمد (صلى الله عليه وسلم) قال : فذهبت لأجيئه من خلفه ، قال : فلما

(٢) البداية والنهاية: ٣٣٢/٤

(٣) المرجع السابق: ٣٣٢/٤

⁽١) التربة: ٢٥ – ٢٦

دنوت منه ، ارتفع إلى شواظ من نار ، أسرع من البرق ، فوليتُ هارباً وأحس بى النبى على فدعانى ، فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق إلى ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلى .

*

خامساً – غزوة نجد (ذات الرقاع) :

• روى محمد بن إسحاق عن جابر بن عبد الله قال : خرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لى ضعيف ، فلما قفل رسول الله على جعلت الرفاق تمضى وجعلتُ أتخلفُ حتى أدركتى رسول الله على فقال : « مالك يا جابر » ؟ قلت : يا رسول الله ، أبطأ بى جملى هذا ، قال : « أنخه » ، قال : فأنخته وأناخ رسول الله على ثم قال : « أعطنى هذه العصا من يدك » - أو اقطع عصا من شجرة - ففعلت ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه بها نخسات ثم قال : « اركب » ، فركبت فخرج - والذي بعثه بالحق - يواهق ناقته مواهقة (١) .

* * *

• عصمة الله له عن أراد كيده:

• ومن ذلك ما صح أن النبي ﷺ نزل منزلاً في بعض غزواته ، فقال (أي نام) تحت شجرة ، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه فقال : من يمنعك مني ؟ فقال :

⁽١) البداية والنهاية : ٨٦/٤

« الله » ، فرعدت يد الأعرابي ، وسقط سيفه من يده ، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه .

• واتفق مثل هذه القصة لغورث بن الحارث في غزوة ذات الرقاع ، فعن جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله على غزوة نجد (ذات الرقاع) ، فلما قفل رسول الله على أدركته القائلة في واد كثير العضاة ، فتفرق الناس يستظلون بالشجر ، وكان رسول الله على تحت ظل شجرة فعلَق بها سيفه .

قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فأجبناه ، وإذا عنده أعرابى جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله » .

وفى رواية : أن السيف سقط من يده ، فأخذه رسول الله على وقال : « مَن ينعك منى » ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله » ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس .. واسم هذا الرجل « غورث بن الحارث » (١).

وكذلك وقع مثل هذه القصة بـ « ذى أمر » لدغشور بن الحرث ، وكان ذا نجدة وجرأة ، فلما رجع إلى قومه قالوا : أين ما كنت تقول ، وقد أمكنك ؟ فقال : إنى نظرتُ إلى رجل أبيض طويل ، دنع فى صدرى فوقعت لظهرى وسقط السيف من يدى ، فعرفتُ أنه ملك ، وفيه أنزل الله عَزُ وجَلُ : ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نعْمَتَ اللّه عَلَيْكُمُ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أَيْدَيهُمْ فَكَفٌ أَيْدينَهُمْ عَنكُمْ ﴾ ... الآية (٢) .

وكانت أم جميل - حمَّالة الحطب - تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ فكأنما يطأ كثيباً أهيل - يريد سهلاً - ولما أنزل الله عَزُّ وجَلُّ فيها وفي زوجها:

⁽١) البداية والنهاية: ٨٤/٤

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبِ وَتَبُّ ﴾ (١) إلى آخر السورة ، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ، ومعه أبو بكر ، وفي يدها فهر (٢) من حجارة ، فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر ، وأخذ الله ببصرها عن نبيه صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه (٣) .

• ومن ذلك ما حدّث به الحكم بن أبى العاص قال: تواعدنا على أن نقتل محمداً حتى جنناه ، فلما رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا ما ظننا أنه بقى بتهامة أحداً ، فوقعنا مغشياً علينا ، حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله ، ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه .

• ومن ذلك القصة المشهورة التى تؤذن بالكفاية التامة ، وذلك أن قريشاً اجتمعت على قتله ، وبيتوا ليدخلوا عليه بيته ، فعلم بهم ، فقال لعلى كرم الله وجهه : « تحول على فراشى » ففعل ، ثم خرج عليهم وذر التراب على رؤوسهم فلم يروه ، حتى دخلوا البيت فوجدوا علياً على فراشه ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ فقال لهم : قد خرج عليكم ، وقد جعل التراب على رؤوسكم ، فمد كل واحد منهم يده على رأسه – فوجد التراب على رأسه – وقد مضى ذكره في قصة الهجرة .

وقيل: إن في هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أُوْ يَقْتُلُوكَ أُوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْرُ اللَّهُ ا

• ومن ذلك ما رواه عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان الثقفى ، قال : قدم رجل من أراش بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله على ناد من قريش ،

⁽١) سورة المسد . (٢) حجر على مقدار مل، الكف .

 ⁽٣) رواه ابن هشام في السيرة .
 (٤) الأنفال : ٣.

فقال : یا معشر قریش ، مَن رجل یؤدینی علی أبی الحکم بن هشام ، فإنی رجل غریب ، ابن سبیل ، وقد غلبنی علی حقی ؟

قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله على وهم يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤديك عليه .

فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله على فقال : يا عبد الله ، إنَّ أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألتُ هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه (أَى يأخذ لى حقى منه) ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله .

قال: « انطلق إليه » . وقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع .

قال : وخرج رسول الله ﷺ فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : « محمد ، فاخرج إلى » ، فخرج إليه وما في وجهه من رائحة قد انتقع لونه ، فقال : « أعط هذا الرجل حقم» . قال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذي له .

قال : وجاء الرُّحَرُ إلذي بعثرًا معه ، فقالوا : ويحك ! ماذا رأيت ؟

قال: عجباً من الرُبب، والله إ هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال له أم أعط هذا رقه »، قال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقد فأعطأ رُباه.

قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالُون وَبِاكِ ! مالك ؟ والله ما رأيتا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته، فملنت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت

مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أُبَيْتُ لأكلنى . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ذلك جبريل ، ولو دنا منه لأخذه » .

- وكذلك أخذ أبو جهل لعنه الله صخرة ليطرحها على النبى ﷺ ، وهو ساجد وقريش ينطرون ، فلزقت بيده ويبست بداه إلى عنقه ، فرجع القهقرى ورآه ثم سأل أن يدعو له ففعل ، فانطلقت بداه .
- ومرً بنا أن أبا جهل تواعد مرة أخرى مع قريش لئن رأى محمداً ﷺ يصلى ليطأن رقبته ، فلما دخل النبى ﷺ في الصلاة أعلموه ، فأقبل نحوه ، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبية متقياً بيديه ، فسئل عن ذلك فقال : لما دنوتُ منه ، أشرفتُ على خندق مملوء ناراً كدت أهوى فيه ، وأبصرتُ هولاً عظيماً وخفق أجنحة قد ملأت الأرض . فقال صلى الله عليه وسلم : « تلك الملائكة ، لو دنى لاختطفته عضواً عضواً ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رااً أُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ ... إلى آخر السورة (١).
- ومن ذلك ما رواه فضالة بن عبيد قال: أردتُ تتل النبي الله ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوتُ منه قال: « أفضالة » ؟ قلت: نعم ، قال: « ما كنت تحدث به نفسك » ؟ قلت: لا شئ ، فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى فسكن قلبى ، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه .
- ومن ذلك خبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ، وذلك أنهما وفدا على رسول الله ﷺ ليقتلاه ، فقال عامر لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد ، فاضرب أنت . فلم يفعل أربد من ذلك شيئاً ، فلما كلمه عامر في ذلك قال له : والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بيني وبينه ، أفأضربك ؟!

⁽١) العلق : ٦ - ٧

● ومن ذلك الخبر المشهور ، خبر سراقة بن مالك ، وقد مر ذكره في الحديث عن الهجرة .

* *

يقول الإمام القرطبى (١): « .. والأخبار فى هذا كثيرة ، والحكايات صحاح شهيرة ، لا يمكن جحدها ، ولا ينكر حصول العلم عندها ، بل كلها تدل على صحة نبوته ، وتصديق شريعته ، وأنه كما قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْله الرُّسُلُ ﴾ (٢) .

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن بعيط بها هذا الكتاب ، أو تدخل تحت عد وحساب ، وعند الوقوف على ما تضمنته العقول المتقدمة ، والأبواب السابقة ، يحصل العلم الضرورى بصدقه في رسالته ، وبوجوب اتباع شريعته ، ومنكر ذلك معاند متواقح جاحد ﴿ وَسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظُلَمُوا ۚ أَيّ مُنقَلَبٍ يَنقَلَبُونَ ﴾ (٣) .

ثم يقول: « فإن قال قائل من النصارى والمخالفين لنا: ما ذكرتموه من معجزات نبيكم إنما يثبت عندكم من أخبار الآحاد، وهي وإن كانت صحاحاً فلا يحصل بها العلم - كما كنتم قدمتم - يحيث تكلمتم مع النصارى حين استدلوا على إثبات نبوة مسيحهم.

فإنكم قلتم : لا نقبل فى هذا الموضع خبر من تجوز العادة عليه الكذب والغلط ، وإنما نقبل فيها : خبر من لا تجوز عليهم العادة الكذب والغلط ، وهو الخبر المتواتر .. ثم إنكم قبلتم هنا أخبار من تجوز العادة عليهم الغلط والكذب ، وهي أخبار الآحاد ، فقد خالفتم ما أصلتم ، وقبلتم عَيْن ما أنكرتم .

⁽١) أنظر الإعلام - للإمام القرطبي - مرجع سابق - ص ٣٧٩ وما بعدها .

⁽۲) آل عمران : ۱۲۶ (۳) الشعراء : ۲۲۷

قلنا فى الجواب عن ذلك : اعلم أيها المعترض ، أنَّا لم نقبل فى هذا الباب إلا الأخبار المتواترة التى يحصل العلم بها ، لكن ينبغى أن تعلم أن المتواتر ضربان :

ضرب يتواتر لفظه ومعناه ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرً الْإَسْلَامِ دَيِناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

فإن هذا اللفظ نعلم قطعاً ويقيناً: أن نبينا محمداً على قاله ، كما تلوناه من غير زيادة ولا نقصان ، إذ قد نقله عنه الجم الغفير عن الجم الغفير ، فلا يتطرق إليه وجه من وجوه الشك ، فلا يقدر أحد أن يتشكك في لفظه ولا في معناه ، وكثير من معجزات النبي الله المتقدمة الذكر من هذا القبيل ، فهذا هو الضرب الأول .

وأما الضرب الآخر ، وهو متواتر معناه دون لفظه ، فيحصل العلم أيضاً بذلك المعنى . وذلك مثل أن تتوارد روايات كثيرة من أخبار الآحاد الصحاح على معنى واحد بألفاظ متغايرة وحكايات مختلفة . مثال ذلك : أنّا نجد من أنفسنا علماً قطعياً بشجاعة على بن أبى طالب رضى الله عنه . فإذا نظرنا فى الخبر الذي حصل لنا العلم بشجاعته ، لم نجده خبراً واحداً متواتراً ، وإنا وجدناه جملة أخبار آحاد تواردت على معنى واحد وهو الشجاعة . فتسمع عنه يوماً أنه فعل يوم خيبركذا ، وفعل يوم حنين كذا ، ويوم صفين كذا ، ويوم الجمل كذا ... فلا تزال أخبار الآحاد تكثر حتى يضطر السامع إلى العلم بمخبرها ، ولا يقدر على تشكيك نفسه فى شئ منها ، وهذا مسلك فى تحصيل العلم إذا تفقده العاقل المنصف من نفسه وجده مفيداً للعلم ، ومحصلاً له ضرورة ، ومن أنكر حصول العلم منه كان منكراً لما هو ضرورى .

فإذا ثبت هذا .. قلنا بعده : إن ما نقلناه من معجزات نبينا عليه السلام ، منها ما تواتر لفظه ومعناه كانشقاق القمر وغيره ، ومنها ما تواتر معناه – وهو

⁽١) آل عمران : ٨٥

أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة – وذلك أن كل فصل منها اشتمل على معنى واحد وكثرت الأخبار عن ذلك المعنى ، حتى اضطر الواقف عليها إلى العلم بمعناها ، وذلك مثل نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل ، والطعام القليل ... إلى غير ذلك من الفصول ، فكل فصل منها قد تواتر معناه وإن لم تتواتر آحاد ألفاظه .

ثم هذه الفصول بجملتها يحصل منها العلم القطعى واليقين الضرورى: بأنً محمداً على كانت العادات تنخرق على يديه معجزة له ، إذ قد تواردت جميع أخبار هذه الفصول على هذا المعنى .

فحصل من هذا: أنَّا لم نستدل على إثبات نبوة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بأخبار الآحاد، وإنما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة المحصلة للعلم . والحمد لله .

والنصارى فيما أوردوا لم يستدلوا هكذا ، ولا عندهم علم من هذا ، وكفى أنهم في ضلالتهم يعمهون ، وفي شكهم يترددن .

عصمنا الله من الخطأ والزلل ، في القول والعلم ، بكرمه وجوده » ا هـ .

* * *

ونقول نحن :

« إنَّ فيما نقلناه من كلام الإمام القرطبى - بنصه - آنفاً ، الجواب الوافى والرد الكافى على الذين ينكرون وجود المعجزات الحسيَّة للرسول الله بحجة أنها أحاديث آحاد ».

* * *

الفصل الخامس

صاحب الأخلاق العظيمة

يقول الإمام البوصيرى في البردة المباركة :

ظلمَتُ سُنَّة مَـنْ أُخْيَـا الظَّلام إلَى وَشَـدُ مِـنْ سَخَبِ أُحْشَاءَهُ وَطَوَى وَشَـدُ مِـنْ سَخَبِ أُحْشَاءَهُ وَطَوَى وَرَاوَدَ تُـدُ الْجِبَالُ الشُّسمُ مِنْ ذَهَبٍ وَرَاوَدَ تُـدُ الْجِبَالُ الشُّسمُ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكُسدَتْ زُهْ لَحِبَالُ الشُّسمُ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكُسدَتْ زُهْ لَحِدَ الْحَسو إلى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ مُحَسَّدُ سَـيْدُ الكَّـونَيْنِ وَالتَّقَلِبُ مُحَسِّدٌ سَـيْدُ الكَّـونَيْنِ وَالتَّقَلِبُ مَحَسَّدٌ سَـيْدُ الكَسونَيْنِ وَالتَّقَلِبُ مَحْسَدٌ سَلا أُحَدُ لَنَيْنَ الآمِسِرُ النَّاهِ اللهِ عَلْمَستَمْسِكُونَ بِهِ مَصَا إلى اللهِ فَالمُستَمْسِكُونَ بِهِ دَعَالًا النَّبِينَ فِسى خَلْتِ وَفِسى خُلْقِ فَاللهُ النَّبِينَ فِسى خَلْقٍ وَفِسى خُلُقٍ فَاللهُ فَالمُستَمْسِكُونَ بِهِ فَالنَّالِي تُوجَى فَلْمَ وَفِسى خُلُقٍ فَاللَّهُ مَا النَّبِينَ فِسى خَلْتِ وَفِسى خُلُقٍ فَاللَّهُ مَا وَفِسى خُلُقٍ فَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللْمُلْعِلْمُ اللَّهُ الْمُلْعُلِلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللْمُلْعُلُولُ اللْم

أنِ اشْتَكُتْ قَدَمَاهُ الضّرِ مِنْ وَرَمَ تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشَحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ (١) عَسَنْ نَفْسِهِ فَأَراهَا أَيْمَا شَسَمَمِ (٢) عَسَنْ نَفْسِهِ فَأَراهَا أَيْمَا شَسَمَمِ (٣) إِنَّ الضَّرُورَةَ لا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ (٣) لَوْلاهُ لَمْ تُحْسرَجِ الدُّنْيَا مِسِنَ الْعَدَمِ سِن وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبِ وَمِنْ عَجَمِ (٤) أَبْرُ فِي قُولُ « لا » مِنْهُ وَلا « نَعَمِ» لِكُسلُ هَسُولُ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ (٥) مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْفَصِمِ (٢) وَلَمْ يُدَانُسُوهُ فِسِسَى عِلْسَمِ وَلا كَرَمِ

⁽١) السغب : الجوع ، الكشح : هو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وهي أقصر الأضلاع وآخرها ، وهي من لدن السرة إلى المتن ، مترف : أي رقيق ، الأدم : الجلد .

⁽٢) راودته : خادعته ، الشم : العالية الشامخة ، الشمم : الإباء .

 ⁽٣) ضرورته : حاجته ، العصم - بكسر العين وفتح الصاد ، جمع عصمة ، أى أن الحاجة والضرورة لا سبيل لهما على من عصمه الله وحفظه .

⁽٥) مقتحم : بفتح الحاء ، مهجوم عليه ومتورط نيه . (٦) منفصم : منقطع .

وكُلُهُ مُ مِن رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسُ وَوَاقِفُ وَنَ لَدَيْ وَاللهِ مُلْتَمِسُ وَوَاقِفُ وَنَ لَدَيْ وَاللهِ مُلْتَمِسُ فَهُ وَاللهِ مُلْتَمِسُ فَهُ وَصُورَتُهُ فَهُ مَنْ اللهِ مُعْنَاهُ وَصُورَتُهُ مُنَافِقًا مُنْسَاهُ وَصُورَتُهُ مُنَافِقًا مُنْسَاهُ وَصُورَتُهُ مُنَافِقًا مُنْسَاهُ وَصَدَاللهِ مُنَافِقًا مُنْسَالِهِ مُنَافِقًا مُنْسَالِهِ فَي مَحَاسِنِهِ مُنَافِقًا مُنْسَاقًا مُنْسُلِقًا مُنْسَاقًا مُنْسُلِقًا مُنْسَاقًا مُنَاسِمًا مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا مُنْسُلُمُ مُنْسَاقًا مُنَاسِمً مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا مُنْسَاقًا

غَسرفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشَفاً مِنَ الدَّبَمِ (١) مِس نُ تُقطة العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَة الحِكَمِ مِس نُ تُقطة العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَة الحِكَمِ ثُبَسمٌ اصطفَاء خَبِيباً بَارِئُ النُسَمِ (٢) فَجَسوه مِن الحُسس فِيسه غَيْرُ مُنْقَسِم عَد

ويقول أحمد شوقى فى نهج البردة:
البَسدُرُ دُونَسكَ فِى حُسْن وَفِى شَرَفِ
شُسمُ الْجِبَالِ إِذَا طَاوِلْتَهَا انْخَفَضَت
وَاللَّيْثُ دُونَسكَ بِأَسَا عِنْد وَثْبَتِهِ
تَهْفُسو إلَيْكَ - وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتَهَا
مَحَبُّهُ اللّهِ الْقَاهِا . وَهَيْبَتُسهُ

والْبَحْسُر دُونَسِكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمَ والأنْجُمُ الزُّهُرُ مَا واسَمْتَهَا تَسِمِ (٣) إذَا مَشَيْتَ إلَى شَاكِي السُّلاحِ كَمِي (٤) فِي السُّلامِ كَمِي الْأَبْطَالُ وَالْبُهُمِ (٥) فِي الْحَدُرِبِ - أَفْئِدَةُ الأَبْطَالُ وَالْبُهُمِ (٥) عَلَى ابْن آمِنَةً فِي كُلِّ مُصْطَدَم (٦)

⁽١) رشفاً : مصاً بالشفتين ، الديّم : بكسر الدال وفتح الباء : جمع ديّمة ، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق ، ومعنى هذا أنَّ ما جاء به الأنبياء السابقون - صلوات الله عليهم - من الهدى إذا قيس إلى هدى محمد ﷺ كان كفرفة من بحر أو رشفة من مطر .

⁽٢) النسم : الأرواح ، جمع نسمة .

 ⁽٣) يقال : واسمه في الحسن فوسمه : غلبه فيه ، انخفاض الجبال : كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره صلى الله عليه وسلم وعلو شأته .

⁽٤) الكبي: لابس السلام.

⁽٥) تهفو : هذا الظبى فى المشى يهفو هفواً وهفواتاً : أسرع وخف فيد ، والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه صلى الله عليه وسلم ، وحبة القلب : سويداؤه ، والبهم : جمع بهمة وهو الشجاع .

 ⁽٦) مصطدم: بمعنى المصدر ، أى الاصطدام ، أو : الموضع ، أى موضع الاصطدام ، وهو
 ميدان الحرب .

كَانًا وَجْهَاكَ تَحْتَ النَّفْعِ بَدْرُ دُجِّي بَــلرُ تَطَلَـعَ فِـــى بَــلرٍ فَغُـرتُهُ

ويقول أيضاً في الهمزية المباوكة : يا مسن لَهُ الأُخْسِلاَقُ مَا تَهْسُوَى العُلا لَوْ لَمْ تُقَــمُ دينــاً ، لَقَامَتْ وَحُدَهَا زَانْتَكُ في الخُلْق العَظيمُ شَمَائلٌ أمًا الجَمَالُ ، فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائه وَالْحُسْسَنُ مِسَنِ كُمْرَمِ الوُّجُوهِ ، وَخَيْرَهُ فَإِذَا سَخَـوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُـود المدَى وَإِذَا عَفَ ـــوْتَ فَقَــادراً ، وَمُقَـدُراً وَإِذَا رَحمت فَأنست أمُّ ، أو أبّ وإذا غَضبت فَإِنَّمَا همي غَضبَة وإذا رَضيتُ فَذَاكَ في مَرْضَاتِهِ وإذا خَطَبْت فَللْمَنْابِر هِنْ وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا ارْتَيَابَ ، كَأَنَّمَا

يُضيئُ مُلْتَثِماً ، أَوْ غَيْسِرَ مُلْتَثِم (١) كَفُرَّةِ النَّصر ، تَجلو داجي الظّلم (٢)

منه الكبراء دينا تُضيئ بنسوره الآنساء يُغسَرى بهدن ويُسولَعُ الكُرَمَساءُ وَمَــلاحَةُ (الصَّدِّيق) منْكَ أَيَاءُ (٣) مَا أُوتِي القُصوادُ والزُعَمَاءُ وَفَعَلَدَ مَا لا تَفْعَدُ لُ الْأَندُواءُ (٤) لاَ يَسْتَهِينَ بِعَفْ وِكَ الجُهَلاءُ هَــذَانِ فـــى الدُّنْيَا هُمَـا الرُّحُمَاءُ فيسى الحَقُّ ، لا ضغَّنُ وَلا بَغْضَاءُ (٥) وَرِضَــى الكثيــر تحلّـمٌ ورياءٌ (٦) تَعْـرُو النّدي ، وَلَلْقُلُوبِ بُكَاءُ (٢) جَاءَ الخُصُرومَ من السُّماء قَضَاءُ

(٥) الضفن: الحقد.

⁽١) النقع: غبار الحرب.

⁽٢) بدر: موضع بين الحرمين الشريفين ، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمغ فيها الشرك (٣) أياء الشمس وآياتها : نورها وحسنها . وأعز الإسلام .

⁽٤) النوء: المطر.

⁽٦) التحلم: تكلف الحلم.

وإذا حَمَيْتَ المسّاءَ لَسَمْ يسُورَدُ ، وَلُو وَإِذَا أَجَسَرَتَ فَانْت بيستُ اللّهِ ، ليم وَإِذَا ملكستَ اللّهِ ، ليم وَإِذَا ملكستَ النفسَ قُمْستَ بيسِرُها وَإِذَا ملكستَ النفسَ قُمْستَ بيسِرُها وَإِذَا بنيسَت فخيسرُ زَوْج عِشسرةً وَإِذَا صَحِبْستَ رأى الوفاءَ مُجَسَما وَإِذَا صَحِبْستَ رأى الوفاءَ مُجَسَما وَإِذَا أَخسدَتَ العهددَ ، أو أعظيتَهُ وإذا مَشيَّتَ إلىسى العدا فَغَضَنْفُر وإذا مَشيَّتَ إلىسى العدا فَغَضَنْفُر وَتَمُدُ حِلْمسكَ للسفيسهِ مُداريا فَسَى كسل نَفْسٍ مسن سُطاكَ مَهابةً فسى كسل نَفْسٍ مسن سُطاكَ مَهابةً والرأى لسم ينضَ المُهنَّسدُ دُونَسهُ

أنَّ القَياصِ رَوالمُلُوكَ ظِمَاءُ يدخصل عليسه المستجيسرَ عداءُ ولسو أن ما ملكت يسداكَ الشاءُ وإذا ابتنيت فدوئسك الآبساءُ (١) فسى بُسردك الأصحابُ والخلطاءُ فجميع عَهَ دكَ ذمسةُ ووفاءُ وأذا جسريَّت فَإنسُكَ النَّكْبَاءُ (١) وتسمى يضبحن بعرضك النَّكْبَاءُ (١) ولكسل نفس فسى نداك رَجاءُ (٣) ولكسل نفس فسى نداك رَجاءُ (٣)

* * *

• الإنسان الكامل:

الكمال البَشرى على ضربين : ظاهر ، وباطن .

وكل واحد من هذين الضربين - أيضاً - على ضربين : ضرب يكون الإنسان مجبولاً عليه ، ولا اكتساب له فيه ، وضرب يكون مكتسباً للإنسان يُحصًّل له بسعيه وتكسبه .

فقد انحصرت صفات الكمال في أربعة أقسام: كمال ظاهر ضروري ، وكمال ظاهر مكتسب ، وكمال باطن ضروري ، وكمال باطن مكتسب .

⁽١) بني بأهله : زُنُّ إليهم ، وابتنى : صار له بنون .

⁽٢) غضنفر : أسد ، والنكباء : ربع بين ربحين . (٣) سطا : جمع سطوة .

⁽٤) نضا السيف من غمده : سلَّه ، والمهند : السيف المطبوع من حديد .

وقد جمع الله تعالى هذه الأصناف الأربعة للنبى الله ، فقد أوتى كمال الخلقة ، وجمال الصورة ، وفصاحة اللسان ، وشرف النسب ، وعزة القوم ، وكرم الأرض ، وقوة العقل ، وصحة الفهم ، ومتانة العلم ، وجمال الصبر ، وعظم الحلم ، وحسن التواضع والعدل ، وجزالة الزهد والفضل ، وعموم الجود والكرم ، ووثاقة العهود والذمم ، وحسن السمت والأدب ، وطهارة الذات والنسب ، وعظم الشجاعة والنجدة ، وكثرة الحياء والموءة .

فكان صلى الله عليه وسلم أكمل الناس خلالاً ، وأفضلهم حالاً ، وأعلمهم بحدود الله ، وأخرفهم من الله .

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه ، وأن يختصه لنفسه ويرتضيه دون غيره ، فإنه سبحانه طيب لا يحب إلا الطيب ، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب ، فالطيب في كل شئ هو مختاره سبحانه .

أما خلقه تعالى ، فعام للنوعين - الطيب والخبيث - وبهذا يُعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته ، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ، ولا يرضى إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ، ولا يطمئن قلبه إلا به .

فله من الكلام الكلام الطيب الذي لا يصعد إلى الله تعالى إلا به ، وهو أشد شئ نفرة عن الفحش في المسان البذئ ، والكذب ، والغيبة ، والتميمة ، والبهت ، وقول الزور ، وكل كلام خبيث .

كما لا يألف من الأعمال إلا أطيبها ، وهى الأعمال التى اجتمعت على حسنها الفطر السليمة ، مع الشرائع النبوية ، وزكتها العقول الصحيحة ، فاتفق على حسنها : الشرع ، والعقل ، والفطرة .

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه ، أن يجعل للسعادة والشقاوة عنواناً يُعرفان به ، فالسعيد طيب لا يليق به إلا طيب ، ولا يأتي إلا طيباً ، ولا يصدر منه إلا طيب ، ولا يلابس إلا طيب .

أما الشقى الخبيث، فلا يليق به إلا خبيث ، ولا يأتى إلا خبيثاً ، ولا يصدر منه إلا الخبيث .. فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه ، كما أن الطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه .

وقد يكون فى الشخص مادتان ، فأيهما غلب عليه كان من أهلها ، فإن أراد الله به خيراً ، طهره الله تعالى من المادة الخبيثة حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة .

وقد اختار الله تعالى رسوله على ، واختصه لنفسه ، وأكرمه برسالته ، وبعثه إلى خلقه ، واختصه بكرامته وجعله أمينا بينه وبين عباده ، وارتضاه دون غيره للرسالة الخاتمة ، فهدى به البَشرية بعد ضلالها ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس : تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله .

لهذا كان له - صلى الله عليه وسلم - من الأخلاق أطيبها وأزكاها: كالحلم، والوقار، والسكينة، والرحمة، والصبر، والوقاء، وسهولة الجانب، ولين العريكة، والصدق، وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد، والتواضع، وخفض الجناح لأهل الإيمان، والعزة والغلظة على أعداء الله، وصيانة الوجه عن بذله لغير الله، والعفة، والشجاعة، والسخاء، والمروعة.. وكل خُلق اتفقت على حسنه الشرائع والعقول.

وقد كان صلى الله عليه وسلم لا يختار من المطاعم إلا أطيبها - وهو الحلال الهنى المرى - الذى يغذى البدن والروح أحسن تغذية .. كما كان لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها ، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها ، ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم .

فروحه - صلى الله عليه وسلم - طيب ، وبدنه طيب ، وخُلُقه طيب ، وعمله طيب ، وملحه طيب ، وملحمه طيب ، ومشربه طيب ، وملبسه طيب ، ومنكحه طيب ، ومخرجه طيب ، ومخرجه طيب ، ومنقلبه طيب ، ومثواه كله طيب .

ولا غرابة فى ذلك كله ، فقد اختصه الله سبحانه لنفسه وارتضاه دون غيره . والله تعالى طيب لا يحب إلا الطيب ، ولا يختار من أجناس المخلوقات إلا أطيبها .

ولهذا اختار له - جلّ شأنه - خير الأنساب ، فكان صلى الله عليه وسلم خير أهل الأرض نسباً ، فلنسبه - كما علمت - من الشرف أعلى ذروة ، الأمر الذى شهد له به الأعداء ، فكان أشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفخاذ فخذه . . صلى الله عليه وسلم .

بعثه الله تعالى على رأس الأربعين من عمره ، وهى رأس الكمال ، ولها تُبعث الرسل ، وأمره - جلِّ شأنه - أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ، ثم أمره بإنذار قومه ، ثم إنذار قوم ما آتاهم من نذير - وهم العرب قاطبة - وأخيراً : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر ، فتدرجت دعوته - صلى الله عليه وسلم - على أربعة مراتب ، حتى شملت الجن والإنس قاطبة .

وظل رسول الله على يدعو قومه سرأ ثلاث سنين ، ثم نزل عليه قوله تعالى :
﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ، فأعلن – عليه الصلاة والسلام – بالدعوة ، وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن لهم بالهجرتين ، إلى الحبشة ثم إلى المدينة .

لقد أرسل الله تعالى رسوله رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين ، وحُجَّة على الخلاتي أجمعين .

أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته وتعزيره ، وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه ، وسد دون جنّته الطرق ، فلم تُفتح لأحد إلا من طريقه .

فأدى - صلى الله عليه وسلم - الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ،

⁽١) الحبير : ٩٤

وجاهد في الله حق جهاده ، وترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .. فجزاه الله عن أمته خير ما جزى نبياً عن أمته .

شرح الله سبحانه لرسوله صدره ، ورفع ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الصغار والذلة على من خالف أمره .

كان صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل الذى قال فيه ربه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ، فكان المثل الأعلى للإنسانية كلها ، يؤثر مرضاة ربه على هواه ، ويتحبب إليه بجهده وطاقته ، ويحسن إلى خُلْقه ما استطاع ، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوا به ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، ويدعهم مما يحب أن يدعوه منه .

ينصحهم بما ينصح به نفسه ، ويحكم لهم بما يحب أن يُحكم له به .

يحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه ، ويكف عن أعراضهم ولا يقابلهم بما نالوا من عرضه .

إذا رأى لهم حُسناً أذاعه ، وإذا رأى سيئاً كتمه ، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعته ، ولا يناقض لله تعالى أمراً ولا نهياً (٢) .

تعالوا نقرأ وصف أقرب الناس إليه - صلى الله عليه وسلم - حيث يصف سيرته في جلسائه :

يقول الحسن بن على رضى الله عنهما: « سألتُ أبى عن سيرة رسول الله عن في جلسائه فقال: « كان رسول الله على دائم البشر، سهل الخُلْق، ليَّن الجانب.

ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب ، ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مشاح . يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يُؤيسُ منه ، ولا يخيب فيه .

⁽١) القلم: ٤

⁽٢) انظر : البداية والنهاية ، وزاد المعاد ، وكتب السيرة ففيها الكثير من خلاله صلى الله عليه وسلم .

قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ، ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته .

لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه . كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا .

لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته - حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم - ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفوده » .

لا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام » .

وعن عطاء بن يسار رضى الله عنه قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله عنهما فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله عنهما فقلت له : أخبرنى عن صفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً ﴾ (١) . فى التوراة : « يا أيها النبى إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ... أنت عبدى ورسولى ، سببتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ... ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ،

ومصداق هذا .. حديث عائشة رضى الله عنها الذى رواه أبو عبد الله الجدلى رضى الله عنه قال : سمعت عائشة رضى الله عنها وسألتها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح » (٣) .

⁽١) الأحزاب: ٤٥

⁽٣) رواه أبو داود .

- وعن خارجة بن زيد رضى الله عنه: أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضى الله عنه فقال: « كنت جاره ، رضى الله عنه فقال: « كنت جاره ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فآتيه فأكتب الوحى ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا .. فكل هذا أحدثكم عنه » (١).
- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفأ ، والله ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه (٢) .. وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه بأذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحداً ببده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزعها » (٣) .
- وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سألت عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله على الله عنها عن خُلق رسول الله على فقالت: « كان خُلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه» (1).

وفى رواية عن زيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ - فذكره ، وفى حديثه : « ثم قالت : أتقرأ سورة المؤمنون ؟ - اقرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ... إلى العشر - قالت : هكذا كان خُلق رسول الله ﷺ .

• وعن عروة رضى الله عنه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: « ما كان أحسن خُلُقاً من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا عن

⁽١) أخرجه أبو نعيم .

⁽٢) كان الصبيان والعبيد والإماء يأتونه بالماء ليغسل وجهه وذراعيه ، ثم يحملون الماء معهم للتبرك به ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يمتنع عن ذلك مهما كانت برودة الجو ، ولا يمنعه ضعف السائل أو ضآلة شأنه من الاستجابة له .

 ⁽٣) أخرجه أبو نعيم .

أهله إلا قال : « لبيك » ، ولذلك أنزل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم ﴾ (١) .

وعن قيس بن وهب رضى الله عنه ، عن رجل من بنى سراة قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : أخبرينى عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : « أما تقرأ القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظيم ﴾ ؟

قالت: كان رسول الله على مع أصحابه ، فصنعت له طعاماً وصنعت له حفصة رضى الله عنها طعاماً ، فسبقتنى حفصة فقلت للجارية: انطلقى فاكفئى قصعتها (٢) ، فأهوت أن تضعها بين يدى النبى تلك فكفأتها ، فانكفأت القصعة فانتشر الطعام ، فجمعها النبى الله وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا ، ثم بعثت بقصعتى فدفعها النبى الله إلى حفصة فقال : « خذوا ظرفاً مكان ظرفكم ، وكلوا ما فيها » .

قالت: فما رأيته - أي الغيظ - في وجه رسول الله ﷺ (٣).

• وعن صفية بنت حيى رضى الله عنها قالت : ما رأيتُ أحداً أحسن خُلقاً من رسول الله ﷺ ، لقد رأيته وقد ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلاً ، فجعلتُ أنعس فضرب رأسى مؤخرة الرحل ، فمسنى بيده يقول : « يا هذه ، مهلاً . . يا بنت حيى مهلاً » ، حتى إذا جاء « الصهباء » (٤) قال : « إنى أعتذر إليك يا صفية نما صنعتُ بقومك ، إنهم قالوا لى كذا ، وقالوا لى كذا » (٥)

• وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا صافح – أو صافحه – الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يُرى مقدماً ركبتيه بين يدى جليس له » (٦) .

⁽١) أخرجه أبو نعيم . (٢) أي اقلبيها ليصب ما فيها .

 ⁽٣) رواه ابن أبى شيبة .

⁽٥) رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى باختصار . (٦) رواه الترمذي وابن ماجه .

وعنه أيضاً قال : « إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله على فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت » (٢).

وعنه : « أن امرأة كان في عقلها شئ ، فقالت : يا رسول الله ، إن لي إليك حاجة ، فقال : « يا أم فلان ، انظرى أي السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك » فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها » (7) .

- وعن عائشة رضى الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله على بيده خادما قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيرً بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما، إلا أن يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى إليه حتى تُنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عَزُ وجَلُ » (ع).

وعنه رضى الله عنه قال: «كان رسول الله عنه من أحسن الناس خُلَقاً ، فأرسلنى يرماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب - وفي نفسى أن لا أذهب لما أمرنى به نبى الله على السوق ، فإذا الله على السوق ، فإذا

 ⁽۱) رواه أبو داود . (۲) رواه ابن ماجه . (۳) رواه مسلم .

⁽¹⁾ رواه أحمد . (٥) رواه مسلم .

رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى . قال : فنظرت ُ إليه وهو يضحك فقال : « يا أنيس ، أذهبت حيث أمرتك » ؟ . قال : قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله .

قال أنس: « والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشئ صنعته : لِمَ فعلت كذا وكذا ، أو لشئ تركته : هلا فعلت كذا وكذا » (١) .

أرأيتم مثل هذا التواضع في معاملة الأهل والخدم والعبيد والإماء والضعفاء وغيرهم ؟

* * *

• من تواضع النبي على :

كان رسول الله ﷺ متواضعاً في أموره كلها .. متواضعاً في مشيد ، متواضعاً في مشيد ، متواضعاً في منامد ، متواضعاً في طعامد ، متواضعاً في طعامد ، متواضعاً في تعامله مع الناس .

ومن شأن المتكبر أن يسير متمهلاً ، مزهواً ، يدق الأرض بقدميه وكأنما يريد أن يخرق الأرض من تحتهما .

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى تكفأ تكفياً ، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها .

⁽١) رواه مسلم . (٢) أخرجه أبو تعيم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه: « ما رأيت أحسن من رسول الله ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله ، كأنا الأرض تطوى له ، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنه غير مكترث » .

وقال على كرم الله وجهه: « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفياً ، كأغا ينحط من صبب » .

وقال مرة : « إذا مشى تقلع » .

والتقلع الارتفاع عن الأرض بجملته كحال المنصب من الصبب ، وهي مشية أولى العزم والهمة والشجاعة ، وهي أعدل المشيات وأروعها للأعضاء ، وأبعدها عن مشية الهوج والمهانة والتماوت .

وكان أصحابه يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول : « دعوا ظهرى للملائكة » . . ولهذا جاء في الحديث : « وكان يسوق أصحابه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يمشى حافياً ومنتعلاً ، وكان يماشى أصحابه فرادى وجماعات .

وعن جابر رضى الله عنه قال: « جاء النبى ﷺ يعودنى ليس براكب بغلاً ولا برذوناً » (١)

وعن عبد الله بن جبير الخزاعى رضى الله عنه: أن رسول الله على كان يمشى في أناس من أصحابه ، فتستر بثوب ، فلما رأى ظله رفع رأسه فإذا هو بملاءة قد سُتر بها فقال له: « مه » ا وأخذ الثوب فوضعه وقال: « إنما أنا بَشر مثلكم سُر (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولو رأيته يوم خيبر على حمار خطامه من ليف » (٣) .

 ⁽١) رواه البخارى . (٢) أخرجه الطيرانى . (٣) أخرجه الطيالسى .

وزاد الترمذي عنه: « .. يعود المريض ويشهد الجنازة » .

وعن أنس أيضاً قال : « حج رسول الله على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال : « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة » (١١) .

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال : « لما دخل رسول الله ﷺ مكة ، استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله تخشعاً » .

كما أخرج البيهقى عن أنس قال : « دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً » .

وقال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً (٢) بشقة بردة حمراء، وإن رسول الله على ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه (٣) ليكاد يمس واسطة الرحل ».

وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : « خرجت مع النبى الله المسجد فانقطع شسعه (٤) فأخذت نعله لأصلحها فأخذها من يدى وقال : « إنها أثرة ، ولا أحب الأثرة » (٥) .

* *

• وكان صلى الله عليه وسلم متواضعاً في جلوسه ، فكان يجلس على الأرض ، وعلى الحصير ، والبساط .. وقالت نيلة بنت مخرمة رضى الله عنها : « أتيت رسول الله على وهو قاعد القرفص قالت : فلما رأيت رسول الله كالمتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق » .

ولما قدم عليد عدى بن حاتم رضى الله عند ، دعاه إلى منزلد ، فألقت إليه

⁽١) أخرجه التومذي .

⁽٢) الاعتجار بالعمامة : أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل شيئاً منها تحت ذقنه .

⁽٣) العثنون : هو اللحية . (٤) أي سير النعل . (٥) أخرجه اليزار .

الجارية وسادة يجلس عليها ، فجعلها بينه وبين عدى وجلس على الأرض ، قال عدى : فعرفت أنه ليس بملك .

وعن جرير رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبى الله عنه فاستقبلته رعدة ، فقال النبى الله عنه أن عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلاً كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته رعدة .. فذكر نحوه (١١) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يميز نفسه فى الجلوس بين أصحابه فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، حتى إن الغريب كان يقدم عليهم فيقول : أيكم محمد ؟!

وكان صلى الله عليه وسلم يستلقى أحياناً ، وربما وضع إحدى رجليه على الأخرى ، وكان يتكئ على الوسادة وربما اتكأ على يساره ، وربما اتكأ على يمينه ، وكان إذا احتاج في خروجه توكأ على بعض أصحابه من الضعف .

* *

• وكان صلى الله عليه وسلم ينام على الفراش تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود .

وكان فراشه أدماً حشوه ليف ، وكان له مسح ينام عليه يُثنى بثنيتين ، وثنى له يوماً أربع ثنيات فنهاهم عن ذلك وقال : « ردوه على حاله الأول ، فإنه منعنى صلاتى الليلة » .

وكانت وسادته أدمأ حشوها ليف.

(٢) أخرجه البيهتى	(١) أخرجه الطيراني .

وكان ينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن .

وكان ينام أول الليل ويقوم آخره ، وربما سهر أول الليل في مصالح المسلمين . . وكان صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه .

وكان إذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، وكان إذا عرس بليل اضطجع على شقه الأيمن ، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله عنه وهو على حصير ، قال : فجلست فإذا عليه إزاره ليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ (١) فى ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق . فابتدرت عيناى فقال : « ما يبكيك يابن الخطاب » ؛ ، فقال : يا نبى الله ، وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار ، وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزانتك ؟! فقال : « يابن الخطاب ، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا » ؟ (٢) .

وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وفي لفظه: « قال عمر: استأذنت على رسول الله على فدخلت عليه في مشربة (٣) وإنه لمضطجع على خصفة (٤) إن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا (٥) وإن فوق رأسه لإهابا عطنا (٦) ، وفي ناحية المشربة قرظ، فسلمت عليه فقلت: أنت نبى الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير؟! فقال: « أولذك عُجَّلت لهم طيباتهم وهي وشيكة (٧) الانقطاع، وإنًا قوم أخَّرت لنا طيباتنا في آخرتنا ».

 ⁽١) القرظ: ورق السلم يدبغ به .
 (٢) أخرجه أحمد .
 (٣) أى غرفة .

⁽٤) أى الثوب الغليظ جداً . (٥) أى قشر النخل وما شاكله .

 ⁽٦) من عطن الجلد إذا تمزق شعره وانتن في الدباغ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله على دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه ، فقال : يا رسول الله ، لو اتخذت فرشا أوثر (١) من هذا ، فقال : « ما لى وللدنيا ، ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها » (٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله على قطيفة مثنية ، فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ، فدخل على رسول الله على وسول الله على رسول الله على الله على وسول الله على عائشة ، فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » (٣) .

* *

وكان صلى الله عليه وسلم متواضعاً فى طعامه ، فكان لا يرد من الطعام موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً . . فما قُرَّب إليه شئ من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

لم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه ، بل كان يأكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع .

ويرى الهلال والهلال والهلال - ثلاثة أهلة - ولا يوقد في بيته نار .

وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض فى السفر وهى كانت مائدته ، وكان يأكل بأصابعه الثلاثة ويلعقها إذا فرغ - وهو أشرف ما يكون من الأكلة ، فإن المتكبر يأكل بأصبع واحدة ، والجشع الحريص يأكل بالخمس ويدفع بالراحة .

وكان لا يأكل متكناً - والاتكاء على ثلاثة أنواع ، أحدها : الاتكاء على

 ⁽١) أي أوطأ وألين .

⁽٢) أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهتي . (٣) أخرجه البيهتي .

الجنب ، والثانى : التربع ، والثالث : الاتكاء على إحدى يديه وأكله بالأخرى ، والثلاثة مذمومة .

وكان صلى الله عليه وسلم يسمى الله تعالى على أول طعامه ، ويحمده فى آخره ، وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه ولم يكن لهم مناديل يمسحون بها أيديهم ، ولم يكن عادتهم غسل أيديهم كلما أكلوا .

وكان أكثر شربه قاعداً ، بل زجر عن الشرب قائماً .

أخرج أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جلس جبريل عليه السلام إلى النبى على فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل ، فقال جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد ، أرسلنى إليك ربك : أفملكا نبيأ أجعلك أو عبداً رسولاً ؟ قال جبريل : تواضع يا محمد . فقال صلى الله عليه وسلم : « بل عبداً رسولاً » .

ورواه الهيشمى عن عائشة رضى الله عنها بمعناه مع زيادة فى أوله ، وزاد فى آخره : فكان رسول الله على بعد ذلك لا يأكل متكناً ويقول : « آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير » (١) .

وعنه أيضاً قال : « إن كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله على بنصف الليل على خبر الشعير فيجيب » .

وعن أنس رضى الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ يُدعى إلى خبر الشعير والإهالة السنخة (٢) فيجيب ، ولقد كانت له درع عند يهودى فما وَجَد ما يفكها حتى مات » (٣) .

⁽١) رواه الطبراني ، ويعقل الشاة : أي يضع رجلها بين ساقه وفخذه ويحتلبها .

⁽٢) هو كل شئ من الأدهان مما يؤتدم به ، وقيل : ما أذيب من الألية والشحم ، وقيل : اللسم الجامد ، والسنخة : أي متغيرة الربح . (٣) رواه الترمذي .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: « كانت امرأة ترافث الرجال ، وكانت بذيئة (١) ، فمرت بالنبى الله وهو يأكل ثريداً على طربال (٢) فقالت: انظروا إليه ، يجلس كما يجلس العبد ، ويأكل كما يأكل العبد ؛ فقال النبى الله عبد أعبد منى » ؟ قالت: ويأكل ولا يطعمنى ؟ قال: « كلى » ، قالت: ناولنى بيدك . فناولها فقالت: أطعمنى عما فى فيك ؛ فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت » (٣) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لبس رسول الله ﷺ الصوف واحتذى المخصوف » ، وقال : « أكل رسول الله ﷺ بشعاً ولبس حلساً خشناً .

قيل للحسن : ما البشع ؟ قال : غليظ الشعير ، ما كان النبي ﷺ يسيغه إلا بجرعة من ماء » (٤) .

وعن أم أيمن رضى الله عنها : أنها غربلت (٥) دقيقاً فصنعته للنبى ﷺ رغيفاً فقال : « ما هذا » ؟ قالت : طعام نصنعه بأرضنا فأحببتُ أن أصنع لك منه رغيفاً . فقال : « رديه ثم اعجنيه » (٦) .

وعن سلمى امرأة أبى رافع رضى الله عنهما قالت: « دخل على الحسن بن على وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم فقالوا: اصنعى لنا طعاماً مما كان يعجب النبى على أكله ، قالت: يا بنى ، إذن لا تشتهونه اليوم ، فقمت فأخذت شعيراً فطحنته ونسفته وجعلت منه تَخْبزة ، وكان أدمه الزيت ، ونثرت عليه الفلفل فقربته إليهم وقلت: كان النبى على يحب هذا » (٧).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل

⁽١) البذاء: الفحش من القول.

⁽٢) هو البناء المرتفع كالصومعة وغيرها ، وقيل : علم يبني فوق الجبل ، أو قطعة من الجبل .

⁽٣) رواه الطبراني . (٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم . (٥) أي نخلت .

⁽٦) أخرجه ابن ماجه وابن أبي الدنيا . (٧) أخرجه الطبراني .

بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لى : « يابن عمر ، مالك لا تأكل » ؟ قلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : « ولكنى اشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولو شئت لدعوت ربى عَزَّ وجَلَّ فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك - يابن عمر - إذا بقيت فى قوم يخبئون رزقهم سنتهم ويضعف اليقين » ؟

يقول ابن عمر : فوالله ما برحنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّة لا تَحْمِلُ رِزْقُهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنيا يريد بها حياة باقية ، فإنّ الحياة بيد الله عَزُّ وجَلُّ ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأ رزقاً لغد » (٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: أتى رسول الله على بقدح فيه لبن وعسل فقال: « شربتين فى شربة ، وأدمين فى قدح ؟ لا حاجة لى به ، أما أنى لا أزعم أنه حرام ، ولكن أكره أن يسألنى الله عَزَّ وجَلَّ عن فضول الدنيا يوم القيامة ، أتواضع لله ، فمن تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله ، ومن اقتصد أغناه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله » (٣) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : « ألستم فى طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل (٤) ما يملأ بطنه » .

وفى رواية لمسلم عنه أنه قال: « لقد رأيت رسول الله على يظل اليوم يتلوى (٥) ما يجد من الدقل ما يمل بطنه ».

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « دخلتُ على النبي ﷺ وهو ويصلى

⁽١) العنكيوت : ٦٠ (٢) أخر

 ⁽٣) أخرجد الطبراني في الأوسط .
 (1) أ

⁽٥) أي يضطرب من الجوع.

⁽٢) أخرجه أبو الشيخ وابن حبان .

⁽٤) أي أردأ التمر .

جالساً ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تصلى جالساً فما أصابك ؟ قال : « الجوع يا أبا هريرة فإن شدة الحساب يوم يا أبا هريرة فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا » (١) .

وعن عروة عن عائشة رضى الله عنهما أنها كانت تقول: والله يابن أختى ، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال – ثلاثة أهلة – فى شهرين ، ما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة ، فما كان يعيشكم ؟ قالت: الأسودان ، التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه » (٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة إلى المسجد ، فسمع عمر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ، ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : ما أخرجنى إلا ما أجد من حاق الجوع – أى شدته – قال : وأنا والله ما أخرجنى غيره .

فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: « ما أخرجكما هذه الساعة » ؟ قالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجده في بطوننا من حاق الجوع . قال : « وأنا – والذي نفسي بيده – ما أخرجني غيره ، فقوما » .

فانطلقوا فأتوا باب أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وكان أبو أيوب يدخر لرسول الله على طعاماً كان أو لبناً ، فأبطأ عليه يومئذ فلم يأت لحينه فأطعمه لأهله وانطلق إلى نخله يعمل فيه ، فلما انتهوا إلى الباب خرجت امرأته فقالت : مرحباً بنبى الله (صلى الله عليه وسلم) وبمن معه . فقال لها النبى على : « أين أبو أيوب » ؟ ، فسمعه – وهو يعمل في نخل له – فجاء

⁽١) أخرجه أبو نعيم والخطيب وابن عساكر .

⁽٢) أخرجه الشيخان ، والمناتح : جمع منيحة ، وأصلها شاة أو بقرة أو تاقة تجعل لبنها لغيرك ينتفع به ثم ترد إليك .

يشتد فقال: مرحباً بنبى الله صلى الله عليه وسلم وعن معه ، يا نبى الله ، ليس بالحين الذي كنتَ تجئ فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « صدقت » .

قال: فانطلق فقطع عذقاً من النخل فيه من كل التمر والرطب والبسر. فقال صلى الله عليه وسلم: « ما أردت إلى هذه ؟ ألا جنيت لنا من تمره » ؟ قال: يا رسول الله ، أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبسره ، ولأذبحن لك مع هذا. قال: « إن ذبحت ، فلا تذبح ذات در » .

فأخذ عناقاً أو جدياً فذبحه ، وقال لامرأته : اخبزى واعجنى لنا ، وأنتم أعلم بالخبز .

فأخذ نصف الجدى فطبخه وشوى نصفه ، فلما أدرك الطعام ووُضع بين يدى النبى على وأصحابه أخذ من الجدى فجعله في رغيف ، وقال : « يا أبا أيوب ، أبلغ بهذا فاطمة فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام » .. فذهب أبو أيوب إلى فاطمة رضى الله عنها .

فلما أكلوا وشبعوا قال النبى ﷺ: « خبز ، ولحم ، وتمر ، ويسر ، ورطب !! – ودمعت عيناه – والذي نفسى بيده ، إن هذا هو النعيم الذي تُستَلون عنه يوم القيامة » .

فكبر ذلك على أصحابه فقال : « بل إذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا : بسم الله ، فإذا شبعتم فقولوا : الحمد لله الذي أشبعنا وأنعم فأفضل، فإن هذا كفاف بهذا » (١١) .

وعن ابن جرير عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله ﷺ من خبر بر ثلاثة أيام تباعاً ، منذ قدم المدينة حتى مضى إلى سبيله » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن فاطمة رضى الله عنها ناولت

⁽١) أُخْرِجه الطبراني وابن حبان .

النبى الله كسرة من خبر الشعير ، فقال لها : « هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » (١) .

وعن أبى طلحة رضى الله عنه قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، ورفعنا ثيابنا عن حجرين » (٢) .

والأمثلة عن تواضعه - صلى الله عليه وسلم - وزهده وصبره أكثر من أن يحصيها القلم .

* *

● وباع رسول الله ﷺ واشترى ، وكان شراؤه – بعد أن أكرمه الله تعالى برسالته – أكثر من بيعه ، وكذلك بعد الهجرة لا يكاد يُحفظ عنه البيع إلا فى قضايا يسيرة أكثرها لغيره .

وأما شراؤه فكثير ، وآجر واستأجر ، واستئجاره كان أكثر من إيجاره ، وإنما أجر نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم ، وأجر نفسه من خديجة رضى الله عنها في سفره بمالها إلى الشام .

واستدان برهن وبغير رهن ، واستعار واشترى بالثمن الحال والمؤجل ، وضمن ضماناً خاصاً على ربه على أعمال من عملها كان مضموناً له بالجنة ، وضماناً عاماً لديون من توفى من المسلمين ، ولم يدع وفاءً أنها عليه وهو يوفيها .

كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس معاملة ، وكان إذا استسلف سلفاً قضى خيراً منه ، وكان إذا استسلف من رجل سلفاً قضاه إياه ودعا له .

واشترى مرة شيئاً وليس عنده ثمنه ، فأربح فيه فباعه وتصدّق بالربح على أرامل بنى عبد المطلب .. وهذا لا يناقض شراء فى الذمة إلى أجل فهذا شئ وهذا شئ ..

⁽١) أخرجه أحمد . (٢) أخرجه الترمذي .

وكان صلى الله عليه وسلم يستثنى فى يمينه تارة ، ويكفّرها تارة ، ويمضى فيها تارة .. وكان يمازح ويقول فى مزاحه الحق ، ويورى ولا يقول فى ترويته إلا الحق .

كان يشير ويستشير ، وكان يعود المريض ، ويشهد الجنازة ، ويجيب الدعوة ، ويمشى مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم ، وسمع الشعر وأثاب عليه ، وسابق بنفسه على الأقدام ، وصارع ، وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبه بيده ، ورقع دلوه وحلب شاته وخدم أهله ونفسه ، وحمل معهم اللّين في بناء المسجد ، وربط على بطنه الحجر من الجوع تارة وشبع تارة ، وأضاف وأضيف ، وتداوى وكوى ولم يكتو ، ورقى ولم يسترق ، وحمى المريض مما يؤذيه ، واحتجم في الأخدعين والكاهل (١)

لقد كان رسول الله على صادقاً مع نفسه ، صريحاً في عواطفه ومشاعره ، يعيش حياة قومه .. فكان فصيحاً عذباً في كلامه ، يضحك مما يُضحِك الناس ويبكى مما يُبكيهم .

والبكاء - كما يقول ابن القيم - أنواع: « بكاء الرحمة والرأفة ، وبكاء الخوف والخشية ، وبكاء المحبة والشوق ، وبكاء الفرح والسرور ، وبكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله ، وبكاء الحزن والفرق .

والفرق بين بكاء الفرق وبكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يُتوقع في المستقبل من ذلك.

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن: أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان ، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين .. ولهذا يقال لما يُفرَح به: هو قرة عَيْن ، وأقرَّ الله به عينه ، ولما يُحزن: هو سخينة العين ، وأسخن الله عينه .

⁽١) وهو ما بين الكتفين .

ومن أنواع البكاء: بكاء الخور والضعف، وبكاء النفاق - وهو أن تدمع العين والقلب قاسى، فينظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلباً.

وكذا البكاء المستعار والمستأجر عليه كبكاء النائحة التى تبيع عبرتها وتبكى بشجو غيرها .. وبكاء الموافقة ، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون الأمر ورد عليهم فيبكى معهم ولا يدرى الأى شئ يبكون ، ولكنه يراهم يبكون فيبكى معهم .

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت فهو بكاء مقصور ، وما كان معد صوت فهو بكاء ممدود على نيار الأصوات ، وما كان مستدعى متكلفاً فهو التباكى ، وهو نوعان : محمود ومذموم ، فالمحمود أن يُستجلب لرقة القلب ولخشية الله تعالى لا للرياء والسمعة ، والمذموم يُجتلب لأجل الخلق » (١).

وقد كان بكاء الرسول الله تلله تارة رحمة للميت ، وتارة خوفاً على أمته وشفقة ، وتارة من خشية الله تعالى ، وتارة عند سماع القرآن ، وهو بكاء اشتياق ومحبة واجلال مصاحب للخوف والخشية .

وكان بكاؤه صلى الله عليه وسلم من جنس ضحكه ، ولم يكن بشهيق ورفع صوت ، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ، ولكن تدمع عيناه حتى تهملا ويُسمع لصدره أزيز .

وكان جُلُّ ضحكه عليه الصلاة والسلام التبسم ، بل كله التبسم ، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه ، وكان يضحك مما يُضحك منه ، وهو مما يُتعَجب من مثله ويُستَغرب وقوعه ويُستندر .

لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ لموت ابنه إبراهيم وبكى رحمة له وقال : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنّا بك يا إبراهيم للحزونون » .

⁽١) انظر زاد المعاد ، لابن القيم - مرجع سابق : ٢٦/١

وبكي لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض .

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود رضى الله عنه سورة النساء وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَوُلا عِ شَهِيداً ﴾ (١).

وبكي لما مات عثمان بن مظعون رضى الله عنه .

وبكى لما كُسفت الشمس ، وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكى فى صلاته وجعل ينفخ ويقول : « ربًّ ، ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ؟ ونحن نستغفرك » .

وبكي لما جلس على قبر إحدى بناته .

وبكى لما جلس على قبر أمه .

وكان صلى الله عليه وسلم يبكي أحياناً في صلاته .

وهكذا - كما قدمنا - كان بكاؤه صلى الله عليه وسلم تارة رحمة للميت ، وتارة خوفاً على أمته وشفقة ، وتارة من خشية الله تعالى ، وتارة عند سماعه للقرآن .. فكان بكاء اشتياق ومحبة واجلال ، مصاحب للخوف والخشية .

* *

• وكان صلى الله عليه وسلم أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً ، وأسرعهم أداءً ، وأحلاهم منطقاً . . حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبى الأرواح ، ويشهد له بذلك الجميع ، حتى أعداؤه .

وكان إذا تكلم ، تكلم بكلام مفصِّل بيِّن ، يعده العاد ، ليس بهزر مسرع لا يُحفظ ، ولا منقطع تتخلله السكتات بين أفراد الكلام .

وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليُعقل عنه ، وكان إذا سلَّم سلَّم ثلاثاً ..

⁽١) النساء: ٤١

وكان طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلام ، فصل لا فضول ولا تقصير .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا كره الشئ عُرِف في وجهه ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشأ ولا متفحشاً ولا صخاباً .

ألم نقل : إنه صلى الله عليه وسلم كان صادقاً مع نفسه ، صريحاً في عواطفه ومشاعره ، يعيش حياة قومه ؟!

* * *

• من حلم النبي على :

أما عن حلمه - صلى الله عليه وسلم - فحدَّث ولا حَرَج .

أخرج البخارى عن عبد الله رضى الله عنه قال : « لما كان يوم حنين ، آثر النبى النبى الله عنه مائة من الإبل ، وأعطى النبى الله عنه مائة من الإبل ، وأعطى عيينة رضى الله عنه مثل ذلك ، وأعطى ناساً ، فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله (!!) ، فقلت : لأخبرن النبى الله فأخبرته فقال : « رحم الله موسى ، فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وفى رواية له: « فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عُدلَ فيها وما أريدَ فيها وما أريدَ فيها وجد الله ، فقلت: والله لأخبرن رسول الله على ، فأتيته فأخبرته فقال: « مَن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ .. رحم الله موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

• وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: « بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً ، إذ أتاه « ذو الخويصرة » - رجل من بنى تميم - فقال: يا رسول الله ، اعدل (!!) فقال رسول الله ﷺ: « ويلك ، ومَن يعدل إن لم أعدل ؟ . . لقد خبت وخسرت . . إذا لم أعدل فمن يعدل » ؟!

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله ، ائذن لى فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ: « دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم (١) يحرقون (٢) من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شئ ، ثم إلى رصافه (٣) فلا يوجد فيه شئ ، ثم يُنظر إلى نضيه – وهو قدحه – فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر إلى قذذه (١) فلا يوجد فيه شئ ، قد سبق الفرث والدم ، يوجد فيه شئ ، قد سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر (٥) ، يخرجون على حين فُرقة من الناس » .

قال أبو سعيد : « فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ، وأشهد أن علياً بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه وأمر بذلك الرجل فالتُمس ، فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله على الذي نعت » .

• وأخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: « أن عبد الله بن أبى لما مات ، جاء ابنه إلى النبى على فقال: أعطنى قميصك أكفنه فيه ، وصل عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه وقال: « آذنى أُصلّى عليه » ، فآذنه ، فلما أراد أن يصلى جذبه عمر رضى الله عنه فقال: أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين ؟ فقال: « أنا بين خيرتين .. قال: ﴿ اسْتَغْفَرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفَرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفَرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفَرْ مَلْهُمْ مَا اللهُ عليه فنزلت هذه الآية: ﴿ وَلا تُصلّ عَلَىٰ أَحَد مّنهُم مَا أَنَدا ﴾ (٧) .

وعن عمر رضى الله عنه قال: « لما توفى عبد الله بن أبّى ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ

(۲) أي يخرجون .
 (۳) عقب يلوى على مدخل النصل .

(٤) ريش السهم ، وواحدتها قذة . (٥) أي ترجرج ، تجيئ وتذهب .

(٦) التوبة : ٨٠ (٧) التوبة : ٨٤

⁽١) جمع ترقوة : وهي مقدم الحلق في أعلى الصدر حيث يترقى فيه النفس .

حتى قمتُ فى صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله عبد الله بن أبَّى القائل يوم كذا : كذا وكذا - يُعدُّد أيامه .

قال: ورسول الله على يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال: « أخّر عنى يا عمر ، إنى خُيِّرتُ فاخترت ، قد قبل لى: ﴿ اسْتَغْفُرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفُرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفُرْ لَهُمْ أُو لا تَسْتَغْفُرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفُرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾ (١) ، لو أعلم أنى لو زدتُ على السبعين عُفر له لزدتُ » .

قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فُرِغ منه ، قال : فعجبتُ من جرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم .

قال: فوالله ، ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَد مَّنْهُم مَّاتَ أَبَدا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِه ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِالله ورَسُوله وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسَقُونَ * وَلا تُعْجِبْكَ أَمُوالُهُمْ وَأُولادُهُمْ ، إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذَّبُهُم بِهَا فَي الدُّنْيَا وَتَزْهَنَّ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) ، فما صلى رسول الله عَن بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عَزُ وجَلُ (٣) .

وعن جابر رضى الله عند قال : « لما مات عبد الله بن أبّى ، أنى ابند النبى الله فقال : يا رسول الله ، إنك إن لم تأتد لم نزل نُعيَّر بهذا ، فأتاه النبى الله فوجده قد أدخل فى حفرته ، فقال : « أفلا قبل أن تدخلوه » ؟ ، فأخرج من حفرته ، وتفل عليد من ريقد من قرتد إلى قدمد ، وألبسد قميصه » (1) .

وفى رواية البخارى قال : « أتى النبى على عبد الله بن أبّى بعد ما أدخل فى قبره ، فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه » .

٨٥ - ٨٤ : التوبة : ٨٨ - ٨٥ (١)

⁽٣) رواه أحمد في المستد . (٤) رواه أحمد في المستد .

• وأخرج أحمد عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « سحر النبى تلك رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً ، قال : فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إنّ رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً في بثر كذا وكذا ، فأرسل إليها من يجئ بها . فبعث رسول الله تلك فاستخرجها فجاءه بها فحللها . قال : فقام رسول الله تلك كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات » .

قالت : فأتى البئر حتى استخرجه ، فقال : هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » .

⁽۱) أي مسحور .

⁽٢) وهو رجل من بني زريق حليف البهود ، وكان منافقاً .

⁽٣) ما يخرج من الشّعر الذي يسقط من الرأس إذا سرح بالمشط.

^(£) الجُفّ – بضم الجيم وتشديد الغاء : وعاء طلع النخل ، وهو الغشاء الذي يكون فوقه ، ويطلق على الذكر والأنشى ، ولذا قيده بالذكر ، وروى « جُبّ » – بموحدة – بمعناه .

 ⁽٥) هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك ، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس
 المنقى عليها - وقبل : حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقى عليها .

⁽٦) بئر لبني زريق بالمدينة .

قالت : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشّرت (١) ؛ قال : أما الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرأ » .

وعند أحمد عن عائشة رضى الله عنها وفيه : « قالت : لبث النبى ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتى ، فأتاه ملكان » ثم ذكر الحديث .

وعند البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه: « أن امرأة من يهود أهدت لرسول الله على شاة مسمومة فقال لأصحابه: « أمسكوا ، فإنها مسمومة » . . وقال لها: « ما حملك على ما صنعت » ؟ قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيا فسيطلعك الله عليه ، وإن كنت كاذبا أريح الناس منك . قال : فما عرض لها رسول الله عليه » .

وعند أبى داود عن جابر رضى الله عنه : ﴿ أَنْ يَهُودَيَةٌ مَنْ أَهُلَ خَيْبُرُ سَمَّتُ ثَنَاةً مُصَلِّيةً ، ثُم أهدتها لرسول الله ﷺ الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه معه . ثم قال رسول الله ﷺ : ﴿ ارفعوا أيديكم ﴾ ،

⁽۱) يحتمل كونه من « النشرة » وهي الرقية ، وكونه من « النشر » أي الاستخراج ، أي : هلا استخرجت الدفين ليراه الناس لما فيه من إظهار الفتن ، وقد أخرجه – صلى الله عليه وسلم – عن موضعه ودفنه .

وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى المرأة فدعاها فقال لها: «أسمت هذه الشاة » ؟ قالت اليهودية : مَن أخبرك ؟ قال : « أخبرتنى هذه التى فى يدى » - وهى الذراع - قالت : نعم ، قال : « فما أردت بذلك » ؟ قالت : قلت إن كان نبيا فلن تضرك ، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك ، فعفا عنها رسول الله على ولم يعاقبها .

ومات بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة ، واحتجم النبى على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة ، حجمه أبو هند رضى الله عنه بالقرن والشفرة – وهو مولى لبنى بياضة من الأنصار .

وأخرجه أبو داود عن أبى سلمة رضى الله عنه نحو حديث جابر ، وفيه : « فأمر « فمات بشر بن البراء بن المعرور رضى الله عنه » ، فذكره وفيه : « فأمر رسول الله ﷺ فقتلت » .

لقد عفا الرسول على عن اليهودية حين كان الأمر يخصه وحده ، وقد علم أن الله سوف ينجيه من كيدها ، فلما مات بشر من أثر الأكلة ، أمر الرسول على بقتلها قصاصاً .

وعن ابن إسحاق عن مروان بن عثمان بن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله علله قد قال فى مرضه الذى توفى فيه – ودخلت عليه أخت بشر بن البرا، بن معرور : « يا أم بشر ، إنّ هذا الأوان وجدت انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلتُ مع أخيك بخيبر » .

قال ابن هشام: « الأبهر: العرق المعلق بالقلب ». قال: « فكان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة ».

• وأخرج أحمد عن جعدة بن خالد بن الصمة الخشمى رضى الله عنه قال : « سمعت النبى ﷺ ورأى رجلاً سميناً - فجعل النبى ﷺ يومئ إلى بطنه ويقول : « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » .

قال: « وأُتِي النبي ﷺ برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال النبي ﷺ: « لم ترع ، ولو أردتَ ذلك لم يسلطك الله على ً ».

• وأخرج أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : « لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله على وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم ويريدون غرة رسول الله على ، فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُم بَطْنِ مَكّةً مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وأخرجه النسائى أيضاً من حديث عبد الله بن مغفل رضى الله عنه مطولاً وفيه: « فبينًا نحن كذلك ، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله علله ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم . فقال رسول الله علله : « هل جنتم في عهد أحد » ؟ - أو قال : « هل جعل لكم أحد أمانة » ؟ - فقالوا : لا . فخلى سبيلهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الّذي كَفُّ ... ﴾ الآية .

• وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عند قال : « جاء الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه إلى النبى شخف فقال : إن دوساً قد عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فاستقبل رسول الله تخفف القبلة ورفع يديد ، فقال الناس : هلكوا .. فقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم أهد دوساً وائت بهم ، اللهم اهد دوساً وائت بهم ، اللهم اهد دوساً وائت بهم ، اللهم اهد دوساً وائت بهم » - ثلاث مرات (٢) .

* * *

• من كظمه - صلى الله عليه وسلم - للغيظ:

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

⁽١) الفتح : ٢٤

⁽۲) انظر : حياة الصحابة للكاندهلوى : ۲/۲/۲ وما بعدها – نشر دار التراث العربي سنة ١٩٨٢ (٣) آل عمران : ١٣٤

وقد كان رسول الله ﷺ - في حياته كلها - كاظماً للغيظ ، عافياً عن الناس ، محسناً في أموره كلها .

ولقد رأينا كيف كان حلمه صلى الله عليه وسلم وصفحه وكظمه للغيظ عندما طعن أحد المنافقين في عدالته - صلى الله عليه وسلم - وهو يقسم الفئ يوم حنين ، فما زاد - عليه الصلاة والسلام - على أن قال : « رحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

ورأينا كيف كان صبره على اليهودى الذى سحر له ، فلما عافاه الله ونجاه من شره ، لم يذكر ذلك لليهودى ، ولم ير الصحابة أثراً للغيظ فى وجهه – صلى الله عليه وسلم – حتى لحق بالرفيق الأعلى .

كما رأينا كيف كان كظمه للغيظ من اليهودية التى وضعت له السم فى الشاة ، وكيف عفا عنها ، ثم لم يُقمِ عليها الحد إلا قصاصاً لموت بشر بن البراء رضى الله عنه بعد أن مات .

وكيف كان كظمه للغيظ من الثمانين رجلاً من أهل مكة الذي خرجوا عليه يوم الحديبية يريدون غرته ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم .

وكيف كان كظمه - صلى الله عليه وسلم - للغيظ عندما جاءه الطفيل بن عمر يشكو دوساً التى عصت وأبت ، ويستعديه عليهم ، فدعا - عليه الصلاة والسلام - لهم بدلاً من الدعاء عليهم ، فهداهم الله تعالى ببركة دعائد .

⁽١) موضع بين مكة والمدينة . (٢) جمع عقيصة ، وهي الضفيرة .

رسول الله على فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله على ، فقال : « يا حاطب ، ما هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجل على ، إنى كنت امرءا ملصقاً في قريش – يقول : كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها – وكان معك من المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدأ يحمون قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله على : « أما إنه قد صدقكم » . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ؛ فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم نقد غفرتُ لكم » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُونَى وَعُدُوكُمْ أُولِياءَ تُلقُونَ إليهم بالمَودة وقَدْ كُفُرُوا بِمَا جَاءكُم مَن عَدُونَى يَخْرِجُونَ الرّسُولَ وَإِيّاكُمْ أَن تَوُمْنُوا بَالله رَبّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرِجتُمْ عَلَا أَعْمَا أَن كُنتُمْ فَقَدْ ضَلّ سَواً وَأَن أَعْلَمُ بِمَا أَعْمَا مَا عَلْمُ بِمَا أَعْمَا مَ مَرْضَاتِى ، تُسَرُونَ إليهم بالْمَودة وأنا أعلمُ بِمَا أَعْمَا مَا مَا عَلْمُ بِمَا أَعْمَا أَعْمَا أَن تَوُمْنُونَ إليهم بالْمَودة وأنا أعلمُ بِمَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَرْضَاتِى ، تُسَرُونَ إليهم بالْمَودة وأنا أعلمُ بِمَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَى مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا مَا الله مَا أَعْمَا أَن تَوْمَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا عَلَى مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا أَعْمَا مَا مَا أَعْمَا أَعْمَا مَا أَعْمَا مَا أَعْمَا أَعْم

وعن جابر رضى الله عنه أن حاطباً قال: « أما إنى لم أفعله غشاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفاقاً ، قد علمتُ أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره ، غير أنى كنت غريباً بين ظهرانيهم وكانت والدتى معهم ، فأردت أن أتخذ يدأ عندهم . فقال له عمر رضى الله عنه: « ألا أضرب رأس هذا » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « أتقتل رجلاً من أهل بدر ؟ وما يدريك لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم » (٢) .

أرأيتم مبلغ حلم رسول الله على وكظمه للغيظ ؟

⁽١) رواه البخاري - والآية من سورة المتحنة : ١

⁽٢) رواه أحمد في المستد .

المسلمون يعدون العدة لفتح مكة ، ومن أول واجبات الحرب كتمان أمر المهاجمين ومباغتة العدو ، ولكن رجلاً من بين صفوف المسلمين يرسل إلى أهل مكة منذراً إياهم حتى يستعدوا لملاقاة الرسول الله ، وفي ظنه أنه يتخذ بذلك يدأ عندهم حتى يحموا قرابته ، ولكنه لم يكن يضمر خيانة للرسول الله الله الله المسلمين .

وفى قوانين الحرب يُعد مثل هذا العمل خيانة عظمى تستوجب القتل ، الأمر الذى دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى استئذان الرسول الله على ضرب عنق حاطب ، ولكنه صلى الله عليه وسلم بعد أن يستمع إلى دفاع الرجل ويعلم صدقه ، لم يزد على أن قال : « أما إنه قد صدقكم » .

● فى أعقاب هزيمة المشركين ببدر ، وبعد أن أصيب منهم مَن أصيب من كفار قريش أصحاب القليب ، عادت فلولهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومَن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا عن أصاب منا ، ففعلوا .

واجتمعت قريش لحرب رسول الله على ، وخرجت بحدها وجدها وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء فى الهوادج التماساً للحفيظة ، وألا يقروا .

وخرج على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب بزوجته هند بنت عتبة ، كما خرج كل من عكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وصفوان بن أمية ، وعمرو بن العاص ، وطلحة بن أبى طلحة وغيرهم بنسائهم .

وكان وحشى بن حرب غلاماً لجبير بن مطعم - وكان عمه طعيمة بن عدى قد قُتِل يوم بدر - فلما سارت قريش إلى « أُحُد » قال له جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق .. فخرج مع الناس حين خرجوا إلى « أُحُد » .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مرّ بها ، قالت : ويها (١) أبا دُسمة ، اشف واستشف .

يقول وحشى: « فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأستبصره ، حتى رأيته مثل الجمل الأورق (٢) في عرض الناس يهذ الناس بسيفه هذا ، ما يقوم له شئ ، فوالله إنى لأريده ، واستترت منه بشجرة – أو بحجر – ليدنو منى ، وتقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال : إلى يابن مقطعة البظور – وكانت أمه ختّانة بمكة – فوالله لكأن ما أخطأ رأسه ، فهززت حربتى ، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت بين ثنته (٣) حتى خرجت من بين رجليه ، وخليت بينه وبينها حتى مات ، ثم أتبته فأخذت حربتى ، ثم رجعت إلى العسكر ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، فلما قدمت مكة عُتقت » .

ويقول ابن إسحاق: « كان حمزة رضى الله عنه يقاتل يومئذ بسيفين ، فقال قائل: أى أسد هو حمزة! فبينما هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره، فانكشف الدرع عن بطنه ، فزرقه (٤) وحشى الحبشى – مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله ».

ومَثُل المشركون بحمزة رضى الله عنه وبجميع قتلى المسلمين ، إلا حنظلة بن أبى عامر الراهب ، فإن أباه كان مع المشركين فتركوه لأجله .

وجعل نساء المشركين - هند وصواحباتها - يجدعن أنوف المسلمين وآذانهم ويبقرون بطونهم ، وبقرت هند بطن حمزة رضى الله عنه فأخرجت كبده ، فجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها .

⁽١) ويها : كلمة معناه : الإغراء والتحريض ، وكان وحشى يكنى بأبي دسمة .

⁽٢) الأورق : الذي لوند بين الغبرة والسواد ، وصفه كذلك لما كان عليه من الغبار .

⁽٣) الثُّنة - بضم الثاء : العانة . (٤) أي رماه .

ثم دعا ببردة وغطى بها وجهه ، فخرجت رجلاه ، فغطى رسول الله على وجهه وجعل على رجليه من الإذخر ، ثم قدّمه فكبّر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه ، حتى صلى عليه سبعين صلاة ، فلما دفنوا وفُرغ منهم نزلت هذه الآيات : ﴿ ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحكْمَة وَالْمَوْعَظَة الْحَسَنَة وَجَادلُهُم بِالْتِي هِي أَحْسَنُ ، إنَّ رَبَّكَ هُو أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلَه ، وَهُو أَعْلَمُ بِالْمُهَتَدينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقبُوا بِمثل مَا عُوقبْتُم بِه ، وَلَتَن صَبَرتُم لَهُو خَيْرٌ للصَّابِرِينَ * وَاصْبِر وَمَا صَبْرُكَ إلا بِالله ، ولا تَحْزَنُ عَلَيْهُم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِّمًا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) ، فصبر رسول الله على ولم يُمثّل بأحد (٢) .

يقول أبو هريرة رضى الله عنه : وقف رسول الله على حمزة وقد مُثَل به ، فلم ير منظراً كان أوجع لقلبه منه فقال : « رحمك الله ، أى عم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات » .

وعن جابر بن عبد الله قال : لما رأى رسول الله على حمزة قتيلاً بكى ، فلما رأى ما مُثَّل به شهق ، وقال : « لولا أن تجد (٣) صفية ، لتركته حتى يُحشر فى بطون السباع » .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سمع النوح على قتلى الأنصار ، فقال : « لكن حمزة لا بواكى له » ، فسمع الأنصار فأمروا نساءهم أن يندبن

⁽١) النحل: ١٢٥ – ١٢٧ (٢) رواه الدارقطني .

⁽٣) أي تحزن ، وصفية هي أم الزبير وهي أخت حمزة رضي الله عنه .

حمزة قبل قتلاهم ، ففعلن ذلك . قال الواقدى : فلم يزلن يبدأن بالندب لحمزة حتى الآن ..

هكذا كان حال رسول الله ﷺ وهو يرى عمه حمزة رضى الله عنه ، تتيلاً مثلًا به ، مشقوقاً بطنه ، مصطلماً أنفه ، مجدوعة أذناه .

أى حزن كان عليه رسول الله ﷺ ، وأى غيظ وأى ألم تملكه .. حتى لقد عزم على التمثيل بسبعين رجلاً من المشركين مكان عمه .. ولكنه صلى الله عليه وسلم عندما يُنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَكُنْنُ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ ﴾ يمتثل الأمر ربه فيصبر ويحتسب ، ويكظم الغيظ ويكتم الحزن والأسى .

ومثل هذه الفاجعة لا تبرح أبداً مخيلة الإنسان أو عقله ، مهما صبر واحتسب ، ومهما كظم الغيظ أو كبت الحزن وكتم الأسى .. خاصة حين يرى واتره الذي تسبب في حزنه وغيظه بين يديه وقد مَلّكه الله أمره ، عندئذ لا تلبث الذكريات أن تتداعى ، ولا تلبث الأحزان أن تتوالى ، فتُنكأ الجراح من جديد ، وتتجدد الأحزان ، وتنهض الرغبات المكبوتة في الثأر والانتقام .

ولكنه رسول الله ، الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ، فكيف كان حاله - صلى الله عليه وسلم - عندما أتته هند بنت عتبة ، أو عندما جاءه وحشى بن حرب راغبين فى الإسلام ؟

عندما فتح الله مكة لنبيه وحبيبه ومصطفاه ، أسلمت هند بنت عتبة بعد زوجها أبى سفيان بليلة واحدة ، ويروى لنا هشام بن عروة عن أبيه قال : قالت هند لأبى سفيان : إنى أريد أن أبايع محمداً ، قال : قد رأيتك تكذّبين هذا الحديث أمس . قالت : والله ما رأيت الله عبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلين . قال : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبى برجل من قومك معك . . فذهب الى عشمان بن عفان – وقيل : إلى أخيها أبى حذيفة بن عتبة – فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهي منتقبة .

ويروى ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله على أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : « قبل لهن : إن رسول الله على أن لا تشركن بالله شيئاً - وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة متنكرة فى النساء - فقالت : إن أتكلم يعرفنى ، وإن عرفنى قتلنى .

وإنما تذكرت فَرَقاً من رسول الله على ، فسكت النسوة اللاتى مع هند ، وأبين أن يتكلمن ، فقالت هند وهى متذكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ ، ففطن إليها رسول الله على وقال لعمر : «قل لهن : ولا تسرقن » تقالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنات ، ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شئ مضى أو قد بقى ، فهو لك حلال .. فضحك رسول الله على وعرفها فدعاها ، فأخذت بيده فعاذت به ، فقال : « ولا تزنين » ، فقالت : عفا الله عما سلف . فصرف عنها رسول الله على فقال : « ولا تزنين » ، فقال : « ولا يقتلن أولادهن » ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم ما تزنى الحرة » ، فقال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن »، بدر فأنت وهم أبصر . قال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن »، قال : « ولا يعصينك في معروف » . قال : منعهن أن بنحن ، وكان أهل الجاهلية يزقن الثياب ، ويخدشن الوجوه ، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالثبور (١) .

وروى ابن أبى حاتم الحديث وزاد: « فلما قال: « ولا تقتلن أولادكن » قالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر بن الخطاب رضى الله عند حتى استلقى » .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: « جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه ، فنظر إلى يدها فقال: « اذهبى فغيرى يدك » ، فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال: « أبايعك على أن لا تشركى بالله شيئاً » ،

⁽۱) تفسير الطبرى: ۸۱۲/۸

فبايعها وفي يدها سواران من ذهب ، فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من جمر جهنم » (1) .

هذا ما كان من رسول الله على مع هند بنت عتبة ، أما ما كان من أمره مع وحشى بن حرب ، فيقص علينا وحشى خبره فيقول : « أقمتُ بمكة حتى افتتحها رسول الله على ، فهربتُ إلى الطائف ، فكنتُ بها ، فلما خرج وفد أهل الطائف إلى رسول الله على ليسلموا ، ضاقت على الأرض وقلت : ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد ، فإنى لفى ذلك إذ قال لى رجل : ويحك ، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه ، فلما قال لى ذلك خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله على المناس دخل فى دينه ، فلما قال لى ذلك خرجتُ حتى قدمتُ على فلما رآنى قال : « وحشى » ؟ . قلت : نعم . قال : « اقعد فحدثنى كيف فلما رآنى قال : « وحشى » ؟ . قلت : نعم . قال : « ويحك ؛ غيب وجهك عنى ، فلا أراك » . فكنت أتنكب (٢) رسول الله على حيث كان ، فلم يرنى حتى قبضه الله تعالى » (٣)

فلله درك يا سيدى يا رسول الله ،. ما أكرمك ، وما أحلمك ، وما أعظمك .. وصدق فيك قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

* * *

• من حياء النبي على :

⁽١) تفسير ابن كثير : ١٢٥/٨ (١) أي أعدل عن طريقه .

⁽٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، والسيرة النبوية لابن هشام، وأسد الغابة لابن الأثير، وتفسير ابن كثير (بتصرف كبير). (٤) التوبة: ١٢٨

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كان النبى الله أشد حياءً من العذراء فى خدرها » – وزاد فى رواية : « وإذا كره شيئاً عُرِف ذلك فى وجهه » (١١) .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول - فيما رواه أنس رضى الله عنه : « الحياء خير كله » (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه : « أن النبى الله عنه رأى على رجل صفرة فكرهها ، قال : وكان قال : وكان النبى الله عنه هذه الصفرة » قال : وكان لا يكاد يواجد أحداً بشئ يكرهه » (٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: « كان النبى ﷺ إذا بلغه عن رجل شئ لم يقل: ما بال فلان يقول ؟ ، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » (٤).

• ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يحب الحياء في الرجال ، ويحب منهم الرجل الحيى .

عن سعيد بن العاص رضى الله عنه : « أنَّ عائشة - زوج النبى ﷺ - وعثمان بن عفان رضى الله عنه استأذن على النبى ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة فأذن لأبى بكر وهو كذلك ، فقضى حاجته ثم انصرف .

فاستأذن عمر رضى الله عنه ، فأذن له وهو على تلك الحالة ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف .

قال عثمان : ثم استأذنتُ عليه فجلس وقال لعائشة : « اجمعى عليك ثيابك » ، فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت .

⁽١) رواه الشيخان (٢) أخرجه البزار .

⁽٣) رواه أحمد . (٤) رواه أبو داوه .

فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما لى لا أراك فزعت لأبى بكر وعمر كما فزعت لعشمان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيت أن أذنت له على تلك الحالة لا يبلّغ إلى حاجته » . قال الليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها : « ألا أستحى من تستحى منه الملائكة » ؟ (١) .

وعن أشج عبد القيس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ فيك لخلقين يحبهما الله » ، قلت: ما هما يا رسول الله ؟ قال: « الحلم ، والحياء » قلت: قديماً كانا في أو حديثاً ؟ قال: « لا ، بل قديماً » ، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله (٢).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى للإنسانية في أموره كلها ، سأل رجل عائشة رضى الله عنها : هل كان رسول الله تلك يعمل في بيته ؟ قالت : « نعم ، كان بخصف (٣) نعله ، ويخيط ثوبه كما يعمل أحدكم في سته » (٤) .

⁽٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

⁽١) رواه أحمد .

⁽٤) رواء البيهتي عن عروة .

⁽٣) أي يخرزها .

وعن الأسود رضى الله عنه قال : « قلت لعائشة رضى الله عنها : ما كان النبى على يصنع إذا دخل بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة (٢) أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى » (٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ لا يكل طهوره الى أحد ، ولا صدقته التي يتصدق بها ، يكون هو الذي يتولاها بنفسه » (٤) .

* * *

• من صبره .. صلى الله عليه وسلم :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله على وهو موعوك (٥) عليه وطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حُمَّاك يا رسول الله ! ، قال : « إنَّا كذلك يُشدُّد علينا البلاء ويُضاعَف لنا الأجر » ، ثم قال : يا رسول الله ، من أشد الناس بلاء ؟ قال : « الأنبياء » . قال : ثم من ؟ قال : « الصالحون ، كان أحدهم يُبتكى من ؟ قال : « الصالحون ، كان أحدهم يُبتكى بالقمل حتى يقتله ، ويُبتكى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء » (١) .

وعن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت : « أتينا رسول الله على نساء نعوده وقد حُمُّ ، فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحُمَّى ،

⁽١) رواه البيهتي . (٢) أي خدمتهم . (٣) رواه أحمد .

⁽٤) رواه القزويني . (٥) أي محموم ، (٦) أخرجه اين ماجه .

فقلت : يا رسول الله ، لو دعوت الله أن يكشف عنك ؟ فقال : « إنَّ أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (١) .

- وعن عائشة رضى الله عنها: « أن رسول الله ﷺ طرقه وجع ، فجعل يشتكى ويتقلب على فراشه فقالت له عائشة: لو فعل هذا بعضنا لوجدت عليه. فقال: « إنَّ المؤمنين ليُشدُّد عليهم ، وإنه ليس من مؤمن تصيبه نكبة ، شوكة ولا وجع ، إلا كفَّر الله عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة » (٢).
- وعن مكحول رضى الله عنه قال: « دخل رسول الله على وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وإبراهيم يجود بنفسه ، فلما مات دمعت عينا رسول الله على ، فقال له عبد الرحمن: أى رسول الله ، هذا الذى تنهى الناس عنه ، متى يرك المسلمون تبكى يبكوا . قال : فلما سريت (٤) عنه عبرته قال : « إنما هذه رحمة ، وإنّ من لا يرحم لا يُرحم ، إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يُندب الرجل بما ليس فيه » . . ثم قال : « لولا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء (٥) ، وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا ، وإنّا عليه لمحزونون . . تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وفضل رضاعه في الجنة » (١) .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : « كنا عند النبى ﷺ ، فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها في الموت ، فقال للرسول : « ارجع

⁽١) أخرجه البيهقي . (٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، والحاكم والبيهقي .

⁽٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات . (٤) أي كشفت .

⁽٥) أي مسلوك . (٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات .

إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطي ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » ..

فعاد الرسول وقال: إنها قد أقسمت لتأتينها. فقام صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبّى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم ورجال، وانطلقت معهم فرُفع إلى رسول الله تشك الصبى ونفسه تقعقع (١) كأنها في شن (٢)، ففاضت عيناه فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » (٣).

- وقد مرّ بنا كيف كان صبره وتجمله صلى الله عليه وسلم لما أصاب عمه حمزة رضى الله عنه يوم « أُخُد » ، وكيف ترك المثلة وعفى عن هند بنت عتبة التى لاكت كبده رضى الله عنه وعن وحشى الذى قتله ، وقبَل إسلامهما .
- وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال: لما قتل أبى ، أتيتُ النبى الله عنه قال: « لاقى منك اليوم فلما رآنى دمعت عيناه ، فلما كان من الغد أتيته فقال: « لاقى منك اليوم ما لاقيتُ منك أمس » (1).
- وعن خالد بن شمير رضى الله عنه قال : « لما أصبب زيد بن حارثة رضى الله عنه ، أتاهم النبى على قال : فجهشت (٥) بنت زيد فى وجه رسول الله على فبكى صلى الله عليه وسلم حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة رضى الله عنه : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : « هذا شوق الحبيب إلى حبيبه » (٦) .
- وعن عائشة رضى الله عنها قالت: « قبّل النبى ﷺ عثمان بن مظعون رضى الله عنه وهو يبكى وعيناه تذرفان » (٧).

⁽١) أي تضطرب وتتحرك . (٢) الشنة : هي القرية الخلقة .

⁽٣) أخرجه الطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم . (٤) أخرجه ابن أبي شيبة .

⁽٥) الجهش : هو أن تفزع إلى أحد وتلجأ إليه مع إرادة بكاء ، كما يفزع الصبي إلى أمد .

⁽٦) رواه ابن سعد في الطبقات . (٧) أخرجه الترمذي .

وأخرج ابن سعد عن عائشة رضى الله عنها نحوه ، وفى روايته : « قالت : فرأيتُ دموع النبى ﷺ تسيل على خد عثمان بن مظعون » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا مَن بعثك الله رحمة للعالمين ، وقلت وقولك الحق : « إنما أنا رحمة مهداة » .

* * *

• من أوصافه الشريفة .. صلى الله عليه وسلم :

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله على ، وكان وصافاً ، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به ، فقال :

« كان رسول الله على فخماً مفخماً ، يتلألاً وجهه تلألوً القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع (١) ، وأقصر من المشذب (٢) ، عظيم الهامة (٣) ، رجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته (٤) فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه ، إذا هو وفره ، أزهر (٥) اللون ، واسع الجبين ، أزج (٦) الحواجب ، سوابغ من غير قرن (٧) ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين (٨) ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم (٩) ، كث اللحية ، أدعج (١٠) ، سهل الخدين ، ضليع الفم (١١) ،

⁽١) المربوع: الوسيط القامة . (٢) المشذب: الطويل القامة .

⁽٣) الهامة : الرأس ، وأعلاه وأوسطه ، يقال : هو هامة قومه ، أي سيدهم ورئيسهم -

⁽٤) العقيقة هي الشُعر.

⁽٥) الأزهر : كل لون أبيض صاف مشرق مضئ .

⁽٦) الزجج في الحواجب : دقة في طول وتقوس .

⁽٧) أي تامة طويلة متسعة ، دون أن يلتقي طرفاها .

⁽٨) العرنين : ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشحم .

⁽٩) الشمم: ارتفاع قصبة الأنف في استواء. (١٠) الدعج: شدة السواد.

⁽١١) الضلع في الغم: اتساعه وعظم أسنانه ، والعرب تحمد ذلك .

أشنب (۱) ، مفلج الأسنان (۲) ، دقيق المسربة (۳) ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين (٤) ، ضخم الكراديس (٥) ، أنور المتجرد (٥) ، موصول ما بين اللبة (٢) والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين (٨) رحب الراحة ، شئن (١) الكفين والقدمين ، سايل - أو سائل - الأطراف ، خمصان الأخمصين (١٠) ، مسبح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعاً (١١) ، ويشى هوناً ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من ويخطو تكفؤاً (١١) ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلُّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ مَن لقيه السلام » .

قلت : فصف لى منطقه .

قال : « كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليس له راحة ، طويل السكتة ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ،

⁽١) الأشنب: هو من رقت أسنانه وابيضت .

⁽٢) الفلج في الأسنان : التباعد والاستواء .

⁽٣) المسرية : الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة .

⁽٤) المنكبان: مجتمع رأس العضد والكتف.

⁽٥) الكراديس : كل عظمين التقيا ، نحو المنكبين والركبتين والوركين .

⁽٦) أي خلا جسمه من الشعر الزائد ، فهو أجرد مما يشين .

⁽٧) اللبة : موضع القلادة من العنق .

 ⁽A) الزندان : الساعد والذراع .
 (٩) الشثن : الغلظ والخشونة .

⁽١٠) أى ارتفع باطنهما من الأرض فلا يمسها ، والأخمصان : باطن القدمين الذي يتجافى عن الأرض .

⁽١٢) التكفؤ : التبختر في غير اختيال (١٣) الصبب : ما انحدر من الأرض .

ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ، ليس بالجانى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ذواقاً ولا يمده ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشئ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، فإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جُلِّ ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام » .

قال الحسن رضى الله عنه: فكتمتها الحسين بن على رضى الله عنهما زماناً ، ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه ، فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله ، فلم يدع منه شيئاً ..

قال الحسين رضى الله عنه : سألت أبى رضى الله عنه عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« كان دخولد لنفسه مأذوناً له فى ذلك ، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه . ثم جزأ جزء بينه وبين الناس ، فيرد ذلك على العامة والخاصة ، ولا يدخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمته على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما أصلحهم ، والأمة في مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ويلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته ، فإنه من أبلغ سلظاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » . لا يُذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره » .

قال في رواية سفيان عن وكيع : « يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة على الخير » .

قلت : فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟

قال: «كان رسول الله على يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخُلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما فى الناس، ويُحسنن الحسن ويُصوبّه، ويُقبّح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة».

فسألته عن مجلسه ، فقال :

« كان رسول الله على لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخُلُقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى » .

وفى رواية: « وصاروا عنده فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا تُرفع فيه الأصوات ، ولا تؤين فيه الحرم ، ولا تثنّى فلتاته ، يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرحمون الغريب » .

قال : فسألته عن سيرته في جلسائه ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخُلُق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخًاب ، ولا فحًاش ، ولا عيًاب ، ولا مزاّح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يؤيس منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرباء ، والإكثار ، وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على جفوته في المنطق ، ويقول : « إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه » ، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام » .

وفي رواية : « قلت : كيف كان سكوته ؟

قال : كان سكوته على أربعة : على العلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر

فأما تقديره : ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس .

وأما تفكره : ففيما يبقى ويفنى ، وجُمِع له الحلم فى الصبر ، فكان لا يغضبه شئ ولا يستفزه .

وجُمِع له فى الحذر أربع: أخذه بالحسن ليُقتَدى به ، وتركه القبيح ليُنتَهى عنه ، واجتهاد الرأى بما أصلح أُمته ، والقيام فيما جُمِع لهم أمر الدنيا والآخرة » (١) .

وعن على كرم الله وجهه قال: كان إذا وصف رسول الله تققال: «لم يكن بالطويل الممغط (٢)، ولا بالقصير المتردد (٣)، وكان ربعة (٤) من القوم، ولم يكن بالجعد القطط (٥)، ولا بالسبط (٦)، كان جعداً رجلاً، لم يكن بالمطهم

⁽١) رواه الترمذي في الشمائل ، والبيهتي في دلائل النبوة ، والقاضي عباض في الشفاء ، وانظر : الرصف لما روى عن النبي ﷺ من الفعل والوصف للعاتولي : ١٢/١

⁽٢) المغط: المغرط الطول. (٣) المتردد: المجتمع الخلق القصير.

⁽٤) الربعة : الوسيط القامة .

⁽٥) الجعد في الشعر: التجمع والتقبض والتلوى، والقطط: القصر.

⁽٦) السبط من الشعر: المسترسل غير الجعد.

ولا بالمكلثم (١) ، وكان في الوجه تدوير ، أبيض مشرب ، أدعج العينين (٢) ، أهدب الأشفار (٣) ، جليل المشاش والكتد (٤) ، أجرد ذو مسربة (٥) ، ششن (٦) الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى في صبب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عربكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هايد ، ومن خالطه معرفة أحبد ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله » (٧) .

هكذا كانت صفات رسول الله ﷺ ، وصدق فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ لَعَلَىٰ خُلُقِ عَظِيمٍ ﴾ (٨) .

* * *

• من خصائصه .. صلى الله عليه وسلم :

ويحدثنا الإمام محمد بن عبد الوهاب عن بعض خصائص النبي ﷺ فيقول :

« كان رسول الله على أصحابه فى الحرب: على أن لا يفروا ، وربا بايعهم على الموت ، وربا بايعهم على الجهاد ، وربا بايعهم على الإسلام ، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح ، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله .

⁽١) المطهم : السمين الفاحش السمن ، أو المنتفخ الوجه ، والكلثوم : امتلاء لحم الخدين والوجه .

⁽٢) الدعج في العينين: اشتداد سوادها ربياضها واتساعها .

⁽٣) شفر الجفن : حرفه الذي ينبت عليه الهدب .

⁽٤) المشاش : الأصل والنفس والطبيعة ، والكتد : مجتمع الكتفين والكاهل .

⁽٥) المسربة : الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة ، والجرد : خلو الجسم من الشعر الزائد .

⁽٦) الشئن : الغليظ الخشن ، علامة على الرجولة .

⁽٧) أخرجه الترمذي في جامعه . (٨) القلم : ٤

وبايع نفراً من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، فكان السوط يسقط من أحدهم ، فينزل فيأخذه ، ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

وكان يبعث البعوث يأتونه بخبر عدوه ، ويُطلِّع الطلَّاتُع ، ويبث الحرس والعيون ، حتى لا يخفى عليه من أمر عدوه شئ .

وكان إذا لقى عدوه دعا الله واستنصر به ، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله ، والتضرع له .

وكان كثير المشاورة لأصحابه في الجهاد .

وكان يتخلف في ساقتهم ، فيزجى الضعيف ، ويردف المنقطع .

وكان إذا أراد غزوة وَرِّى بغيرها .

وكان يرتب الجيش والمقاتلة ، ويجعل في كل جَنْبة كفؤا لها .

وكان يُبارَز بين يديه بأمره ، وكان يلبس للحرب عدته ، وربما ظاهر بين درعين كما فعل يوم « بدر » .

وكان له ألوية ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل .

وكان إذا أراد أن يُغير : ينتظر ، فإذا سمع مؤذناً لم يُغر ، وإلا أغار .

وكان يحب الخروج يوم الخميس بُكرة .

وكان إذا اشتد البأس اتقوا به ، وكان أقربهم إلى العدو .

وكان يحب الخيلاء في الحرب ، وينهى عن قتل النساء والولدان ، وينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو » (١) .

* * *

⁽١) مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١.٧، ١.٧

الفصل السادس

خاتمية المطاف

آن للرحلة المباركة أن تبلغ مداها ..

لقد أدى رسول الله ﷺ الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وجاهد - صلى الله عليه وسلم - في الله حق جهاده ، وأقام المسلمين على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

قضى - صلى الله عليه وسلم - على عبادة الأوثان في الجزيرة العربية ..

وأرسى دعائم التوحيد في أرض الشرك والصلال ..

وأقام دولة الإسلام قوية الدعائم راسخة البنيان ..

وأكمل الله تعالى به الدين ، وأتم النعمة ، ورضى لنا الإسلام ديناً ..

وآن للرسول ﷺ أن يلقى ربد .

أقام صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك - بقية رمضان وشوال وذا القعدة سنة ٩ هـ - ثم بعث أبا بكر رضى الله عنه أميراً على الحج ليقيم للناس حجهم ، وأهل الشرك على دينهم ومنازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر في ثلاثمائة من المدينة . وبعث معه صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة قلدها وأشعرها بيده .

ثم نزلت سورة التوبة فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه ، فأرسل بها على بن أبى طالب كرّم الله وجهه على ناقته العضباء ، ليقرأ « التوبة » على الناس ، وينبذ إلى كل ذى عهد عهده .

يقول الله تعالى: ﴿ بَرَاءَةُ مِّنَ اللّه وَرَسُولِهِ إِلَى الّذِينَ عَاهَدَتُم مِّنَ اللّه وَرَسُولِهِ إِلَى الّذِينَ عَاهَدَتُم مِّنَ اللّه الْمُشْرِكِينَ * فَسيحُوا فَى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشَهُر وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجزي اللّه وَأَنَّ اللّه مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ... إلى قوله جَلُّ شأنه: ﴿ إِنّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّه مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصّلاةَ وَآتَى الزّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلّا اللّه مَنْ أَمْلَ بَاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصّلاةَ وَآتَى الزّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلّا اللّه مَنْ أَولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) ... إلى آخر الآيات ..

فلما نقى أبا بكر قال له : « أمير أو مأمور » ؟ فقال على : بل مأمور .

فلما كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فقال : « يا أيها الناس ، لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عربان ، ومن كان له عهد عند رسول الله على فهو إلى مدته » .

وإنما أخر رسول الله على حجد ، وبعث أبا بكر رضى الله عنه ليحج بالناس : لما كانت عليه العرب من الجاهلية الفاسقة ، ولإعلانهم بشركهم فى مشاعر الحج ، وطوافهم بالبيت عراة ، وإنسائهم الذى كان يقع به الحج فى غير ميقاته ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

ثم إنّ الهدنة كانت لا تزال قائمة بين رسول اللّه على وبين قريش وغيرهم من المشركين ، فكان ذلك سبباً في تأخير رسول اللّه على حجه ، حتى نزلت سورة التوبة ، فنبذ إليهم عهدهم ، وأعلمهم أن البيت قد أصبح في حكم دولة التوحيد ، وأصبح الأمر فيه إلى رسول الله على ، وأعلن أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عربان .

⁽١) التوبة : ١ - ١٨

• حجة الوداع:

لما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة ، تجهز رسول الله على للحج ، وأمر الناس بالجهاز له ، وأمرهم أن يلقوه ، فخرج معه من كان حول المدينة وقريباً منها . وخرج المسلمون من القبائل القريبة والبعيدة حتى لقوه في الطريق ، وفي مكة ، وفي منى وعرفات ، وجاء على من اليمن مع أهل اليمن ، وهي حجة الوداع .

فخرج لها لخمس بقين من ذى القعدة ، فمضى رسول الله على وساق معه الهدى . فأرى الناسَ مناسكهم ، وعلمهم سنن حجهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم ويكرر عليهم : « أيها الناس ، خذوا عنى مناسككم ، فلعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا » .

ولما كان - صلى الله عليه وسلم - بمنى ، خطب الناس خطبته التى بيّن فيها ما بيّن .. فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا .

أيها الناس ، إن دما ءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم .

وكل رباً موضوع ، وأول رباً أضعه : ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

وإن كل دم في الجاهلية موضوع ، وأول دم أضعه : دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وإنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا - كتاب الله - وأنتم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون » ؟

قالوا: نشهد أنك بلّغت ، وأديّت ونصحت .

فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : « اللَّهم اشهد » – ثلاث مرات .

وكانت هذه الحجة تسمى « حجة الوداع » لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها ، ولأن المسلمين اجتمعوا له فى الحج ، فقد علمهم صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام ، فى خطبه أيام الحج ، ووادعهم فيها ، إذ كان يكرر القول : « لعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا » .

فلما قضى صلى الله عليه وسلم حجه ، رجع إلى المدينة ، فأقام بقية ذي الحجة والمحرّم وصفر .

ثم ابتدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي مات فيه في آخر صفر سنة ١١ هـ (١).

* * *

• مرضه - صلى الله عليه وسلم - وبعثه أسامة إلى البلقاء:

ولما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة أحد عشرة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد ، وأمره أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة ، وأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون والأنصار .

ثم استبطأ رسول الله على المنبر - وكان المنافقون قد قالوا في وجعد - فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر - وكان المنافقون قد قالوا في إمارة أسامة : أمَّر غلاماً حَدَثاً على جُلَّة المهاجرين والأنصار . فغضب رسول الله على غضباً شديداً ، وخرج عاصباً رأسه - وكان قد بدأ به الوجع - فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلئن طعنتم في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه ، وإيم الله إن كان خليقاً للإمارة ، وأن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى من بعده » . . ثم نزل .

⁽١) انظر : مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب - مرجع سابق - ص ١٨٥ وما بعدها .

وانكمش الناس فى جهازهم ، فاشتد برسول الله الله الله الله الله تبارك بجيشه فعكسر بالجُرف ، وتتام إليه الناس ، فأقاموا لينظروا ما الله تبارك وتعالى قاض فى رسوله الله .

• وعن أسامة قال: « لما ثقل برسول الله ﷺ ، هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم ، وجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ً . . أعرف أنه يدعو لى » (١) .

* *

وعن أبى مويهبة - مولى رسول الله على قال: « بعثنى رسول الله على من جوف الليل فقال: « يا أبا مويهبة ، قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى » . فانطلقت معه ، فلما وقف عليهم قال: « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم ، يتبع أخراها أولاها ، الآخرة شر من الأولى » . . ثم أقبل على فقال: « إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة » ، فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وألجنة ، ثم الجنة . قال : « لا والله ، يا أبا مويهبة ، قد اخترت لقاء ربى والجنة » . ثم أستغفر لأهل البقيع ، ثم أنصرف » (٢) .

فبدأ به وجعه ، فلما استعزّ به ، دعا نساءه فاستأذنهن : أن يُمرِّض في بيت عائشة رضى الله عنها ، فأذن له .

* *

• وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « إنَّ اللّه خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله » .

فبكى أبو بكر ، فتعجبنا لبكائه : أن يُخبر رسول اللَّه ﷺ عن عبد خُيرًا ا

⁽١) رواه ابن إسحاق . (٢) رواه ابن إسحاق .

فكان رسول الله ﷺ هو المخيِّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ من أمَنُ الناس على في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً - غير ربى - لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدٌ ، إلا باب أبي بكر » .

* *

• وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) قال رسول الله ﷺ : « نعبت إلى نفسى ، فإنى مقبوض فى تلك السنة » (٢) .

* *

• وعن العباس رضى الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ وعنده نساءه، فاستترن منى إلا مبمونة ، فقال : « لا يبقى فى البيت أحد شهد الله (٣) إلا لُهُ إلا أن يمينى لم تصب العباس » .

'م قال: « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس » ، فقالت عائشة لحفصة : قولى له . إنّ أبا بكر رجل إذا قام مقامك بكى ، فقال : « مروا أبا بكر ليصل بالناس » ، نقام فصلى ، فوجد النبى ﷺ خفة ، فجاء ، فنكص أبو بكر ، فأراد أن يتأخر ، فجلس إلى جنبه ثم اقترأ (1) .

وفى رواية عند : أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه : « مروا أبا بكر يصلى بالدس » ، فخرج أبو بكر فكبًر ، ووجد النبى ﷺ راحة ، فخرج يهادى بين

⁽١) النصر : ١ (٢) (١) رواه أحمد في المسند (١٨٧٣) .

⁽٣) الله - بفتح اللام وتشديد الدال . العلام باللدود - يفتح اللام ، وهو دواء يُصَب في أحد شقى اللم ، وكان رسول الله على أشار إليهم من أوادو ده أن لا يلدوه ، فظنوا أنه من ضيق المريض بالدواء ، فلدوه على إبائه إياه . (٤) روه أحد نن المسند (١٧٨٤) .

رجلين ، فلما رآه أبو بكر تأخر ، فأشار إليه النبى ﷺ : مكانك ، ثم جلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبى بكر ، فاقترأ من المكان الذى بلغ أبو بكر من السورة (١١) .

وفى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى قال: « اشتد مرض رسول الله ﷺ ، فقال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » قالت عائشة: يا رسول الله ، إنه رجل رقيق ، إذا قام مقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرت عبر ؟ قال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن فليصل بالناس ، فأتاه الرسول فصلى بالناس في حياة النبي ﷺ .

تقول عائشة رضى الله عنها: ووالله ما أقول إلا أنى أحب أن يُصرف ذلك عن أبى بكر، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حَدَث كان، فكنت أحب أن يُصرف ذلك عن أبى بكر.

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كشف رسول الله ﷺ عن الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال: « أيها الناس ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له » .

ثم قال: « ألا إنى نُهيتُ أن أقرأ راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يُستجاب لكم » (٣) .

* *

وفى الصحيح: أن ابن عباس وأبا بكر رضى الله عنهما مراً بمجلس للأنصار، وهم يبكون فقالا: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس رسول الله على منا، فدخل على النبى على فأخبره بذلك، فخرج وقد عصب على رأسه بحاشية بُرد، فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه، ثم

⁽٢) أي تظهرن غير ما تكتمن .

⁽١) رواه أحمد في المسند (١٧٨٥) .

⁽٣) رواه أحمد في المسند (١٩٠٠) .

قال : « أُوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم كرشى وعيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

* *

● وعن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضى الله عنهما: يوم الخميس، وما يوم الخميس ؟! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى ، قلنا : يا أبا العباس، وما يوم الخميس ؟ قال : اشتد برسول الله ﷺ وجعه ، فقال : « اثتونى أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » ، فتنازعوا ، ولا ينبغى عند نبى تنازع ، فقالوا : ما شأنه ؟ أهجر ؟ (١) - قال سفيان : يعنى هذى - استفهموه ، فذهبوا يعيدون عليه فقال : « دعونى ، فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه » ، وأمر بثلاث - قال مرة : أوصى بثلاث - قال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الرفد بنحو ما كنت أجيزهم » - وسكت سعيد عن الثالثة ، فلا أدرى أسكت عنها عمداً أو نسيها - وقال مرة : وإما أن يكون تركها أو نسيها (١) .

وروى أن الوصية التى سكت عنها سعيد بن جبير فى حديث ابن عباس ، إما الوصية بالقرآن ، وإما تجهيز جيش أسامة ، وإما قوله : « لا تتخذوا قبرى وثناً » ، وإما قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .. فقد أوصى صلى الله عليه وسلم بذلك كله فى أحاديث صحيحة .

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما حضر رسول الله ﷺ قال: « ائتونى بكتف أكتب لكم فيه كتاباً لا يختلف منكم رجلان بعدى » ، قال: فأقبل القوم في لغطهم ، فقالت المرأة: ويحكم ، عهد رسول الله ﷺ !! (٣).

* *

 ⁽١) أى اختلف كلامه بسبب المرض ، على سبيل الاستفهام ، أى : هل تغير كلامه لأجل ما به
 من المرض .

⁽٢) رواه أحمد في المسند (١٩٣٥) . ﴿ (٣) رواه أحمد في المسند (٢٦٧٦) .

• وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: أمرنى النبى الله أن آتيه بطبق (١) يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده ، قال: فخشيت أن تفوتنى نفسه ، قال: قلت: إنى أحفظ وأعى ، قال: « أوصى بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم » (٢).

* *

● وعن ابن عباس ، وعن عائشة رضى الله عنهما أنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يلقى خميصة على وجهه ، فلما اغتم رفعناها عنه وهو يقول : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - تقول عائشة : يحذرهم مثل الذي صنعوا (٣) .

كان رسول الله على عانى من المرض أشده ، حتى إن أحد صحابته - رضوان الله عليهم - ليدخل عليه فى مرضه وعليه قطيفة ، فيضع يده فوق القطيفة فيجد فيح الحمّى فيقول : ما أشد حُمَّاك يا رسول الله ا فيقول صلى الله عليه وسلم : « إنّا كذلك يُشدّد علينا البلاء ويُضاعَف لنا الأجر » .

وكان صلى الله عليه وسلم - من شدة ما يجد من الحُمّى - يأمر بالسقاء فيعلق على شجرة ، ثم يضطجع تحته ليقطر الماء على رأسه . كما كما يتقلب على فراشه من شدة المرض ويقول : « إن أشد الناس بلاء الأنبياء » .

ومع هذا ، كان شغله الشاغل أمور السلمين ، فيهتم بإرسال بعث أسامة لحرب الروم ، ويهتم بصلاتهم وإمامة أبى بكر لهم ، ويوصى بإخراج المشركين من جزيرة العرب ، وإجازة الوفد بنحو ما كان يجيزهم ، كما يوصى بالقرآن ، وبالصلاة ، وبالزكاة ، وبما ملكت الأيمان .. ويحذر المسلمين من اتخاذ قبره وثناً .. كل ذلك ليستقيم أمر المسلمين من بعده ، فلا يزيغون أو يضلون ، وحتى تبقى راية التوحيد مرفوعة .

⁽١) الطبق - يفتحتين : عظم رقبق يفصل بين الفقارين ، وكانوا يكتبون على العظام وتحوها .

⁽٢) رواه أحمد في المستد (٦٩٣) . (٣) رواه أحمد في المستد (١٨٨٤) .

• وفاة الرسول على :

قال الزهرى: حدثنى أنس رضى الله عنه قال: «كان يوم الاثنين الذى قُبِض فيه رسول الله على ، خرج إلى الناس ، وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر وفتح الباب ، فخرج رسول الله على فقام على باب عائشة رضى الله عنها ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم - فرحاً به حين رأوه وتفرجوا عنه - فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . قال : وتبسم رسول الله على سروراً ، لما رأى من هيأتهم فى صلاتهم ، وما رؤى أحسن منه هيئة تلك الساعة . قال : ثم رجع ، وانصرف الناس وهم يرون أنه قد أفرق من وجعه ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنّح ، فتوفى رسول الله على حين اشتد الضحى من ذلك اليوم » .

* *

وعن ابن عباس رضى الله عنه: أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه خرج من عند رسول الله عنه فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال الناس: يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله عنه ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئا . قال ابن عباس: فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال: ألا ترى أنت والله ؟ إن رسول الله عنه سيتوفى فى وجعه هذا ، إنى أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله عنه فلنسأله فيمن هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا .

* *

• وعن عائشة رضى الله عنها قالت : فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس – أو كشف ستراً – فإذا الناس يصلون وراء أبى بكر ، فحمد الله على

⁽١) رواه أحمد في المستد (٢٣٧٤) .

ما رأى من حُسن حالهم رجاء أن يخلفه فيهم بالذى رآهم فقال : « يا أيها الناس ، أيا أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بى عن المصيبة التى تصيبه بغيرى ، فإنَّ أحداً من أمتى لن يصاب بمصيبة بعدى أشد عليه من مصيبتى » (١) .

* *

• وعنها رضى الله عنها قالت : إن من نعمة الله على أن رسول الله على توفى في يومى وفي بيتى ، وبين سَحْرى ونَحْرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند الموت .

وفى رواية الأحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : « مات رسول الله عنها بين سَحْرى ونَحْرى وفى دولتى ، ولم أظلم فيه أحداً ، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله على وسادة وقمت أن رسول الله على وسادة وقمت ألدم مع النساء وأضرب وجهى » (٣)

* *

وذكر الواقدى عن شيوخه قالوا : « ولما شك في موت النبي الله فقال بعضهم : لم يت ، وضعت أسماء بنت عميس يدها بين

⁽١) رواه ابن ماجه . (٢) رواه البيهقي . (٣) رواه أحمد في المستد .

كتفى رسول الله على فقالت: قد توفى رسول الله على ، وقد رُفع الخاتم من بين كتفيه ، فكان هذا الذي عُرف به موته » (١١) .

وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم فى ضحى يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافق (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) بعد أن حمل الأمانة وبلغ الرسالة ، ودفن فى يوم الثلاثاء فى الحجرة التى توفى بها فى بيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وله من العمر ٦٣ سنة هجرية وثلاثة أيام (٦١ سنة و ٨٤ يوماً بالتقويم الميلادى) ، وهى الحجرة التى نعرفها اليوم بالروضة الشريفة .

* *

• وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: « لما تُوفَى رسول الله ﷺ قام عمر فقال: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم - والله - ما مات ، ولكنه قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عنهم أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات ، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ بعد حين كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات .

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس - فلم يلتفت إلى شئ ، حتى دخل على رسول الله على في بيت عائشة ، ورسول الله على مُسَجّى في ناحية البيت وعليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذُقْتَها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً .

ثم رد البرد على وجهه وخرج - وعمر يكلم الناس - فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت . فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبلَ على

⁽١) رواه البيهتي في دلائل النبوة .

الناس ، فلما سمع الناس كلام أبى بكر أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله تعالى ، فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْله الرّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أُو قُتلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنقَلَبْ عَلَى عَقبَيْهِ فَلَن يَضُرُّ اللّهَ شَيْئاً ، وسَيَجْزى اللّه الشَّاكرينَ ﴾ (١) .

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبي بكر ، فإنما هي في أفواههم .

قال أبو هريرة : فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعثرتُ حتى وقعتُ إلى الأرض ، ما تحملنى رجلاى ، فاحتملنى رجلان ، وعرفتُ أن رسول الله ﷺ قد مات (٢) .

* *

• وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما اجتمع القوم لغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فى البيت إلا أهله: عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ابن حارثة ، وصالح مولاه .

فلما اجتمعوا ، نادى من وراء الباب أوس بن خولى الأنصارى ، ثم أحد بنى عوف بن الخزرج – وكان بَدْرياً – على بن أبى طالب فقال له : يا على ، نشدتك الله ، وحظنا من رسول الله ﷺ . قال : فقال له على : ادخل ، فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ ، ولم يل من غسله شيئاً .

قال : فأسنده إلى صدره وعليه قميصه ، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه سع على بن أبى طالب ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاهما يصبان الماء ،

⁽١) آل عمران : ١٤٤ (١) ال عمران : ١٤٤

وجعل على يغسله ، ولم يُرَ من رسول الله على شئ مما يُرى من الميت ، وهو يقول : بأبى وأمى ، ما أطيبك حياً وميتاً .

حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله ﷺ ، وكان يُغسَّل بالماء ، والسدر ، جففوه ، ثم صُنِع به ما يُصنع بالميت ، ثم أدرج في ثلاثة أثواب : ثوبين أبيضين ، وبرد حَبَرَه مِ ..

ثم دعا العباس رجلين فقال: ليذهب أحدكما إلى أبى عبيدة بن الجراح - وكان أبو عبيدة يضرح لأهل مكة - وليذهب الآخر إلى أبى طلحة بن سهل الأنصارى - وكان يلحد لأهل المدينة - قال: ثم قال العباس لهما حين سرّحهما: اللهم خرّ لرسولك. قال: فذهب، فلم يجد صاحب أبى عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول الله عليه (١١).

* *

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال فصلوا عليه بغير إمام أرسالاً حتى فرغوا، ثم أدخل النساء فصلين عليه، ثم ادخل الصبيان فصلوا عليه، ثم أدخل العبيد فصلوا عليه أرسالاً، لم يأمهم على رسول الله ﷺ أحد (٢).

• وعن أبى حازم المدنى: أنَّ رسول الله على حين قبضه الله عَزُّ وجَلُ ، دخل المهاجرون فوجاً فوجاً يصلُون عليه ويخرجون ، ثم دخلت الأنصار على مثل ذلك ، ثم دخل أهل المدينة ، حتى إذا فرغت النساء فكان منهن صوت وجزع كبعض ما يكون منهن ، فسمعنا هزة في البيت يعرفنا فسكتن ، فإذا قائل يقول : « إنَّ في الله عزاء من كل هالك ، وعوض عن كل مصيبة ، وخلف من كل فائت ، والمجبور من جبره الثواب ، والمصاب من لم يجبره الثواب » (٣).



⁽١) رواه أحمد في المسند (٢٣٥٧) . (٢) رواه ابن إسحاق .

⁽٣) البداية والنهاية : ٢٧٧/٥

• وعن ابن جريج - عبد الملك بن عبد العزيز - قال : أخبرنى أبى : أن أصحاب النبى الله الله على لم يدروا أين يقبرون النبى الله على الله على يقول : « لن يُقبر نبى إلا حيث يموت » ، فأخروا فرشه وحفروا له تحت فراشه (١) .

* *

- وعن أنس رضى الله عنه قال: لما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله الله المدينة أضاء منها كل شئ ، المدينة أضاء منها كل شئ ، قال: وما نفضنا عن رسول الله الله الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا (٢).
- وعند رضى الله عند قال: لما ثقل النبى على جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت : « وا أبتاه ، أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ، في جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه » .

فلما دُفِن ، قالت : « يا أنس ، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب » ؟! (٣) .

وكان ثابت البناني - رضى الله عنه - إذا حدَّث بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه.

* *

• وعن أنس رضى الله عنه أيضاً قال : ذهب رسول الله ﷺ إلى أم أيمن زائراً ، وذهبتُ معه ، فقريت إليه شراباً ، فإما كان صائماً ، وإما كان لا يريده فرده ، فأقبلت على رسول الله ﷺ تضاحكه .

⁽١) رواه أحمد في المسند (٢٧) .

⁽٢) رواه أحمد والترمذي وإبن ماجه ، وقال الترمذي : حديث صحبح غريب .

⁽٣) رواه البخاري .

فقال أبو بكر بعد وفاة النبى ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله . قالت : والله ما أبكى أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ، ولكن أبكى أن الوحى انقطع من السماء .

فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان (٢).

* *

 ولم يترك صلى الله عليه وسلم دينارأ ولا درهما ، بل مات وكانت درعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير ، أخذها صلى الله عليه وسلم رزقاً لعياله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي الله التفت إلى « أحد » فقال : « والذى نفس محمد بيده ، ما يسرنى أن « أُحُداً » يحول لآل محمد ذهبا أنفقه في سبيل الله ، أموت يوم أموت أدع منه دينارين ، إلا دينارين أعدهما لدّين إن كان » .

فمات صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا وليدة ، وترك درعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير (١) .

صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليك يا سيدى يا رسول الله ، ما أطيبك حياً ، وما أطيبك ميتاً .

⁽١) رواه البيهقي . (٢) دواه أحمد في المسند (٢٧٢٤) .

حلاوة الإيسان

• محبة الرسول على وتوقيره من تمام الإيمان:

للإيمان طعم .. ولهذا الطعم حلاوة .

هذا الطعم وهذه الحلاوة لا يذوقهما إلا مَن عرفهما ، وهو مَن رضى باللَّه تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ذلك هو المؤمن - وإن وقع في الذنوب وسقط في المعاصى - إذ معنى : « رضيتُ بالشيعُ » : أننى قنعتُ به ، واكتفيتُ به ، ولم أطلب معه غيره .

فمن لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد على .. من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه .

عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ذاق طعم الإيمان من رضى الله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبحمد رسولاً ، (١) .

يقول القاضى عياض: « معنى هذا الحديث: صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه .. لأن من رضى أمراً سهل عليه ، فكذا المؤمن ، إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذّت له » (٢) .

⁽١) رواه مسلم .

⁽۲) صحیح مسلم بشرح النووی ، طبع دار الشعب : ۲.۸/۱

وعن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله على قال : « ثلاث مَن كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار » (١) .

ولا تصح المحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ حقيقة ، وحب الآدمى فى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكراهة الرجوع إلى الكفر ، إلا لمن قوى بالإيمان يقينه ، والمأنت به نفسه ، وانشرح له صدره ، وخالط لحمه ودمه .. وهذا هو الذى وجد حلاوة الإيمان .

يقول القاضى عياض: « والحب فى الله ، من ثمرات حب الله .. قال بعضهم : المحبة مواطأة القلب على ما يرضى الرب سبحانه ، فيحب ما أحبه ويكره ما كره ، واختلفت عبارات المتكلمين فى هذا الباب بما لا يؤول إلى اختلاف إلا فى اللفظ » .

وبالجملة : أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب ، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه : كحسن الصورة ، والصوت ، والطعام ... ونحوها .

وقد يستلذه بعقله للمعانى الباطنة ، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقاً.

وقد يكون لإحسانه إليه ودفعه المضار والمكاره عنه.

وهذه المعانى كلها ، موجودة فى النبى الله ، لما جمع من جمال الظاهر والباطن ، وكمال خلال الجمال وأنواع الفضائل ، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ، ودوام النعم والإبعاد من الجحيم .

وقد أشار بعضهم إلى أنَّ هذا مُتصور في حق الله تعالى ، فإن الخير كله منه سبحانه وتعالى .. قال مالك وغيره : المحبة في الله من واجبات الإسلام » (٢) .

⁽١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

⁽٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢١٧/١ ، ٢١٨

إذن .. فمعنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات ، وتحمل المشقات فى رضا الله عَزَّ وجَلَّ ورسوله عَنَّ ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا .. ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعاته ، وترك مخالفته . وكذلك تكون محبة رسوله على .

والمحبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- محبة اجلال وإعظام .. كمحبة الوالد .
- ومحبة شفقة ورحمة .. كمحبة الولد .
- ومحبة مشاكلة واستحسان .. كمحبة سائر الناس .

وقد جمع الرسول الله على أصناف المحبة فى محبته ، يقول ابن بطال : « إنَّ مَن استكمل الإيمان ، علم أن حق النبى ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ، لأن به صلى الله عليه وسلم استُنقذنا من النار ، وهُدينا من الضلال » .

ويقول القاضى عياض: « من محبته صلى الله عليه وسلم: نصرة سننته ، والذب عن شريعته ، وتمنى حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه ، وإذا تبين ما ذكرنا ، تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق الملاء قدر النبى على ومنزلته على كل والد وولد ، ومحسن ومفضل .. ومن لم يعتقد هذا واعتقد بسواه ، فليس بجؤمن » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) .

وفي رواية : « ... حتى أكون أحبُّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

يقول الخطابى: «لم يرد به حب الطبع ، بل أراد به حب الاختيار .. لأن حب الإنسان لنفسه طبع ، ولا سبيل إلى قلبه .. فمعناه : لا تصدق فى حبى حتى تفنى فى طاعتى نفسك ، وتؤثر رضاى على هواك وإن كان فيه هلاكك » .

⁽١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

والإيمان بالرسول على أيحرَّم صاحبه على النار ..

عن أنس رضى الله عنه قال: إنَّ النبى الله عنه على الرحل - قال ثلاثاً: « يا معاذ » .. ويجيبه معاذ رضى الله عنه: لبيك يارسول الله وسعديك . وفي الثالثة يقول صلى الله عليه وسلم: « ما من عبد يشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسوله ، إلا حرَّمه الله على النار » . قال: يا رسول الله ، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال: « إذن يتكلوا » .. فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً (١) .

وكما يحرِّم الإيمان بالرسول الله على صاحبه على النار ، فإن عدم الإيمان به يوجب لصاحبه النار ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن الرسول الله أنه قال: « والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة - يهودى أو نصرانى - ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » (٢).

يقول النووى: « فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وفي مفهومه دلالة على أنَّ من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور ، وهذا جار على ما تقدَّم في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح ، والله أعلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم: « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة » ، أى ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته .. وإنما ذكر اليهودى والنصرانى تنبيها على من سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا ، فغيرهم من لا كتاب له أولى ، والله أعلم » (٣) .

⁽١) رواه مسلم . (٢) رواه مسلم .

⁽٣) صحيح مسلم بشرح النووى: ٣٦٩/١

والناس عادة لا يحبون ما جهلوا ، ولا يرضون إلا بما عرفوا .. حتى لقد قيل إنَّ : « الناس أعداء لما جهلوا » ، ولهذا لم ير أبو جهل وأضرابه في الرسول ﷺ إلا « يتيم بنى هاشم » !!

ومن هنا كانت معرفة الرسول ﷺ - بلا غلو ولا مغالاة - من ألزم الأمور للرضا والحب ، وبدونهما لا يتم إيمان المؤمن .

ونقصد بعدم الغلو أو المغالاة : ألا نغلو مع الغالين فنقول قولة أبى جهل : « ما هو إلا يتيم بنى هاشم » !!

ولا نغالى مع المغالين فنقول قولة محيى الدين بن عربى : « المهاجر من مكة إلى المدينة كان الله ، وما كان معه أحد ثان »!!

إنما نقول من منطلق الحب والرضا ، النابعين عن المعرفة الحقيقية : « إنه - صلى الله عليه وسلم - عبد الله ورسوله ، أرسله تعالى رحمة للعالمين ، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم » .

* *

وتعظيم الرسول على وتوقيره أول ثمرة للمعرفة والحب .. وقد أمرنا الله تعالى بهما وفرضهما على المؤمنين بالله ورسوله .. يقول جَلِّ شأنه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهدا وَمُبَشَرًا وَنَذيرا * لَتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزَّرُوهُ وَتُوقَرُّوهُ وَتُوقَرُوهُ وَتُوقَرُّوهُ وَيُوقِعُونُ فَي وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ ولَا الللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَ

يقول القرطبى: « قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أُرْسَلْنَاكَ شَاهِدا ۗ ﴾ قال قتادة: على أمتك بالبلاغ. وقيل: شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية. وقيل: مبينا لهم ما أرسلناك به إليهم. وقيل: شاهدا عليهم يوم القيامة، فهو صلى الله عليه وسلم – شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة،

⁽١) الفتح : ٨ - ٩

﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ لمن أطاعه بالجنة ، ﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار لمن عصى .. قاله قتادة وغيره .

وانتصب : ﴿ شَاهِدا ۗ وَمُبَشِّرا ۗ وَنَذيرا ۗ ﴾ على الحال المقدَّرة ، فالمعنى : إنَّا أرسلناك مقدَّرين بشهادَتك يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتُوَمْنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أى تعظموه وتفخموه - قاله الحسن والكلبي - والتعزيز : التعظيم والتوقير .

وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه ، ومنه « التعزير في الحد » لأنه مانع . وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه .

وقوله جلُّ شأنه : ﴿ وَتُوقِّرُوهُ ﴾ أى تسوِّدوه - قاله السدى ، وقيل : تعظموه . والتوقير : التقدير والتزين أيضاً ، والهاء فيهما للنبى ﷺ ، وهنا وقف عام ، ثم تبتدئ : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أى تسبحوا الله ﴿ بُكْرَةً وَأُصِيلاً ﴾ : أى غدوة وعشياً » (١) .

فاللهم ربنا وإلهنا ومليكنا: ثبتنا برحمتك على محبتك ومحبة رسولك ، والرضا بك وبرسولك ، وثبتنا على تعظيمه – صلى الله عليه وسلم – وتوقيره . فإننا قد رضينا بك ربأ ، وبالإسلام ديناً ، و بمحمد على نبياً ورسولاً .

اللَّهم فاجعله دائماً أحب إلينا من آبائنا وأولادنا وأموالنا ، ومن الناس أجمعين .. آمين .. آمين .

⁽١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، مرجع سابق .

بقيت كلمة .. ولا أدرى لماذا أخذت تلح نى الإفصاح عنها بعد أن طويتها نى صدرى أعواماً طويلة ..

فمنذ ما يقرب من العشرين عاماً ، رأيتُ - فيما يرى النائم - كأننى أقف في مسجد رسول الله على ، ولم يكن العهد به كما هو عليه اليوم ، بل كان على حالته في عهده الأول ، مسجد متواضع ، مبنى بالطوب اللبن مدعم بجريد النخيل ، لا سقف له يقيه برد الشتاء أو حر الصيف ، والرمال والحصباء تفترش أرضه .. هكذا رأيت المسجد !!

وإذا بسيدنا رسول الله ﷺ يؤم المصلين ، وكان موقعى فى الصف الثانى من المصلين ، ووقع فى خلدى أن رجلاً يقف خلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول مباشرة يبغى بالرسول ﷺ شرأ .

وركزت انتباهى كله نحو الرجل ، عازماً على الحيلولة بينه وبين الشر الذى يبغيه للرسول الله على .

وإذا بسيدنا رسول الله على يستدير نحو الصفوف ، ثم يفسح الصف الأول بيديه ، ويضع يده الشريفة على كتفى الأين مقدَّماً إياى إلى الصف الذى يليه في مكان ذلك الرجل الذى أثار شكوكى ، بينما أزاحه إلى الموضع الذى كنت أقف فيه بالصف الثانى .. وصليتُ خلف سيدنا رسول الله على في مكانى الجديد بالصف الأول .

ولا تسل عما كنت عليه عندما أفقت من نومى ، فقد كانت تنتابنى أجمل الأحاسيس وأرق المشاعر بعد أن ملأت قلبى الغبطة والسكينة وغمرت روحى السعادة ، وأحسست - وأنا فى وعيى ويقظتى - كأنما أسبح فى الهواء ولا أمشى على الأرض .

وعرضت رؤياى على رجل فاضل - الشيخ حسن زيدان رحمه الله - فأولها بأن الله تعالى سوف ييسر لى القيام بعمل أخدم به سُنّة رسول الله تله ، وأن قوى الشر والنفاق سوف تندحر أمام ذلك العمل الذى سوف ييسرنى الله له .

وتساءلت عن كُنْه ذلك العمل ، فبشرنى بأننى سوف أقوم بوضع كتاب يخدم السُنَّة ويقضى على البدعة .. ولم أكن فى ذلك الحين قد اتجهت إلى الكتابة ، بل كان كل جهدى قاصراً على التحقيق والتصحيح لبعض دور النشر التى كنت أتعامل معها ، ولم يكن الأمر يعدو – فى بعض الأحيان – كتابة تعليق أراه ضرورياً ، أو إضافة حاشبة أجدها لازمة ، أو شرح لبعض الألفاظ أو المعانى التى ترد فى تلك المصنفات مما يجب شرحه ويستلزم بيان معناه .

وتعجبتُ لهذه البُشرى ١١ فمن أكون أنا حتى أكتب فيما يخدم السُنَّة ويقضى على البدعة .. إن شأنى - عند نفسى - لأضأل من هذا العمل بكثير ١١

ولكن الشيخ رحمه الله أصر على تأويله لرؤياى بقوله : سوف ترى .

ومرت أعرام تلتها أعوام ، حتى كان عام ١٩٨٤ عندما وجدت الله تعالى يوفقنى لوضع كتاب « من وصايا القرآن الكريم » (١) ، استلهمت فيه وصايا لقمان الحكيم كما جاء بها القرآن العزيز ، وتحدثت فيه عن : الحكيم والحكمة وأولى الوصايا : توحيد الألوهية – البر بالوالدين – المرجع إلى الله – عالم الغيب والشهادة – الصلاة والزكاة وأحكامهما – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – الصبر على المكاره والطاعات – الكبر والاختيال – التواضع من صفات الرسل .. وتحدثت في الفصل الأخير منه عن القدوة العليا في حياة الرسول على كما عرضت لجوانب من أخلاقه صلى الله عليه وسلم فتحدثت عن حلمه ، وشفقته ، وحياؤه ، وجوده ، وكرمه ، وصبره ، وشكره ، واجتهاده ، وورعه ، وتوكله ، وخونه ، وشجاعته ، وبركاته – عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وظننت وقتها - أن هذا الكتاب هو العمل الموعود ، خاصة وأنه قد لاقى نجاحاً فوق ما كنت أتصور ، فبرغم ضخامة عدد صفحاته التى زادت على الد (٨٦٤ صفحة) ، وبرغم أنه كان لكاتب غير معروف في سوق الكتب وقت

⁽١) قامت بنشره دار التراث العربي عام ١٩٨٤ ويلغت صفحاته (٨٦٤ صفحة) .

إصداره و فقد نفدت طبعته الأولى فى أقل من عام ، بل وقامت إحدى دور النشر فى لبنان بتزويره (١) ، ثم أعيد طبعه (٢) بعد زيادات وإضافات وتنويهات فى عام ١٩٨٧ .. كل ذلك بفضل الله وحده ..

ثم رأيتُ الله تعالى عن على مرة أخرى بوضع كتاب : « ألله توحيد .. وليس وحدة » (٣) ، وتحدثت فيه عن عقيدة التوحيد عند أهل السنّة ، مقابلاً بها عقيدة وحدة الوجود عند متفلسفة الصوفية ، وكانت فصوله تتحدث عن ماهية التصوف الإسلامي - نشأة التصوف وتطوره - القول بوحدة الوجود - مذهب الصوفية في التفسير الباطني للقرآن الكريم - موقف الصوفية من الوحي والنبوة - ما هي الولاية والمعجزة والكرامة - ادعاء العلم بالغيب وانكشاف الحُبُب - تغظيم القبور وتقديس المقبورين - نظرات في مسألة التوسل والوسيلة - حلقات للذكر أم حفلات للزار - كما تحدثت عن الضلالات والانحرافات التي شابت التصوف الإسلامي في عصوره المتأخره - وناديتُ بالكلمة السواء التي دعانا اليها الله تعالى : ألّا نعبد إلّا الله وحده ، وأن لا نشرك به شيئاً إلخ .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦ ، ومرة أخرى ظننت أن هذا هو العمل الموعود .

وفى عام ١٩٨٦ قرأت فى إحدى الصحف اليومية (٤) التى تصدر فى القاهرة مقالين يتهجم فيهما كاتبهما على السنّة النبوية الشريفة ، وينفى وجود معجزات حسيّة للرسول الله ﷺ ، وأن معجزته الوحيدة كانت هى القرآن الكريم ، نافياً كل ما جاء فى كتب السيرة من معجزات حسيّة أوتيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١) .

⁽١) قامت بتزويره دار الندوة بلبنان عام ١٩٨٥

⁽٢) وقامت بنشره دار التراث العربي ، وبلغت صفحاته (٨٩٦ صفحة) .

⁽٣) قامت بنشره مكتبة وهبة عام ١٩٨٦ وبلغت صفحاته (٤.٥ صفحة).

⁽٤) جريدة الجمهورية القاهرية - العدد (١١٥٩٥) في ١٩٨٥/٩/٢٨ ، والعدد (١١٨.٨) في ١٩٨٦/٤/٢٧

أحسستُ فور إطلاعى على هذين المقالين بالضيق والغيظ يملّن جوانحى ، أهكذا تُهاجَم سيرة رسول الله على وتُلغَى من صفحات التاريخ أمجاد وأمجاد ، تواتر على ذكرها أجيال وأجيال ؟!

وباذا ؟ بمقالة أو مقالتين تظهران في إحدى الصحف اليومية ؟!

أيكون الرسول الله ﷺ أقل شأناً من إخوانه الرسل الذين أتى الله تعالى على أيديهم بالمعجزات الحسيّة ؟!

وكيف يجرؤ كاتب يدين بالإسلام على هذا الادعاء الكبير وأن يقدم على هذا الادعاء الكبير ؟! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا !!

وأريتُ إلى فراشى والأسى بأخذ بخناقى ، ويكتم أنفاسى فلا شك أن هذه مقدمة لها ما بعدها ، ولا شك أن السُنَّة كلها مستهدفة من وراء هذه المقدمة الخطيرة ..

وفى تلك الليلة - التى لا أنساها ما حييت - رأيت فيما يرى النائم كأننى أقف إلى جوار ضريح سيد الشهداء الحسين بن على رضى الله عنهما وسبط رسول الله ﷺ.

ورأيت سيدنا رسول الله على يقف إلى جهة القبلة إلى جوار الضريح ، كأنما هو خارج منه .. ولكن يالروعة ما رأيت .. لقد كان صلى الله عليه وسلم يملأ بقامته المديدة فراغ المسجد كله ، حتى لقد تقاصرت قبة المسجد عن قامته .. ولم أر منه صلى الله عليه وسلم سوى قدميه الشريفتين ، ورأيتنى مكبأ عليهما مُقَبَّلاً إياهما والبكاء يغلب على ، لا أردد سوى عبارة واحدة هى : يا رسول الله .. يا رسول الله . بينما البكاء والنحيب يأخذان بخناقى ، وقبلاتى لقدميه الشريفتين تتوالى وتتوالى ، حتى أفقت من نومى وأنا على هذه الحال .

هنا رأيت البُشرى واضحة جلية ، فإن قامة رسول الله على تتقاصر عن الوصول اليها هامة أعظم الرجال . . ومكانته صلى الله عليه وسلم عند الله وعند الناس أكبر من أن يحط من شأنها مخلوق . . وسنته صلى الله عليه وسلم أرسخ من أن يهزها حاقد ، أو يزعزعها موتور ، أو يُهوزن من شأنها قصير نظر .

ووجدتُ اللّه تعالى يشرح صدرى للكتابة فى هذا الموضوع: المعجزات الحسية للرسول على - فشرعتُ فى الكتابة منذ أكثر من أربعة أعوام، إلا أن ظروفاً طرأت على وأخذت كل وقتى وجهدى حتى أنستنى ما شرعتُ فيد، خاصة حين فقدتُ الصفحات التى سطرتها فى شأنه !!

إلى أن كان ذلك اليوم من عام ١٩٩١ ، عندما عثرت - عن طريق الصدفة وحدها - على تلك الصفحات المفقودة ، وفي مكان عاودت فيه البحث والتنقيب أكثر من مرة !!

وكان التيسير من الله تعالى لأداء هذا العمل المتراضع ، فقد وجدت المراجع تتسابق بين يدى لكى أنهل منها ما يشاءه الله تعالى . . ووجدت الصورة تتضح أمامى كاملة ، وإذا بى أجد العمل فى الكتاب مبسراً بفضل الله وتوفيقه . .

وكان هذا الكتاب .. تحية متواضعة ، أضعها عند قدمى سيدنا رسول الله على ، عسى أن تنال بعض رضاه ، وأن أنال بها شفاعته يوم لا شفيع سواه ..

والله تعالى أسأل أن يتقبل عملى هذا ، وأن يجعله في الميزان : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويا سيدى يا رسول الله .. تقبل بكرمك وفضلك عملى هذا المسرف فى التواضع ، ولا تردنى عن بابك خائباً .. وعسى أن يكون كتابى هذا هو البُشرى التى بشرتنى بها منذ أكثر من عشرين عاماً .. عليك يا سيدى صلوات الله وسلامه ، ورحمته وبركاته ، يا من قلت وقولك الصدق : « إنما أنا رحمة مهداة » .. رحمنا الله بك ، وأدخلنا فى حظيرة قربه ورضاه .

هذه هى الكلمة التى رأيت أن أضمنها خاتمة لكتابى ، والتى لا أدرى لماذا أخذت تلح فى الإفصاح عنها بعد أن طويتها فى صدرى أعواماً طويلة .. وعلى الله قصد السبيل .

ورحم الله أمير الشعراء شوقى حيث يقول في نهج البردة:

يَارَبُّ صَلَّ وَسَلَّم مَا أُردُتَ عَلَى مُحْيِسَى اللَّيَالِي صَلَّةً ، لا يُقطَّعُهَا مُسَبِّحًا لَكَ جَنْسَحَ اللَّيْلِ ، مُحْتَمِلاً مُسَبِّحًا لَكَ جَنْسَحَ اللَّيْلِ ، مُحْتَمِلاً مُسَبِّحًا لَكَ جَنْسَحَ اللَّيْلِ ، مُحْتَمِلاً وَصَلَّ رَفِيسَةً نَفْسُهُ ، لا تَشْتَكِي سَأَما وَصَلَّ رَبِّسَى عَلَىسَى اللَّهُ نُخَبِ بِيضُ الوُجُسوهِ ، وَوَجْدُ الدَّهْرِ ذُو حَلَكِ بِيضُ الوُجُسوهِ ، وَوَجْدُ الدَّهْرِ ذُو حَلَكِ بِيضُ الوُجُسوهِ ، وَوَجْدُ الدَّهْرِ ذُو حَلَكِ السَّلِي الوَّالِي اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الل

نويسل عرشك خيس الرسل كلهم الا بدمسع مسن الإشفاق منسجم ضراً من السهد ، أو ضراً من الورم وما مسع الحسب إن أخلصت من سأم جعلت فيهم لواء البيت والحرم (١) بشم الاثون ، وأنف الحادثات حيى (١) في الصحب ، صحبته مرعية الحرم ما هال من جلل ، واشتد من عمم (٣) ما هال من جلل ، واشتد من عمم (٣) الضاحكين إلى الأخطار والقحم (٤) واستيقظت أمسم مسن رقسدة العدم المسترة بوجهسك مسن قاص ومن نقم ولا تسرة ومن نقم ولا تسرة وقمت خسن مختتم ولا تسرة الفضل ، وامنح خسن مختتم

⁽١) النخب : جمع نخبة ، وهو الرجل المختار .

 ⁽٢) الحلك - محركة: شدة السواد، والشمم في الأنف: ارتفاع القصبة وحسنها، وهو هنا
 كناية عن الحمية وشرف النفس، وأنف الحادثات حمى: كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر.

 ⁽٣) هالد الأمر هولاً: أفزعه ، والجلل هنا : الأمر العظيم ، والعمم : التام العام من كل أمر ،
 يقال : أمر عمم ، أى تام كامل .

⁽٤) التُّحَم : جمع تُحدة - بالضم ، ومن معانيها : الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد ، وهو المراد هنا .

﴿ رَبُّنَا لا تُؤَاخِذُنَا إِن نُسينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبُّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبُّنَا وَلا تُحَمَّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُرُ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبُّنَا لَا تُزِغُ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّ اللّهَ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبُّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْم لِلا رَبْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللّهَ لا يُخْلفُ الْميعَادَ ﴾ (٢) .

﴿ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبُّنَا إِنَّكَ مَن

تُدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أُخْزَيْتَهُ ، وَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمَعْنَا
مُنَادَياً يُنَادى للإيمَانِ أَنْ آمنُواْ بربَّكُمْ فَآمَنًا ، رَبَّنَا فَاغُفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وكَفُرْ

عَنَّا سَيِّمَاتَنَا وَتَوفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبُّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدَّتُنَا عَلَى رُسُلِكَ

وَلا تُخْذُنَا يَوْمَ الْقيَامَة ، إِنَّكَ لا تُخْلَفُ الْميعَادَ ﴾ (٣).

⁽١) البقرة : ٢٨٦ (٢) آل عبران : ٨ - ٩ (٣) آل عبران : ١٩١ - ١٩٤

أهم المراجع

- ۱ إثبات نبوة النبى لأبى الحسن الهارونى الزيدى نشر دار التراث العربى .
 - ٢ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير نشر دار الشعب .
 - ٣ إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى نشر دار التراث العربي .
- ٤ الإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام نشر دار التراث العربي .
- ٥ الله .. توحيد وليس وحدة .. للأستاذ محمد الأنور أحمد البلتاجي نشر مكتبة وهبة .
 - ٦ البداية والنهاية لابن كثير نشر مكتبة المعارف ببيروت .
 - ٧ تفسير القرآن العظيم لابن كثير نشر دار الشعب .
 - ٨ تلبيس إبليس لابن الجوزى نشر المؤسسة السعودية المصرية .
- ٩ الجامع الصحيح للترمذي نشر دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت .
 - .١ الجامع الصحيح للإمام مسلم نشر دار التحرير بالقاهرة .
 - ١١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي نشر دار الشعب .
 - ١٢ حياة الصحابة للكاندهلوى نشر دار التراث العربي .
 - ١٣ حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل نشر دار المعارف .
- ١٤ الرحيق المختوم للشيخ صفى الدين المباركفورى نشر دار النشر
 للثقافة والعلوم الإسلامية .

- ١٥ الرسالة القشيرية للقشيرى مطبعة التقدم العلمية .
- ١٦ الرصف لما روى عن النبى الله من الفعل والوصف لمحمد بن
 عبد الله العاقولي نشر مكتبة الترعية الإسلامية .
- ۱۷ زاد المعاد في هَدْي خير العباد لابن القيم نشر المطبعة المصرية ومكتبتها .
 - ١٨ سنن أبي داود ، نشر شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
 - ١٩ السيرة النبوية لابن هشام نشر دار التراث العربي .
- . ٢ الشوقيات الأمير الشعراء أحمد شوقى نشر دار الفكر العربى ببيروت .
 - ٢١ صحيح البخاري للإمام البخاري نشر دار الشعب .
 - ۲۲ صحيح مسلم بشرح النووى نشر دار الشعب .
 - ٢٣ الطبقات الكبرى لابن سعد نشر دار التحرير بالقاهرة .
 - ۲۲ فتح الباري بشرح صحبح البخاري للنووي نشر دار الريان للتراث .
 - ٢٥ فقد السيرة للشيخ محمد الغزالي نشر دار الكتب الإسلامية .
 - ٢٦ في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب نشر دار الشروق .
 - ٢٧ القرآن الكريم.
 - ٢٨ الكتاب المقدس نشر دار الكتاب المقدس بالقاهرة .
 - ٢٩ لسان العرب لابن منظور نشر دار المعارف ،
- . ٣ محاضرات في مقارنة الأديان للأستاذ إبراهيم خليل أحمد نشر دار المنار .
- ۳۱ مختصر تفسير ابن كثير اختصار وتعليق الشيخ محمد كريم راجح نشر دار المعرفة ببيروت .

۳۲ - مختصر تفسير الطبرى - اختصار وتعليق الشيخ محمد على الصابونى ، والدكتور صالح أحمد رضا - نشر دار التراث العربى .

٣٣ - مختصر سيرة الرسول - للإمام محمد بن عبد الوهاب - نشر مكتبة السنَّة المحمدية .

٣٤ - المسند - للإمام أحمد بن حنبل - نشر دار التراث الإسلامي .

٣٥ - المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم - للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى
 - نشر دار الشعب .

٣٦ - من وصايا القرآن الكريم - للأستاذ محمد الأنور أحمد البلتاجي - نشر دار التراث العربي .

٣٧ - الوحى والقرآن الكريم - للشيخ محمد الذهبي - نشر مكتبة وهبة .

٣٨ - وضح النهج - للشيخ سليم البشرى - على نهج البردة نظم أمير
 الشعراء أحمد شوقى - نشر مكتبة الملك فيصل الإسلامية .

.... وهناك مراجع أخرى أوردناها بالهوامش ولم نوردها هنا خوف الإطالة .

محتريات الكتاب

الصفحة	•
٥	من البردة المباركة
٧	المقدمة
	الفصل الأول: ما قبل البعثة
	(1YY - 1Y)
۱۸	نسبه - صلى الله عليه وسلم
44	ابن الذبيحين
٤٨	الزواج المبارك (عبد الله وآمنة)
١٥	مولد الهادي
٥٤	قصة أصحاب الفيل
٦.	إرهاصات وبشريات
٨.	استرضاعه - صلى الله عليه وسلم - في بني سعد
٨٥	اليتيم العظيم
۸۸	الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كفالة عمه
47	بشريات بالنبرة
١	الكهان ، والأحبار ، والرهبان – يبشرون بنبوته
	الفصل الثاني: النبوة الخاتمة
	(YEO - YYA)
١٢٨	حالة العرب وقت الرسالة
188	كيف نشأت عبادة الأصنام

·	
••••••	عندما سطعت شمس الرسالة
	قريش تبالغ في أذى رسول الله ﷺ
	ذكر الإسراء والمعراج
	الهجرة المباركة
، في المدينة	الفصل الثالث : الرسول
(٣	169 - 167)
	إيذاء اليهود لرسول الله ﷺ
	عبد الله بن أبَّى رأس المنافقين
•••••	حوليات الإسلام في المدينة
	غزوات الرسول ﷺ
	- غزوة بدر الكبرى
	- غزوة أحد
	- غزوة الخندق
	- صلح الحديبية
	- غزوة الفتح
• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	– غزوة تبوك
	بعوث رسول الله ﷺ
	توافد الوفود على الرسول ﷺ
	أزواجه صلى الله عليه وسلم
	٥٧٢

الصفحة	
۳۱٤	أولاده ويناته صلى الله عليه وسلم
٣١٦	صور من داخل البيت النبوى الكريم
	الفصل الرابع: صاحب المعجزات الباهرة
	(£AT - TO.)
٣٥.	المعجزة والكرامة
401	المعجزة الكبرى: « القرآن الكريم »
444	الإخبار بالمغيبات قبل وقوعها
٤.٦	المعجزات الحسية للرسل عليهم السلام
٤.٦	- معجزة صالح عليه السلام
٤١٤	– معجزة موسى عليه السلام
٤١٧	- معجزة المسيح عليه السلام
٤١٨	المعجزات الحسية للرسول ﷺ
٤١١	- انشقاق القمر
٤٢١	– حيس الشمس
277	- نبع الماء وتكثيره
٤٢٧	– تكثير الطعام ببركته
٤٣٧	- كلام الشجر ، وكثير من الجمادات وشهادتها له بالنبوة
££o	- كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم له
£0Y	- إحياء الموتى وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة

الصفحة	
٤٥٥	- إبراؤه - صلى الله عليه وسلم - المرضى وذوى العاهات
٤٥٧	- جُمَلٌ من بركاته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم
٤٦١	- استجابة الله لدعانه صلى الله عليه وسلم
٤٦٤	- معجزات للرسول ﷺ في الهجرة
٤٦٧	- معجزات أخرى للرسول ﷺ في بعض غزواته
٤٦٧	۱ – نزول الملائكة يوم بدر
£Y.	٢ – يوم أحد
٤٧١	٣ - يوم الخندق (الأحزاب)
٤٧٤	٤ – يوم حنين (هوازن)
٤٧٦	٥ - غزوة نجد (ذات الرقاع)
٤٧٦	عصمة الله له عن أراد كيده
	الفصل الخامس : صاحب الأخلاق العظيمة
	(0TV - £A£)
£AY	الإنسان الكامل
247	من تواضع النبي ﷺ
٥١١	من حلم النبي ﷺ
٥١٧	من كظمه – صلى الله عليه وسلم – للغيظ
0 7 0	من حياء النبي ﷺ
٨٢٥	ىن صبره صلى الله عليه وسلم

الصفحة	
٥٣١	من أوصافه الشريفة صلى الله عليه وسلم
٥٣٦	من خصائصه صلى الله عليه وسلم
	الفصل السادس: خاقة المطاف
	(00E - 0TA)
٥Ĺ.	حجة الوداع
0 £ 1	مرضه - صلى الله عليه وسلم - وبعثه أسامة إلى البلقاء
٥٤٧	وفاة الرسول ﷺ ـ
000	الخاتمة : حلاوة الإيمان
000	محبة الرسول ﷺ وتوقيره من تمام الإيمان
٨٢٥	أهم المراجع
٥٧١	محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ٩٣ / ٨ . ٤٦ 1.S.B.N : 977 - 225 - 033 - 0





